تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء التاسع

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة **لدار إحياء التراث العربي** بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزءاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright @

All rights reserved

All rights of this publication are reserved exclusively to **DAR EHIA AL -TOURATH AL-ARABI** Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, photocopied, photagraphed, taped on audio cassettes, or stored in a data base or saved on a retrievable system distributed in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة في باكستان للمكتبة الحقانية

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 220493/091 ـ موبيل: 5902280/0300 ـ باكستان

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 7957/11 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 ـ 544440 فاكس: 850717

سورة الحجرات

آياتها ثماني عشرة آيةً وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ
بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

روى البخاري وغيره من طريق ابن جريج عن أبي مليكة أن عبد اللّه بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمّر الأقرع بن الحابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ الآية، قرأ يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والدال من التقدم بحذف إحدى التائين والجمهور بضم التاء وكسر الدال من التقديم، قال البغوي هو أيضاً لازم بمعنى التقديم مثل بين وتبين وقيل إنه متعد والمفعول محذوف ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن أن لا تقدموا قولاً ولا فعلاً أو متروك، ونزل الفعل منزلة اللازم يعني لا يصدر منكم التقديم ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بين يدي مستعارة مما بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه ففيه تمثيل للتقدم الزماني بالتقدم المكاني والمعنى لا تقولوا قولاً ولا تفعلوا شيئاً قبل أن يحكمانه، قال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين لا تقضوا أمراً

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي (٤٣٦٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٦٦).

دون الله ورسوله، قال أبو عبيدة يقول العرب لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجل بالأمر والنهر والنهي دونه، قيل المراد بين يدي رسول الله وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأن التقديم على رسول الله كان تقديم على الله تعالى، فإنه من الله بمكان يوجب إجلاله إجلالاً به وسوء الأدب به سوء أدب بالله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١) وأخرج ابن المنذر عن الحسن أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر أمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله تعالى هذه الآية، كذا أخرج ابن الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت، وعن البراء بن عازب قال خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال: «إن أول ما نبدأفي يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلّي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء»(٢) متفق عليه، وعن جندب بن عبد اللّه بلفظ: صلّى النبي ﷺ يوم النحر ثم خطب ثم ذبح قال: «من كان ذبح قبل أن يصلّي فليذبح مكانها أخرى» متفق عليه، وبما ذكرنا من الأحاديث احتج أبو حنيفة ومالك وأحمد على أنه لا يجوز ذبح الأضحية قبل صلاة الإمام خلافاً للشافعي حيث قال يجوز ذبح الأضحية بعد طلوع الشمس من يوم النحر إذا مضى قدر صلاة العيد والخطبتين صلّى الإمام أو لم يصل، وقال عطاء يجوز بعد طلوع الشمس فقط وهما محجوجان بما روينا ولا دلالة في الحديثين على ما قال مالك أن لا يجوز الذبح إلا بعد الصلاة وبعد ذبح الإمام ولعل مالك أخذ هذا القول من قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني لا تذبحوا قبل ذبح الرسول والإمام نائب الرسول ﷺ، قلنا الحديث بيان للآية فلا يشترط ما لا يستفاد من الحديث.

مسألة: قال أبو حنيفة يجوز لأهل السواد حيث لا يصلّى هناك صلاة العيد ذبح الأضحية بعد طلوع الفجر الثاني خلافاً للأئمة الثلاثة فإنهم قالوا لا يجوز إلا بعد حصول اليقين بصلاة الإمام عند أحمد والصلاة وذبحه عند مالك وبعد مضي قدر صلاة العيد والخطبتين بعد طلوع الشمس عند الشافعي لإطلاق النصوص، وجه قول أبي حنيفة إن التأخير لاحتمال تشاغل به عن الصلاة ولا معنى للتأخير في حق القرىٰ ولا صلاة عليه والله أعلم، وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العيدين، باب: الخطبة بعد العيد (٩٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: وقتها (١٩٦١).

النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فيصومه»**(١) رواه أصحاب الصحاح والسنن الستة، وروى أصحاب السنن الأربعة وعلقه البخاري عن عمار قال **«من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم عليه السلام»**، وقال عليه الصلاة والسلام **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»**(٢) وهو في الصحيحين، وعند أبي داوود والترمذي وحسنه «وإن حال بينكم وبينه سحاب فكملوا العدة ثلاثين ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً»(٣) والله أعلم.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا فأنزل الله ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تضييع حقه وحق رسوله ومخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كرر النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الألفاظ وزيادة اهتمام ما أمر به ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إذا كلمتموه ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني لا ترفعوا أصواتكم عنده ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً بأن تخاطبوه باسمه أو كنيته بل يجب عليكم بتجمله وتعظيمه ومراعاة آدابه وخفض الصوت بحضرته وخطابه بالنبيّ والرسول ونحو ذلك ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي كراهة أن تحبط أو لئلا يحبط فيكون علة للنهي وجاز أن يكون تقديره لأن تحبط متعلق بالنهي واللام للعاقبة فإن رفع الصوت فوق صوت النبيّ ﷺ والجهر عليه استخفافاً يؤدي إلى الكفر فعاقبته حبط العمل إذا قصد الإهانة نعوذ بالله منها وعدم المبالاة وترك المراقبة في آدابه لا يخلو من الحرمان من بركات صحبته فبطل عمل المصاحبة إذا لم يترتب عليه فائدته ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في أعمالكم، قال البغوي قال أبو هريرة وابن عباس لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم النبيّ ﷺ إلا كأخي السرار، وقال ابن الزبير فيما مر من حديث رواه البخاري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ قال فما كان عمر يسمع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٩١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٠٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قول النبي ﷺ «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا» (١٩٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٠٨١).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الصيام (٢١٢٠).

رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[١]، وروى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ جلس ثابت بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبيّ ﷺ فسأل النبيّ ﷺ سعد بن معاذ فقال يا أبا عمر ما شأن ثابت إشتكى؟ فقال سعد إنه لجاري وما علمت له شكوى فأتاه سعد فذكره قول النبيّ ﷺ قال ثابت أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم أصواتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد لرسول الله ﷺ فقال: «بل هو من أهل الجنة»[٢]، وأخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس وكذا ذكر البغوي أنه لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي فقال ما يبكيك يا ثابت؟ قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابت البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد اللَّه بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسي فشدي عليّ الضبة بمسمار فضربته بمسمار، وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ، فأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال إذهب فادعه لي فجاء عاصم إلى المكان الذي رواه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس فقال إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال إكسر الضبة، فأتيا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك يا ثابت؟ قال أنا صيّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ **«أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً أو تدخل الجنة»** فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ أي يخفضونها، ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالاً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ والجملة خبر إن، في القاموس امتحن الله قلوبهم أي شرحها وسعها وفيه أيضاً محنه كمنعه وضربه واختبره كامتحنه، قال البيضاوي أي جرّبها للتقوى ومرنها عليها يعني عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة، واللآم صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل أو المعنى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل ظهور التقوى فإنه لا يظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصه للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه أو ميز بريزه من خبثه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بغضهم الأصوات تأدباً لرسول الله ولسائر طاعاتهم والتنكير للتعظيم والجملة خبرثان لإن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (٤٨٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

أو استئناف لبيان ما هو جزائهم إخباراً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وإن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك، قال البغوي قال أنس فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا ـ يعني ثابت بن قيس ـ الذي نزل فيه هذه الآية وقال له عليه السلام: «**تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة**» قال فلما كان يوم اليمامة من حرب مسيلمة الكذاب رأى ثابت في المسلين انكساراً وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وقال لسالم مولى حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل ذلك ثم ثبتا وقاتلا حتى استشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام أنه قال له اعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين ينزع درعي فذهب به وهي في ناحية من العسكر عند فرس يستن به في طوله وقد وضع عليّ درعي برمة فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وائتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقل له إن عليّ دين حتى يقضي وفلان من رفيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وضعه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه والله تعالى أعلم. وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال جاء ناس من العرب إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ وما بعدها، قرأ الجمهور بضم الجيم وأبو جعفر بفتح الجيم وهما لغتان في جمع حجرة، وقال البغوي هي جمع حجر والحجر جمع حجرة فهي جمع الجمع والحجرة قطعة من الأرض إحاطتها الجدران من الحجر بمعنى المنع، والمراد حجرات نساء النبيّ ﷺ ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الوراء وفيه دلالة على رسول الله ﷺ كان داخل حجرة منها إذ لا بد أن يختلف المبدأ أو المنتهى وإن مناداتهم كان من ورائها فإن تعدد القصة يحمل على أن مناداتهم وقع تارة وراء بعض وتارة وراء بعض آخر منها وإن اتحد القصة فمناداتهم من ورائها، إما بأنهم أتوه حجرة حجرة فنادوه من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فإنهم كانوا أعراباً من أهل البادية أو المعنى لا يعقلون عظمتك ومراعاة الحشمة وحسن الأدب والظاهر منه أن بعضهم كانوا من العقلاء ولم يرتض بالتعجيل وإنما أسند فعل البعض إلى الكل مجازاً ويحتمل أن يراد بالنفي القلة إذ القلة تقع موقع النفي العام. أخرج الثعلبي من حديث جابر أن الذي ناداه عيينة بن حصن وأقرع ابن حابس وفدا على رسول الله ﷺ في

سبعين رجلاً وقت الظهيرة وكان النبيّ ﷺ راقداً في بعض حجرات نسائه فقالا يا محمد أخرج علينا، وأخرج ابن جرير عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبيّ ﷺ.فقال يا محمد أُخرج إلينا فنزلت، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين فقال النبيّ ﷺ ذاك هو الله فنزلت هذه الآية وهذا مرسل وله شاهد مرفوع من حديث البراء دون نزول الآية، وأخرج ابن جريج نحوه عن الحسن وذكر البغوي حديث قتادة وجابر بلفظ قال قتادة نزلت يعني هذه الآية وما بعدها في ناس من أعراب بني تميم جاؤا إلى النبيّ ﷺ فنادوا على الباب، ويروى ذلك عن جابر قال جاءت بنو تميم فنادوا على الباب أخرج علينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين»، فقالوا نحن ناس من بني تميم جئنا وشاعرنا وخطيبنا فقال النبيّ ﷺ لثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبيّ ﷺ «قم فأجبه» فقام فأجابه فقام شاعرهم يذكر أبياتاً فقال النبيّ ﷺ لحسان بن ثابت «قُم فأجبه» فقام فأجابه فقام الأقرع بن حابس فقال إن محمداً ليؤتىٰ له بكل خير تكلم خطيبنا فكان شاعركم أشعر وأحسن قولاً ثم دنا من النبيّ ﷺ فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ **«ما يضرك ما كان قبل هذا»** ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم وقد كان تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم وأزرى به بعضهم وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنزل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآيات الأربع إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه قال بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر وأمّر عليهم عيينة ابن حصن الفرازي فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم فسباهم عيينة وقدمهم على رسول الله ﷺ فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله ﷺ قائلاً في أهله فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة، فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبرئيل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال سبرة أنا لا أحكم بينهم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به، فقال الأعور أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال ﷺ قد رضينا ففادى نصفهم وأعتق بعضهم وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ يعني لو ثبت صبرهم يعني حبس نفوسهم عما تشتهيه الأهواء من التعجيل في قضاء الحوائج بخلاف ما يقتضيه العقل من تعظيم المحتاج إليه لا سيما من هو من الله بمنزلة من لا يوازيه أحد ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني صبراً بالخروج إليهم، فيه إشعار إلى أن مطلق الخروج لا يصلح غاية للصبر بل ينبغي أن يصبروا حتى يتوجه إليهم ويفاتحهم بالكلام لَكَانَ الصبر خَيۡراً لهُمُ من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبتين للثناء والثواب وإسعاف المرام، قال مقاتل لكان خيراً لهم لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فأقتصر على النصح والتقريع للمسيئين للأدب التاركين تعظيم الرسول ﷺ بناء على جهلهم وقلة عقلهم، وذكر محمد بن يوسف الصالحي أن سرية عيينة بن حصن كان إلى بني تميم في المحرم سنة تسع بعث إليهم رسول الله ﷺ حين منعوا الزكاة وكان السبايا على ما ذكر محمد بن عمر إحدى عشر امرأة وثلاثين صبياً، وأخرج أحمد وغيره بسند جيد عن الحارث بن الضرار الخزاعي قال قدمت إلى رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فأقررت به ودخلت فيه ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فترسل إلى الأبان كذا وكذا ليأتيك فلما جمع الحارث الزكاة وبلغ الأبان احتبس الرسول فلم يأته فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة فدعى سروات قومه فقال لهم إن رسول الله ﷺ كان وقّت وقتاً يرسل رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة ليقبض ما كان عنده فلما أن سار الوليد فرق فرجع فقال إن الحارث منع الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث، قال لهم إلى أين بعثتم قالوا إليك، قال ولَم؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله قال لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني فلما دخل على رسول الله ﷺ قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولي قال لا والذي بعثك بالحق فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾.

وروى الطبراني نحوه من حديث جابر بن عبد اللّه وعلقمة ابن ناجية وأم سلمة وابن جرير نحوه من طريق العوفي عن ابن عباس ومن طرق أخرى وسلمة وفي حديث أم سلمة عند الطبراني، وكذا ذكر البغوي أن الآية نزلت في وليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمعه القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يرون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله لما سمعنا برسولك خرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله عز وجل فبدا له الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك بغضب غضبة علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، قال البغوي فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم، وقال له انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما يستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد وافاهم فسمع منهم أذان صلاة المغرب والعشاء وأخذ صدقاتهم ولم ير فيهم إلا الطاعة والخير فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ يعني الوليد ابن عقبة ﴿بِنَبَإٖ﴾ أي بخبر ارتداد القوم تنكير الفاسق ونبأ لشيوع الحكم كأنه قال أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء المثلثة ثم الباء الموحدة ثم التاء المثناة من الفوق من التثبت بمعنى التوقف في الحكم ما لم يظهر الحال والباقون بالباء الموحدة ثم الياء المثناة من تحت ثم النون من التبين بمعنى طلب البيان وظهور الحال والقراءتان متقاربان معنى، وتعليق التثبت والتبين بخبر الفاسق يقتضي جواز قبول خبر الواحد العدل لعدم المانع من قبول خبره والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها وفي اصطلاح الشرع قد يطلق على الكافر لخروجه عن الإيمان وهو الغالب في محاورة القرآن وقد يطلق على من ارتكب الكبيرة أو أصر على الصغيرة ما لم يتب وهو المراد في هذه الآية إجماعاً، قلت: والوليد ابن عقبة وكان صاحباً

لرسول الله ﷺ ولم يكن فسقه ظاهراً قبل هذا الكذب المبني على فساد ظنه واتهامه من كان له أعداء في الجاهلية فلعل المراد بالفاسق هاهنا من لم يظهر صدق وعدالته فيدخل فيه مستور الحال أيضاً، أو المراد بالفاسق من كان مخبر الشيء يدل القرينة على كذبه وإن كان المخبر ظاهر العدالة فإن ارتداد بني المصطلق بعد إيمانهم عند رسول الله ﷺ طوعاً وقبولهم أحكامه أبعد احتمالاً من كذب الوليد عمداً أو زعماً فاسداً ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ أي كراهة أن تصيبوا أولئك تصيبوا بالقتل والقتال ﴿قَوْمًا﴾ براء من العصيان ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ حال من فاعل تصيبوا يعني جاهلين بحقيقة الأمر وحال القوم ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ أي تصيروا عطف على تصيبوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ وهو خبر لتصبحوا يعني تصيروا نادمين على إصابتكم قوماً براء، والندامة نوع من الغم على ما صدر منك بحيث تتمنى أنه لم يصدر الظاهر من سياق الآية أن بعض المؤمنين كانوا زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد والنبيّ ﷺ لم يطعهم وبعث خالد بن الوليد للتثبت وتبيين الحال، قال الله سبحانه خاطبهم بهذه الآية وأمرهم بالتثبت والتبيين كما فعله رسول الله ﷺ كيلا يصبحوا نادمين وبيّنهم على أنه لا ينبغي لهم تحريض النبي ﷺ وإلجاؤه إلى ما تهوى به نفوسهم بل يجب عليهم أن يطيعوه فيما أحبوا وفيما كرهوا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي وقعتم في الإثم والهلاك، قال البيضاوي جملة لو يطيعكم حال من أحد ضميري فيكم وإن مع اسمه وخبره مقيداً بالحال المذكور ساد مسدّ مفعولي إعلموا أو المعنى أن فيكم رسول الله في حال يجب تغيرها وحي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم ولو فعل ذلك لعنتم ولما كان غضبهم على بني المصطلق إنما هو لما سمعوا من الوليد إرتدادهم بغضاً في الله لا لأنفسهم وكان ما سبق من الكلام موهماً لوقوعهم في الإثم واللوم استدرك الله سبحانه ببيان عذرهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ﴾ والظاهر من سياق الآية أن الفسوق أخف من الكفر وأقبح من العصيان فالمراد به الخروج من الجماعة وإرتكاب البدعة في العقائد بحد لا يكفر فهو دون من الكفر وأخبث من عصيان الجوارح، ومعنى الآية لكن ما صدر منكم من ترك التثبت إنما كان يحبكم الإيمان وبغضكم الكفر فلا لوم عليكم ولا إثم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ جملة معترضة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إشعاراً بأن من كان صفته مثل صفتكم فهم الراشدون ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ منصوبان على العلبة من حبب وكره لا من الراشدون فإن الفضل فعل الله والراشدون كان مسبباً بفعله لكنه أسند إلى ضميرهم أو على المصدرية فإن تحبب الإيمان فضل من الله

وإنعام، وقال بعض أئمة التفسير معنى قوله ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فلا تكذبوه فإن الله يخبره فيهتك ستر الكاذب وقوله ﴿يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كلام مستأنف يعني لو يطيعكم الرسول فيما يخبرونه كاذباً لعنتم، وهذا التأويل يقتضي أن يكون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الخ خطاباً للوليد وأمثاله وليس كذلك فإن الكاذب غير مخاطب بالتثبت بل السامع مخاطب به، وقال بعضهم واعلموا أن فيكم رسول الله معناه كما مر أن لا تكذبوا ولو يطيعكم كلام مستأنف خطاب لبعض المؤمنين الذين زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق والاستدراك خطاب لبعض آخر من المؤمنين الذين يريدون التثبت وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وهذا القول يفيد جدالاً لاستلزام انتشار الضمائر في كلام واحد من غير قرينة وأمر داع إليه والأحسن ما قال البيضاوي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾، يفضل وينعم بالتوفيق عليهم، أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ ركب حماراً وانطلق إلى عبد اللّه بن أبي فقال إليك عني فواللّه لقد أذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد اللّه رجل من قومه فشتما وغضب لكل واحد أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] مرفوع بفعل مضمر أعني اقتتل يفسره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ يعني تقاتلوا أورد صيغة الجمع حملاً على المعنى فإن كل طائفة جمع ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ شرطية جزائه إنشاء ولذا عطفت على الإنشائيات، وثنى الضمير هاهنا نظراً إلى لفظ الطائفتين والإصلاح أن يمنع المبطل منها من الظلم ويدفع شبهة ويدعوهما إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وترك التحاسد والتباغض ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ أي تعدت ﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وأبت الإجابة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يمكن دفع ظلمها بالحبس والمنع بأن كان لها منعة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي ترجع إلى أمر الله، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال الرجل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصر ظالماً** قال: «**تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**»[2] متفق عليه ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ إلى أمر الله بعد المقاتلة ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه الإصلاح بالعدل هاهنا إشعاراً بأن المقاتلة الواقع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢٦٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافين (١٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإكراه، باب: يمين الرجل لصاحبه إنه أخذه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤).

قبل ذلك لا يجرمنكم على أن لاتعدلوا ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ في الأمور كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيحسن جزاؤه القسط الجور والإقساط إزالة الجور بالعدل والهمزة للسلب ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لانتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ولما كان منشأ هذا الأصل هو النبيّ ﷺ كان أبا المؤمنين وأزواجه أمهاتهم وهذه الجملة تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه فقال ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والفاء للسببية، قرأ يعقوب بين إخوتكم بالتاء الفوقانية على الجمع والباقون بالباء التحتانية على التثنية وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينها الخلاف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أمره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم فإن التقوى سبب للتواصل والائتلاف والتراحم بينكم والتراحم موجب رحمة الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، رواه المجدد رضي الله تعالى عنه، وفي الصحيحين «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(١) من حديث جرير بن عبد اللّه، قال البغوي يروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ فاصطلحا وكف بعضهم عن بعض، وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي مالك قال ثلاث رجال من المسلمين فغضب قوم هذا لهذا وقوم هذا لهذا فاقتتلوا بالأيدي والنعال فأنزل الله تعالى تلك الآية ولعل هذه القصة بعينه هي السابقة، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وكذا ذكر البغوي عن السدي قال كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها جعلها في علية له وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بهاوكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاؤا إلى أمر الله. وأخرج ابن جرير وذكر البغوي عن قتادة قال ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار وكانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما الآخر لآخذن عنوة لكثرة عشيرته والآخر دعاه للتحاكم إلى النبيّ ﷺ فأبى فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال كانت الخصومة بني الحيين فيدعوهم إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله تلك الآية ولعل هذه القصة ما ذكر قتادة روى البغوي وغيره عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه ومن كان في حاجة أخيه كان**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ (٧٣٧٦).

الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[(١)] وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ـ وأشار إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**[(٢)] وفي الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، قال البغوي ويدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب (رض) سئل عن الجمل والصفين أمشركون هم؟ فقال لا من الشرك فروا فقيل منافقين هم؟ فقال لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً فما حالهم قال إخواننا بغوا علينا، مسئلة: إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة وخرجوا عن إطاعة الإمام دعاهم إلى العود وكشف شبهتهم فإن أبدوا ما يجوز لهم القتال كان ظلمهم الإمام أو ظلم غيرهم ظلماً لا شبهة فيه يجب على الناس أن يعينوهم حتى ينصفهم الإمام ويرجع عن جوره كذا قال ابن الهمام وإن لم يبدوا ذلك وتحيزوا للقتال مجتمعين حل لنا قتالهم بدءاً، وقال الشافعي لا يجوز قتالهم حتى ابتدأو بالقتال وهو قول مالك وأحمد وأكثر أهل العلم لأن قتل المسلم لا يجوز إلا دفعاً وهم مسلمون قال الله تعالى: ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ﴾ قلنا البغي في اللغة الطلب قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾[(٣)] والمراد هاهنا طلب ما يخل من الجور والظلم والإباء عن قبول أحكام الشرع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾[(٤)] يعني لا تطلبوا عليهن ظلماً فلا يشترط في جواز قتالهم بداية القتال منهم وإنما شرطنا منعتهم لأنه إذا لم يكن لهم منعة نقدر على إلزامهم بالحبس والضرب ونحو ذلك فلا حاجة على القتال ولو شرطنا بداية القتال منهم فربما لا يمكن دفعهم لتقوى شوكتهم وتكثر جمعهم. **«مسئلة»**: يجهز على الجريح من البغاة ويتبع موليهم إن كان لهم فيئة يخاف أن يلحق بالفيئة وإن لم يكن له فئة لا يجهز ولا يتبع، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجهز ولا يتبع في الحالين لأن القتال إذا تركوه بالتولية والجراحة لم يبق قتلهم دفعاً ولا يجوز قتلهم إلا دفعاً لشرهم، روى ابن أبي شيبة عن عبد خير عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا ومن ألقى سلاحه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (٢٥٦٤).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٦٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.

فهو آمن وأسند أيضاً لا يقتل أسير، قلنا احتمال شرهم باق إذا خيف لحوقهم بالفيئة وأصحاب الجمل لم يكن لهم فيئة حين قال ذلك، وما رواه الحاكم في المستدرك والبزار في مسنده من حديث كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «**هل تدري يا ابن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال الله تعالى ورسوله أعلم، قال لا تجهز على جريحها ولا يقتل أسيراً ولا يقسم فيئها» فأعله البزار بكوثر بن حكيم وتعقب الذهبي على الحاكم**. **مسألة**: ولا تسبى ذريتهم ولا يقسم مالهم إجماعاً بل يحبس مالهم حتى يتوبوا، روى ابن أبي شيبة أن علياً لما هزم طلحة وأصحابه أمر منادياً فنادى أن لا يقتل مقبل ولا مدبر يعني بعد الهزيمة ولا يفتح باب ولا يستحل فرج ولا مال، وروى عبد الرزاق نحوه وزاد وكان علي لا يأخذ مال المقتول ويقول من اعترف شيئاً فليأخذه وفي تاريخ واسط بإسناده عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم. **مسألة**: ولا بأس أن تقاتلوا بسلاحهم إن احتاج إليه أهل العدل وكذا الكراع يقاتلون عليه، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجوز إستعمال سلاحهم وكراعهم لنا ما روى ابن أبي شيبة في آخر مصنفه في باب وقعة الجمل أن علياً قسم الجمل في العسكر ما أجافوا عليه من كراع وسلاح، قال صاحب الهداية وكان قسمة للحاجة لا للتمليك لانعقاد الإجماع على عدم تملك أموالهم. **مسألة**: ما أتلف أهل البغي على أهل العدل في حال القتال من نفس أو مال فإن كان لهم منعة وتأويل مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية الشافعي في الجديد الراجح أنه لا يضمن وقال الشافعي في رواية الأخرى وأحمد يضمن، قال البغوي قال ابن شهاب كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف أموال ثم صار الناس إلى أن سكت الحرب وجرى الحكم عليهم فما علمت اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه. **مسألة**: باغ قتل عادلاً مدعياً حقيقة يرثه وإن أقرأنه على الباطل لا يرث عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف والشافعي لا يرث الباغي العادل سواء ادعى حقيقة أو أقرأنه على باطل وعادل قتل باغياً يرث إجماعاً. **مسألة**: الخارجون عن إطاعة الإمام إذا لم يكن لهم تأويل سواء كان لهم منعة أو لا ويأخذون أموال الناس ويقتلونهم الطريق فهم قطاع الطريق وقد مر حكمهم في سورة المائدة: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾(١) **مسألة**: من كان خارجاً من حكم الإمام ولا منعة له يلزمه حكم الله بالحبس والضرب ونحو ذلك ولا يجوز قتله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

قال البغوي روي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد لا حكم إلا الله، فقال علي كلمة حق أريد به الباطل لكم علينا ثلاث لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله عز وجل ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال كذا قال محمد بلغنا عن علي (رض) فذكره نحوه والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوا بالمجلس وسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وفاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضيق كل رجل مجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً كما هو فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبين رجل فقال له تفسح، فقال الرجل قد أصبت مجلساً فأجلس ثابت خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا؟ قال أنا فلان فقال ثابت ابن فلانة فذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه واستحى فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في القاموس القوم الجماعة من الرجال والنساء معاً أو الرجال خاصة وتدخله النساء على التبعية وفي الصحاح القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء واستدل بهذه الآية حيث عطف النساء عليه ويقول الشاعر:

وما أدري لست أخال ... أدري أقوم آل حصن أم نساء

وفي عامة القرآن أريد به الرجال والنساء جميعاً وحقيقة للرجال لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1] كذا قال صاحب المدارك وقال البيضاوي هو مصدر نعت

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور والقيام بالأمور وظيفة الرجال وحيث فسر بالقبيلتين كقوم هود وقوم فرعون وقوم نوح وقوم لوط فأما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال عن ذكرهن لأنهن توابع واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي من يسخر به ﴿خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ﴾ أي من يسخر استئناف ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ عطف النساء على الرجال ولم يكتف بما سبق مبالغة في النهي ولأن السخرية والاستهزاء يكون في النساء غالباً لضعف عقلهن وجهلهن، قال البغوي روي عن أنس أنها انزلت في نساء رسول الله ﷺ عيرّن أم سلمة بالقصر وعن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قالت لها النساء يهودية بنت يهوديين وفي رواية فقال لها رسول الله ﷺ «**هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد**» ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللمز الطعن باللسان يعني لا يعب بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ التنابز التفاعل من النبز بمعنى اللقب، قال البيضاوي النبز مختص باللقب السوء، وفي القاموس التنابز التعاير والتداعي بالألقاب يعني لا تدع بعضكم بعض اللقب السوء، قال البغوي قال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر، قال الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك قال عطاء هو أن تقول لأخيك يا حمار يا خنزير، وروي عن ابن عباس (رض) قال التنابز أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله، أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال كان الرجل منها يكون له اسمان أو ثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾[١] قال الترمذي حسن وروى أحمد عنه بلفظ قال فينا نزلت بني سلمة ولا تنابزوا بالألقاب قدم رسول الله ﷺ للمدينة وليس فيها إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعاه أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي بئس الاسم أن يقال له يهودي أو يا فاسق أو يا شارب الخمر بعد ما أن تاب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «**يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»[٢] رواه البخاري عن ابن عمر قال: قال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الألقاب (٤٩٥٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: الألقاب (٣٧٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن (٦٠٤٥).

رسول الله ﷺ «**أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما**»(١) متفق عليه وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «**من دعىٰ رجلاً بالكفر أو قال عنه والله وليس ذلك إلا جاء عليه**» متفق عليه، وقيل معنى الآية أن السخرية واللمز والنبز فسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا شيئاً توصفوا فيه باسم الفسوق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(٢) متفق عليه ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة وعن سعد والطبراني عن عبد اللّه بن مغفل وعن عمر بن النعمان بن مقرن والدارقطني عن جابر وزاد الطبراني عن ابن مسعود «وحرمة ماله كحرمة دمه» ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب وحد ضمير لم يتب نظرا إلى لفظة من وجمع ضميرهم الظالمون نظراً إلى معناها نسبة المحصن إلى الزنا يوجب حد القذف إجماعاً وسنذكر مسائل حد القذف في سورة النور إن شاء الله تعالى، ونسبة غير المحصن كالعبد والكافر إلى الزنا لا يوجب الحد لانحطاط درجتها بل يوجب التعزير لإشاعة الفاحشة، ونسبة المحصن إلى غير الزنا لا يوجب حد القذف ويوجب التعزيز إن كان النسبة إلى فعل إختياري يحرم في الشرع ويعد عاراً في العرف وإلا لا إلا أن يكون تحقيراً للأشراف فمن قال لمسلم يا فاسق يا كافر يا خبيث يا سارق يا فاجر يا مخنث يا خائن يا زنديق يا لص يا ديوث يا قرطبان يا شارب الخمر يا آكل الربا يعزر، قال ابن همام روي أنه عليه السلام عزر رجلاً قال لغيره يا مخنث ولو قال يا حمار يا خنزير يا كلب يا تيس يا حجام لا يعزر وقيل يعزر وقيل لا إلا أن يقال لعالم، أو علوي أو رجل صالح ولو قال يا لاعب بالنرد ويا عشار لا يعزر لأنها لا يعد عاراً عرفاً وإن كان محرماً شرعاً **مسألة**: لا يبلغ بالتعزير أدنى الحدود عند أبي حنيفة والشافعي عفى الله عنهما وأدنى الحدود عند أبي حنيفة رح أربعون سوطاً حد الشرب في العبد وعند أبي يوسف ثمانون حد الأحرار، وعند الشافعي وأحمد عشرون، وقال مالك للإمام أن يضرب في التعزيز أي عدد أدى إليه إجتهاده، وقال أحمد يعزر في الوطء فيما دون الفرج بشبهة أكثر من أدنى الحدود ولا يبلغ أعلاها، وفي قبلة أجنبية أو شتم أو سرق دون النصاب لا يبلغها أدنى في الحدود والله تعالى أعلم، وذكر البغوي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: خوف الؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (٦٤)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب في الإيمان (٦٩).

أن رسول الله ﷺ إذا غزى أو سافر ضم الرجال المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيء لهما وما يصلحهما من الطعام والشراب فضم سلمان الفارسي (رض) إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيء لهما شيئاً فلما قالا له ما صنعت شيئاً قال لا غلبتني عيناي قالا له انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً فقال رسول الله ﷺ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما وأخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا لو بعثنا إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله قال لهما مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً قال ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ الآية قال السيوطي رواه الثعلبي بغير إسناد وروى معناه الأصبهاني في الترغيب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قالوا زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ تعليل مستأنف للأمر والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه والهمزة بدل من الواو كأنه يثم الأعمال ويكسرها، والمراد بالظن هاهنا ما يقابل اليقين سواء كان جانب الوجود فيه راجحاً أولا وتحقيق المقام أن الظن على أقسام منها ما يجب إتباعه وهو حسن الظن بالله تعالى والمؤمنين والمؤمنات وما يحصل بدليل شرعي فيه شبهة حيث لا قاطع فيه من العمليات وكذا في العلميات إن لم يعارضه قاطع من أحوال المبدأ والمعاد، ومنها ما يحرم اتباعه كسوء الظن بالمؤمنين والمؤمنات لا سيما بالصالحين منهم والظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع ومنها ما ليس من القسمين المذكورين كالظن في الأمور المعايشة ونحوها، والإثم إنما هو بعض الظن يعني قسم الثاني منها والله سبحانه أمر بالاجتناب عن كثير من الظن احتياط ومبالغة في اجتناب الإثم فيجتنب عما هو إثم وعما هو يشبه به قال رسول الله ﷺ «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة**»[١] الحديث ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ الجس في اللغة المس باليد والتجسس تفحص الأخبار باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللبس والمراد هاهنا لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوا عوراتهم حتى لا يظهر عليكم ما ستره الله منها، عن أبي هريرة(رض) أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢).

رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا لا تنافروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو ينزل**»[١] رواه ملك وأحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي وصححه وعن ابن عمران النبيّ ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المسلمين يتبع الله عوراته فيفضحه ولو في جوف رحله**»[٢] رواه الترمذي وحسنه وابن حبان، قال زيد بن وهب قيل لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً؟ قال نهينا عن التجسس فإن يظهر لنا شيء نأخذ به ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره، قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[٣] متفق عليه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً قال لا يأكل حتى يطعم ولا يرحل حتى يرحل فقال النبيّ ﷺ اغتبتموه فقالوا إنما حدثنا بما فيه قال «**حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه**» رواه البغوي ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام الذي معناه الإنكار المستلزم لتقرير النفي وإسناد الفعل إلى أحد للتعليق وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة وتمثيل الإغتياب بأكل لحم الإنسان ولم يقتصر عليه حتى جعله أخاً ولم يقتصر عليه حتى جعله ميتاً وتعقب ذلك بقوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، وجملة فكرهتموه جزاء شرط محذوف تقديره إن صح ذلك إذ عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته أو هي معطوف على الإستفهام المذكور فإن معناه تغير المحبة الموهوم عدم الكراهة فلدفع ذلك الوهم عطف عليه، وجاز أن تكون الفاء للسببية والماضي بمعنى المستقبل والمعنى أنه لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً إنكم تكرهونه، وقال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدهم أن يأكل إلخ فكأنهم قالوا لا فقيل

---

(١) أخرجه مالك في أبواب السير، باب: ما يكره من الكذب وسوء الظن والتجسس والنميمة (٨٩٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الحسد (١٩٤١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في هجرة الرجل أخاه (٤٩٠٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

كرهتموه فكأنه معطوف على محذوف والحاصل أنكم كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً عَن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: **«لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم قلت من هؤلاء فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»** رواه البغوي، قال ميمون بينا أنا نائم إذ أنا بجيفة زنجي وقائل يقول كل قلت يا عبد الله ولم أكل قال بما اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً قال لكنك استمعت ورضيت وكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً أن يغتاب عنده، عن عائشة رضي الله عنها قلت للنبيّ ﷺ «حسبك من صفية كذا وكذا يعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته»[١] رواه أحمد والترمذي وأبو داوود، عن أبي سعيد وجابر قالا قال رسول الله ﷺ «الغيبة أشد من الزنا، قالوا يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال إن الرجل يزني فيتوب الله فيغفر له وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[٢] **فائدة:** في كفارة الغيبة عن أنسَ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من كفارة الغيبة أن يستغفر لمن اغتابه تقول اللهم إغفر لنا وله» رواه البيهقي. فائدة: عن خالد ابن معدان عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله يعني من ذنب قد تاب منه»**[٣] رواه الترمذي وخالد لم يدرك معاذاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما نهيتم عنه والندم على ما وجد منكم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل توبتكم مبالغ في قبول التوبة حيث يجعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعباد لا يرضى أن يقع بعضكم في عرض بعض، ذكر البغوي أنه قال مقاتل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى أتى على ظهر الكعبة وأذن فقال عباد بن أسيد الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو إن يرد الله شيئاً يغيره وقال أبو سفيان إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى: هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزدراء بالفقر، وقال ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية ولم يقل ياأيها الذين آمنوا لأنهم لم يكونوا آمنوا في ذلك الوقت، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مليكة هذه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في النية (٤٨٦٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الغيبة والنميمة (١٣١٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٥).

القصة مختصراً وقال ابن عساكر في مبهماته وجدت بخط ابن يشكو اليّ أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أي هذا أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم فقالوا يا رسول الله تزوج بناتنا موالينا فنزلت الآية، وقال البغوي قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس وقومه للرجل الذي لم ينفسح له ابن فلانة فقال النبي ﷺ من الذاكر فلانة؟ فقال ثابت أنا يا رسول الله، فقال أنظر وجه القوم، فقال ما رأيت يا ثابت؟ فقال رأيت أبيض وأحمر وأسود فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والقتوى فنزلت في ثابت هذه الآية وفي الذي لم يفسح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني نوع البشر من آدم وحواء أو كل واحد منكم من أب وأم فلا مزية لأحد على غيره ولا وجه للتفاخر وجاز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة من الاغتياب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ كانت العرب تعتبر في النسب ست طبقات أعلاها الشعب وهي الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهي تجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن تجمع الأفخاذ والفخذ تجمع الفصائل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة حي يوصف به، وقيل الشعوب من العجم والقبائل من العرب والأسباط من بني إسرائيل، وقال أبو رواق الشعوب من الذين لا يعتزون إلى أحد بل ينتسبون إلى المدن والقرى والقبائل من العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ احذف أحد التائين أي لتعرف بعضهم بعضاً في قرب النسب وبعده لا ليتفاخروا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ قال قتادة في هذه الآية أن أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ **«الحسب المال والكرم التقوى»**[1] رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم، وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنا وكرم الآخرة التقوى، وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلماخرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطب بهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها الناس رجلان برّتقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية ثم قال أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[2] رواه الترمذي والبغوي، وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٢١٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧٠).

أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون» وعن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم على الله؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بين خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا نعم، قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(١) رواه البخاري وغيره، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢) رواه مسلم وابن ماجه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم وفضائلكم.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر البغوي أن نفراً من بني أسد قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعمال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان يمنون على النبيّ ﷺ ويردون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الآية، قال السدي نزلت في الأعراب الذي ذكرهم الله في سورة الفتح وهم أعراب جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا يقولون أمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ (٣٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (٢٥٦٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: القناعة (٤١٤٣).

فلما استنفر لهم رسول الله ﷺ إلى الحديبية تخلفوا فنزلت ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ يعني صدقنا قُلْ يا محمد ﷺ ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ فإن الإيمان صفة القلب عبارة عن تصديقه والإقرار كن زائد عن الإختيار لاجراء الأحكام، قال رسول الله ﷺ «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن من بالقدر خيره وشره**»[١] كذا في الصحيحين من حديث عمر ابن الخطاب مرفوعاً في حديث سؤال جبرئيل، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ والمراد بالإسلام الانقياد الظاهري وكان مقتضى نظم الكلام أن يقال لا تقولوا أمنا لكن قولوا أسلمنا أو يقال لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل عنه إلى هذا النظم إحترازاً عن النهي عن القول بالإيمان وعن الجزم بإسلامهم مع فقد لشرط اعتباره عند الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ حال من فاعل قولوا أومعطوف على لم تؤمنوا للتأكيد على نفي الإيمان في الماضي والتوقع في المستقبل وليس في لم تؤمنوا التوقع فلا يلزم التكرار ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الإيمان بالقلوب مخلصين والإمتثال كما يدل على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا فيما جاء به الرسول الله ﷺ، وكلمة ثم للإشعار باشتراط عدم الارتباط في شيء من الأزمنة المتراخية إلى آخر أجزاء الحياة كاشتراط في بداية الإيمان فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[٢] ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي في طاعة يجوز أن يكون مفعول جاهدوا محذوفاً منوياً يعني جاهدوا العدو المحارب أو الشيطان أو الهوىٰ وجاز أن يجعل لازماً مبالغة في الجهد وجاز أن يراد بالمجاهدة العبادات القلبية والسرية والبدنية والمالية، فهذه الآية لامتثال جميع الأوامر والإنتهاء عن جميع المناهي إما عبارة إن كان المراد مطلق المجاهدة وإما دلالة إن كان المراد به القتال مع الكفار فإن من بذل نفسه وماله لإصلام العالم وإخلائه من الفساد وإعلاء كلمة الله وإفشاء الدين، فإنه يصلح أولاً نفسه بآيتان المأمورات وانتهاء المناهي بالطريق الأولى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في ادعاء الإيمان جملة مستأنفة وجاز أن يكون الموصول مع صلته صفة للمبتدأ وهذه الجملة خبر له، فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون وعرف الله غير

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الدائم عليه بقولكم أمنا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من الله تعالى في أتعلمون الله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عطف على الله يعني أن الله يعلم حقيقة اسراركم ولا يحتاج إلى إخباركم فعليكم بإصلاح بواطنكم، أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى والبزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وابن أبي حاتم مثله عن الحسن أن ناساً من العرب قالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان، قال الحسن كان ذلك لما فتحت مكة ونزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ منصوب بنزع الخافض أي بأن أسلموا وبتضمين الفعل معنى الاعتداد وكذا إسلامكم في قوه تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ وكذا إن هداكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بخلق التصديق في قلوبكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إدعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله يعني إن كنتم صادقين في إدعاء الإيمان فللّه المنة عليكم وفيه إشارة إلى أن كلهم ليسوا صادقين فيما إدعوا لذلك عقبه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه ما في ضمائركم، قرأ ابن كثير بالتاء خطاباً للاعراب داخلاً في مقولة قل والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الأعراب فهو كلام مستأنف من الله تعالى

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي وسعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير نحوه وأنه قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ سنة تسع وفيهم طلحة بن حويلة ورسول الله ﷺ مع أصحابه فسلموا، وقال متكلمهم يا رسول الله إنا نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

سورة ق

سورة مكيَّة وهي خمس وأربعون آية وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

﴿قٓ﴾ والصحيح أنه من الحروف المقطعة فقيل اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن، وقال القرطبي هو مفتاح اسم الله القدير والقادر والقاهر والقريب والقابض، وقيل إشارة إلى قضاء الأمر أو قضاء ما هو كائن والحق أنه رمز بين الله ورسوله ﷺ لا يعلم تأويله إلا الله وبعض الراسخين في العلم وقد مر الكلام في أوائل سورة البقرة، قال: قال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضر من خضر السماء والسماء مقببة عليه وعليه كتفاها يقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿وَالْقُرْءَانِ﴾ الواو للقسم، وقال ابن عباس كلمة ق قسم يعني حذف حرف القسم بإيصال الفعل إليه أو إضماره وهذا الواو للعطف ﴿الْمَجِيدِ﴾ أي ذو المجد والشرف على سائر الكتب أو لكونه كلام المجيد أو لأنه من تعله وعلم معانيه وامتثال أحكامه بجد وجواب القسم محذوف تقديره لقد صد الرسول المنذر لتبعثن أو نحو ذلك وقيل جوابه قوله

تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾[١] وقيل قد علمنا، وقال أهل الكوفة جوابه ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ بمعنى قد عجبوا أي كفار مكة وعلى التقدير الأول هذا معطوف على محذوف تقديره والقرآن المجيد لقد صدق الرسول وقد أنكره الكفار بل عجبوا ﴿أَن جَآءَهُم﴾ منصوب بنزع الخافض يعني عجبوا من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لعجبهم مما ليس هو بعجب وهو أن ينذرهم أحد من جنسهم أو من قومهم ممن عرفوا عدالته واعترفوا بها ومن كان كذلك لا يكون إلا ناصحاً لقومه خائفاً عليهم أن ينالهم مكروه وإذا علم أن أمراً مخافاً أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف ما هو غاية المخاف وقد قال لهم رسول الله ﷺ إذا اجتمع إليه بطون قريش «أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج بالوادي يريد أن يغير عليكم أنكم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[٢] الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ والفاء للتفسير فهو بيان لتعجبهم وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً ﷺ للرسالة وإضمار ذكرهم في عجبوا أو إظهاره هاهنا للتسجيل على كفرهم بذلك وجاز أن يكون الفاء للتعقيب وهذا إشارة إلى البعث بعد الموت فهو عطف لتعجبهم مما أنذر رواية على عجبهم ببعث المنذر وللمبالغة في إنكار هذا التعجب وضع المظهر موضع المضمر، فإنهم مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق الماوات والأرض وما بينهما أول مرة وإقرارهم بالنشأة الأولى أنكر والنشأة الأخرى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء وجاز أن يكون هنا إشارة إلى المبهم يفسره ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده تقديره أنرجع إلى الحياة إذا متنا وصرنا تراباً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرجع ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ عن الوهم والعادة أو الإمكان وإنما أورد هذا أولاً مبهماً وثانياً مفسراً لأنه أدخل في الإنكار أو الأول استبعاد لأن يتفضل عليهم مثلهم والثاني استقصاء بقدرة الله تعالى عما هو أهون عليه مما يشاهدون من صنعه ثم رد الله تعالى إنكارهم للبعث فقال ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ يعني ما يأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت يعني لا يغرب من علمنا شيء فلا يتعذر علينا جمع ما نقص منها وبعثهم بعد الموت ومن قال هذه الجملة جواب للقسم قالوا اللام بحذوف لطول الكلام ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس ويتغير وقيل معناه حافظ التفاصيل الأشياء يعلم به من عنده من الملائكة وهذ الجملة حال من فاعل

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢٠٨).

علمنا ثم رد الله تعالى إنكارهم نبوة النبيّ ﷺ فقال ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات إضراب من الإضراب الأول فإن التكذيب بالشيء الثابت بالأدلة القطعية فوق من التعجبَ والاستبعاد ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ظرف متعلق بكذبوا ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء للسببية المريج المضطرب الملتبس فإن تكذبهم سبب لاضطرابهم في القول، قال قتادة والحسن من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه، وذكر الزجاج معنى اختلاط أمرهم أنهم يقولون مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم ومرة مجنون ومرة مفتر والأقوال متناقضة غالباً ثم رد تكذيبهم وأرشدهم إلى الاستدلال على قدرته على البعث بخلق العالم فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أكذبوا بالبعث فلم ينظروا حين كذبوا به ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء أو ظرف متعلق بلم ينظروا ﴿كَيْفَ﴾ حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ ورفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب وجملة بنيناها وزيناها بتأويل المفرد بدل من السماء والإستفهام بكيف للتقدير والمعنى ألم ينظروا إلى بنائنا السماء فوقهم وتزيينا إياها بالكواكب متكيفة بكيفية بديعة راسخة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي شقوق ومن زائدةٍ والجملة حال من مفعول بنيناها أي كائنة على حال ليس لها عيوب وشقوق ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل مقدر يفسره ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها والجملة معطوفة على بنيناها فإن قيل جملة بنيناها بتأويل المفرد بدل من السماء كما ذكرنا ولا يتصور ذلك في المعطوف قلنا في الكلام حذف وإضمار تقديره إما أن يقال أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وإلى الأرض من تحتهم كيف مددناها وإما أن يقال والأرض مددناها تحتها وجاز أن يقال الجملة بتأويل المفرد معطوفة على السماء والمعنى ألم ينظروا إلى مددنا الأرض ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبال ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف من النباتات ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن ذا بهجة وسرور ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ منصوبان على العلة الغائية فإن المقصود من خلق الأشياء كونها تبصرة وذكرى دالة على وجود الخالق القديم القدير العليم الواجب وجوده وصفاته الكمال المنزه عن النقص والزوال ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه بالتفكر في خلقه خص هذا العبد لكونه هو المنتفع به ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير النفع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ إضافة العام إلى الخاص على طريقة حق اليقين وكل الدراهم وعين الشيء يعني الحب الذي يحصد كالبر والشعير ونحر ذلك مما يزرع ويقتات به وإنما خص الحب بإضافة إلى الحصيد لأن المقصود من الحبوب والمنتفع به كمال الانتفاع ما يحصد ويقتات به وقيل هذه الإضافة من قبيل مسجد الجامع وصلاة الأولى بتأويل الصلاة الجامع

وصلاة الساعة الأولى، فالمعنى حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ونحوهما ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ معطوف على جناب ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ طويلات أو حاملات من بسقت الشاة إذا حملت أفردها بالذكر لكثرة منافعها وفرط إرتفاعها قال رسول الله ﷺ «**إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها وإن مثلها كمثل المسلم فأنبئوني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي فقال رسول الله ﷺ «هي النخلة»**[1] رواه البخاري من حديث ابن عمر وقال عليه الصلاة والسلام «أكرموا عمتكم النخل فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر» رواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى في مسنده، وابن عدي في الكامل والعقيلي وابن السني وأبو نعيم في الطب وابن مردويه عن علي(رض) ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ أي ثمر ومحل مسمى بذلك لأنه تطلع والطلع أول ما يظهر من قبل أن ينشق ﴿نَّضِيدٞ﴾ منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر جملة لها طلع نضيد حال ثان من النخيل ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ عليته للإنبات أو مصدر عن غير لفظ فإن الإنبات رزق ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء عطف على أنبتنا ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ أي أرضاً جدبة لانماء لها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الخروج للنبات من الأرض بعد سببها ﴿ٱلۡخُرُوجُ﴾ للأموات من القبور في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**ما بين النفخين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيت، قالوا أربعون شهراً، قال أبيت، قالوا أربعون سنة، قال أبيت ثم ينزل الله من السماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة**»[2] وأخرج ابن أبي داود نحوه وفيه ما بين النفختين أربعون عاماً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من تحت العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عاماً فينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك ما عرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ وأخرج أحمد وأبو يعلى والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم**» ثم أورد تسلية للنبيّ ﷺ ووعيدا للكافرين بمثل ما أصاب أمثالهم بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ أي ذو بطش يعني قبل كفار مكة ﴿قَوۡمُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: قول المحدث حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا (٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (٤٩٣٥).

نُوحٍ﴾ أنذر قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فكذبوه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون وأنجاه الله ومن أمن معه في الفلك المشحون ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرس بابتداء الشيء والبئر المطوية بالحجارة وبئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم درسوه في بئر والحفر ودفن الميت، وقال البغوي الرس البئر وكل ركية لم تطو بالحجاة والآجر فهو ريس وقيل الرس المعدن والجمع رسايس. واختلفوا في أصحاب الرس؟ فقال بعضهم كما قال صاحب القاموس هم بقية ثمود وقال البغوي روى أبو روق عن الضحاك أن بئراً كان بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وإن أربعة آلاف ممن آمن لصالح نجوا من العذاب فأتوا بحضرموت معهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي حضرموت لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حاصورا وقعدوا على هذا البئرِ وأمروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا ثم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان جهالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(١) قال سعيد بن جبير كان لأصحاب الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبيناهم حول البئر في منازلهم انهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً، وقال قتادة والكلبي الرس بئرٍ بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل، وقال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم في سورة ياسين، وقيل هم أصحاب أخدود الذين حفروها وقال عكرمة هم رسوا نبيهم في البئر ﴿وَثَمُودَ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ ﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾(٢) فجاء بناقة عشراء خرجت من صخرة فولدت ولداً مثلها وكانت تشرب الماء كله يوماً وتذر يوماً فقال صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾(٣) فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾(٤) فأنجى الله صالحاً والذين آمنوا معه وأخذت الذين

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٤.

(٤) سورة هود، الآية: ٦٥.

ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٍ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾(١) فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ وقومه العمالقة بعث الله إليه موسى وهارون، وقال: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾﴾(٢) ألقى عصاه فإذا هي حية تسع وأدخل يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء آية أخرى فكذب وتولى وقال أنا ربكم الأعلى فأوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً واضرب بعصاك البحر فكان كل فرق كالطود العَظيم فسار في البحر موسى ببني إسرائيل وأنجى الله موسى وبني إسرائيل وأتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم فلما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقال الله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾(٣) ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾، كذبوا المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾(٤) فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطر الله عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ كذب المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾(٥) إذ كانوا في حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم الله

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٧ ـ ٢٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩١ ـ ٩٢.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٦١ ـ ١٦٨.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٧٧ ـ ١٨٩.

سبحانه وهي الظلة، فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال البغوي قال قتادة هو تبع الحميري كان من ملوك اليمن وكان سار بالجيوش حتى حير الحيرة وبنىٰ سمرقند سمي تبعاً لكثرة أتباعه وكل واحد منهم سمي تبعاً لأنه يتبع صَاحبه وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعى قومه إلى الإسلام فكذبوه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن عكرمة عن ابن عباس وغيره قالوا كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن يكرب حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره فخرجوا لقتاله فكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه باللّيل فأعجبه ذلك، وقال إن هؤلاء لكرام فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران اسمهما كعب وأسد من أحبار بني قريظة عالمان وكانا ابني عم حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد ﷺ مولده مكة وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم، قال تبع من يقاتله وهو نبي؟ قالا يسير إليه فيقتتلون هاهنا فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن فأتاه في الطريق نفر من هذيل، وقالوا إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة قال أي بيت قالوا بيت بمكة وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد قط بسوء إلا هلك فذكر ذلك للأحبار فقالوا ما نَعْلَم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك ما أراد القوم إلا هلاكك لأنه ما ناداه أحد قط إلا هلك فأكرمه واصنع عنده ما يصنع أهله فلما قالوا له ذلك أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكة نزل الشعب شعب البطائح وكسا البيت الوصائل وهو أول من كسى البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيّام وطاف به وحلق وانصرف فلما دنى من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه وقالوا لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، قال تبع أنصفتم فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار

فأقبلت حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرهما ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حَمِيَّةٌ على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة آمن بالنبيّ ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائه سنة وذكر لنا أن كعباً كان يقول ذم الله قومه ولم يذمه، وكانت عائشة تقول لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً وقال سعيد بن جبير هو الذي كسا البيت روى البغوي بسنده عن سهل بن سعد قال سمعت النبيّ يقول «**لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم**» والبغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**ما أدري تبع أكان نبياً أو غير نبي**» انتهى كلام البغوي في سورة الدّخان ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد أو كل قوم منهم أو جميعهم ﴿كَذَّبَ﴾ أفرد الضمير للفظة كل ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ أورد صيغة الجمع لأن من كذب واحداً فقد كذب جميعهم أو لأنهم كانوا كلهم لا يؤمنون بالله وحده وكانوا ينكرون إرسال الرسل بالطريق الأولى ﴿فَحَقَّ﴾ وجب وحل ﴿وَعِيدِ﴾ أي وعيدي أي عذابي الموعود كل ذلك يحل بهؤلاء عن الكفار مكذبي الرسل أثبت الياء وصاية ورش والباقون حذفوها في الحالين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ في القاموس عيي بالأمر لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطلق أحكامه والهمزة للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على مضمون قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره معترضات والمستفاد إنكار تعقب الخلق ما سبق ذكره، والمعنى بيننا السماء بلا فروج ومددنا الأرض وألقينا فيها رواسي وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا بها ما ذكر فلم نعي بخلقها أول مرة كما ترونه تعترفون بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ أي خلط شبهة والمراد به الشك وأصل اللبس الستر وفي حالة الشك يختلط الحق بالباطل ويستر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي معاد وقال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون له عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله إتخذ الله ولد وأنا الله أحد الصمد الذي لم الد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[1] رواه البخاري، عن أبي هريرة وعن ابن عباس نحوه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ﴾ أي تحدث به ﴿نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسة الصوت الخفي والمراد ما يخطر بالبال وما فيما توسوس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الإخلاص (٤٦٩٠).

موصولة والباء في به صلة يقال صوت بكذا والضمير عائد إلى ما أو مصدرية والباء للتعدية والضمير عائد إلى الإنسان ونعلم خبر مبتدأ محذوف والجملة الإسمية حال من فاعل خلقنا أو مفعوله أو كليهما، وتقديره ونحن نعلم ما تحدث به نفسه فإن الله تعالى خلق الإنسان وسوسة ولكل شيء عرض وجوهر والخلق بالإختيار والإرادة مسبوق بالعلم ضرورة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الحبل العرق وإضافته إلى الوريد من قبيل شجرة الأراك ويوم الجمعة للبيان والجملة حال ثان من فاعل خلقنا والوريدان عرقان مكتنفان بصفحة العنق متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، قيل سمي وريدان لأن الروح يرده. واختلف أقوال العلماء في تصوير هذه الأقربية؟ فقال علماء الظاهر المراد قرب علمه منه، قال البيضاوي معناه نحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ففيه تجوز لقرب الذات لقرب العلم لأنه موجبه وحبل الوريد مثل يضرب لكمال القرب يقال الموت أدنى لي من الوريد، قال البغوي معناه نحن أعلم به منه لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء وعلى هذا التأويل يلزم جواز أن يقال الطبيب أقرب إلى المريض من حبل الوريد فإن المريض لا يعلم بعض أحواله وهو لا يعلم شيئاً من أحوال نفسه فيجوز أن يقال أنا أقرب من السماء من نفسه فالإقتصار في القول بأقربيته سبحانه إلى خلقه بهذا المعنى غير مرضي عندي، وقالت الصوفية العلية بل الله سبحانه أقرب إلى المخلوقات من أنفسها قرباً ذاتياً لا زمانياً ولا مكانياً ولا متكيّفاً بكيفية أصلاً يدرك ذلك القرب بنور الفراسة لا بالمشاعر أو الاستدلال وغاية ما يقال في هذا المقام أن العالم من حيث أنه محتاج في الوجود والبقاء إلى الواجب يشبه نسبته إلى الواجب بنسبة الظل إلى الأصل فإن الظل لا وجود له ولا بقاء إلا بوجود أصله فالأصل أقرب إلى الظل من نفسه والواجب أقرب إلى الممكن من نفسه بالذات ألا ترى أن الممكن ما لم ينتسب إلى الواجب لم يجب بالغير وما لم يجب لم يوجد وما لم يوجد لا يجوز حمله على نفسه حملاً أولياً فلا يقال زيد ما لم يوجد حينئذ لسلبه عن نفسه إذ يشترط وجود الموضوع للحمل الإيجابي وإن كان حملاً أولياً فوجود الممكن أقرب إلى ذات الممكن عن ذاته لجواز سلب الشيء عن نفسه ما لم يوجد، والمراد بالوجود هاهنا ما به الموجودية لا المعنى المصدرية فذات الله سبحانه أقرب إلى الممكن من ذاته فهو أبعد في الوجدان وأقرب بالذات ولما كانت الصوفية ينسبون العالم إلى دائرة الظلال والظلال إلى الصفات والصفات إلى الذات وفي الظلال مراتب كثيرة كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «إن لله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة لو

كشفت لأحرقت سبحاب وجهه وانتهى إليه بمن خلقه»[١] كذا في الصفات قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[٢] وقال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] فبناء على هذا قال المجدد وقدس سره العزيز أنه سبحانه وراء الوراء ثم وراء الوراء ثم وراء الوراء في جهته القرب دون البعد يعني ظلال الصفات أقرب إلى الممكن من أمكن وصفات الله تعالى أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال والله سبحانه أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال ومن الصفات والله تعالى أعلم.

فائدة: هذا النوع من القرب المستفاد من هذه الآية يعم الخلائق كلها حتى الكافرين ولله سبحانه بخواص عباده قرب آخر لا يشارك النوع الأول من القرب إلا اشتراكاً اسمياً لا حقيقياً وذلك القرب أيضاً يدرك بالفراسة الصحيحة ويستفاد من الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٤] وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٥] ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾[٦] ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٧] ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٨] وفي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٩] ونحو ذلك، وقال عليه الصلاة والسلام «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل»[١٠] ونحو ذلك وهذا القرب يسمى بالولاية ولها مراتب لا تعد ولا تحضى ولا يدل عليه كلمة لا يزال ويضاده البعد المختص بالكفار قال الله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[١١] ﴿بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[١٢] ﴿ألا بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١٣] - ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ أي يأخذ الملكان ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان بالإنسان ومفعول يتلقى محذوف مراد يعني يتلقى عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ الجار والمجرور متعلق بقعيد وقعيد بدل من المتلقيان والتقدير

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني وفيه موسى بن عبيدة لا يحتج به. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: في عظمة الله تعالى (٢٥٢).
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) سورة العلق، الآية: ١٩.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٧) سورة التكوير، الآية: ٢٠.
(٨) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(٩) سورة النجم، الآية: ٨ ـ ٩.
(١٠) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).
(١١) سورة هود، الآية: ٦٠.
(١٢) سورة هود، الآية: ٦٨.
(١٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أي مقاعد كالجليس بمعنى المجالس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل يطلق الفعيل على الواحد والكثير كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1] والمراد القعيد اللازم الذي لا يبرح إلا القاعد الذي هو ضد القائم، وقال مجاهد القعيد الرصيد والظرف متعلق باذكر يعني اذكر يتلقى أو متعلق بأقرب إيذاناً بأنه تعالى غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما لكنه لحكمة اقتضة وإلزام حجة يوم يقوم الأشهاد ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ الإنسان من فيه من قول من زائدة وقول مفعول به ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ ملك ﴿رَقِيبٌ﴾ يرقب عمله ليكتب ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر معه الإستثناء مفرغ والمستثنىٰ صفة لقول، قال الحسن إنما الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه وعند جماعه، وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يوزر فيه، روى البغوي بسنده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيآت فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه لسبع ساعات لعله يسبح ويستغفر**» ورواه ابن راهويه في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان، لما ذكر الله تعالى استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ببيان مبدأ خلق العالم من بناء السماء والأرض ومبدأ خلق الإنسان ومعاشه بقوله، ولقد خلقنا الإنسان إلى هاهنا عقب ذلك قرب الموت وقيام الساعة تهديداً وتوعيداً ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي غمرته شدته التي يغشى الإنسان ويزيل عقله جاء جاءت وما عطف عليه أعني نفخ وجاءت وكشفنا، وقال بصيغة الماضي ومعناه المستقبل للدلالة على قربه وتحقق وقوعه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للتعدية والمعنى أحضرت سكرات الموت الأمر المتحقق الثابت فإن الدنيا وما فيها كأنها سراب لا تحقق لها وما كان بعد الموت فهو أمر ثابت لا مردّ له والوعد الحق الذي لا يحتمل تخلفه من الموت أو الجزاء فإن الإنسان خلق له وجاز أن يكون حالاً متلبساً بالحق ومستصحباً له والحق هو الموت وما بعده، وجاز أن يكون بالحق جملة مؤكدة لما سبق يعني هذا القول متلبس بالحق ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الحق بمعنى الموت أو الجزاء ﴿ما كنت﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتفرعنه يعني تكره الموت وتنكر الجزاء وهذه الجملة بتقدير القول حال من مقدر تقديره جاءت سكرة موت الإنسان بالحق يقال له ذلك ما كنت منه تحيد فإن المراد بالموت موت الإنسان ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم يقول

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

لجهنم إن كان ظرفاً لنفخ وإلا فهو إشارة إلى مصدر نفخ والمضاف محذوف يعني وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ﴾ تحقق ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ والجملة مفعول يقال المحذوف يعني يقال ذلك يوم الوعيد، أخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال إن الذين يفرقون في البحر فتقسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فيلقها الأمواج على البر فيمكث العظام حتى تصير نخرة فتمر بها الإبل فيأكل ثم يسير الإبل فتبعرها ثم تجيء بعدهم قوم فينزلون منزلاً فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد ذلك النار فتجيء ريح فيلقي ذلك الرماد على الأرض، فإذا جاءت النفخة خرج أولئك وأهل القبور ﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿مَّعَهَا﴾ محلها النصب على الحال من كل لإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن عثمان بن عفان في ثلاثة قال سائق يسوقها إلى أمر الله تعالى وشهيد يشهد عليها بما عملت، وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة قال السائق الملك والشهيد العمل ذكر السيوطي في كتاب البرزخ من حدث جابر مرفوعاً «فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيآت فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضر معه أحدهما سائق وآخر شهيد» وأخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا، وقال البغوي وقال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل وهو رواية العوفي عن ابن عباس ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ على إضمار القول يعني يقال له لقد كنت في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي نزل بك هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الحاجب لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصور النظر عليها والران واسوداد القلب المكنى عنه بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾(٢) ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ تبصر ما كنت تنكره في الدنيا، قال البغوي روي عن مجاهد يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيآتك حديد ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الملك الموكل عليه عطف على يقال المحذوف ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر، إما موصوفة والظرف صفة له وعتيد صفة بعد صفة وإما موصولة خبر مبتدأ والظرف صلتها وعتيد بدل سنها أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة إما إلى الشخص أو إلى ديوان عمله يعني هذا شيء كائن عندي حاضراً وهذا الذي هو كائن عندي حاضراً وهذا حاضر فيقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل بمنزلة

(١) سورة البقرة، الآية: ٧. (٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

تثنية الفعل للتأكيد أو الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة للوصل مجرى الوقف ويؤيده ما قرىء بالنون الخفيفة ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي للزكوة المفروضة وكل حق وجب في ماله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله تعالى ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الموصول مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وهو النار أو الموصول بدل من كف كفار فألقياه تكرير للتأكيد الموصول مفعول يفسره فألقياه ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني الملك الموكل به كذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل، قال سعيد بن جبير يقول الملك ذلك حين يقول الكافر رب إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني ما كسبته إلى الكفر والطغيان وما زدت عليه في الكتابة ولكون هذه الجملة جواباً بالمحذوف أعني قول الكافر هو المغاني وكذب علي استؤنفت هذه الجملة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول بخلاف الأولى أعني ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ فإنها واجبة العطف ما قبلها للدلالة على جميع مفهوماتهما في الحصول أعني مجيء كل نفس وقول قرينه بما قال ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وقال بعض المفسرين المراد بالقرين الشيطان الذي قيض لهذا الكافر يعني أن الكافر يقول أطغاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أضللته ولا أغويته ولكن كان في ضلال بعيد فأعنته فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾(١) ولهذا ترى المخلصين الكرام الصوفية العلية شمروا ذيلهم وبذلوا جهدهم في مجاهدة أنفسهم وتزكيتها كيلا متطرق إليهم الشيطان والله أعلم، لكن ما ذكره علماء العربية أن المعرفة إذا أعيدت فالثاني غير الأول كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾(٢) معناه إن مع عسر واحد يسرين وإن الأصل في الإضافة العهد الخارجي يقتضي أن يكون المراد بقرينه ثانياً أيضاً الملك الموكل به كما قال سعيد بن جبير وغيره، وقال بعض المتأخرين المراد بالقرين في كلا القرينين الشيطان الذي قيض مع الكافر فهو له قرين ومعنى قوله هذا ما لدي عتيد هذا الشخص ما عندي وفي سلطاني عتيد لجهنم هيّنة لها بإغوائي ومعنى قوله ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد أن ما أطغيته كرهاً ولكن كان في ضلال بعيد فاتبعني باختياره واستجاب لي دعوتي إياه إلى الكفر والمعاصي ولم يستجب دعوة رسلك قال الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي موقف الحساب بحيث لا

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٥ ـ ٦.

فائدة فيه ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلم يبق لكم حجة وهو حال وفيه تعليل للنهي أي لا تختصموا عاملين بأن أوعدتكم والباء زائدة، وجاز أن يكون بالوعيد حالاً والمفعول به قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يعني لا يتخلف قولي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] فلا تطمعوا غفراني، وقال الكلبي واختاره الفراء أن المعنى لا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه لأني أعلم الغيب ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ليس المراد نفي مبالغة الظلم بل نفي أصل الظلم وإنما أورد صيغة المبالغة تعريضاً للمخاطبين يعني أن الكافرين في الظلم كما في قوله تعالى ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر يقول بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله سبحانه على نسق قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ والباقون بالنون على التكلم ولما سبق من الله تعالى أنه يملأ جهنم من الجنة والناس فهذا سؤال منه تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿وَتَقُولُ﴾ يعني جهنم في الجواب ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان إستفهام إنكار ومعناه قد امتلأت فلم يبق في موضع لم يمتلىء يعني لا يتصور المزيد على هذا الإمتلاء الذي حصل والصحيح أنه استفهام للاستزادة لما روى الشيخان في الصحيحين عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله تعالى لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة**»[3]

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨. (٢) سورة النور، الآية: ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٧٣٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٨).

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «**جهنم تسأل المزيد حتى يضع الجبار تعالى قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط**» وقال البغوي روي عن ابن عباس(رض) إن الله تعالى سبقت كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1] فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأها، فتقول ألست قد أقسمت لتملأني، فيضع قدمه عليها ثم يقول هل امتلأت فتقول قط قط فليس مزيد، وقال البيضاوي هذا السؤال والجواب جيء بهما للتخيل والتصوير يعني أنها مع اتساعها تطرح فيها من الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلىء لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هذا على تقدير كون الإستفهام للإنكار أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ أو إنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثر لهم والطالب للزيادة وهذين التوجهين على تقدير كون الاستفهام للإستزادة ولكن لا ضرورة إلى هذا التأويل والأولى الحمل على حقيقة السؤال والجواب ولا استبعاد في إنطاقها كإنطاق الجوارح، ويوم إما منصوب بتقدير أذكر مقدراً أو ظرف لنفخ وما عطف عليه على سبيل التنازع ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي أدنيت عطف على نفخ ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، منصوب على الظرف أي مكان غير بعيد أو زماناً غير بعيد وعلى الحال وتذكيره لأنه صفة محذوف أي شيئاً غير بعيد أو لأن الجنة بمعنى البستان والغرض من هذا التقييد التوكيد كما يقال قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل ﴿هَذَا﴾ الثواب أو الإزلاف مبتدأ خبره ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والضمير للمتقين والباقون بالتاء على الخطاب للمتقين بإضمار القول يعني لهم هذا ما توعدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتقين بإعادة الجار وجاز أن يكون هذا مبتدأ وما توعدون صفة ولكل أواب خبره والمعنى رجاع إلى الله عما سواه ظاهراً وباطناً وقيل رجاع من المعاصي إلى الطاعات، وقال سعيد بن المسيب الذي يذنب ثم يتوب وقال الشعبي ومجاهد الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها وقال الضحاك هو التواب وقال ابن عباس وعطاء المسبح كما في قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾[2] وقال قتادة المصلح، وعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال «**صلاة الأوابين حين ترمض الفصال**»[3] رواه مسلم ﴿حَفِيظٍ﴾ يعني دائم الحضور لا يغفل عن الله طرفة عين، وقال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعدنا أيضاً أنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٩. (٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الأوابين حين ترمض الفصال (٧٤٨).

يرجع ويستغفر منها يعني لا يرى ذنوبه سهلاً، وقال قتادة، حفيظ لما استودعه الله من حقه، وقال الضحاك هو المحافظ على نفسه المتعهد لها، وقال الشعبي المراقب، وقال سهيل بن عبد اللّه هو المحافظ على الطاعات ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلص مقبل على الطاعة ومحل من مجرور على أنه بدل بعد بدل للمتقين أو بدل من موصوف أواب أو مرفوع على الابتداء خبره ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تأويل يقال لهم أدخلوها فإن من معناه الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول أو صفة لمصدر أي خشية متلبسة بالغيب يعني خشي عقابه وهو غائب من الله تعالى يعني في الدنيا حين لم يره أو غائب عن عقابه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد، قال الضحاك والسدي والحسن يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد وتخصيص الرحمن للإشعار بأنهم رجوا رحمته وخافوا عذابه أو بأنهم يخشون عذابه مع علمهم بسعة رحمته لا يغترون برحمته ولا يجترئون على معاصيه ووصف القلب بالإنابة لأن المعتبر وإنما هي الإنابة بالقلب ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي متلبسين بسلامة يعني سالمين من العذاب والهموم وزوال النعمة أو بسلام يعني مسلماً عليكم من الله وملائكته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدخول بتقدير المضاف يعني وقت ذلك الدخول في الجنة ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(١) روى الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه**»(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «يقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»(٣) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ وهو مما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن فيتمنى ويتمنى فيقول هل تمنيت فيقول نعم فيقول لك ما تمنيت ومثله معه**»(٤) رواه مسلم، وأخرج نهاد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ وذكر حديثاً طويلاً قال فيه «ثم يقول الله تعالى إني عهدت إلى عبادي أني لا أدخل الجنة رجلاً إلا جعلت له

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

فيها ما اشتهت نفسه لكم فيها ما سألتم ومثله» وقال جابر وأنس والمراد بالمزيد النظر إلى وجه الله الكريم، أخرج مسلم وابن ماجه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم**» ثم تلا هذه الآية، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١] وروى ابن خزيمة وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري وكعب بن عجرة وابن عباس وحذيفة وابن مسعود وغيرهم عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبعث يوم القيامة منادياً ينادي الصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**» والله تعالى أعلم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ أي من قومك بطشاً قوة كعاد وفرعون وغيرهم وجملة هم أشد صفة لقرن ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ في القاموس نقب في الأرض أي ذهب كأنقب ونقب، قلت التشديد للتكثير والمعنى إذهبوا في البلاد للتعرف فيها والتمتع وحينئذ الفاء للسببية فإن شدة بطشهم سبب للتصرف في البلاد أو المعنى جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت والفاء حينئذ لمجرد التعقيب ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ من زائدة ومحيص في محل الرفع على الفاعلية أو النصب على المفعولية بفعل محذوف، والاستفهام للإنكار تقديره بل كان لهم محيص أو هل وجدوا لهم محيصاً فكيف يغفل أهل مكة ويلههم الأمل وجاز أن يكون نقبوا معطوفاً على أهلكنا والضمير عائد إلى أهل مكة والمعنى إنهم ساروا في بلاد القرون الخالية فتشوا أخبارهم ورأو آثارهم فهل محيصا حتى يتوقعوا مثلهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ السورة وإن كان ضمير نقبوا راجعاً إلى أهل مكة فيجوز أن يكون المشار إليه مصدر لقبوا يعني في سيرهم في البلاد ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب صاف عن الكامرات صالح لتجليات الصفات له لعينه غير متكفية بالذات مشتغل بالله فارغ عن غيره مصدق لحديث قدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[٢] ولا يكون القلب هكذا إلا بعد الفناء المصطلح للصوفية، وقال ابن عباس معناه كان له عقل تسمية الحال باسم المحل وقيل المراد قلب واع يتفكر في حقائق الأمور وكان إن كان ناقصة بمعناه أو بمعنى صار فقلب إسمه وله خبر وإن كان تامة فقلب فاعله وله حال من الفاعل والجار والمجرور أعني لمن كان الخ متعلق بذكرى أو بالظرف المستقر أعني في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٧).

(٢) قال الحافظ العراقي، لم أر له أصلاً، وفي حديث عقبة عند الطبراني «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين». انظر تخريج أحاديث الإحياء/ المجلد الثالث/ كتاب شرح عجائب القلب.

ذلك ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ عطف على صلة من ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال من فاعل ألقى يعني أن السورة موعظة لمن كان له قلب سليم أو استمع القرآن وهو شهيد حاضر قلبه ولو بتكلف لا بتغافل أو شاهد يصدقه فيتعظ بظاهرة وينزجر بزواجره قلت فالأول بيان الكاملين، والثاني بيان المريدين المخلصين نظيره قوله علي الصلاة والسلام «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] يعني يتصور الحضور بتكلف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن اليهود أتت رسول الله ﷺ فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والبحار يوم الإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من المنافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمداين والعمران والخراب وخلق الله يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية والتي الآفة على كل شيء ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر الساعة، قالت اليهود ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا قد أصبت لو أتممت، قالوا ثم إستراح فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ من تعب وإعياء ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اليهود إن الله تعالى أعني فاستراح أو المشركون في أمر البعث فإنه من قدر على خلق العالم فهو قادر على بعثهم والانتقام منهم، وروى مسلم عن أبي هريرة من غير ذكر اليهود ولاذكر نزول الآية، ولفظه أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر الساعة من النهار بين العصر إلى الليل»(١) قلت لعل ذكر خلق التربة يوم السبت من خلط بعض الرواية والصحيح أن بدء خلق العالم من يوم الأحد وتمامه يوم الجمعة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ والسبت اليوم السابع فإن قيل قد صحّ من الأحاديث ما يدل على أن خلق آدم بعد خلق السماوات والأرض والملائكة والجن بزمان طويل وكان قبل ذلك سلطنة الجن وكان إبليس في الملائكة وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا والجنة يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة وفسر قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾(٢) أنه قد أتى على آدم أربعون سنة ملقى من طين بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، كذا قال البغوي وغيره وهذا الحديث يدل على أن آدم خلق في آخر الساعة من جمعة خلق فيها الملائكة والفلكيات فكيف التوفيق؟ قلت لعل المراد بخلق آدم تقديره في اللوح المحفوظ يدل عليه وقوله «خلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء ينتفع به الناس» فإنه لا يتصور ذلك بمعنى التقدير ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني صل متلبساً بحمد ربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾يعني صلاة العصر وروي عن ابن عباس قال قبل الغروب الظهر والعصر هذا لعل قول ابن عباس مبني على أن وقت الضروري للصلاتين واحد كما قال به مالك وغيره ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ ويعني صلاة المغرب والعشاء وقال مجاهد المراد منه صلاة الليل، أي وقت صلّى يعني نوافل ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة مصدر أدبر إدباراً وقرأ الآخرون بفتحها على أنه جمع دبر، قال البغوي قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن والشعبي والنخعي والأوزاعي أدبار السجود ركعتان قبل صلاة المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفي عن ابن عباس ورواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً هكذا قال أكثر المفسرين، ولم يظهر لي وجه إطلاق أدبار السجود على صلاة قبل صلاة المغرب مع أن وقت الغروب قبيلها ليس وقت السجود والظن أن يكون المراد من أدبار السجود النوافل الراتبة بعد الفرائض وجاز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قل سبحان الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٢٧٨٩).

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١.

وبحمده، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله مئة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»**(١) روى الشيخان عنه مرفوعاً «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» وهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان جيبتان إلى الرحمٰن سبحان الله وبحمده سبحان العظيم» وقال مجاهد قوله تعالى:** ﴿وَسَبِّحْ﴾ هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«من سبح في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»** رواه مسلم والبخاري ونحوه أخرج مالك وابن خزيمة ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ صيغة أمره ما بعده بتأويل المفرد أو بتقدير المضاف مفعول به يعني اسمع ما على عليك أو اسمع حديث ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ فائدة قوله تعالى استمع التنبيه والتهويل وتعظيم المخبريه والظرف على التأويل الأول متعلق بفعل محذوف دل عليه يوم الخروج تديره يخرج الناس كلهم من القبور يوم ينادي، قال النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وابن مجاهد عن قنبل ينادي بالياء في الوقف فقط والباقون يقفون بغيرياء ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ اثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل خاصة نافع وأبو عمر والباقون حذفوها في الحالين قال مقاتل ينادي إسرافيل بالحشر أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وكذا أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافع في هذه الآية قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمركم أن تجتمع لفصل الخطاب ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ متعلق بيناد يعني من صخرة بيت المقدس وهو قريب من القبور لكونها من الأرض وهما في وسط الأرض، وقال الكلبي هي أقرب الأرض إلى السماء ثمانية عشر ميلا ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بدل من يوم يناد أي الأموات يسمعون بإذن الله تعالى فإن الأموات والجمادات في الاستماع إذا أراد الله تعالى كالأحياء فإن الموجودات لا تخلو عن نوع من الحياة كما حققناه في تفسير سورة الملك وكذا انعقد الإجماع على عذاب القبر على الروح والجسد جميعاً أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ وقف على قتل بدر فقال «يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان وهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٥) وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٢).

وعدني ربي حقاً» قال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجراماً لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً»[1] وقال القرطبي نفخة الإحياء تمتد وتطول فيكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور فلا يسمعون ما كان للإحياء ويستمعون ما كان للإزعاج، وقال السيوطي يحتمل السماع من أول وهلة للأرواح وهي في الصور، قلت ما ذكر من كلام إسرافيل خطاب للعظام والجلود لا للأرواح فلا فائدة في سماع الأرواح والله تعالى أعلم ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ يعني صيحة إسرافيل المذكور، وقال البيضاوي ولعله في إعادة نظيركن يعني أمر تكويني لا يشرط فيه السماع، قلت: لكن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ صريح في إثبات السماع فالأولى ما قلت بالحقّ متعلق بالصيحة والمراد به البعث للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ قرأ الكوفيون وأبو عمرو بتخفيف الشين بحذف أحد التائين والباقون بالتشديد بإبدال التاء شيناً والإدغام وأصله يتشقق ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي عن الأموات إذا ادعوا إلى الحساب والظرف أعني يوم تتشقق متعلق بفعل دل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تقديره يحشرون يوم تشقق الأرض عنهم ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع حال من الضمير المرفوع في الفعل المقدر يعني يحشرون سراعاً، وقيل من الضمير المجرور في عنهم يعني تشقق الأرض عنهم حال كونهم مسرعين في الخروج ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحشر دفعة واحدة المفهوم مما سبق ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، الظرف متعلق بيسير قدم عليه للاختصاص فإن ذلك لا تيسير إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة في تكذيبه فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ تجبرهم على الإسلام إنما بعث مذكراً وداعياً، أخرج ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس قال قالوا يا رسول الله ﷺ لو خوفتنا فنزلت ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ثم أخرج عن عمر مثله مرسلاً، قرأ ورش وعيدي وصلاً فقط والباقون يحذونها في الحالين يعني لا ينفع تذكيرك بالقرآن إلا من يخاف ما أوعدت به من عصاني من العذاب يعني المسلمين والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٥).

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾ مصدر يعني الرياح تذروا التراب وغيره أو النساء والمولود فإنهن يذرين أولاد أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرها، قرأ أبو عمرو بإدغام التاء في الذال ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي ثقلاً مفعول به يعني الرياح الحاملات للسحاب أو النساء الحاملات النطف والأجنة أو السحب الحاملة للمطر أو أسباب ذلك ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)﴾ صفة مصدر محذوف يعني جرياً سهلاً وهي الرياح الجارية في مهابها والنساء الجاريات في خدمة الأزواج يسراً لكونهن حاملات أو السفن الجارية في البحر سهلاً أو الكواكب التي تجري في منازلها ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾ مفعول به يعني الرياح التي تقسم الأمطار بتصرف السحاب أو الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها أو ما يعمها من أسباب القسمة فإن حملت على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة وإلا فالفاء للترتيب أفعال وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، ﴿لَصَادِقٌ﴾ يعني وعد صادق كعيشة راضية أي ذات رضاء ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي الجزاء من الثواب والعقاب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن لا محالة من الله سبحانه كأنه استدلال بما أقسم من الأشياء العجيبة الدالة على كمال قدرة الصانع الصانع المختار على الاقتدار على البعث الذي أوقعه جواباً للقسم ثم عطف على الحملة القسمية الأخرى فقال ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل في القاموس الحبك الشداد الأحكام

وتحسين أثر الصنعة في الثواب وحبك الرمل بضمتين حروفه الواحدة حباك ككتاب ومن الماء والشعير الجعد المنكسر منها ومن السماء طريق النجوم، قال البغوي قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوى يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه، وقال سعيد بن جبير ذات الزينة قال الحسن حبكت بالنجوم، قال مجاهد هي المتقن البنيان، وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطريق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد ولكنها لا يرى لبعدها من الناس، قال البيضاوي معناه ذات الطرايق والمراد إما الطرايق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار ويتوسل بها إلى المعارف أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزينها كما يزين المواشي طرايق الرشي وجواب القسم ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ في الرسول يعني قولهم تارة إنه شاعر وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنون أو في القرآن إنه سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو شعر قاله من تلقاء نفسه أو في القيامة فبعضهم شك فيه وبعضهم استحاله وأنكره، قال البيضاوي: لعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطريق للسماوات في تباعدها واختلاف غاياتها وجاز أن يكون خطاباً لأهل مكة يعم المؤمنين والكفار يعني منكم مصدق ومنكم مكذب ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي يصرف عن الرسول والقرآن ﴿مَنْ أُفِكَ﴾، أي صرف في علم الله تعالى يعني من حرمه الله تعالى عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، وجاز أن يكون ضمير عنه راجعاً إلى القول المختلف ويكون عن بمعنى من يعني يصدر إفك عن افك عن القول المختلف سببه ذلك أن كفار مكة إذا أراد رجل الإيمان يتلقونه ويقولون إنه ساحر كاذب كاهن مجنون غيصرفونه عن الإيمان وهذا معنى قول جاهد وهذه الجملة معترضة لبيان خيبة من لم يؤمن ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾ أي الكذابون وهم أصحاب القول المختلف من الكفار، والخرص الظن والتخمين من غير دليل موجب لليقين وكلما كان مبنياً على دليل صحيح لا يتصور فيه الإختلاف وذكرهم بعنوان الخراصين والجملة في الأصل دعاء بالقتل أجري مجرى اللعن ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي جهل وغباء يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْأَلُونَ﴾ محمد ﷺ إستعجالاً إنكاراً أو استهزاء ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء جملة يسألون في محل النصب على الحالية من الخراصين وجاز أن يكون لبيان علة لعنهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ أي يحرقون بالنار كما يفتن الذهب بالنار وعلى بمعنى الباء والظرف إما بدل من يوم الدين والمعنى يسألون متى يوم تعذبنا بالتاء يا محمد فحينئذ محله الرفع عى الإبتداء وفتح للإضافة إلى غير متمكن، وجاز أن يكون جواباً من الله تعالى لسؤالهم يوم

حينئذ خبر لمبتدأ محذوف أي هو يوم هم على النار يفتنون أو منصوب على الظرفية بفعل محذوف يعني يقع الدين يوم هم يفتنون فعلى تقدير كونه داخلاً في السؤال قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ يعني يقال لهم يقال لهم ذوقوا فتنتكم أي عذابكم أو جزاء كفركم وعلى التأويل الثاني حال من الضمير المرفوع في يفتنون بتقدير مقولاً لهم هذا القول هٰذَا بدل من فتنتكم موصوف لقوله ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً وجاز أن يكون هذا مبتدأ والموصول خبر يعني هذا هو الذي كنتم تستعجلون والجملة تعليل لقوله ذوقوا.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم ذكر الله سبحانه حال المؤمنين المصدقين النبيّ ﷺ والقرآن ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي أنهار جارية من الخير والكرامة حال من الضمير في الظرف يعني قابلين لما أعطاهم ربهم راضين به يعني كل ما يأتيهم يكون حسناً مرضياً مقبولاً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ عابدين لله تعالى بالحضور والإخلاص طالبين رضاه خالصة سبحانه يطلب رضاهم فهذه الجملة تعليل لما سبق ثم فسر إحسانهم وعللها بقوله ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ما زائده ويهجعون خبر لكان والهجوع النوم ليلاً وقليلاً منصوب على الظرفية ومن الليل صفة له مبينة أو على المصدرية ومن للتبعيض ومعناه كانوا ينامون زماناً قليلاً كائناً من الليل أو هجوعاً قليلاً في بعض الليل، وجاز أن يكون ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، وعلى التقديرين قليلاً إما منصوب على أنه خبر كان وما يهجون بدل اشتمال من الضمير المرفوع في كانوا أوما منصوب ظرف مستقر في محل النصب على الخبر وما يهجعون فاعل للظرف والمعنى كان ما يهجعون فيه أو هجوعهم قليلاً كائناً من الليل أو كانوا قليلاً من الليل هجوعهم أو ما يهجعون في ويصلون أكثر الليل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها إما من أوسطها أو من آخرها يعني كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً كذا قال مطرف بن عبد اللّه، وقال الضحاك ومقاتل كانوا من الناس قليلاً من الليل يهجعون يعني لا ينامون فعلى هذا قليلاً خبر كان وجملة من الليل ما

يهجعون مستأنفة وما نافية، قال البيضاوي وغيره هذا لا يجوز لأن ما بعد ما لا تعمل فيما قبلها ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ يعني في الأسحار ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ السحر السدس الآخر من الليل، وفي القاموس قبيل الصبح وطرف كل شيء، يعني أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة صلاتهم بالليل إذا سحروا أخذوا في الاستغفار هضماً لأنفسهم واستقصاراً لعملهم كأنهم أسلفوا في ليلتهم الجرائم ووقع عنهم التقصير في الطاعات وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله العظيم وخشيتهم من الله تعالى اللهم إني أسئلك خشية العالمين وعلم الخائفين منك ويقين المتوكلين عليك، قال الحسن معناه لا ينامون من الليل إلا قلة وربما نشطوا فمدوا إلى السحر ثم أخذوا في الاستغفار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له من الذي يسألني فأعطيه من الذي يستغفرني فأغفر له**»[(١)] متفق عليه وفي رواية مسلم «ثم يبسط يديه ويقول من يعترض غير عدوم ولا ظلوم حتى ينفجر الفجر» وقد صح عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا قام من الليل يتهجد يستغفر يقول «اللّهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق وعدك الحق بقاؤك حق وقولك حق والنار حق والنبيّون حق ومحمد حق والساعة حق اللهُّم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت ربنا وإليك المصير فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك»[(٢)] متفق عليه من حديث ابن عباس، وعن عبادة بن صامت قال: قال رسول الله ﷺ «**من تعارّ من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال رب اغفر لي أو قال ثم دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته**»[(٣)] رواه البخاري، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الذكر والدعاء في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: التهجد بالليل (١١٢٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل من تعارّ الليل فصلى (١١٥٤).

من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك اللهمَّ زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**»[١] رواه أبو داود ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ يعني يعطون من أموالهم السائلين الذين يسألون الناس والمحرومين يعني المتعففين عن السؤال الذين يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف فالمحسنين يعطونهم إذ يعرفونهم بسيماهم بفقد أحوالهم كذا قال قتادة والزهري وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب المحروم الذي ليس له سهم من الغنيمة ولا يجري عليه من الفيء شيء، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابوا غنماً فجاء قوم بعدما فرغوا يعني من القسمة فأعطاهم الغانمون منها فنزلت هذه الآية، وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته كذا قال محمد بن كعب القرظي وقرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٢] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قال أكثر المفسرين هذه الجملة ما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ وما بينهما معترضات وعندي هي معطوفة على ما سبق في تفسير المحسنين والثناء عليهم لكن فيه وضع المظهر موضع المضمر الراجع إلى المحسنين إيذاناً لتحصيل الإيقان بالاستدلال والتفكر في الآيات تقديره وفي الأرض آيات لهم فإنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صماً وعمياناً بل ينظرون بأبصارهم ويتفكرون في خلق الأرض ودحوها كالبساط وارتفاع بعضها على الماء ليسكن عليها عباد الرحمن واختلاف أجزائها في الكيفيات والمنافع وما خلق الله فيها من المعادن والنباتات والحيوانات والعيون والأنهار ويستدلون بها على وجود الصانع الواجب وعلمه وقدرته وإرادته وحده وفرط رحمته وحكمته ثم ينظرون ببصائرهم ما يترشح عليها وعلى ما فيها من الله تعالى وبركات وجودها وبقائها ورحمته ويسأل من فيها ما يحتاج إليه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾[٣] ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ عطف على في الأرض يعني وفي أنفسكم أيها الناس آيات لهم فإن في العالم الصغير أعني نفس الإنسان كائن من الآيات كما في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول الرجل إذا تعارّ الليل (٥٠٥٣).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩ ـ ٣١.

العالم الكبير من بدء خلقه إلى مماته حيث كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح ثم يسر الله سبيله إلى الخروج ثم هدى إلى سبيل معاشه رضيعاً وفطاماً واكتساب أقواته والتغذي بالأكل والشرب ودفع الفضول بالبول والغائط وسبيل إبقاء نوعه بانكاح وإلى سبيل معاده بإرسال وإنزال الكتب، وأظهر فيه بدائع صنعه من اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع والعقول والأفهام واختلاف استعداداتهم في قبول الحق وسلوك سبيل الرشاد وصعود مدارج القرب ومعارج العرفان فينظر العارف بعض هذه الأمور بالإبصار ويقول تبارك الله أحسن الخالقين وبعضها بالبصائر وينظر بالبصائر ما يتجلى على السرائر من التجلبات الذاتية والصفاتية والظلالية ولا يتطرق إليه مجال القمال وعبر عنه بالحديث القدسي «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»(١) الحديث فيقول العارف الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أيها الخراصون ما يبصره المحسنون للموقنون والفاء للعطف على محذوف تقديره أتنكرون قدرة الله على البعث فلا تبصرون وهذه الجملة معترضة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ قال ابن عباس ومقاتل يعني المطر الذي سبب رزق وهذا مبني على ما ورد في الشرع أن المطر ينزل من السماء، وقال البيضاوي قيل المراد بالسماء والسحاب وبالرزق المطر وهذا مبني على مذهب الفلاسفة وقال أيضاً أسباب رزقكم أو تقديره عندي أن رزقكم خطاب المحسنين الموقنين على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وفي السماء عطف علي في الأرض وفي أنفسكم عطف مفرد على مفرد ورزقكم بدل من الآيات، وجاز أن يكون عطف جملة على جملة والمراد بالرزق إما الحظ والنصيب كما في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾(٢) المراد بالرزق هاهنا إما الآيات الدالة على الله سبحانه من الشمس والقمر والكواكب وحركاتها وما يترتب عليها من اختلاف الفصول والمنافع والمضار بدليل ذكر الآيات في الأرض والأنفس فإن الاستدلال بها والتفكر فيها حظ المحسنين الموقنين لا غير وكذا ما يترتب على الاستدلال بها والتفكر فيها من الرحمة والبركات وماينزل على العارف من التجليات فإن كل ذلك رزق المحسنين وحظ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

للموقنين دون من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وهم يعمهون، قال العارف الرومي قدس سره أبيات بالفارس وإما الرزق المأكول وحينئذ يراد بالآية التنبه والإشعار بأن رزقكم بيد الله مكتوب في السماء فينبغي أن لا تطلبوا الرزق من غير الله تعالى واعبدوا الله مخلصين له الدين من غير رياء وسمعة قائلين لانسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً فعلى هذا التقدير أيضاً في الآية إشارة إلى تفسير المحسنين والثناء عليهم يعني هم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويخلصون لله الأعمال موقنين بأن رزقهم في السماء متوكلين على الله ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عطف على رزقكم، قال البغوي قال عطاء وما توعدون من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر، وقال الضحاك ومن الجنة والنار يقال مكتوب في السماء وما توعدون لأن يقال كائن في السماء وما توعدون فإن الجنة فوق سبع سماوات دون النار فإنها تحت الأرضين السبع كما نطقت به الأحاديث وعلى ما قلت من التأويل أن الخطاب مختص بالمحسنين يصح القول بأن ما توعدون من الثواب والجنة كائن في السماء، وقيل وما توعدون كلام مستأنف وما موصولة أو مصدرية مبتدأ وخبره ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضمير والمنصوب لما وعلى الأول يحتمل له ولما ذكر سابقاً من البعث والجزاء والرزق والوعد والوعيد ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي مثل بالرفع على أنه صفة لحق والباقون بالنصب على أنه حال من المستكن في الحق أو وصف لمصدر محذوف يعني أنه لحق حقا مثل نطقكم، وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء وإن مع جملتها إن كانت ما زائدة ومحله الرفع شبه الله سبحانه الرزق وغيره مما وعد وأخبر به ينطق الإنسان، قال البغوي ما أنكم تنطقون فتقولون لا إله إلا الله يعني المراد بالنطق المنطوق والخطاب إن كان للمحسنين فمنطوقه غالباً لا إله إلا الله وإن كان الخطاب عاماً فشبه تحقق ما أخبر عنه يتحقق نطق الآدمي كما يقال أنه لحق كما أنت هاهنا وأنه لحق كما أنت تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة، وقال بعض الحكماء يعني أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره، حكى في المدارك عن الأصمعي أنه قال أقبلت من جامع البصرة فطلع عليّ أعرابي فقال ممن الرجل قلت من بني أصمع قال من أين أقبلت قلت من موضع يتلى فيه كلام الله الرحمن قال أُتْلُ عليّ فتلوت والذّاريات فلما بلغت قوله في السماء رزقكم قال حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل

وأدبر وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولى، فلما حججت مع أمر الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بصوت رفيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلّم عليّ واستقرأ السؤال فلما بلغت الآية صاح قال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال وهل غير هذا فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح فقال سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه يعني مقتضى البلاغة أن يؤكد الكلام على حسب إنكار المخاطب فالله سبحانه أورد الكلام بكمال المبالغة في التأكيد حيث أقسم عليه وأكد بكلمتان ولام التأكيد والإخبار بأنه حق والتشبيه بما هو أجلى البديهيات وليس هذه الإشارة إلى الناس كأنهم في غاية الإنكار في تقدير الرزق الموعود كاد حين في اكتساب ما التزم الله سبحانه على نفسه بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[1] غافلين عما كلفهم الله به وعلق به الثواب والعقاب الأبدي لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ إستفهام للتقرير يعني قد أتاك والغرض منه تفخيم شأن الحديث والتنبيه على أنه أوحي إليه قبل ذلك ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ضيف في الأصل مصدر ولذا يطلق على الواحد والمتعدد، قال البغوي اختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وقال محمد بن كعب كان جبرئيل ومعه سبعة، وقال الضحاك كانوا تسعة، وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً، وقال السدي كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

قبل أن يعرفهم حيث خدمهم بنفسه وأهله وعجل إليهم قراهم وذلك سنة المرسلين ودأب المهتدين قال رسول الله ﷺ **«من كان يؤمن الله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»** وفي رواية «فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[1] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحين من حديث أبي شريح الكعبي بلفظ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه» وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[2] وقيل سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً على الله تعالى قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[3] ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ الظرف متعلق بالحديث أو الضيف أو المكرمين والضمير راجع إلى الضيف من حيث المعنى عَلَيْهِ أي على إبراهيم عليه السلام ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي نسلم عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي عليكم سلام عدل إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحية أحسن من تحيتهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾[4] وجملة قال سلام استئناف كأنه في جواب ماذا قال إبراهيم حين سلموا عليه قرأ حمزة والكسائي سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها المعنى واحد ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون لا نعرفكم، قال ابن عباس قال في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا نعرفهم قال أبو العالية أنكر سلامهم في ذلك الزمان في تلك الأرض لأن السلام علم الإسلام ﴿فَرَاغَ﴾ أي ذهب وقال عطف على قال ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مبادرة في القرى ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي لأنه كان عامة ماله البقر ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضع بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الهمزة للإنكار إن كان بعدما رأى أنهم لا يأكلون وإن كان

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا في الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: إطعام الطعام من الإسلام (١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٣٩).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٦.

في أول الأمر فالهمزة للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب ﴿فَأَوْجَسَ﴾ يعني أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه عن ابن عباس أنه وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ يعني إسحاق عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمل علمه إذا بلغ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي صيحة، قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان وإنما هو كقول القائل أقبل يشتمني أي أخذت تصيح، وعلى هذا التأويل قوله في صرة في محل النصب على المفعولية وإن كان المراد الإقبال من مكان إلى مكان فهي في محل النصب على الحال ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال ابن عباس لطمت وجهها يعني جمعت أصابعها فضربت وجهها كما هو عادة النساء عند التعجب إذا أنكرت شيئاً، وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ يعني أتلد عجوز عقيم وكانت سارة لم تلد قبل ذلك وكانت بنت تسعين سنة ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ يعني قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلنا وإنما نخبرك من الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان وما يكون فيكون قوله حقاً وفعله محكماً ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعني قوم لوط كانوا يعملون الخبائث التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر فأرسل الله إليهم أخاهم لوطاً فكفروا به وقالوا أتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب نجني من القوم الظالمين وانصرني على القوم المفسدين فأرسل الله إليهم الملائكة ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ متحجر وهو السجيل ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور قال ابن عباس يعني للمشركين فإن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط وإضمارها عدم سبق ذكرها لكونها معلوماً بالسياق ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلوط عليه السلام وذلك قوله تعالى قالوا يعني الملائكة ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[1] ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿غَيْرَ﴾ أهل ﴿بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

يعني لوط وبناته وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

وهو مسلم ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المعتبرين بها وهي تلك الحجارة الواقعة في تلك القرى أو صخر منضود فيها أو ماء أسود منتن.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطف على قوله وتركنا فيها على معنى وجعلنا في إرسال موسى آية وهذا كقوله علفتها تبناً وماء بارداً يعني وسقيتها ماء بادراً وهذا أقرب وأنسب مما قيل إنه معطوف على قوله وفي الأرض لبعده وعدم المناسبة في القصة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ هذا الظرف متعلق بما تعلق به في موسى يعني جعلنا في موسى وقت إرسالنا إياه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة يعني معجزاته كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين وفلق البحر ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض فرعون عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان ينضو بهم ﴿وَقَالَ﴾ فرعون هو أي موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال أبو عبيدة أو بمعنى الواو والظاهر أنها بمعناه فإنه لما رأى على يديه الخوارق قال ساحر ولما سمعه يقول مالا يدركه عقله السقيم زعم أنه مجنون وبين كلاميه منافاة، وقال البيضاوي كأنه جعل ما ظهر منه من الخوارق منسوباً إلى الجن وتردوني أنه هل حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما يعني إن كان باختياره فهو ساحر وإلا فهو مجنون ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في اليم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والعناد والتكبر والجملة حال من الضمير المنصوب في أخذناه ﴿وَفِى عَادٍ﴾ يعني تركنا في إهلاك عاد آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً وكانت دبوراً لقوله عليه الصلاة والسلام «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(١) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني جعلت الأشياء كالرماد من الروم وهي البلى والتفتت ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ يعني وتركنا في إهلاك ثمود آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ قال لهم صالح لما عقروا لناقة ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ في دياركم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني ثلاثة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا» (١٠٣٥).

أيام ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ استكبروا عن امتثاله واتباع صالح والإيمان به ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ قرأ الكسائي الصعقة بإسكان العين من غير ألف والباقون بالألف بعد العين والصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والصعق محركة شدة الصوت كذا في القاموس أخذتهم بعد مضي الأيام الثلاثة ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ للهرب بعد نزول العذاب، قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين منه أو منتقمين منا ﴿وَقَوۡمَ نُوحٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي قوم بالجر عطفاً على ثمود يعني تركنا في إهلاك قوم نوح آية والباقون بالنصب على أنه مفعول بفعل محذوف دل عليه السياق تقديره وأهلكنا قوم نوح ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ أي من قبل قوم لوط وفرعون وجنوده وعاد وثمود ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكثر والمعاصي.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس أي قادرون ومطيقون من الوسع بمعنى الطاقة كما في قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[(١)] والجملة حال من فاعل بنينا وجملة والسماء عطف على وَفي مُوسىٰ، وقال الضحاك غنى به الأغنياء كما في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[(٢)] وفي رواية عن ابن عباس إنا لموسعون الرزق على خلقنا، وقيل معناه لموسعون

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

السماء أو ما بنيناها وبين الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي مهدناها ليستقروا عليها والتركيب نحو ما سبق ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين قلت ليس المراد تعين تعدد التثنية بل المراد تعدد أصناف المخلوقات يعني خلقنا من كل شيء أصناف ذات عدد فوق الواحد أدناه المثنى بل كان فرد منه ذو جهتين خير من وجه وشر من وجه معدوم بالذات واجب بالغير عاجز بالذات قادر بالغير ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا وتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات والواجب بالذات لا يقبل التعدد والإنقسام واجب وجوده لا يصادم وجوده العدم قادر لا عجز له ﴿فَفِرُّوٓا﴾ من كل شيء إلى الله بالتوجه والمحبة والاستغراق وامتثال الأوامر وكسب السعادات حتى تخلصوا من النقائص والشرود وتفوزوا بالخيرات وتصعدوا مصاعد القرب والكمال والفاء للسببية فإن التذكر والتدبر في شأن الممكنات والواجب تعالى يوجب الفرار منها إليه تعالى، وهذه الجملة بتقدير القول من كلام الرسول ﷺ ليرتبط بما بعده يعني قل يا محمد ففروا إلى الله ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عذابه المترتب على غضبه وهجرانه وبعده وعصيانه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين كونه نذيراً من الله تعالى بالمعجزات أو مبين ما يجب أن يحذر عنه ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكاً له في وجوب الوجود أو في استحقاق العبودية أو في كونه مقصوداً لكم ومحبوباً مشتغلاً به ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ للتأكيد أو الأول لتحذير الخواص عن مطلق التوجه والمحبة بغيرة تعالى والثاني لتحذير العوام عن الشرك والمعاصي كما يدل عليه السياق يعني إن لم تقدروا على الفرار من كل شيء حتى من أنفسكم إلى الله تعالى فلا تجعلوا مع الله إلهاً آخر في العبادة وامتثال الأوامر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي شأنك مع قومك كذلك الشأن للرسل من قبلك مع أقوامهم ولما كان في التشبيه إبهاماً فسره بقوله ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الضمير عائد إلى كفار مكة والمراد بالموصول كفار الأمم السابقة مفعول لآتي وفاعله ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من زائدة في النفي للاستغراق ﴿إِلَّا قَالُوا۟﴾ استثناء مفرغ والمستثنى في محل النصب على الحالية من فاعل أتى أو مفعوله أو كليهما يعني ما أتاهم رسول في حال إلا حال قولهم ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة مقوله، قالوا يعني قالوا هذا ساحر أو مجنون كما يقول لك قومك وجاز أن يكون مشار إليه بذلك تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً مجنوناً وجملة ما أتى علة للتشبيه ﴿أَتَوَاصَوْا۟﴾ أي الآخرون من الكفار به بهذا القول يعني أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوا جميعاً والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إضراب عن التواصي من جميعهم بهذا القول لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان

الحامل عليه وقوله كذلك إلى قوله طاغون معترضات لتسلية النبيّ ﷺ وقوله فتول عنهم أي عن الكفار عطف على قل المقدرة يعني قل ففروا الخ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن مجادلتهم بعدما كررت عليهم الدعوة فأبوا للإصرار والعناد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ على الإعراض بعدما بذلت جهدك في البلاغ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي عنه قال لما نزلت فتول عنهم فما أنت بملوم لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلاكة إذا أمر النبيّ ﷺ أن يتولى عنا فنزلت ﴿وَذَكِّرْ﴾ الآية فطابت أنفسنا، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أنه لما نزلت فتول عنهم الآية اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى وذكر الآية كذا ذكر البغوي قول المفسرين وقوله تعالى ذكر عطف على قوله تولّ يعني لا تدع التذكير والموعظة ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، تعليل لقوله تعالى ذكر يعني أن الذكر ينفع المؤمنين ويزداد لهم البصيرة وإن لم ينتفع الكفار أو المعنى تنفع من قدر الله إيمانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي إلا لأمرهم بعبادتي وأدعوهم إليه يعني للتكليف يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[١] كذا ذكر البغوي قول علي (رض) قال مجاهد إلا ليعرفوا والكفار أيضاً يعرفون وجوده تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢] وقيل معناه إلا ليكونوا عباداً لي أو ليخضعوا إلي ويتذللوا ومعنى العبادة في اللغة التذلل والإنقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى متذلل المشيئة لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له، وقيل إلا ليوحدون أما المؤمنون فيوحدون في ا لشدة والرخاء أما الكافرون فيوحدون في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] قال صاحب المدارك الكفار كلهم يوحدون الله في الآخرة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٤] وإشراكهم في الدنيا وهي بعض أحيان وجودهم لا ينافي كونهم مخلوقين للتوحيد، قلت والقول ما قال علي(رض) ما سواه أقوال ضعيفة واهية والذي حملهم على ما قالوا أن ظاهر الآية يقتضي أنهم خلقوا مراداً منهم الطاعة وتخلف مراد الله تعالى محال

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

وقد قال رسول الله ﷺ «**كلٌ ميسر لما خلق له**»[١] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[٢] وقال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل الطاعة من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس ما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون، وعندي تأويل الآية ما خلقت الجن والإنس إلا مستعدين للعبادة صالحين لها نظيره قوله ﷺ «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول فطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**»[٣] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهذا التأويل يناسب تأويل علي(رض) ومقتضى هذه الآية ذم الكفار لأجل إضاعتهم الفطرة السليمة هي أصل الخلقة ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ المراد أن شأنه تعالى مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم فإنهم إنما يملكونهم يستعينوا بهم في تحصيل رزقهم وكسب طعامهم والله تعالى منزه عن ذلك، وقيل معناه ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم وأن يطعموا أحداً من خلقي وينافي هذا التأويل إسناد الإطعام إلى نفسه واجب بأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه كما جاء في الحديث «**يقول الله يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**»[٤] رواه مسلم من حديث أبي هريرة في حديث ذكر فيه مرضت فلم تعدني واستسقيتك فلم تسقني قلت هذا قول بالتجوز ومع ذلك يرد عليه أن الله تعالى أراد من المؤمنين وأمر الناس أجمعين بأداء زكاة أموالهم رزقاً للفقراء وأن يطعموا أنفسهم وأهليهم ومن وجب عليهم نفقاتهم فكيف يقال ما أريد منهم أن يرزقوا اللهمَّ إلا أن يقال المقصود من إيجاب الزكاة إمتثال الأمر وفعل الأداء دون الترزيق، ومن هاهنا قال أبو حنيفة لا يجب الزكاة على الصبي والمجنون ولكن هذا الجواب لا يستقيم في العشر والخراج ونفقة الآباء والأولاد والزوجات فإن المقصود إيصال الرزق إلى العباد ولذا تجري فيها النيابة ويتأدى بأداء ولي الصبي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: القدر، باب: جف القلم على علم الله (٦٥٩٦)،

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

لجميع خلقه مستغن عنه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ على الترزيق وعلى كل ما أراد ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ شديدة المبالغ في القدرة، قيل في تأويل الآية أن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الخ من كلام رسول الله ﷺ مقدر بقل يعني قل يا محمد ما أريد منهم أي من الناس من رزق نظيره ﴿لا أسالكم عليه أجراً﴾[1] قال بعض المحققين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ بتقدير قل عطف على ذكر وإلى قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ داخل في مقولة قل لا يقال كيف يصح ما خلقت الجن الخ كلاماً للرسول لأنا نقول هو على طريقة قول الملك للسفير قل إن الملك أمركم بكذا فيقول السفير بقول الملك إني آمركم بكذا أو أن الأمير يأمركم بكذا ومثل هذا متعارف ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي وإضاعة الفطرة السليمة ووضع الكفران موضع العبادة التي كفلوا بها وخلقوا مستعدين لها ﴿ذَنُوبًا﴾ أي نصيباً من العذاب وهو في الأصل الدلو العظيم الذي له ذنب واستعير للنصيب أخذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلاء، وقال الزجاج الذنوب في اللغة النصيب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة كعاد وثمود وفرعون وقوم نوح وقوم لوط والفاء للسببية تعليل لقوله فتولّ عنهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ الفاء أيضاً للسببية يعني إذا سمعت وعيدي لكفار فهو يكفيك للتسلية فلا تستعجلوني في تعذيبهم وجاز أن يكون هذا خطاباً بالكفار جواباً لقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ يعني يوم القيامة، وقيل يوم بدر الفاء للسببية مسبب لتحقق الوعيد والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

سورة الطور

آياتها تسع وأربعون وفيها ركوعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ وهو الجبل بالسريانية والمراد به طور سينين جبل بمدين سمع موسىٰ فيها كلام الله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ السطر ترتيب الحروف المكتوب والمراد به مكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ الرق الجلد الذي يكتب استعير لما كتب فيه الكتاب ﴿مَّنشُورٍ ۝٣﴾ لأجل التلاوة صفة لرق والظرف متعلق بمسطور وتقيد الكتاب بكونه مكتوباً في رق منشور يأبى كونه لوحا محفوظاً فالمراد به إما القرآن أو جنس ما كتب فيه الشرائع، وقال الكلبي هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم ومقتضى هذا القول مناسبته وعطفه على الطور، وقيل المراد به دواوين الحفظة يخرج لهم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة يقال له الصراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، روى مسلم عن أنس في حديث المعراج وقال عليه السلام «في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف لا يعودون إليه»[1] قال البغوي يطوفون به

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٢).

ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً عمارته كثرة غاشيته من الملائكة، قال البيضاوي المراد به الكعبة وعمارتها بالحجاج والمجاورين أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ يعني السماء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾[1] ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾، في القاموس سجر التنور حمأه والنهر ملأه وقال محمد بن إسحاق والضحاك يعني الموقد المحمىٰ بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **«لا يركبن رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً أو تحت النار بحراً»** وعن يعلى بن أمية أن النبي ﷺ قال البحر جهنم، وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب (رض): قال ما رأيت يهودياً أصدق من فلان زعم أن نار الله الكبرى هي البحر فإذا كان يوم القيامة جمع الله فيه الشمس والقمر والنجوم ثم بعث عليه الدبور فسعرته، وأخرج أبو الشيخ عن كعب في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ قال: البحر يسجر فيصير نار جهنم، وأخرج البيهقي في الشعب عن وهب قال إذا قامت القيامة أمر بالفلق فيكشف عن سقر وهي غطاءها فيخرج منه نار فإذا وصلت إلى البحر المطبق على شفير جهنم وهو البحر المسجور أسرع من طرفة عين وهو حاجزبين جهنم والأرضين السبع فيدعها جمرة واحدة، وقال مجاهد والكلبي المسجور المملوء ويقال سجرت الإناء إذا ملأته، وقال الحسن وقتادة وأبو العالية هو اليابس الذي قد ذهب ماءه، وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح، وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور وهو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعون صباحاً فينبتون في قبورهم وهذا قول مقاتل أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ بالكفار ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ يدفعه الجملة صفة لواقع، قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ فكأنما صدع قلبي حين سمعته ولم أكن أسلم يومئذ قال فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن إلا أن أقوم من مكاني حتى يقع بي

(١) سورة الأنبيا، الآية: ٣٢.

العذاب ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ أي تدور كدوران الرحى وتنكفأ بأهلها تكفأ السفينة، وقال قتادة تتحرك، وقال عطاء الخراساني تختلف أجزاءها بعضها في بعض وقيل تضطرب وكل ذلك جاء معاني مور في اللغة الذهاب المجيء والتردد والدوران والاضطراب كذا في القاموس، وهذه الآية تدل على أن السماء غير متحرك كالأرض والجبال خلافاً للفلاسفة والظرف متعلق لواقع ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ عطف على تمور يعني تسير عن وجه الأرض فتصير هباء ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذا وقع ذلك الفاء للسببية فإن وقوع العذاب الغير المدفوع سبب للويل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غافلين لاهين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ بدل من يوم تمور إلى ﴿نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي دفعاً بعنف وجفوة وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم ويزعجون إزعاجاً حتى إذا دنوا منها يقول لهم خزنتها ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ وجاز أن يكون يوم يدعون ظرفاً ليقول مقدر هاهنا وهذه الجملة بتقدير يقول لهم حال من المكذبين ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ عطف على ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ والإستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للتعقيب والمعنى أي يتعقب مشاهدة النار كونها سحراً يعني كنتم تقولون للوحي وما يشهد من المعجزات هذا سحر وهذا مصداقه فلو كان ذلك سحراً فهذا أيضاً سحر على زعمكم وتقديم الخبر لأنه المقصر بالإنكار والتوبيخ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه النار كما كنتم لا تبصرون ما يدل عليه في الدنيا وتقولون إنما سكرت أبصارنا وهذا الكلام تهكم بهم ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل خبر مبتدأ محذوف الأمران مستويان عليكم والجملة تأكيد لما سبق ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان جزاء الكفر واجب الوقوع بإيجاب الله تعالى ووعيده كان الصبر وعدمه سيّان في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم
مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا
كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا

﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾ وتنكيرهما للتعظيم يعني جنات عظيم ونعيم فخيم ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذذين حال من الضمير في الظرف ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إبهام ما أتاهم وإسناده إلى ربهم للتفخيم والتعظيم يعني ناعمين بشع وعظيم أو بالذي هو عظيم الشأن أنهم أكرم الأكرمين وأعظم العظماء ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطف على أتاهم إن جعل ما مصدرية أو على في جنات أو حال من فاعل أتى أومن مفعوله أو كليهما ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ بتقدير يقال لهم خبر بعد خبر لأن أوحال من المستكن في الظرف أو الحال ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً والهنيء ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسببه أو مقابلته، وقيل الباء زائدة وما فاعل لهنيأ والمعنى هنيئكم هنيا ما كنتم تعملون أي جزاؤه وحينئذ هنيئاً جملة معطوفة على كلوا مقولة قال المقدر ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من اللظرف أي في جنات أو في فاكهين أو من الضمير في كلو أو أشربوا على التنازع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بمتكئين ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ عطف على خبر إن أو على أن الماضي في معنى المستقبل ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباء للالصاق فإن التزويج معنى الوصل أو للسببية يعني صيرناهم أزواجاً بسببهن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو أتبعناهم بقطع الألف وإسكان التاء والعين من الأفعال وضمير المتكلم مع الغير تعظيماً والباقون بوصل الألف وفتح التاء والعين من الافتعال وتاء التأنيث الساكنة ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ أبو عمر وابن عامر ويعقوب ذرياتهم للمبالغة في كثرتهم فكسر أبو عمرو التاء منصوباً على أنه مفعول ثان لأتبعناهم وضم ابن عامر ويعقوب مرفوعاً على الفاعلية وقرأ الباقون ذريتهم بالتوحيد مرفوعاً على الفاعلية والذرية يقع على الواحد والكثير ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الضمير المنصوب أو من الذرية أو منهما وتنكيره للإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان بل يكفيه الإيمان الحكم كإيمان الصغير والمجنون تبعاً لغير الأبوين ديناً ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ذرياتهم بالجمع وكسر التاء والباقون بالتوحيد وفتح التاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «**إن الله يرفع ذرية المؤمنين في درجة وإن كانوا دونه في العمل ليقربهم عينه ثم قرأ هذه الآية**» رواه الحاكم والبيهقي في سننه والبزاز وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وعن علي(رض) قال سألت خديجة والنبيّ ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال: رسول الله ﷺ «**هما في النار فلما رأى الكراهة في وجهها، قال لو رأيت مكانها لأبغضتهما**» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال في الجنة، ثم قال

رسول الله ﷺ «**إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار**» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وفيه مجهول وانقطاع.

فصل

هذا الحديث يدل على أن أطفال المشركين في النار والصحيح أنهم في الجنة وهذا الحديث ضعيف فيه مجهول وإنقطاع، وكذا ما روى أحمد عن عائشة أنها ذكرت لرسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتك تصاعدهم في النار» سنده ضعيف جداً، وقيل هذا الحديث منسوخ في حق أطفال المشركين لما روى ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم من آبائهم» ثم سألت بعد ذلك فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال: «هم على الفطرة» أو قال «في الجنة» وما روى ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**سألت ربي اللاهين من ذريات البشر فأعطانيهم**» قال ابن عبد البر هم الأطفال لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقل ولا عزم، وأخرج ابن جرير عن سمرة قال سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «**خدم أهل الجنة**» وأخرج مثله عن ابن مسعود موقوفاً وكذا روى الطيالسي عن أنس مرفوعاً معناه وقال بعض العلماء أطفال المشركين يمتحنون لأنه سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة والله أعلم ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من باب سمع يسمع والباقون بفتح اللام من ضرب يضرب وكلاهما لغتان في ألت يألت يعني ما نقصنا الآباء ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ من للتبغيض أي بعض ثواب أعمالهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من زائدة وشيء في محل النصب على أنه مفعول ثاني لألتناد من عملهم خال عنه قدم عليه لتنكيره يعني لا ينقص ثواب الآباء بإعطاء الأبناء في إلحاقهم بهم والجملة معطوفة على ألحقنا ولما كان هاهنا مظنة سؤال السائل يسأل أن هذا شأن من آمن وأتبعه ذريته بإيمان فما شأن من كسب سيئة قال الله تعالى ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال مقاتل كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن محبوس في النار لا يجاوز جزاء السيئة ممن كسب إلى غيره فلا يلحق بالكافر والفاسق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨).

ذريته من غير أن يعملوا ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ عطف على زوجناهم يعني زدناهم يعني المتقين وقتاً بعد وقت ﴿بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ من أنواع التنعم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ من النزع يعني الأخذ من يد الغير والتفاعل هاهنا بمعنى المجرد من عاقبة اللص وترافعنا إلى القاضي وجعلنا من المزيد فيه للدلالة من الكثرة يعني ينزعون إلى أهل الجنة من يد الساقي ﴿فِيهَآ﴾ أي في الجنة ﴿كَأۡسٗا﴾ الكأس الإناء بما فيها من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس حال، ويقال شربت كأساً والمراد هاهنا كأس مملوء من شراب ﴿لَّا لَغۡوٞ﴾ وهو الباطل قال قتادة وقال مقاتل بن حبان لا فضول ﴿فِيهَا﴾ وقال سعيد بن المسيب لا رفث فيها، وقال ابن زيد لاسباب ولا تخاصم فيها، وقال القتيبي لا يذهب عقولهم فيلغوا أو يرفثوا ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ قال الزجاج وأبو عمرو لا لغو ولا تأثيم فيها إعمالاً للا والباقون بالرفع فيهما الفاء لعمل لا لأجل لتكرير ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأجل الخدمة ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي مماليك مخصوص بهم أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس(رض) قال: قال رسول الله ﷺ «**إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم**» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيها أدنى من يغدو ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه» ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مستور في الصدف شبهوا باللؤلؤ في بياضهم وصفائهم وحسنهم، قال البغوي روي عن الحسن أنه تلا هذه الآية وقال قالوا يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم وعن قتادة أيضاً ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله ﷺ هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وأخرج عبد الرزاق وابن جرير في تفسيرهما من مرسل قتادة نحوه ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله في الدنيا، قال ابن عباس يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا وأقبل صيغة ماض بمعنى المستقبل حال بتقدير قدمن الضمير المجرور في يطوف عليهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني يقولون جملة مستأنفة كأنها في جواب ماذا يقول المسؤولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي قبل هذا في الدنيا ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالتوفيق والمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقال الحسن السموم اسم من أسماء جهنم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل ذلك في الدنيا ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ نعبده أي الله تعالى ونسأله الوقاية ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قرأ نافع والكسائي بفتح الهمزة يعني ندعوه بأنه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي المحسن وقال ابن عباس

اللطيف وقال الضحاك الصادق فيما وعد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء للسببية فإن تحقيق الوعد والوعيد من الله تعالى باعث على التذكير والموعظة ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ الفاء للتعليل يعني ذكر الناس لأنك نبي من الله ولست ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي متلبساً بنعمة ربك حال من الضمير المرفوع فإن قوله ما أنت بكاهن ولا مجنون. في معنى انتقى كونك كاهناً أو مجنوناً والمراد بنعمة ربك النبوة والعقل السليم يعني نبوتك ودينك يتلقى الكهانة وعقلك السليم البالغ ينافي الجنون والآية نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم احبسوه في أوثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء ما زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ صفة شاعر أو خبر بعد خبر المبتدأ محذوف أي هو منتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي ما يتعلق النفوس من حوادث الدهر أو حوادث الموت يعني الحوادث التي تفضي إلى الموت قالت الكفار: إنه يموت ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء ويتفرق أصحابه وإن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته موت أبيه أو المنون مفعول من منه إذا قطعه يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لأنهما تقطعان الأجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم فتعذبوا بالسيف يوم بدر ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطانة ودقة نظر والمجنون مغطى عقله والشاعر ذا كلام موزون منتسق بليغ متخيل ولا يتأتى ذلك من المجنون وذلك أن عظماء

قريش كانوا يوصفون بأحلامهم فأزرى الله بعقولهم حتى قال إنهم لا يتميزون بين الفطان والمجنون ولا يعرفون الحق من الباطل ﴿أَمْ هُمْ﴾ يعني بل هم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد فإنهم إذاً لا يجدون سبيلاً إلى الإنكار في القرآن والنبي ﷺ بظهور الحجة وسطوع البرهان يقولون فيه قولاً آخر مناقضاً للأول ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي القرآن تقوله محمد ﷺ يعني اختلقة من تلقاء نفسه وليس من عند الله وليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن عناداً أو إستكباراً فيرمون بهذه المطاعن كذبا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن في البلاغة وأخبار الغيب ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما قالوا أنه كاهن أو مجنون أو شاعر تقوله إذ فيهم كثير من الكهنة والمجانين والشعراء فهو رد للأقوال الثلاثة المذكورة بالتحدي ويجوز أن يكون رداً لتقول فقط فإن سائر الأقوال ظاهر الفساد وهذا شرط مستغن عن الجزاء ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قال ابن عباس يعني من غير رب خلقهم وذلك محال فإن الحادث الذي لم يكن موجود قبل ذلك لا يتصور وجوده من غير موجد وقيل معناه أم خلقوا من أجل لا شيء من العبادة والمجازاة يعني خلقوا عبثاً وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كذا قال ابن كيسان والزجاج ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لانفسهم وذلك في البطلان أظهر من أن يخلقوا من غير شيء وهذه الجملة يؤيد التأويل الأول لما قبلها ولذلك عقبه بقوله ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بما يجب به الإيقان ويدل عليه البرهان من أن الله خلقهم وخلق السماوات والأرض ولو أيقنوا به لما أعرضوا من عبادته ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي خزائن رزقه فيرزقوا النبوة من يشاء أو خزائن علمه فيعلمون من هو أحق بالنبوة من غيره وبقضية الحكمة ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسلطون القاهرون على الأشياء يجعلونها على حسب مشيئتهم ولا يكونوا تحت أمر ونهي، قرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاء بين الصادق والزاء والباقون بالصاد خالصة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صاعدين ﴿فِيهِ﴾ أي كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن أو يعلموا ما هو حق من الله تعالى فيستمسكون به ولا يتبعوا بمحمد ﷺ فإن إدعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة يصدق إستماعه ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ أي لله تعالى بنات كما يقولون الملائكة بنات الله ﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً ممن يرتقي بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيب ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي من التزام غرم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلذلك لا يتبعونك مع ظهور الداعي إلى الإتباع ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ قال ابن عباس المراد منه اللوح

المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه وقيل معناه عندهم علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما جاء به محمد ﷺ من البعث وأمر القيامة والثواب والعقاب مع كونه ممكناً في نفسه واجباً ثبوته بالبرهان باطل غير واقع، وقال قتادة هذا جواب لقلوهم نتربص به ريب المنون يعني أعندهم علم الغيب بأن محمد ﷺ يموت قبلهم ولا يبقى له أثر ومعنى قوله فهم يكتبون أي يحكمون والكتاب الحكم كذا قال القعبني ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك ليهلكوك وهو كيدهم في دار الندوة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1] ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يعني يحيق بهم الكيد أو يعود إليهم وبال كيدهم وجزاؤه وهو قتلهم يوم بدر وعذابهم بالنار في الآخرة وضع الموصول موضع الضمير للتسجيل على كفرهم والدلالة على أنه هو الموجب للحكم المذكور ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله وينصرهم ويرزقهم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. عن إشراكهم أو عن شركة ما يشركون، قال الخليل ما في هذه السورة من أم كله استفهام يعني الإنكار وليس بعطف.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿يَقُولُوا﴾ هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تراكم بعضها على بعض كما أن عاداً لما رأوا عارضاً مستقبل قالوا هذا عارض ممطرنا يعني لو عذبناهم بإسقاط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم حتى يهلكوا لكن الحكمة لا تقتضي استئصالهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ولا تسأل نزول العذاب عليهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ أي يوم عذابهم ﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بضم الياء على البناء للمفعول أي يوم يهلكهم الله تعالى من أصعق والباقون بفتح الياء على البناء للفاعل من صعق يصعق أي يوم يموتون، قال البيضاوي هو عند النفخة الأولى، قلت هذا ليس بشيء فإنه جعل غاية لقوله ذرهم وذا لا يتصور إلا أن يراد يوم يموتون ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ إغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

يوم لا يغني بدل من يومهم ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يحتمل العموم والخصوص ﴿عَذَابًا﴾ في الدنيا ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل ذلك اليوم يوم موتهم، قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر، وقال مجاهد الجوع والقحط سبع سنين، وقال البراء بن عازب يعني عذاب القبر، قلت: هذا على تقدير أن يراد بيومهم الذي فيه يصعقون يوم نفخة الصعق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وإبقائك في عنائهم، وقيل معناه واصبر إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الزجاج: يعني أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه، والحاصل أنك بحفظنا وجمع العين لجمع الضمير وجمع الضمير للتعظيم أو يقال جمع العين للمبالغة والدلالة على كثرة أسباب الحفظ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ عطف على واصبر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء أي قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهمَّ وبحمدك فإن كان المجلس خيراً لازددت خيراً وإن كان غير ذلك كان كفارة له، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك كان كفارة لما بينهم**»[١] رواه البغوي ورواه الترمذي والبيهقي في الدعوات الكبير «إلا غفر له ما كان في مجلسه» وعن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بآخر عمره إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحان الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوء قال قلنا يا رسول الله إن هذه كلمات أحدثتهن قال أجل جاءني جبرئيل فقال يا محمد هن كفارات المجلس» رواه النسائي واللفظ له وصححه الحاكم، وأخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة مختصراً بسند جيد، وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: «كلمات لا يتكلم بها أحد في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن كما يتختم بالخاتم على الصحيفة سبحانك اللهمَّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»[٢] رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلساً لم يذكروالله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كانت عليهم ترة إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم**»[٣] رواه أبو داوود والترمذي وحسنه واللفظ له وابن أبي الدنيا والبيهقي، وفي رواية أبي داود «ومن قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليهم من الله ترة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في كفارة المجلس (٤٨٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون الله (٣٣٨٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٥١).

ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد يمشي لا يذكر الله فيه إلا كان عليه ترة» وقال ابن عباس معنى الآية صل الله حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع «إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»[١] رواه أبو داوود والترمذي ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد وقال الترمذي هذا الحديث لا نعرفه إلا من حارثة وقد تكلم فيه من قبل حفظه، وقال الكلبي المراد بالآية الذكر باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة عن عاصم بن حميد سألت عائشة بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ إذا قام من الليل؟ قالت كان إذا قام كبر الله عشراً وحمد الله عشراً وسبح الله عشراً واستغفر عشراً وقال: «اللهمَّ أغفر لي واهدني وارزقني وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة، رواه البغوي ورواه أبو داود عن شريق الهذلي عن عائشة بلفظ كان إذا ذهب من الليل كبر عشراً وحمد الله عشراً وقال سبحان الله وبحمده عشراً وقال سبحان الملك القدوس عشراً واستغفر عشراً وهلل عشراً ثم قال اللهمَّ إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً»[٢] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي صلّ له قال مقاتل يعني صلاة المغرب والعشاء، قلت والظاهر أنه صلاة التهجد خص صلاة الليل بالذكر لأن العبادة في الليل أشق على النفس وأبعد عن الرياء ولذلك قدم الظرف على الفعل ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني إذا أدبرت النجوم وغابت بطلوع الصبح، وقال الضحاك المراد به صلاة الفجر، وقال أكثر المفسرين المراد به ركعتان قبل صلاة الفجر عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»[٣] رواه المسلم، وعنها قالت لم يكن النبيّ ﷺ أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[٤] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور رواه البغوي.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: افتتاح الصلاة (٨٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما (٧٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: تعاهد ركعتي الفجر ومن سماهما تطوعاً (١١٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب ركعتي الفجر (٧٢٤).

سورة النجم

آياتها اثنان وستون وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي يعني الثريا إذا سقطت وهويه مغيبه والعرب تسمي الثريا نجماً وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً «ماطلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع» وأراد بالنجم الثريا ذكره البغوي ورواه أحمد بلفظ «ما طلعها النجم صباحاً قط ويقوم عاهة إلا ورفعت عنهم أو خفت» وسنده ضعيف، وقال مجاهد نجوم السماء كلها حين تغرب واللام للجنس سمى الكواكب نجماً بطلوعه وكل طالع نجم يقال نجم السن والقرآن والسنة، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم يعني ما يرمى به الشياطين عن استراقهم السمع، وقال أبو حمزة الثمالي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة، وقال ابن عباس في رواية عطاء المراد بالنجم القرآني نجماً لأنها نزلت نجوماً متفرقة في ثلاثة وعشرين سنة يسمى التفريق تنجيماً والمفرق منجماً، وقال الكلبي الهوي النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأخفش النجم هو النبت الذي لا ساق له ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[1] وهويه سقوطه على الأرض، وقال جعفر الصادق(رض) يعني محمداً ﷺ إذا نزل من السماء ليلة

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦.

المعراج والهوي النزول، وقيل المراد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر، والظرف لا يجوز أن يكون متعلقاً بفعل قسم مقدر لأن القسم لا يتعدى بذلك الوقت ولا أن يكون الظرف صفة نجم لأنه جثة وظرف الزمان لا يكون صفة للجثة وظرف الزمان لا يكون صفة للجثة بل هو متعلق بحدث مقدر مضاف إلى النجم تقديره وتحرك النجم إذا هوى، وقيل إذا هاهنا اسم وليس بظرف وهو بدل إشتمال من النجم مقسم به وجه تعين هذا الوقت للقسم أن وقت الهوي أفضل أوقات النجم لأنه إن كان المراد بالنجم الثريا أو مطلق النجم فإن أريد بهويه سقوط شعلة منه لرجم الشياطين فلا شك أن رجم الشياطين مقصود من خلقة النجوم وإن أريد به انتشاره يوم القيامة ذلك وقت إتمام المقاصد التي قصد بالنجوم وإن أريد به غروبه فغروبه أوضح دليل على إمكانه ووجود صانعه، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأقول من الكواكب والقمر والشمس حيث قال ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[1] وإن أريد به نجم القرآن وبهويه نزوله أو بالنجم محمد ﷺ وبهويه نزوله من السماء ليلة المعراج فلا شك أن نزول القرآن لهداية الناس ونزول محمد ﷺ بعد عروجه لهداية الخلق نعمة جليلة من الله تعالى بلا نظير لهما وإن أريد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر فلا شك أن دفن المسلم مع إيمانه سالماً عن تسويلات النفس والشيطان غانماً بنعمة الإيمان والأعمال الصالحة وقت كماله وزوال حظر زواله والله تعالى أعلم وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ محمد ﷺ عن طريق الهدى ﴿وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ في اتباع طريق الباطل قيل الضلال ضد الهداية والغي ضد الرشد يعني هو مهتد راشد وليس كما تزعمون يا معشر قريش وتنسبونه إلى الضلال والغي ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ بالقرآن ولا بغيره عطف على ما ضل ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ صفة لمصدر محذوف يعني نطقاً ناشئاً عن الهوى يعني لم يتقول القرآن من تلقاء نفسه كما يتقول الشعراء وكذا كل ما يتكلم ليس منشاءه الهوى النفسانية بل مستند إلى الوحي جلي أو خفي وإن كان باجتهاد مأمور من الله تعالى مقرر من الله عليه فهو ليس عن الهوى البتة ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضمير راجع إلى القرآن المعهود في الذهن والمدلول فيما سبق من الكلام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فليس في هذه الآية ما يدل على أنه ﷺ ما كان يتكلم بالإجتهاد والجملة تعليل بقوله ما ينطق ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ الضمير المنصوب مفعول أول لعلم والقرآن أو ما يوحىٰ إليه عليه السلام مطلقاً من حيث أنه اسم لكلام تام قائم مقام مفعوليه الثاني والثالث وفاعله ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمع قوة والمراد به الله سبحانه القوي المتين ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة القوة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

الشدة والأصالة والأحكام كذا في القاموس والله سبحانه شديد البطش يحكم أصل كل شيء وجملة علمه مع ما عطف عليه حال من الضمير المستكن في يوحي أو صفة بعد صفة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ عطف على علمه والاستواء من المتشابهات قال السلف في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[١] أن الاستواء معلوم بلا كيف، وقال سهيل بن عبد الله التستري لا يحوز لمؤمن أن يقول كيف الإستواء لمن خلق الإستواء ولنا عليه الرضا والتسليم، وقال مالك بن أنس الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والسؤال عنه بدعة، وحاصل الآية أنه كان لله تعالى إذا علم محمداً ﷺ نسبته به عليه السلام مجهول الكيفية كنسبته مع العرش المجيد والكعبة الحسناء وقد تظهر تلك النسبة للصوفية الكرام وتظهر على وجه أكمل منه يوم يرونه كما يرون القمر ليلة البدر ﴿وَهُوَ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني كان محمد ﷺ إذا يوحى إليه في كمال رفعة استعداده وعلوّ مرتبته والأفق الناحية على منتهى دائرة الإمكان حيث يكون وراء ذلك دائرة الوجوب التي لا يتصور هناك للسالك سير قدمي والجملة حال من الضمير المنصوب في علمه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بحذف المضافين إن كان مقدار قربه قاب قوسين أو أدنى وجملة ثم دنى عطف على علمه، قال البغوي روينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد اللّه بن أنس «ودنىٰ الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه ﷺ قاب قوسين أو أدنى» قال الشيخ محمد حياة السندي في رسالته هذا حديث غريب ومثله عن ابن عباس رواه أبو سلمة عنه وأو هاهنا ليس للشك بل بمعنى بل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٢] يعني بل يزيدون، قالت الصوفية العلية المراد بقوسين قوس الوجوب وقوس الإمكان فالصوفي في مرتبة دنوه قاب قوسين يبقى في نظره مرتبتي الوجوب والإمكان كلتيهما وفي دنوه أونى من قوسين يسترُعن بصيرته قوس الإمكان مطلقاً لا يرى نفسه عيناً ولا أثراً والقاب والقيبة والقاد والقيد عبارة عن المقدار هاهنا كناية عن كمال القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما وألصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه ومراتب الدنو والتدلي وما كنى بقاب قوسين أو بما هو أدنى منه درجات قرب للعهد من الله تعالى في تجلياته سبحانه يدركه الصوفي ومن لم يذق لم يدر وقد ذكروا هذه الدرجات في كتب

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.

التصوف في كلماتهم أكثر مما تحصى، وقال الضحاك معناه دنى محمد من ربه فتدلى يعني فأهوى للسجود وهذا يستلزم انتشار الضمائر ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ من القرآن وغيره من الوحي الغير المتلو وضمائر أوحي وعبده وأوحى راجعة إلى شديد القوى وهذا التفسير مروي عن أنس وابن عباس وغيرهما من السلف ولا غبار عليه من حيث العربية وقالت عائشة واختاره أكثر المفسرين أن المراد بشديد القوى جبرئيل عليه السلام ذو مرة، قال ابن عباس في رواية أي ذو منظر حسن، وقال قتادة ذو خلق طويل حسن فاستوى جبرئيل وهو يعني محمد ﷺ عطف على الضمير المرفوع المستتر في استوى على ما أجازه الكوفيون قال البغوي استوى جبرئيل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، وقيل ضمير هو راجع إلى جبرئيل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورة التي خلقها فأراه مرتين في الأرض ومرة في السماء فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى والمراد بالأعلى جانب الشرق وذلك أن محمداً ﷺ بجراء فطلع له جبرئيل من المشرق في الأفق إلى المغرب فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبرئيل في صورة الآدميين وضمه ﷺ إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ليلة المعراج ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمد ﷺ قوله تعالى ثم دنى يعني جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى فنزل إلى محمد ﷺ لما خرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه فكان منه قاب قوسين أو أدنى يعني بل أدنى، والقوس ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبرئيل وبين محمد ﷺ مقدار قوسين قال معناه حيث الوتر من القوس، وقال ابن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين وهو قول سعيد بن جبير وشفيق بن سلمة والقوس الذراع يقاس بها كل شيء كذا روى البخاري في تأويل الآية عن عائشة (رض)، وقال البغوي وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة قيل في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنى لأن التدلي سبب الدنو والظاهر أن الدنو أعم مطلقاً عن التدلي فإن الدنو لا يقتضي وصول الشيء إلى منتهى مسافة يريد قطعها إلى تحت بخلاف التدلي فإنه مأخوذ من الدلو فإن التدلي وصول الدلو إلى قعر البئر وأيضاً يعتبر في التدلي الوصول إلى المنتهى مع بقاء تعلقه بالمبدأ يقال أدلى رجله من السرير وأدلى دلوه والدوالي للثمر المعلق فأوحى جبرئيل إلى عبده يعني عبد الله ما أوحىٰ الله إليه. وهذا التأويل يأباه العربية والمعقول بوجوه: أحدها أن قصة جبرئيل هذه حكاية حال والكلام في أن القرآن ليس شيئاً منهما مما نطق محمد ﷺ من تلقاء نفسه بل كله مما أوحي إليه من

ربه وجملة شديد القوى مع ما عطف عليه من قوله فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى حال من الضمير المستكن في قوله إلا وحي يوحى وزمان الحال يتحد مع زمان صاحبه فتقتضي الكلام وقوع تلك القصة في كل مرة أوحي إليه شيء من القرآن وإلا لا يجوز وقوعه حالاً أو لا يجوز القول بأن القرآن كله كذلك، ثانيها أنه يلزم حينئذ إنتشار الضمائر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ورجوع ضمير عبده إلى الله سبحانه قرينه لكونه ضمير أوحي راجعاً إلى الله تعالى، ثالثها أن الدنو أو التدلي من جبرئيل عليه السلام وكونه قاب قوسين أو أدنى ليس كمالاً للنبيّ ﷺ فإن النبيّ ﷺ كان أفضل من جبرئيل عليه السلام، قال رسول الله ﷺ «وزيراي في السماء جبرئيل وميكائيل»(١) ووجه القول بالتأويل الثاني إنما هو استبعاد لاستواء والدنو والتدلي إلى الله تعالى ولما كان القرآن ناطقاً بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فلا وجه للقول بهذا التأويل البعيد والإستواء والدنو والتدلي وكونه قاب قوسين أو أدنى بلا كيف على ما يليق بالتنزيه مشهود لأرباب القلوب كمشاهدة القمر ليلة البدر بالأوجه في القول ما قالوا والله تعالى أعلم، قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنه أوحي إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾(٢) إلى قوله و﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٣) وقيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى يدخلها أمتك والظن أن ما أوحي عام ولا وجه للتخصيص ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي فؤاد محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ قال ابن مسعود رأى محمد ﷺ جبرئيل له ستمائة جناح وكذا روي عن عائشة(رض) وأنكرت عائشة رؤية النبيّ ﷺ به. روى البخاري عن مسروق قال قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حد ثكهن فقد كذب من حدثك أن محمد رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾ ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ الآية ولكن رأى جبرئيل في صورته مرتين(٤)، وقال ابن عباس ما

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٨٩).

(٢) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٣) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنجم (٤٨٥٥).

كذب الفؤاد ما رأى، (ولقد رآه نزلة أخرى) أن محمد ﷺ رأى ربه جل وعلا بفؤاده مرتين[١] كذا روى مسلم عنه، وفي رواية الترمذي قال ابن عباس رأى محمد ربه قال عكرمة قلت أليس الله يقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقال ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى محمد ربه مرتين، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ قال رأيت بفؤادي، وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد ﷺ ربه يعني بعينه قال البغوي قال عكرمة عن ابن عباس قال إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد ﷺ بالرؤية، وروى الترمذي عن الشعبي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ فكلم موسى مرتين ورأى محمد ﷺ مرتين، قلت: المراد بالرؤية المختلف فيها إما الرؤية بالبصر وإما الرؤية القلبية المعبر عنها بالمشاهدة فغير مختص بالنبيّ ﷺ بل يتشرف أولياء أمته ﷺ أيضاً وقد ادعى بعض الأولياء الرؤية البصرية وذلك خلاف إجماع في حق غير النبيّ ﷺ وهذا الدعوى مبني على الاشتباه، ووجه الاشتباه أن الصوفي قد يرى ربه بقلبه وهو يقظان ويتعطل حينئذ بصره لكنه يزعم في غلبة الحال أنه يراه ببصره وإنما هو يراه بقلبه وبصره معطل وقوله عليه السلام «رأيته بفؤادي» لو ثبت لا يدل على نفي الرؤية بالبصر إلا بالمفهوم، قلت وقول ابن مسعود وعائشة شهادة على النفي وشهادة الإثبات أرجح وما احتج به عائشة على نفي رؤيته ﷺ فلا يخفى ضعفه وأما قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٢] فقد ذكرنا في تفسير تلك الآية في سورة الأنعام أن الدرك أخص من الرؤية ونفي الدرك لا يستلزم نفي الرؤية قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾[٣] وأيضاً مفهوم الآية سلب عموم الدرك لا عموم سلب الدرك وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[٤] ترديد بين الوحي من وراء الحجاب والوحي بلا حجاب فلا استدلال به والله تعالى أعلم، وروى مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نورأنىٰ أراه»[٥] أنى بفتح الهمزة للإستفهام يعني كيف أراه في بعض الروايات نوراني منسوب إلى

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ (١٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والنجم (٣٢٧٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦١ ـ ٦٢.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام «نور أنى أراه» وفي قوله: «رأيت نوراً» (١٧٨).

النور أراه فعلى الرواية الثانية يثبت الرؤية وعلى الرواية الأولى ليس الحديث صريحاً في نفي الرؤية مطلقاً، قلت: وبعد ثبوت رؤيته ﷺ ربه بالعين كما يدل عليه حديث ابن عباس وكعب أيضاً أن المراد بالرؤية في الآية الرؤية القلبية فإنها هي المتصورة عند كل وحي يوحى إليه دون الرؤية البصرية فإنها مختصة بليلة المعراج. قرأ أبو جعفر وهشام عن أبي عباس كذب بتشديد الذال من التذكيب يعني ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه أو بقلبه بل صدقه وأيقنه وهو حققه فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب ثم ينتقل منه إلى البصر والبصيرة فإن ابصر مثل ما أدرك بالقلب وإن قصر بصره أو بصيرته عما أدركه القلب ورأى بخلافه كذبه وهذا هو المصداق الفارق بين العلوم الحقة الفايضة من الرحمٰن وبين الخيالات الوهمية وملتبسات الشيطانية فإن الصوفي قد يلتبس عنده العلوم والإلهامات والمكاشفات القدسية المفاضة عليه من الله سبحانه بما يتخيله الوهم والخيال وبما ألقى الشيطان في أمنيته، والفارق بينهما أن يرجع الصوفي إلى قلبه فإن صدقه قلبه واطمأن به ورأى في قلبه منه برد اليقين علم أنه من الله سبحانه وإن كذبه قلبه واضطرب عنده وأبى عرف أنه من النفس أو الشيطان، قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءك في صدرك شيء فدعه**» رواه أحمد عن أبي أمامة وقال عليه السلام «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»[1] وقرأ الجمهور بتخفيف الذال والكذب يجيء متعدياً بمعنى كذب له ومجازه ما كذب الفؤاد لمحمد ﷺ فيما رأى يعني أخبره على ما في نفس الأمر فان قيل هذه الآية يقتضي أن تصديق القلب يغاير رؤية القلب؟ قلنا نعم وتحقيق المقام أن قلب المؤمن يدرك الله سبحانه وصفاته بمعية ذاتية غير متكيفة مترتبة على محبة ذاتية غير متكيفة ولا يراه بل رؤية مقتصرة على مراتب الظلال بل القلب لا يرى شيئاً من ذوات الممكنات أيضاً فإن حصول الأشياء في الأذهان إنما هي بأشباهها وظلالها لا بأنفسها وما يرى ذات شيء مما يراه إلا يتوسط الباصرة فرؤية الله سبحانه تيسير للمؤمنين في الآخرة بتوسط الحاسة لا في الدنيا إلا ما ذكرنا من الخلاف في حق النبيّ ﷺ خاصة ودركه تعالى مختص بالقلوب دون الأبصار فإنه تعالى لا تدركه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة فرؤية القلب سواء كانت بتوسط البصر أو بلا توسط قد يعتبر به الغلط بتخليط الوهم أو تلبيس الشيطان أو زيغ البصر وطغيانه عما يراه وأما دركه البسيط فلا يعتبر به شيء من ذلك ويتفرع عليه الاطمئنان بالحق وتصديقه والإباء عن الباطل وتكذيبه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾معطوف على محذوف، قرأ حمزة

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ ورواه أحمد والدارمي، وقال النووي في الرياض: إسناده حسن، وروى الطبراني قريباً منه وفي سنده مجهول. انظر فيض القدير (٩٩١).

والكسائي أفتمرونه على وزن تدعونه بمعنى تغلبونه في المرأ يقال ماريته فمريته بمعنى حادلته فغلبته وعلى هذا التقدير الكلام أتمرونه فتمرون ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عدي بعلى لأن الفعل بمعنى الغلبة، وقيل تمرون تجحدون يقال مريت الرجل حقه يعني جحدته والمعنى أتجادلون محمداً فتجحدون صدقه على ما يرى والتعدية بعلى حينئذ أيضاً لتضمن الفعل مع الغلبة فإن المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما للغلبة على الخصم وقرأ جمهور القراء أفتمارونه من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة أي استخرج لبنها فان كلا من المتجادلين يمري ما عند صاحبه يستخرجه وتقدير الكلام حينئذ تنكرون قول محمد فتمادون عن ما يرى، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا ينبغي الإنكار والجدال فيما يدعي محمد ﷺ رؤيته وأورد صيغة المضارع استحضاراً للحال الماضي وحكاية عنه وجاز أن يراد به التوبيخ على إنكار كل ما أراه محمد ﷺ في الحال أو الإستقبال.

﴿ولقد رآه﴾ يعني والله لقد رأى محمد ﷺ ربه جل وعلا أو جبرئيل على صورته التي خلق عليها على اختلاف القولين المذكورين ﴿نَزْلَةً﴾ فعلة من النزول كجلسة من الجلوس منصوب على الظرفية من رآه تقديره وقت نزلة أخرى أو على المصدرية تقديره نازلا نزلة أخرى وفي إيراد نزلة إشعار بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بالنزول والدنو فإن رؤية البشر الممكن الواجب جل سلطانه إنما يتصور إذا كان البشر الرائي في الأفق الأعلى والدرجة الإنس من درجات الإمكان والله تعالى يتنزل من مراتب التنزيه إلى نوع من درجات التشبيه فيرى من وراء حجب الظلال أو الصفات ولا يذهب عليك من مقالتي هذا حدوث أمر في جانبه تعالى ذلك علواً كبيراً بل النزول والعروج كلها في مرتبة العلم يظهر بحدوث صفاء في مرآة قلب المتجلي له وقد مر البحث عن مثله في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١) ﴿أُخْرَىٰ﴾ هذا يدل على تعدد الرؤية ولا يدل على الإنحصار في المرتين فما روي عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رأى ربه مرتين محمول على بيان أدنى ما يتصور فيه التعدد وهذه الآية حكاية عن رؤية النبيّ ﷺ أو بليلة المعراج ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ والظاهر أن ما حكي عن ابن عباس وكعب رؤيته ﷺ ربه بعينه هو هذه الرؤية وقوله عند سدرة المنتهى ظرف متعلق يراه أو إضافة السدر إلى المنتهى إضافة موصوف إلى صفة نحو جانب الغرب ومسجد الجامع أجازه الكوفيون وتأويله عند البصر بين سدرة المكان منتهى وجعل المنتهى صفة لها لأنه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ويهبط به من فوقها فيقبض منها وينتهي إليها علم الخلائق وما خلقها غيب ويدل عليه ما يورد عليك من حديث ابن مسعود وكعب.

قصة المعراج

في الصحيحين عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبيّ ﷺ قال: «**بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فشق بين هذه وهذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد**» وفي رواية «ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة ثم أتيت بداية دون البغل وفوق الحمار يقال له البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبرئيل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبرئيل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسلت إليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فتعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالإبن الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فذكر نحو ما ذكر في السماء الدنيا وكذا ذكر كل السماء، قال فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال هذا يحيى وهذا عيسى فسلم فسلمت عليهما فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح وذكر في السماء الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى كل قال مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، قال عليه السلام «فلما جاوزت بكى يعني موسى قيل له ما يبكيك؟ قال أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فذكر الاستفتاح وغير ذلك نحو ما مر وذكر هناك إبراهيم، قال جبرئيل هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجرو إذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع بي إلى البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت ومررت على موسى فقال بما أمرت؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع

عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فأرجع إلى ربك فاسئله التخفيف لأمتك قلت سألت ربي حتى استحييت ولكني أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[(١)] وروى مسلم عن ثابت البناني عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء»** وقال ابن جرير عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ **«انتهينا إلى بيت المقدس قال جبرئيل بأصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق قال رسول الله ﷺ ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبرئيل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبرئيل إخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء»** وساق مثل معنى ما ذكر من الحديث «قال فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير وقال في السماء الثالثة فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا بي بخير ولم يذكر بكاء موسى وقال في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية قال جبرئيل هذا البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لا يعودوا آخر ما عليهم ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشَّها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها وأوحى إلي ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجع إلى ربك فسئله التخفيف فإن أمتك لا يطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت حط عني خمساً، قال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فسئله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فلذلك خمسون من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عمل بها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب له بشيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات فرض الصلوات (١٦٤).

حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسئله التخفيف فقال رسول الله ﷺ فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه. وفي الصحيحين عن ابن عباس عن أبي ذر يحدث عن النبيّ ﷺ فقال: «فرّج عني سقف بيتي وأنا بمكة فذكر شق الصدر نحو ما ذكر ولم يذكر البراق، قال ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جئت إلى السماء الدنيا فقا جبرئيل الخازن السماء افتح فذكر نحوه، فلما فتح علونا السماء الدنيا إذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قلت لجبرئيل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى، فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه قال وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السادسة، قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان قال النبيّ ﷺ ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، وقال ابن حزم وأنس ففرض الله على أمتي خمسين فرجعت بذلك حتى مررت على موسى قال ما فرض الله لك قلت خمسين صلاة قال فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق فراجعه فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فقلت وضع الله شطرها فقال أرجع إلى ربك فإن أمتك لا يطيق فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لديَّ، فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك، فقلت استحييت من ربي فانطلق بي حتى انتهى بي إلى السدرة وغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذا اللؤلؤ وإذا ترابها المسك، وروى معمر عن قتادة عن أنس أن النبيّ ﷺ أتي البراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً فأصعب عليه فقال جبرئيل: أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً. وروى مسلم عن ابن مسعود قال لما أسري برسول الله ﷺ إنتهى به إلى السدرة المنتهي وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج بها من الأرض فيفيض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، وذكر البغوي أنه قال هلال بن يسار سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهي وأنا حاضر فقال إنها سدرة في أصل العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله، قلت ومعنى قوله إليها ينتهي علم الخلائق يعني أن بعض المخلوقات يعني الملائكة يحضرون إلى سدرة المنتهي ولا يتجاوزها أحد من الخلائق فما ورائها غيب من كل وجه وأما سدرة المنتهى فهي وإن كان غيباً بالنسبة إلى البشر فليس يغيب بالنسبة إلى بعض الملائكة، وروى البغوي بسنده عن أسماء بنت أبي بكر

قالت سمعت النبيّ ﷺ يذكر سدرة المنتهى قال: «يسير الراكب في ظل الغصن مائة عام ويستظل في الغصن منها مائة ألف راكب فيها فراش من ذهب كأن ثمرها القلال»، وقال مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار وجميع الألوان لو أن ورقة منها وضعت في الأرض أضاءت لأهل الأرض وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ وإضافة جنة إلى المأوى أيضاً من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة جوزها الكوفيون ويؤله البصريون بجنة المكان المأوى، قال عطاء عن ابن عباس معناه جنة يأوى إليها جبرئيل والملائكة وقال مقاتل والكلبي تأوي إليها أرواح الشهداء وجنة المأوى مبتدأ أو فاعل للظرف والجملة صفة لسدرة إن كانت الإضافة للعهد الذهني في قوة النكرة وإلا فهي حال عنها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ الظرف متعلق يراه الموصول مع الصلة فاعل يغشى إستعمال الموصول للتفخيم وصيغة المضارع بمعنى الماضي والمعنى غشيها ما لا يستطيع أحد أن ينعتها لحسنها أو لكثرة عددها أو لعدم درك كنهها وقد مر في حديث المعراج عن أنس فلما غشيتها من أمر الله ما غشي تغيرت في أحد من خلق يستطيع أن ينعتها من حسنها، وروى مسلم عن ابن مسعود قال: «إذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب»[1] وكذا ذكر البغوي قول ابن عباس قال البغوي عن الحسن قال غشيها نور رب العزة فاستنارت قلت لعل نور رب العزة كعزة كذا كنى عنها بفراش من ذهب وقال مقاتل تغشيها الملائكة أمثال الغربان.

وقال السدي من الطيور وروي عن أبي العالية عن أبي هريرة(رض) أو غيره قال غشيها نور الخلائق وغشيتها الملائكة من حب الله أمثال الغربان حتى يقعن على الشجر، قلت: ولا منافاة بين تغشية نور رب العزة وتغشية الملائكة فإن تغشية الملائكة إنما هي لأجل تغشية نور رب العزة كما يدل عليه قول غشيها من الملائكة من حب الله أمثال الغربان وتغشية النور من قبيل التجليات النورية والله تعالى أعلم قال البغوي يروى في الحديث رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يعني ما مال بصر النبيّ ﷺ يميناً ولا شمالاً وما أخطر في النظر بل أثبته إثباتاً صحيحاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما جاوز عن المحبوب إلى غيره.

مــن الــعــشــق وحــالاتــه أحــرق قــلــبــي بــحــراراتــه
مــا نــظــر الــعــيــن إلــى غــيــركــم أقــســم بــالله وآيــاتــه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر سدرة المنتهى (١٧٣).

قيل معناه ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ أي لقد رأى محمد ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مفعول لرأى ومن آيات ربه حال منه مقدم عليه ومن للتبعيض يعني والله لقد رأى محمد الكبرى من آيات ربه وجاز أن يكون من زائدة وآيات ربه مفعول به الكبرى صفة لها، وجاز أن يكون المفعول محذوفاً تقديره لقد رأى شيئاً من آيات ربه الكبرى والمراد بالآيات العجائب الملكوتية التي رآها في ليلة المعراج في مسيرة وعوده من البراق والسماوات والأنبياء والملائكة والسدرة المنتهى وجنة المأوى، روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى جبرئيل في صورته له ستمائة جناح[1]، وروى البخاري عنه ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى رفرفاً أخضر سد الأفق[2]، وإنما وصف تلك الآيات بالكبرى لتجليات مخصوصة في تلك الآيات وكونها مهبط الرحمة والبركة وإلا فكل ممكن آية كبرى على وجود صانعه ودليل واضح مكتفي لا يحقر منها شيء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[3] فإن قيل هذه الآية تؤيد قول من قال أن النبيّ ﷺ إنما رأى مرتين جبرئيل عليه السلام دون الله سبحانه لأن رؤية الآيات غير رؤية الذات؟ قلنا: رؤية الآيات لا ينافي رؤية الذات بل الآيات قد يجلى فيه الذات كما أن الشمس يتجلى في المرآة. فإن قيل قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ يعني ما جاوز بصره عن المحبوب إلى غيره فكيف يتصور رؤية الآيات؟ قلت: المقصود من رؤية الآيات إنما هي الذات ومن ثم تكون الآيات مرآة للذات فحين رأى الآيات جاوز نظره عنها إلى الذات وحين رأى الذات لم يتجاوز عنه إلى غيره أصلاً.

مسألة:

أجمع المؤمنون من أهل السنة والجماعة أن معراجه ﷺ في اليقظة حق فقيل مسراه ﷺ من المسجد الحرام إلى الأقصى قطع ثابت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ الآية فيكفر جاحده وأما معراجه إلى السماء السابعة وما فوقها فثبت بأحاديث صحاح فينسق جاحده ولا يكفر والصحيح أن معراجه ﷺ إلى السدرة المنتهى قطع ثابت بهذه الآية يكفر جاحده. فإن قيل ما رواه الشيخان في الصحيحين عن شريك بن عبد الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (٤٨٥٨).

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.

قال سمعت أني بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام وساق حديث المعراج بقصته قال فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر قال ما هذا يا جبرئيل؟ قال هذا الكوثر الذي هيَّأ لك ربك وساق الحديث، وقال ثم عرج بي إلى السماء السابعة وقال: قال موسى رب لم أظن أن يرفع على أحد ثم علابه فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما أوحى، أوحى الله خمسين صلاة كل يوم وليلة قال فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم أجبته موسى عند الخمس، فقال يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبيّ ﷺ إلى جبرئيل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبرئيل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد فقال لبيك وسعديك، قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك، فقال موسى إرجع إلى ربك فسأله فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله ﷺ قد والله استحييت من ربي مما اختلف إليه، قال فاهبط باسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام(١). هذا لفظ البخاري، ورواه مسلم مختصراً يدل على كون المعراج في المنام؟ قلنا: طعن بعض أهل الحديث على هذا الحديث وقالوا وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا وأحال الآفة فيه إلى شريك بن عبد الله وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحي إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثني عشر سنة قبل الهجرة بسنة، وقال بعض أهل الحديث إن هذا كان رؤيا في المنام أراه عز وجل قبل الوحي وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة تحقيقاً لرؤياه من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾(٢) والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (٧٥١٧).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ
﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

ولما ذكر الله سبحانه رؤية النبيّ ﷺ ربه وآيات ربه وتعلمه ﷺ منه تعالى وتصديق قلبه أردفه بذلك تقبيح الكفار بقصر نظرهم على مجازه لا حقيقة لها فقال ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أنظرتم ما تعبدونه فرأيتم ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يصدونها ويزعمون الملائكة بنات الله ويزعمون الأصنام هياكل الملائكة ويقولون الأصنام استوطنها جنيات هن بنات الله واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فاشتقوا من الله اللات ومن العزيز العزى تأنيث الأعز، وقيل اللات أصله لوية على وزن فعلة من لوى يلوي لأنهم كانوا يلوون عليها أي يطوفون حولها قلبت الواو ألفاً وحذفت الياء على خلاف قياس وضعت تاء التأنيث مكانها فكتبت طويلاً، قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح ورويس بتشديد التاء على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السويق بالسمن ويطعم الحاج فلما مات كانوا عكوفاً على قبره ثم كانوا يعيدونه وقال قتادة كانت اللات صنماً لثقيف بالطائف، وقال ابن زيد كانت بيت بنخلة تعبده قريش. وأما العزى قال مجاهد هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها وقال ابن إسحاق كانت بيتا بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان حلفاء بني هاشم كانت أعظم أصنام قريش وجميع كنانة كان عمرو بن لحي قد أخبرهم أن الرب يشتي بالطائف عند اللات ويصيف بالعزى فعظموهما وبنوا لهما بيتاً وكانوا يهدون إليه كما يهدون إلى الكعبة، وروى البيهقي عن أبي الطفيل بعث رسول الله ﷺ يوم فتح مكة خالد بن وليد فأتاها خالد فقطع السمرات وهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال هل رأيت شيئاً قال لا قال فإنك لم تهدمها فرجع خالد وهو مستيقظ فلما رأت السدنة خالداً انبعثوا في الحيل وهم يقولون يا عزى خليه يا عزى عوديه وإلا فموتي برغم فخرجت إليه سوداء عريانة ناشرة الرأس تحثوا التراب على رأسها ووجهها فجرد سيفه وهو يقول كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك فضربها بالسيف فخبر بها باثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال نعم تلك العزى قد يئست أن تعبد ببلدكم أبداً. وقال الضحاك هي صنم بغطفان

وضعها سعد بن ظالم الغطفاني وذلك أنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فعاد إلى بطن نخلة وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليست لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا قال أنا أصنع لكم كذلك فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة نقلها إلى النخلة فوضع الذي أخذ من الصفا فقال هذا الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة فقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ قرأ ابن كثير بمد وهمزة على أنه مفعلة من النوء كأنهم يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها أصله منواة قلبت الواو ألفاً بعد ثقل حركتها إلى ما قبلها والباقون بلا مد وهمزة فهي فعلة من مناة إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، قال قتادة هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة(رض) في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذوة قديد، وقال ابن زيد بيت كان بالمشال تعبده بنو كعب وقال الضحاك صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة وقال بعضهم اللات والعزى ومناة كانت في جوف الكعبة يعبدونها. ذكر محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة وهو بالمشلل وهو الجبل الذي يهبط منه إلى قديد لست بقين من رمضان في فتح مكة وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان فخرج سعد في عشرين فارساً حتى إنتهى إليها وعليها سادن فقال السادن ما تريد؟ قال هدم مناة، قال وأنت ذاك فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعوا بالويل وتضرب صدرها فقال السادن مناة دونك بعض غضبانك ويضربها سعد بن زيد الأشهيلي فقتلها ويقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه. اختلف القراء في الوقف على اللات ومناة فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء، وقال بعضهم ما كتب في المصحف بالتاء يعني اللات يوقف بالتاء وما كتب بالهاء يعني مناة يوقف عليه بالهاء ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ صفة لمناة أي الثالثة للصنمين المذكورين ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صفة لمناة بعد صفة للتأكيد أو الأخرى من التأخر في الرتبة واللات والعزى ومناة منصوبان على أنها مفعول أول لرأيتم ومفعوله الثاني محذوف تقديره أنظر تم ما تعبدونه فرأيتم اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى البتة مستحقة للعبادة يعني ليس كذلك والله تعالى أعلم، قال الكلبي كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ قال ابن عباس وقتادة أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون

لأنفسكم، وقال مجاهد ومقاتل أي قسمة عرجاً، وقال الحسن غير معتدل، قرأ ابن كثير ضيزى بالهمزة من ضئزه إذا ظلمه على أنه مصدر لعت به مبالغة يعني قسمة ظالمة والباقون بالياء، قال الكسائي يقال ضاز يضيز ضاز أو ضاز يضوز ضوزاً وضاز يضاز ضازاً إذا ظلم ونقض، قلت: ليس هذا ضاز ويضوز بل هو يائي من ضاز يضير على وزن باع يبيع أو ضاز يضاز على وزن نال ينال وأصل ضيزى فُعلى بضم الفاء لأنها صفة والصفات لا تكون ألا على فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى أو فعلى بفتح الفاء نحو غضبى وسكرى وعطشى وليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت وإنما يكون في الأسماء كذكرى وشعرى وإنما كسر الضاد هاهنا لشلا ينقلب الياء وأوفينبس بناءه كذا قالوا في جمع الأبيض بيض والأصل بضم الفاء مثل حمر وصفر ﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام فإن كان المراد بالأصنام أجرام الحجارة فالمعنى ما تلك الحجارة باعتبار الألوهية شيئاً مستحقاً للألوهية ﴿ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ جملة سميتموها الخ وجملة ما أنزل الله صفتان لأسماء والضمير للأصنام مبتدأ والمستثنى المفرغ خبره والمعنى ما تلك الحجارة آلهة إلا آلهة اسمية باصطلاحكم من غير داع إليه وما جعل الله على ألوهيتها واستحقاقها للعبادة حجة، وجاز أن يكون الضمير للأصنام باعتبار ما يدعى الكفار أنها حقائق ملكيته أو غير ذلك حالة فتلك الأصنام وهي بنات الله وشفعاء فالمعنى ما هي شيئاً في الواقع إلا أسماء بلا مسمى تخيلتم وجودها وسميتموها بأسماء مثل اللات والعزى وبنات الله وشفعاء وحالة في الأصنام ما أنزل الله على وجودها برهاناً، وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الأسماء المذكورة، والمعنى ليست الأسماء المذكورة من اللاّت والعزى شيئاًإلا أسماء مجعولة لكم من غير استحقاق ومنشأ اتزاع فإنهم يطلقون اللات باعتبار استحقاقها الألوهية والعكوف عليها والعزى بعزتها ومناة لاستحقاقها التقرب إليها بالقرابين، وجاز أن الضمير راجعاً إلى الصفة التي يصفونها بها من كونها إلّهة وبنات الله وشفعاء يعني ليست تلك الصفات التي تصفونها بها إلا أسماء من غير حقيقة وصدق في نفس الأمر ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي الكفار في تسميتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بتقليد الآباء من غير دليل صحيح أو المعنى إلا توهماً بإطلاق ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم الجملة بيان أو بدل من قول ما أنزل الله بها من سلطان فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإشارة إلى ترك مخاطبة هؤلاء السفهاء كما يصرح فيما بعد بقوله فأعرض عمن تولى ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي ما يهتدى به إلى الحق القطع يعني الرسول والكتاب فلم يتبعوه وتركوه والجملة معترضة ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أم منقطعة ومعنى بل فيه للإبتداء

ومعنى الهمزة للإنكار يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه والمراد نفي طمعهم في شفاعة الأصنام وقولهم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾(١) وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢) ونحوها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ الفاء للسببية والجملة تعليل للنفي المفهوم مما سبق يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه بأن الدار الآخرة والدار الأولى كل واحدة منهما مملوكة لله مختص به يعطيهما من يشاء ويمنعهما ممن يشاء لا دخل في منعه وإعطائه لتمني متمنى ولا لشيء آخر غير إدارته تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ كائن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من الغناء ولا ينفع في حين من الأحيان ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بشفاعة له مع كونهم عباد الله المكرمين المقربين فكيف يرجون هؤلاء شفاعة الأصنام والآية رد لقولهم هؤلاء شفعاءنا عند الله، وقال البغوي معناه كم من ملك في السماوات ممن يعيدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله يعني شفاعتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني كفار مكة والتعبير بالموصول لبيان جهلهم ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حيث يقولون أنها بنات الله لما كان هذا القول في غاية الاستبعاد وجرياً بالإنكار أو رداً لكلام بالاستئناف والتأكيد بأن واللام جريا للسامع مجرى المنكر ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ الجملة حال من فاعل

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

يسمون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي لهؤلاء الكفار الجهال ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بالتقليد أو التوهم الباطل من غير دليل وهذه الجملة بيان وتأكيد لقوله وما لهم به من علم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ إما منصوب على المصدرية ومن الحق ظرف لغو متعلق بلا يغني وأما منصوب على المفعولية ومن الحق حال منه والمراد بالحق العلم لأنه عبارة عن الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع والواقع هو الحق، والمعنى أن الظن لا يغني من العلم شيئاً من الغناء أو لا يفيد شيئاً من العلم يعني لا يقوم الظن الحاصل بالتقليد ونحوه مقام العلم الحاصل بدليل قطع سمعي أو عقلي فلا يجوز للعاقل اتباع الظن بل يجب طلب اليقين والجملة معترضة لتقبيح الكفار في اتباع الظن ولما كان صلابتهم في إتباع الظن والتقليد أمارة إنكارهم لهذه الجملة أو رد هذه الجملة بالتأكيد. فإن قيل جاز في الشرع اتباع الظن في العمليات وغالباً مسائل الفقه مستنبطة من الأدلة الظنية وأيضاً ثبت بأحاديث الآحاد ونحو ذلك كثير من القصص الماضية وتفاصيل نعم الجنة وعذاب جهنم وتفاصيل أخبار يوم المعاد فلو كان الظن لا يفيد شيئاً من العلم لكان تعليمها عبثاً ولا يجوز القول بها ولا العمل بالفقه والاعتقاد بها؟ قلنا معنى هذه الآية أنه لا يجوز إتباع الظن فيما يعارضه العلم الحاصل بدليل قطعي وإن الظن لا يفيد فائدة العلم إذ لا شك أن الأضعف لا يصادم الأقوى فمقتضى هذه الآية أن العقائد الحقة الثابتة بالأدلة القطعية العقلية أو الآيات المحكمات والأخبار المتواترات السمعية لا يجوز تركها باتباع الظن ويجب ما أمكن تحصيل العلم من الأدلة القطعية والعمل بها وفيها لا يوجد دليل قطعي فالعقل يحكم الجزم والإحتياط يوجب العمل بدليل ظني أي ما يفيد غلبة الظن بطريق صحيح مثلاً إذا ثبت بدليل ظني أن الوتر واجب وأن صلاة الضحى سنة وأن البنج حرام وأن البيع بشرط فاسد ممنوع وليس هاهنا دليل قطعي يعارض هذا الظن، فالعقل يحكم أن لا يترك الوتر ولا يشرب البنج، ولا يباع بالشرط الفاسد مخافة العذاب وأن يصلّي الضحى رجاء للثواب لأن احتمال جلب المنفعة عند تيقن عدم المضرة كان للإتيان وإحتمال المضرة كان للاجتناب كما أن احتمال الحية في الحجر كاف للاجتناب عن وضع الأصابع هناك وأيضاً ثبت بالأدلة القطعية من الأحاديث المتواترة بالمعنى بإجماع الأمة وبقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2] وجوب اتباع أحاديث الآحاد والقياس عند عدم معارضته ما هو أقوى منه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

فالظن في المسائل الفقهية إنما هي في الطريق وبعد ثبوت الظن الصحيح وجوب العمل بها ثابت بدليل قطعي وأخبار المبتدأ والمعاد الثابتة بالنصوص الظنية قطعيات في القدر المشترك منها موجبة للعلم وأما تفاصيلها فغير معارضة بدليل أقوى منه فيجوز إستفادة الترغيب أو للترهيب منها والله تعالى أعلم. وقيل المراد بالحق في الآية العذاب واللام في الظن للعهد ومعنى الآيتان ظن الكفار الحاصل بتقليد الآباء أو التوهم لا يدفع شيئاً من العذاب أو لا يدفع العذاب شيئاً من الدفع ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني القرآن أو الإيمان أو عن الإشتغال بذكر الله ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾ شيئا ﴿إِلَّا﴾ شهوات ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ انهمك فيها بحيث كان منتهى همته مبلغ علمه الدنيا فحسب الفاء للسببية والموصول وضع موضع المضمر لتأكيد سببية الأعراض يعني إذا حملت جهلهم وسفاهتهم وسخافات عقلهم أنهم يتبعون الظن ويتركون ما جاءهم من ربهم الهدى ويختارون عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع ويتولون عن الاشتغال بالرحمن الواحد القهار فأعرض عنهم حيث لا تفيد دعوتك فيهم فإنهم كالأنعام بل هم أضل ولما كان بعض حركاتهم وسكناتهم مفيدة في الدنيا دالة على إدراكاتهم موهمة لهم نصيباً من العقل، قال الله تعالى لدفع ذلك الوهم قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني أمر الدنيا وكونها شبهة ﴿مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ يعني لا يتجاوز علمهم وعقلهم من العلم بالأمور المعاشية والتعقل بها وذلك غير معتد به عند الله إعلم أن العلم والعقل كل منهما مخلوقة لله تعالى على حسب ما أراد وليست الأسباب إلا أسباباً عادية وليست الأسباب أسباباً حقيقة كما زعمته الفلاسفة فالله تعالى أنشأ يخلق العلم بعدما أراد الآيات وإلا فلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فيجازي كلاً على حسب الضلالة واهتدائه هذه الجملة وعدو تعليل لما سبق من الأمر بالإعراض يعني لا تهتم بهم نحن نكفيهم للجزاء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكاً وخلقاً عطف على الجملة السابقة يعني هو الأعلم بهم وهو الهكم وخالقهم يفعل بهم ما يشاء وما يقتضيه الحكمة ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ اللام متعلق بمضمون الجملتين السابقتين يعني خلق العالم وميز الضال من المهتدي وحفظ أحوالهم ليجزي الذين أساؤا بالشرك والعصيان بسبب أعمالهم من الإشراك والمعاصي ويجزي الذين أحسنوا أعمالهم بالإخلاص بالحسنى أي بالمثوبة الحسنى يعني الجنة أو بالأحسن من أعمالهم وهي الإخلاص أو لسبب الأعمال الحسنى ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ بدل من الذين أحسنوا أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على صيغة الآخر أو على إرادة الجنس فهو إضافة صفة إلى موصوفها نحو

أخلاق ثياب والمراد بكبير الإثم الشرك فإن الشرك لظلم عظيم وقرأ الباقون كبائر بصيغة الجمع أصناف أفراد الكبائر إلى جنسه على طريقة كرام البشر وجياد الدرهم وقد ذكر تحقيق الكبائر من الذنوب في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(١) ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إما عطف تفسيري أو المراد أفحش من الكبائر خصوصاً قيل أريد به ما شرع فيه الحد ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني ما صدر من العبد بلا إصرار ثم تاب عنه ولا يكون له عادة وإقامة عليه بل حيناً بعد حين يقال فلان يفعل كذا أي حيناً بعد حين كذا قال الجوهري، قال البغوي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عن عطاء عن ابن عباس، قال السدي قال أبو صالح سئلت عن قول الله عز وجل ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت هو الرجل يلم بالذنب أي يقربه ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال لقد أعانك عليها الملك الكريم، قال البغوي وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى إلا اللهمَّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن تغفر اللّهم تغفرجما وأي عبد لك لا ألما**» فالاستثناء متصل كما هو الأصل، قيل اللمم الصغار من الذنوب كذا في القاموس فهو كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا، قال البغوي وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاووس عن ابن عباس، روى البخاري عن ابن عباس قال ما رأيت أشبه باللممَّ بما قال أبو هريرة عن النبيّ ﷺ «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»(٢) ورواه سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ وزاد «العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطأ» وقال الحسن بن الفضل اللممَّ النظرة من غير تعمل فهو مغفور فإن عاد النظرة فليس بلمم وعلى هذا اللمم أخص من صغائر الذنوب، وقال سعيد بن المسيب ما لمّ على القلب أي خطر وهذا يناسب ما قال الجوهري من قولك ألممت بكذا أي انزلت به وقاربته من غير موافقة وعلى هذه الأقوال الاستثناء منقطع، وقال الكلبي اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلاة ما لم تبلغ الكبائر والفواحش والوجه الآخر هو الذنب العظيم الذي يلم به المسلم مرة فيتوب منه، قلت: وقول الكلبي هذا ليس قولاً مغايراً للأقوال وإلا يلزم عموم الشترك أو الجمع بين الحقيقة والمجاز بل هو اختيار للقولين الأولين على وجه الاحتمال كما روى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج (٦٢٤٣).

القولين المذكورين عن أبي أبي هريرة وابن عباس(رض) والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ يغفر لمن يشاء ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها بتوبة وبلا توبة عقب الله تعالى وعيد المسيئين وعد المحسنين بهذه الآية لئلا ييئس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى كما قال به أهل الهواء من المعتزلة، أخرج أبو نعيم عن علي (رض) قال: قال رسول الله ﷺ **«إن الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة ما أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصبتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»** والله تعالى أعلم، **ثم عقب ذلك قوله** ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي بصنيعكم وسعادتكم وشقائكم وما يصير إليه أمركم وأفعل هاهنا بمعنى الفعيل إذ لا علم لأحد غير الله تعالى بما يصدر من الإنسان قبل وجوده كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي أنشأ أباكم آدم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإن علمه تعالى بالأشياء قديم وقد قال رسول الله ﷺ: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»**[1] رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، وقال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب قال ما أكتب؟ قال أكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»**[2] رواه الترمذي من حديث عبادة بن الصامت، وقال هذا حديث غريب إسناده، وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»**[3] رواه مالك والترمذي وأبو داود من حديث عمر بن الخاطب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ معطوف على إذ أنشأكم وكلا الظرفين متعلق بأعلم. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: في القدر (٤٦٩١).

المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الإذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1] متفق عليه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل إذ لا علم لكم بعواقب أموركم، قال الحسن علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم فلا تبروها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها وكذا قال ابن عباس قال الكلبي ومقاتل كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثاتب بن الحارث الأنصاري قال كانت اليهود تقول إذ هلك لهم صبي صغير هو صديق فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنه يعلم من يختم له منكم على التقوى وإخلاص العمل قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف يعني أنظرت يا محمد ﴿الَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه يعني الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبيّ ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين وقال لم تركت دين الأشياخ وضللتهم قال إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ الذي عيرّه بعض ذلك المال الذي ضمنه ومنعه فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أدبر عن الإيمان وأعطى صاحبه ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ أي بخل بالباقي كذا قال البغوي، وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه قال إن رجلاً أسلم فلقيه بعض من يعيره فقال تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار، قال إني خشيت عذاب الله، قال أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك، فأعطاه شيئاً فقال زدني فتفاسر حتى أعطاه شيئاً وكتب له كتاباً وأشهد له ففيه نزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآية، وقال مقاتل أعطى الوليد قليلاً من الخير بلسانه ثم أكدى قطعه وأمسك ولم يتم على العطية، قال السدي نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور وقال محمد بن كعب القرظي نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال ما يأمرنا محمد الامكارم الأخلاق فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من الإقرار بالحق وأكدى أي لم يؤمن ومعنى أكدي قطع وأصله من الكدية وهي حجر صلب يظهر في البئر يمنع من الحفر يقول العرب أكدى الحافر والجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ إستفهام للإنكار ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الفاء للسببية يعني إن كان عنده علم الغيب فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه إذا أشركه لما أخذ من ماله ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي لم يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يعني أسفار التوراة ﴿و﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ ما أمره الله به وأتمه حتى قام بذبح ابنه وبلغ رسالات به واحتمل من الخلق أذى حتى صبر على نار نمرود وابتلاه ربه بكلمات فأتمهن والتوفية الإتمام، وروى البغوي بسنده عن أبي إمامة عن النبيّ ﷺ قال: «**وإبراهيم الذي وفى قال صلّى أربع ركعات أول النهار**» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم لم سمي إبراهيم خليل الله الذي وفى أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون حتى ختم الآية**» وروى الترمذي عن أبي الدرداء وأبي ذرعن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال «يا ابن أدم اركع لي أربع ركعات أول النهار أكفك آخره»(١) رواه أبو داود والدارمي عن نعيم الغطفاني وأحمد عنهم وقدم موسى لأن صحفه يعني التوراة كان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء في صلاة الضحى (٤٧١).

أشهر، وأم قيل منقطعة لأن من شرط المتصلة أن يليه أحد المتساويين والآخر الهمزة وهاهنا ليس كذلك، قلت: جاز أن يقال في تأويل الآية أعنده علم الغيب بتوسط الأنباء أو بلا توسط بأنه يتحمل عنه غيره أم ليس عنده علم الغيب الحاصل بتوسط الأنباء والكتب أيضاً بأنه لا يتحمل أحد عن غيره والإستفهام للإنكار يعني ليس عنده علم الغيب يتحمل أحد عن غيره وعنده علم حصل بالتواتر والشهرة بما في الكتب السماوية بعدم التحمل ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفس حاملة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ يعني لا يؤخذ نفس بأثم غيره أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة خبره وهي مع اسمها وخبرها في محل الجر بدلاً مما في صحف موسى أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو كأنه قيل ما في صحفها فأجاب به. قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس قال كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده حتى جاء إبراهيم فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله أن لا تزر وازرة وزر أخرى، قلت: لم يكن ذلك حكماً شرعياً بل حكماً جاهلياً كما كان قبل مبعث النبيّ ﷺ أيضاً في الأوس والخزرج كان أحد الحيين شريفاً ذا ثروة من الأخرى فكانوا يقتلون بامرأة من الشريف رجلاً من الآخر وبعبد حر أو بواحد اثنين حتى نزلت ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾(١) وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة، وهذه الآية لا يخالف قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٢) وقوله ﷺ «من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(٣) أخرجه أحمد ومسلم من حديث جرير رضي الله بن عبد الله رضي الله عنه فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره ولذا ورد في الحديث «من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» وكذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾(٤) وقوله ﷺ **«إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»**(٥) متفق عليه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: إذا أنزل الله بقوم عذاباً (٧١٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٩).

من حديث ابن عمر محمول على ترك الأمر بالمعروف نحو قوله ﷺ **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**(١) رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبي بكر الصديق. مسئلة: اختلف أقوال السلف في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مليكة قال توفيت بنت لعثمان بن عفان بمكة فجئنا لنشهدها وحضر ابن عمر وابن عباس فقال ابن عمر لعمر بن عثمان وهو مواجهه ألا تنتهي عن البكاء فإن رسول الله ﷺ قال: **«إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»**(٢) فقال ابن عباس قد كان يقول بعض ذلك ثم حدث وقال لما أن أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول واأخاه واصاحباه فقال عمر يا صهيب أتبكي على وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه»** فقال ابن عباس فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت يرحم الله عمر لا والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ولكن إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه وقالت عائشة حسبكم القرآن ولا تزر وازرة وزر أخرى، قال ابن عباس عند ذلك والله أضحك وأبكى قال ابن أبي مليكة فما قال ابن عمر شيئاً، قلت وتخطئة عائشة عمر(رض) ضعيف وقد كان عمر أفقه من عائشة وكان شهادته شهادة الإثبات وتأيد حديث عمر بأحاديث أخر منها حديث المغيرة بن شعبة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه»(٣). ومنها حديث أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أخرجه أبو يعلى بلفظ: «الميت ينضج عليه الحميم ببكاء الحي»، ومنها حديث أنس وعمران بن حصين عند ابن حبان في صحيحه وحديث سمرة بن جندب عند الطبراني في الكبير وحديث أبي هريرة عند أبي يعلى فظهر أن الحديث صحيح بقي الكلام في تعارض الحديث بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال بعض العلماء إن التعذيب بالبقاء مختص بالكافر أو ممن أوصى به لا بسبب البكاء والباء للحال أي يعذب حال بكائهم عليه والقولان عن عائشة لا يصحان لأن القول باختصاص التعذيب بالكافر لا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما يرخص من البكاء من غير نوح (١٢٨٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٣).

يدفع التعارض لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يعم المؤمن والكافر وألفاظ الحديث ببعض طرقها يأبى عن كون الباء للحال ألا ترى أن قوله «ينضج الحميم ببكاء الحي» صريح في التعذيب في الآخرة فإن الحميم إنما هو في الجحيم لا في الغير فكف يتحد زمان التعذيب زمان بكاء الحي فلا يتصور كونه حالاً، وقيل المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندب به أهله الحديث الترمذي والحاكم وابن ماجه مرفوعاً «ما من ميت يموت فتقوم نادبة فتقول واجبلاه واسيداه وشبه ذلك من القول إلا وكل به ملكان يلهزانه وهكذا كنت»[١] قلت وهذا التأويل أيضاً لا يدفع التعارض فإن التوبيخ بفعل غيره أيضاً مما يمنعه لا تزر وازرة وزر أخرى، وقيل المراد بالتعذيب تألم الميت بما يقع من أهله الحديث الطبراني وابن أبي شيبة عن قيلة بنت محترمة أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ ولداً لها مات ثم بكت فقال رسول الله ﷺ: «**أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبة فيا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم**» وهذا القول عليه ابن جرير واختاره الأئمة آخرهم ابن تيمية، وأخرج سعيد ابن منصور عن ابن مسعود أنه رأى نسوة في جنازة فقال ارجعن مأزورات غير مأجورات إنكن تفتن الأحياء وتؤذين الأموات، والقول الصحيح في دفع التعارض أن الحديث فيمن كان النوح من سنته أو فيمن أوصى به أو فيمن لم يوص بتركه إذا علم أن من شأن أهله أنهم يفعلون فيكون التعذيب على وزره دون وزر غيره واختار البخاري هذا القول ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي إلا سعيه يعني كما لا يؤخذ أحد بذنب غيره لا يثاب بفعل غيره أيضاً عطف على أن لا تزر كلا الحكمين كانا في صحف إبراهيم وموسى ومستدلا بهذه الآية، قال الشافعي لا يثاب أحد بعمل غيره وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد وجمهور الخلف والسلف بخلاف ذلك فقال ابن عباس الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢] وقال عكرمة أنها خاصة بقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعت وما سعى لها، وقال الربيع بن أنس المراد بالإنسان هاهنا الكافر وهذا ليس بشيء فإن الكافر لا يثاب بعمل نفسه أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[٣] وقيل اللام هاهنا بمعنى على أي ليس على الإنسان إلا ما سعى وعلى هذا بكون عطف لا تزر وازرة وزر أخرى عطفاً تفسيرياً. احتج الجمهور على وصول الثواب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في كراهية البكاء على الميت (٩٩٧).

(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

من غيره بالأحاديث والإجماع أما الآحاديث فمنها حديث أبي سعيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا قبض الله روح عبده المؤمن صعد ملكان إلى السماء قالا ربنا وكلتنا بعبدك المؤمن نكتب عمله وقد قبضته إليك فأذن لنا أن نسكن الأرض فيقول أرضي مملوءة من خلقي يسبحون ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني وهللاني وكبراني إلى يوم القيامة واكتباه لعبدي**» أخرجه أبو نعيم، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان إنقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[1] رواه مسلم وكذا أخرج أحمد عن أبي أمامة، وجه الاحتجاج بهذا الحديث أن الصدقة الجارية وعلم ينتفع به وإن كانا من سعيه ولكن دعاء الولد ليس من عمله وهو ينفق وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أني لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك**» رواه الطبراني وروى نحوه عن أبي سعيد مرفوعاً وحديث ابن عباس قال قال النبيّ ﷺ: «**ما الميت في قبره إلا شبه الغريق المتفوث ينتظر دعوة ملحقة من أب وأم أو ولد أو صديق ثقة فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم**» رواه البيهقي والديلمي وحديث مرفوعاً «أمتي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها يمحص عنها باستغفار المؤمنين لها».

رواه الطبراني في الأوسط، قال السيوطي وقد نقل غير واحد الإجماع على أن الدعاء ينفع الميت ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[2] قلت: والظاهر أن انتفاع الأموات والأحياء بدعاء الأحياء غير مختصة بهذه الآمة وقد قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[3] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[4] وقال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[5] قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾[6] وقال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[7] فانظر أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٣) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٩٧ ـ ٩٨.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥١.

سَعَىٰ﴾ المذكور في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يصل لأحد ثواب حسنات غيره من الصلاة والصوم والصدقة والحج ونحو ذلك ويكون من خصوصيات هذه الأمة المرحومة نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ من الأحاديث حديث عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها لم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها قال نعم»[١] متفق عليه، وحديث ابن عباس «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب فأتى رسول الله ﷺفقال يا رسول الله إن أمي ماتت وأنا غائب فهل ينفعهاإن تصدقت عنها؟ قال «نعم» قال فإني أشهدك أن حائطي صدقة عنها» رواه البخاري، وأخرج أحمد وأربعة عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله إن أمي ماتت فأي صدقة أفضل قال الماء فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد، وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أنس نحوه وحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا تصدق أحدكم بصدقة تطوعاً فليجعلها عن أبويه فيكون لهما أجرها ولا ينقص من أجره شيئاً**» وأخرج الديلمي نحوه من حديث معاوية بن جندة وحديث أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من أهل بيت يموت منهم فيتصدقون عنه بعد موته إلا أهدا له جبرئيل على طبق من نور ثم يقف على شفير القبر فيقول يا صاحب القبر العميق هذه هدية أهداها إليك أهلك فأقبلها فيدخل عليه فيفرح بها ويستبشر ويحزن جيرانه الذين لا يهدى إليهم شيء**» **رواه الطبراني في الأوسط وحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من حج عن والديه بعد وفاتهما كتب الله لهما عتقا من النار وكان للمحجوج عنهما أجر حجة تامة من غير أن ينقص من أجورهما شيء**» وقال ﷺ: «**ما وصل ذو رحم رحمه بأفضل من حجة يدخلها عليه بعد موته في قبره**» رواه البيهقي والأصبهاني بسند فيه مجهولان، وعن زيد بن أرقم عن النبيّ ﷺ «من حج عن أبويه ولم يحجا فيرى عنهما وبشرت أرواحهما في السماء وكتب عند» أخرجه أبو عبد الله الثقفي وحديث عقبة بن عامر أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت أحج عن أمي وقد ماتت قال: «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته قالت بلى فأمرها أن تحج»، رواه الطبراني وحديث أنس قال جاء إلى النبي ﷺ قال: إن أبي مات ولم يحج حجة الإسلام فقال أرأيت لو كان على أبيك دين كنت تقضيه عنه؟ قال نعم قال: «فإنه دين عليه فاقضيه» رواه البزار والطبراني بسند حسن، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**من حج عن ميت فللذي حج عنه مثل أجره**» رواه الطبراني في اووسط وحديث عطاء وزيد ابن أسلم مرسلاً قال جاء رجل إلى النبيّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجأة البغتة (١٣٨٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: وصول ثواب الصدقات إلى الميت (١٠٠٤).

فقال يا رسول الله أعتق عن أبي وقد مات قال نعم» رواهما ابن أبي شيبة، وحديث ابن عباس أنه ﷺ سمع رجلاً يقول لبيك عن شبرمة قال النبيّ ﷺ ومن شبرمة قال أخ لي أو قريب قال أحججت عن نفسك؟ قال لا، قال: «حج عن نفسك ثم عن شبرمة[١] رواه أبو داوود وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وقال البيهقي إسناده صحيح، وحديث عمرو بن العاص أنه قال يا رسول الله إن العاص أوصى أن يعتق عنه بأمه نسمة فأعتق هشام منها خمسين قال لا إنما يتصدق ويحج ويعتق عن المسلم وكان مسلماً بلغه» رواه أبو الشيخ، وحديث الحجاج بن دينار قال: قال رسول الله ﷺ «**إن من البر بعد البر أن تصلي عنهما مع صلواتك وتصوم عنهما مع صيامك وتصدق عنهما مع صدقتك**» رواه ابن أبي شيبة وقد مر حديث بريدة أن امرأة قالت يا رسول الله إن كان على أمي صوم شهرين أفيجزىء أن أصوم عنها قال نعم قالت فإن أمي لم تحج قط أفيجزىء أن أحج عنها؟ قال نعم» رواه مسلم، وحديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[٢] متفق عليه وحديث علي (رض) مرفوعاً: «من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد أحد عشر مرة ووهب أجره للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات» رواه أبو محمد السمرقندي وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهكم التكاثر ثم قال إني جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله**» رواه أبو القاسم سعد بن علي، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل المقبر فقرأ سورة يسٓ خفف الله عنهم وكان له بعدد من فيها حسنات**» أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده وقال السيوطي قد ورد قراءة الفاتحة عند رأس الميت وخواتيم البقر عند رجله من حديث ابن عمر مرفوعاً وقت الدفن وفواتح البقرة وخواتمها عن حديث العلاء بن اللجلاح مرفوعاً وقال القرطبي في حديث «اقرأوا على موتاكم يس» فقال الجمهور في حال موته قال ابن عبد الواحد المقدسي عند القبور وقال المحب الطبري في الحالتين وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال يتبع بعد موته العتق والحج والصدقة، وأخرج عن أبي جعفر أن الحسن والحسين كان يعتقان عن علي بعد موته وأخرج ابن سعد عن القاسم بن محمد عن عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمٰن رقيقاً من تلاده

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الرجل يحج عن غيره (١٨١٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: الحج عن الميت (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: من مات وعليه صوم (١٩٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت (١١٤٧).

ترجوا أن ينفعه بذلك بعد موته وقال الحافظ شمس الدين ابن عبد الواحد ما زالوا في كل مصر يجتمعون ويقرؤون لموتاهم من غير نكير فكان ذلك إجماعاً، وأخرج الخلالي عن الشعبي كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤن القرآن، وفي الإحياء عن أحمد بن حنبل قال إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم، وقال البيضاوي في توجيه الآية إنه ما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلأن التأدي له كالنائب عنه، وقال بعض العلماء في توجيهها إن انتفاع المؤمن بسغي غيره مبني على إيمانه وهو سعي نفسه فكان سعي غيره تابعاً لسعي نفسه قايما بقيامه والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ في ميزانه يوم القيامة إن كان مؤمناً وأما الكافر فيحبط أعمالهم بفوات شرطها وهي النية الخاصة لله تعالى أو يقال الكافر يثاب عليه في الدنيا من أريتما الشيء، قلت: والأولى أن يقال السعي هاهنا بمعنى القصد، قال في القاموس سعى يسعى سعياً كرعى قصد وعمل ومشى وعدى وتم وكسب، وقال بعض المحققين السعي المشي السريع ويستعمل للجد في العمل ومعنى الآية ليس للإنسان إلا ما قصد وأراد بفعله فهذه الآية تفيد ما يفيد قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإن لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو المرأة نكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(١) متفق عليه من حديث عمر ابن خطاب(رض)، فلا تدل هذه الآية على أن عمل أحد لا يفيد غيره كيف وصلاة الجنازة والصلاة على النبيّ ﷺ أمورتان واجبتان وضعتا الإنتفاع غير الفاعل والله تعالى أعلم ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي المؤمن ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الأتم والأكمل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ هذا وما عطف عليه كله في صحف إبراهيم وموسى والمنتهى مصدر بمعنى الإنتهاء، روى البغوي بسنده عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ قال لا فكرة في الرب يعني الفكرة تنتهي إلى الله ويتلاشىٰ هناك، قال البغوي وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة» كذا ذكر البغوي وروى أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» قلت: يعني الفكرة لا يصل إلى كرسيه فكيف إلى ذاته

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

وهو أجل وأرفع وفي رواية له عنه «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» وروى أبو نعيم في الحلية عنه «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» وروى أبو الشيخ عن أبي عن أبي ذر «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» قلت: الفكر عبارة عن ترتيب مقدمات لتحصيل مطلوب فترتيب المقدمات لا يتصور إلاّ في آلاء الله وآياته وآثاره والمطلوب ذاته وهناك تنتهي الفكرة فإنه ليس وراء العباد أن قربه وذاته هو الصمد الذي لا يتعمق فيه النظر ونفي الفكرة في ذاته تعالى لا ينافي الوصول إليه بلا كيف بل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يقتضي نهاية السير إلى الذات البحت في الله في إصطلاح الصوفية إنما هو السير في الصفات والشيون والإعتبارات دون الذات البحت المعبر باللاتين لكن هاهنا سير نظري على ما حققه المجدِّد وقال أكثر المفسرين معنى الآية أن منتهى الخلق ومصيرهم إلى الله تعالى، وقيل منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ يعني خلق كل ما يعمل العباد حتى الضحك والبكاء قال عطاء بن أبي مسلم يعني أفرح وأحزن، وقال مجاهد أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار، وقال الضحاك أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، روى البغوي بسنده عن جابر بن سمرة قال: «كان أصحاب النبيّ ﷺ يحلون فيتناشدون الشعر ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم معهم إذا ضحكوا يعني النبيّ ﷺ» ورواه مسلم بلفظ كانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ[١] وفي رواية الترمذي يتناشدون الشعر.

روى البغوي في شرح السنة عن قتادة قال سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون قال نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل وقال بلال بن سعد يشتدون بين الأغراض ويضحك بعضهم إلى بعض فإذا كان الليل كانوا رهباناً، وروى البخاري عن عائشة ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم[٢]، وفي الصحيحين عن جرير قال ما حجبني النبيّ ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم وروى الترمذي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ[٣]، وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم ﷺ «والذي نفسي

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد (٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٦٠٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٥٠).

بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً[١]» وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر وزاد «وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الهدات تجأرون إلى الله»[٢] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ما لا روح فيه كالنقطة لنطفة جعله حيواناً والبذر جعله شجراً وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء، وقيل أمات الكافر بالنكرة وإحياء المؤمن بالمعرفة ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من كل حيوان ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي تصب في الرحم يقال مني الرجل وأمنى قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون إذا يقدر قال منيت الشيء إذا قدرته ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والنشادة بالمد والباقون بسكون الشين بلا مد وهما مصدران من نشأ ينشأ يعني الخلق الثاني البعث بعد الموت يوم القيامة أورد كلمة على وهي للوجوب على المجاز لتأكيد الوعد ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الناس بالأموال وما يدخرونه بعد الكفاية، قال في القاموس تغنى اكتفى بنفقة وفضلت فضله فادخرها والظاهر أن التقدير أغنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أفقر فحذف أفقر إستغناء منه بدلالة الحال، وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وأقنى بالإبل والبقر والغنم، وقال قتادة والحسن أقنى أخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى يعني اعطى فأوصى، وقال مجاهد ومقاتل أقني أرضى بما أعطى وقنع قال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وقال الأخفش أقنى أفقر ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان يقال لأحدهما العبور وللأخرى القميصا سميت بذلك لأنها أحقر من الأخرى والمختبرة بينهما، وأراد هاهنا الشعرىٰ في العبور وكانت خزاعة تعبدها وأول من سن لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وخالف قريشاً في عبادة أوثان ولما خالف رسول الله العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة لمناسبة مخالفة القوة، وتخصيصها في الذكر هاهنا للإشعار بأنها مخلوقة لله تعالى لا يستحق العبادة مثل اللات والعزى ولعل قوماً عبدوها في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً ولذلك ورد التخصيص بذكرها في صحف إبراهيم وموسى ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو قوم هود أولى الأمم هلاكاف بعد قوم نوح عليه السلام أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب كانوا عاد الأخرى قرأ نافع وأبو عمر وعاد لولى بحذف الهمزة وإبقاء ضمتها على اللام وإدغام التنوين فيها وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو والباقون يكسرون التنوين يسكنون

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الكسوف، باب: الصدقة في الكسوف (١٠٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٠).

اللام ويخففون الهمزة بعدها ويجوز في الابتداء بقوله عز وجل الأولى علىٰ مذهب أبي عمرو ثلاثة أوجه الأولى بإثبات همزة الوصل وضم اللام بعدها والثاني لولي بضم اللام وحذف همزة الوصل قبلها استغناء عنها بتلك الحركة وهذان وجهان جائزان في مذهب ورش في مثل هذه الكلمة والثالث الأولى كقراءة الجمهور باثبات همزة الوصل وإسكان اللام وتحقيق همزة فاء الفعل، وكذلك يجوز في الابتداء بهذه الكلمة على مذهب قالون ثلاثة أوجه أيضاً الأول بإثبات همزة الوصل وضم اللام وهمزة ساكنة عوض الواو والولى بضم اللام وحذف همزة الوصل وهمزة الواو كوجه أبي عمرو الثالث قال الداني وهو عندي أحسن الوجوه واقتبسها بمذهبنا ﴿وَثَمُودَا﴾ قرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير ألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحداً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أهلكهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من الفريقين لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله المعصية والتكذيب وإيذائهم نوحاً عليه السلام يضربه حتى لا يكون به حراك ويتنفر الناس عنه ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي القرى التي ايتفكت أي انقلبت بأهلها وهي قرى قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي أسقط أهوائها جبرئيل عليه السلام بعد رفعها إلى السماء ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يضع الحجارة المنضودة المسومة فيه تهويل وتعظيم لما أصابهم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي تشكك وتجادل وقال ابن عباس تكذب خطاب لكل احد يعني لا يجوز الشكل والمجادلة في آلاء ربك الباهرة والنعماء الظاهرة والقدرة القاهرة بعدما سمعت أحوال الأمم السابقة، قيل أراد بالخطاب الوليد بن مغيرة ﴿هَـٰذَا﴾ يعني محمد ﷺ أو القرآن ﴿نَذِيرٌ﴾ مبين ﴿مِّنَ﴾ جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي المنذرين الأولين وقال الأولى على تأويل الجماعة أي من جنس النذرات الأولى قرأ حمزة والكسائي أواخر هذه السورة من قوله تعالى إذا هوى إلى النذر الأولى بالإمالة وأمال أبو عمرو من ذلك ما كان فيه راء كأخرى وشعرى وتتمارىٰ وما عدى ذلك بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون باخلاص التفح ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ يعني دنت الساعة الوصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجملة حال من الآزفة ﴿كَاشِفَةٌ﴾، أي مظهرة نظيره قوله تعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ إلا هو صفة لموصوف محذوف أي نفس كاشفة وجاز أن يكون التاء فيه للمبالغة ويجوز أن يكون الكاشفة مصدراً كالباقية والعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف لا يكشفها ولا يظهرها غيره، وقال عطاء وقتادة والضحاك ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها وشدائدها إذ غشيت إلا الله تعالى يكشف عمن شاء من المؤمنين ﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن عطف على محذوف

تقديره أتسمعون فمن هذا الحديث ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ إنكار أو إستفهام للتوبيخ ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾، خشوعا أو تضحكون بما تفرحون من اللذات الدنيوية ولا تبكون تحزناً على ما قصرتم في الطاعة أو أفرطتم في المعصية ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ أي لاهون غافلون والسمود الغفلة عن الشيء واللهو يقال دع منا سمودك أي لهوك هذا رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة السمود عنه الغناء بلغة أهل اليمن كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال الضحاك أشرون بطرون، وقال مجاهد غضاب معرضون وقيل معناه مستكبرون من سمد البعير في مسيرة إذا رفع رأسه كذا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلّي شامخين فنزلت ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ قال في النهاية شمخ بأنفه أي ارتفع تكبراً ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ خضوعاً وتواضعاً لله وتصديقاً بوعده ووعيده واعتباراً ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ أي اعبدوه دون غيره، الفاء للسببية عطف على أزفت الأزفة عن ابن عباس قال: «سجد النبيّ ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[١] رواه البخاري، وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ «قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافر»[٢] متفق عليه وزاد البخاري في رواية وهو أمية بن خلف، وفي لفظ البخاري أول سورة نزلت فيها سجدة النجم فسجد رسول الله ﷺ الحديث وعن زيد بن ثابت قال قرأت على رسول الله ﷺ والنجم فلم يسجد فيها»[٣] متفق عليه، احتج بهذا الحديث من قال إن سجود التلاوة غير واجب وأجيب بأنه ﷺ وأصحابه وسلم لعله لم يكن حينئذ على وضوء أو يكون حينئذ مانع من السجدة ولا يدل الحديث على نفي السجود مطلقاً لكن هذا تأويل بعيد ولو كان تأخير السجود لعذر لبينه النبيّ ﷺ ويدل على عدم وجوب السجدة وقول عمر بن الخطاب(رض) إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة واختلاف الأئمة فيه في سورة الإنشقاق والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: ما جاء في سجود القرآن وسنتها (١٠٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: من قرأ السجدة ولم يسجد (١٠٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٧).

سورة القمر

مكيَّة وهي خمس وخمسون آية وثلاث ركوعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

روى البغوي عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأى حراء بينهما[1] وكذا أخرج الشيخان في الصحيحين، وقال البغوي قال شيبان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين كذا أخرج الترمذي بلفظ فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قوله ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2] وأخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبيّ ﷺ فقالوا سحر القمر فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وكذا أخرج البغوي من طرق البخاري بلفظ انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ إشهدوا، وقال البغوي وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله انشق القمر بمكة وقال انشق القمر ثم التأم بعد ذلك، وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال إنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال سحركم ابن أبي كبشة فاسألوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأينا فأنزل الله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ أي دنت ﴿ٱلسَّاعَةُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: انشقاق القمر (٣٨٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: انشقاق القمر (٢٨٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القمر (٣٢٨٥).

﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يعني قد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ يعني الكفار ﴿ءَايَةً﴾ معجزة دالة على صدق النبيّ ﷺ ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن التأمل والإيمان ﴿وَيَقُولُوا﴾ هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الفيء واستمر بمعنى ذهب كقولهم قر واستقر كذا قال مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك مستمر بمعنى قوي شديد يعلو كل سحر من قولهم مر الحبل إذا صلب واشتدوا وأمررته إذا أحكمت فتله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم، وقيل معناه سحر مطرد يوجد متتابعاً كثيراً وقيل معناه مستبشع من استمر إذا اشتد مرارته والجملة الشرطية معترضة لبيان عادة الكفار وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ عطف على انشق يعني كذبوا النبيّ ﷺ والقرآن وما عاينوا من قدرة الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يتبعوا الوحي بعد ظهوره ذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي منتبه أي غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة فإن الشيء إذا انتهى إلى غاية ثبت واستقر وكذا قال مقاتل لكل حديث منتهى، وقيل معناه كل أمر مقدر مستقر يعني كأين واقع لا محالة وكل أمر وعد الله واقع كأين لا محالة وقال الكلبي لكل أمر حقيقة ما كان منهم في الدنيا فسيظهر وما كان منه تعالى في الآخرة فسيعرف، وقال قتادة وكل أمر مستقر في الخير يستقر بأهل الخير وكل أمر مستقر في الشر يستقر بأهل الشر، وقيل كل أمر من خير أو شر مستقر قراره فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ يعني كفار مكة في القرآن ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، ما موصولة أو موصوفة أصله مزتجر بقلب تاء الإفتعال مع الزاء وإلا للتناسب وكذا مع الذال فإن التاء حرف مهموس والدال والذال والزاء مهجورات ومخرج التاء والذال واحد مصدر ميمي بمعنى الازدجار يعني جاءهم ما فيه نهي وعظة بحيث يقتضي الإنتهاء من المعاصي والإتعاظ فإن هلاك الأمم الطاغية الماضية المواعيد بالنار يقتضي ذلك ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتها لا خلل فيها بدل من ما فاعل جاء أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ نفي أو استفهام للإنكار أي فلم تغن النذر أو فأي غناء يغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر أي الرسول أو المصدر منه أو مصدر بمعنى الإنذار ﴿فَتَوَلَّ﴾ حيث لا ينفعهم إنذارك نسختها أية القتال ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ قرأ البزي الداعي بإثبات الياء وصلاً وقفاً وأبو عمر ودورش في الوصل فقط ويوم منصوب باذكر، والجملة مستأنف وجملة يخرجون حال من مفعول بدعوا المحذوف تقديره يوم بدعوهم الداعي يخرجون أو الظرف متعلق يخرجون وجملة تخرجون مستأنفة وذلك يوم القيامة، الداعي إسرافيل عليه السلام يقف على صخرة

بيت المقدس يقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المنقطعة إن الله يأمركن أن تجمعين لفصل الخطاب رواه ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ قرأ ابن كثير بإسكاف الكاف والباقون بضمة أي شيء منك فظيع لم تعهد مثله تنكره النفوس استعظاما ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب خاشعاً بفتح الخاء وألف بعد وكسر الشين على الإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيق التأنيث وقرأ ابن مسعود(رض) خاشعة على الأوصل وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر خشعاً على صيغة جمع التكسير وحسن ذلك ولا يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة يشبه الفعل يعني ذليلاً أبصارهم حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة الجملة أيضاً حال من فاعل يخرجون ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، قرأ ابن كثير الداعي بإثبات الياء في الحالين ونافع وأبو عمرو في الوصل فقط يعني مسرعين مادي اعناقهم إلى صوت الداعي أو ناظرين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد جملة مستأنفة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام تنازع الفعلان في المفعولية فاعمل الثاني وحذف من الأول والمعنى كذبت قوم نوح نوحاً عليه السلام فكذبوه تكذيباً بعد تكذيب كلما معنى منهم قرن مكذب جاء قرن آخر فكذبوه وهذا إلى ألف سنة إلا خمسين عاماً، وجاز أن يقدر المحذوف غير المذكور فلا يكون من باب التنازع والمعنى كذبوه بعد ما كذبوا الرسل وجاز أن ينزل الفعل منزل واللازم ولا يقدر المفعول فلا يكون من باب التنازع والمعنى صدر التكذيب قبلهم من قوم نوح فكذبوا نوحاً والفاء حينئذ للتفصيل بعد الإجمال ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على كذبوا ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ إما عطف على مجنون يعني قالوا هو مجنون وازدجرته الجن فخبطته وذهب بعقله كذا قال مجاهد أو عطف علي قالوا يعني وازدجروه عن التبليغ بأنواع

الأذية وقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين، أخرج عبد بن حميد عن مجاهد وأحد امنهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق ويقول اللّهم اغفر لي لقومي فإنهم لا يعلمون وكذا أخرج أحمد في الزهد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿فَدَعَا﴾ نوح ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ بعدماأوحي إليه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي بأني مغلوب غلبني قومي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي فانتقم لي منهم لعذاب تبعتهم وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[1] ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوما وقيل معناه بماء طبق ما بين السماء والأرض ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تميز من النسبة والمعنى فجرنا عيون الأرض لكن غير للمبالغة كأنه قال جعلنا الأرض كلها عيوناً منفجرة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ويعني الإفتعال بمعنى اتفاعل وذلك يقتضي تعدد الفاعل لكن الماء اسم يطلق على الواحد والكثير وأريد هاهنا فالتقى الماءان يعني ماء السماء وماء الأرض كذا قرأ عاصم الجحدري ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي على حسب أمر قدره الله تعالى في الأزل وكتب في اللوح أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل من السماء على قدرنا أخرج من الأرض أو على أمر قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي مسامير دسار أو سير ذكر النعت وأقيمت مقام الاسم ﴿تَجْرِى﴾ حال من ذات ألواح ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي محفوظة بحفظنا ﴿جَزَآءً﴾ أي فعلنا ذلك جزاء أو جزينا قوم نوح جزاءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي لأجل نوح لأنه نعمة كفروها فإن كل نبي نعمة من الله ورحمة على أمته وقيل من بمعنى ما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمة عند الكافرين أو المعنى حاجزاً لما صنع بنوح وأصحابه أو المعنى فعلنا ذلك أي أغرقنا قوم نوح وأنجينا نوحاً جزاء وثواباً لنوح عليه السلام ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي الفعلة المذكورة يعني أبقينا قصتها ﴿ءَايَةً﴾ على قدرتنا وصدق الأنبياء يعتبر بها من بعدهم وقال قتادة الضمير المنصوب عايد إلى السفينة ولقد أبقى الله السفينة بأرض الجزيرة، وقيل بالجودي دهراً طويلاً حتى نظرها أوائل هذه الأمة وهذه جملة معترضة وكذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي معتبر، الإستفهام للإغراء والتحريض على الإذكار والإتعاظ والفاء للسببية أصله مدتكر مفتعل من الذكر قلبت التاء وإلا للتناسب ثم أدغمت الدال في الدال لقرب المخرج ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ الإستفهام للتعظيم والتهويل والفاء للسببية فإن القصة السابقة سبب للتهويل ونذر جمع

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

نذير، وقال الفراء الإنذار والنذر مصدر أن كالإنفاق والنفقة والإيقان واليقين وكيف خبر كان قدمت لاقتضائها صدر الكلام قرأ ورش عذابي ونذري بإثبات الياءات في ستة مواضع من هذه السورة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي سهلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي للإذكار والاتعاظ بأن ذكرنا فيه أنواع المواعظ والعبر والوعيد وأحوال الأمم السابقة للاعتبار والمعنى يسرنا القرآن للحفظ بالإختصار وعذوبة اللفظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ قوم هود عليه السلام هوداً وجميع الأنبياء ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي إنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله أو لمن بعدهم في تعذيبهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً شديد الهبوب وشديد الصوت ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم على الأعداء ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾، أي استمر شؤمه أو استمر عليهم حتى أهلكهم الله أو على صغيرهم وكبيرهم فلم يبقى منهم أحداً وأشد مرارته قال البغوي قيل كان يوم الأربعاء آخر شهر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلعهم من أماكنهم ثم ترمى بهم على رؤسهم فتدق رقابهم وقال البيضاوي: روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعهم الريح منها وصرعتهم موتى، وقال البغوي روي أنها كانت تنزع الناس من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أي أصول ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع من مكانه ساقط على الأرض ذكر الصفة حملاً على اللفظ والتأنيث في قوله: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾[1] و﴿النخل باسقات﴾[2] للمعنى قال البغوي إنما قال أعجاز نخل هي أصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تمين رؤسهم من أجسادهم فتبقى الأجسام بلا رؤس ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ كرر للتهويل وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم لنذيقهم الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ بالإنذارات والمواعظ والرسل ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا﴾ آدمياً منصوب

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٧.
(٢) سورة ق، الآية: ١٠.

على المفعولية بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿مِنَّا﴾ صفة لبشر أي من جنسنا أو من جملتنا لا فضل له علينا بالمال والجاه واحداً بدل من بشر أو عطف بيان له أي منفردا لا تبع له أو من آحادنا دون أشرافنا ﴿نَّتَّبِعُهُۥ﴾ الإستفهام للإنكار والإنكار على كون متبوعهم مثلهم في الجنسية ودونهم في الإنفراد لا على فعل الإتباع فإنه لو كان المتبوع من الملائكة أو ملوك البشر لم ينكروا إتباعه فلا بد تقدير الفعل مؤخراً منالمفعول في الإضمار والتفسير تأكيداً الإنكار الإتباع ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي إذا نتبعه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي خطأ ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ قال وهب معناه بعد من الحق، وقال الفراء جنون يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها، وقال قتادة معناه عناء أو عذاب مما يكره منا من طاعة وقيل سعر جمع سعير قال ابن عباس معناه عذاب، وقال الحسن شدة عذاب وكأنهم عكسوا قول صالح عليه السلام لما قال إن تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعير ونيران فقالوا إن إتبعناك إنا إذا لفي ضلال وسعير ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ الكتاب والوحي ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق بذلك يعنون أنه لم يلق عليه الذكر من بيننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ يكذب على الله ﴿أَشِرٌ﴾ بطر منكر يريد أن يتعظم علينا بادعاء النبوة إضراب من نفي الفضيلة إلى إدعاء الرزيلة فيه عليه السلام ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل هم العذاب وقال الكلبي يعني يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أهم أم صالح عليه السلام قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون عذابنا الخطاب على الإلتفات والباقون بالياء على الغيبة والجملة استئناف في جواب ما شأنهم ولما سألوا معجزة من الصالح عليه السلام على صدقه وقالوا تعنتاً أن يخرج لهم ناقة حمراء عشراء من صخرة عينوها قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها وباعثوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي لأجل امتحانهم أو حال كونها إمتحاناتهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي فانتظر يا صالح ما يصنعوا بها ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على إذا هم أو اصبر على ارتقابهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾ أي مقسوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين قومك وبين الناقة لها يوم ولهم يوم أورد ضمير الجمع المذكر العاقل تغليبا ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ أي نصيب من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كان نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يوم نوبتهم حضروه دون الناقة واحتضر وحضر بمعنى واحد، وقال مجاهد يحتضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت الناقة حضر واللبن ﴿فَنَادَوْا۟﴾ ثمود ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فتناول الناقة بسيفه ﴿فَعَقَرَ﴾ فعذبناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ ثم بين عذابهم فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بهم جبرئيل عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي صاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ قال ابن عباس المحتظر الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون

السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم، وقيل هو الشجر اليابس الذي يتخذه من الحظير لأجل الحظيرة أو الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء وقال قتادة معناه كالعظام النخرة المحترقة، وقال سعيد بن جبير هو التاب يتناثر من الحائط ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى الصغار وقيل الحصباء هي الحجر الذي دون ملأ الكف وقد يكون الحاصب الرامي فيكون على هذا إنا أرسلنا عليهم حاصباً يحصبهم أي يرمهم بالحجارة ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إستثناء من الضمير المجرور في عليهم ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ يعني آل لوط ﴿بِسَحَرٍ﴾ أي في سحر وهي آخر الليل أو مسحرين الجهلة تعليل للإستثناء ﴿نِّعْمَةً﴾ أي إنعاماً علة لنجينا ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لنعمة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بالإيمان والطاعة يعني من وحد الله وشكر نعمة نجزيه جزاء...

كما جزينا آل لوط ولم نعذبهم مع المشركين كذا قال مقاتل ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ يعني أنذر لوط قومه ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي أخذتنا إياهم بالعذاب إن لم يؤمنوا مفعول ثاني لأنذر ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ يعني كذبوا لوطاً وشكوا بالإنذار ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾ أي طلبوا لوطاً أن يعرض ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾ ويسلمهم إليهم حين قصدوا الفجور بهم وكانوا الملائكة فيهم جبرئيل عليه السلام على صورة الأمارد أرسلهم الله على قوم لوط ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة للمسرفين فلما قصد قوم لوط داره وعالجوا الباب ليدخلوا قالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار. وقال البغوي وأخرج ابن إسحاق وابن عساكر من طريق جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس إن لوطاً أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأى الملائكة على لوط قالوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فصعقهم جبرئيل بجناحه بإذن الله فتركهم عمياً يترددون

متحيرين إلى الباب فأخرجهم لوط عمياناً لا يبصرون وذلك قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي صيرناها كسائر الوجه لا يرى له شق كذا قال أكثر المفسرين، وقال الضحاك طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فلم يروهم فرجعوا فقال الله تعالى على ألسنة الرسل ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي ما أنذرتكم به على لسان لوط من العذاب ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أي جلاهم وقت الصبح ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ﴾ رمي الحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي يستقر بهم بعد الموت عذاب القبر حتى يسلمهم إلى النار المؤبدة ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ وفائدة التكرير بعد كل قصة أن يستأنفوا تنبيهاً واتعاظاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام ومن معهما، وقيل هي الآيات التي أنذرهم بها موسى واكتفى بذكر آل فرعون عن ذكره للعمل بأنه أولي بذلك ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني الآيات التسعة ﴿كُلِّهَا﴾ عن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه إذهب بنا إلى هذا النبي فقال له صاحبه لا تقل نبي إنه لو سمعك لكان له أربع أعين فأتيا رسول الله ﷺ فسألا عن تسع آيات بينات فقال رسول الله ﷺ: «**لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تولوا للفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت قال فقبلا يديه ورجليه، وقالا نشهد أنك نبي، قال فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا إن داود عليه السلام دعى ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود**»(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب يعني أغرقناهم في اليم ثم أدخلنا في النار ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب لا يغلب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ على الانتقام لا يعجزه ما أرادو لا يمنعه شيء عما أراد.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في قبلة اليد والرجل (٢٧٣٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: السحر (٤٠٧٦).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يعني كفار قومكم أيها المؤمنون من قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ يعني من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط آل فرعون المذكورين بحلول العذاب بهم قوة وعدداً أو مكانة وديناً عند الله والإستفهام للإنكار يعني ليسوا خيراً منهم فكيف أمنوا من مثل ماحل بهم من العذاب ﴿أَمْ لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ وأمان من العذاب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكتب السماوية أن من كفر منكم وكذب الرسل لا يعذب حتى أمنوا من العذاب ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ أي جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ومنتصر من الأعداء لا تغلب أو متناصر بعضنا بعضاً، والتوحيد حملاً على لفظ الجميع وموافقة لرؤوس الآي، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قالوا يوم بدر نحن جميع منتصر فنزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قرأ يعقوب سنهزم بالنون على صيغة المتكلم المعروف والجمع منصوباً على المفعولية والباقون على صيغة الواحد الغائب المجهول والجمع مرفوعاً على أنه مسند إليه أورد الدبر مفرداً في محل الإدبار بإرادة الجمع الجنس موافقة لرؤوس كما يقال ضربنا منهم الرأس أو لأن كل واحد منهم يولي بره.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر «**أنشدك عهدك ووعدك اللّهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم» فقال أبو بكر وأخذ بيده حسبك يا رسول الله ألحت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر)**[١] كنت لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبيّ ﷺ يثب في درعه ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ذكره البغوي، قول سعيد بن المسيب قال سمعته من عمر وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم من مرسل عكرمة ورواه الطبراني في مجمعه الأوسط بَلِ السَّاعَةُ اضراب على طريقة الإنتقال إلى الأهم ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ وجميعاً للعذاب وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه وكان ليس بعذاب بالنسبة إلى ما يحيق بهم يوم القيامة ولذلك لا يعذب بعض الكفار في الدنيا مع استحقاقهم جميعاً للعذاب ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أي أشد داهية والداهية أمر فظيع لا يهدى إلى دفعه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين تعميم بعد تخصيص لبيان حال الكفار مطلقاً بعد التخصيص بذكر كفار مكة في ﴿ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ نيران في الآخرة وقيل معنى الآية في ضلال أي ذهاب من طريق الجنة في الآخرة وسعر أي نار مسعرة كذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ (٤٨٧٧).

قال الحسن بن فضل وقال قتادة في عناء وعذاب ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي حر النار وألمها فإن مسها سبب لألمها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ والجملة معترضة بين ذكر الكفار نزلت رداً لمخاصمة قريش.

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة، قال جاءت مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[١] يعني خلقنا كل شيء بتقدير سابق أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه، قال الحسن قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له أي يقتضيه الحكمة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق كما قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال كان عرشه على الماء**»[٢].

رواه مسلم، وروى البغوي بسنده عن طاووس بن مسلم اليماني قال أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر**»[٣] رواه الترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك على المكذبين بالقدر**».

رواه أبو داود وروى الترمذي نحوه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضو إلا تعودوهم وإن ماتوا لا تشهدوهم**»[٤] رواه أحمد وأبو داود، وعن أبي خزامة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقي بها ودواء نتداوي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[٥] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وفي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القمر (٣٤١١).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الإيمان بالقدر خيره وشره (٢١٤٥).
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٧٩).
(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

الباب أحاديث كثيرة وانعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ في تكوين الأشياء وإعدامها وإعادتها ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي الأفعلة واحدة وهي الإيجاد والإمحاء بلا معالجة ومعناه أو إلا كلمة واحدة وهي قوله تعالى: كن في الايجاد والصيحة في الإعدام والبعث كائنة في اليسر والسرعة ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ قال الكبي عن ابن عباس وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر نظيره قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ جمع شيع معناه المثل كذا في القاموس يعني أهلكنا أشباهكم في الكفر ممن قبلكم يا أهل مكة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ بالإعتبار ممن قبله الفاء للسببية، والاستفهام للحث والتحريض بمعنى الأمر يعني لقد أهلكنا يا أهل مكة أشباهكم فاذكروا واتعظوا منصل بما سبق في توبيخ أهل مكة وما بينهما معترضات ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ صفة لشيء فعله المكلفون ثابت مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في صحائف الحفظة التي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فيجازي بها يوم القيامة أو في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أعمال المكلفين أو من الخلائق وأعمالهم وآجالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي مسطور مكتوب في صحائف الحفظة أو في اللوح المحفوظة فهذه الجملة بيان وتفسير وتأكيدها لما سبق أو المراد بأحد الجملتين كونها مكتوباً في صحائف الحفظة وبالأحرى في اللوح المحفوظ والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل واللبن، أورد لفظ المفرد اكتفاء باسم الجنس موافقة لرؤوس الآي وقال الضحاك يعني في الضياء السعة ومنه النهار، قال البغوي قرأ الأعرج ونهر بالضمتين جمع نهار يعني لا ليل لهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان لا لغو فيه ولا تأثيم يعني الجنة أو في مكان مرضى قال الجوهري يعبر عن فعل فاضل ظاهراً وباطناً بالصدق ومنه قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[3] قال البغوي قال الصادق (رض) مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي عند الله مالك الأشياء كلها وملكها قادر لا يعجزه شيء عندية غير متكيفة لا تدركه العقول والأفهام إلا من فتق الله غشاوة بصيرته من الكرام وفائدة التكبير فيها الإيماء إلى ما من شيء إلا تحت ملكه وقدرته والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

سورة الرحمن

آياتها ثمان وسبعون آية وثلاث ركوعات وهي مكيّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾﴾ جواب لقول الكفار وما الرحمن فذكر الله تعالى أنه مولى النعم الدنيوية والآخروية كلها من بدء الخلق إلى أبد الآبدين على ما يقتضيه لفظ الرحمن المبني على كمال المبالغة في الرحمة وقدم في الذكر ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو تنزيل القرآن وتعليم فإنه أساس الدين وفيه صلاح الدارين، ثم ذكر بعده خلق الإنسان إشارة إلى أن الإنسان إنما خلق لأجل تلقى القرآن ولذلك علمه البيان ولما كان إشراكهم وعبادتهم لغير الله تعالى وقولهم وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا دليلاً على إنكارهم آلاء الله تعالى كرر التوبيخ عليهم في السورة إحدى وثلاثين مرة بعد ذكر بعض آلاء إيقاظاً وتنبيهاً وأما بعد الوعيد على الكفران زجراً ومنعاً عما هم عليه وأما بعد الوعد لمن خاف مقام ربه وشكر نعمائه تحريضاً وتطميعاً، وقيل هذه الآية رد لقول الكفار: ﴿إنما يعلمه بشر﴾[1] والمعنى أنه لا يستطيع البشر على تعليم مثل هذا القرآن البليغ المعجز بل علمه الرحمان الذي هو المنعم بالنعم الدنيوية والأخروية كلها بمقتضى رحمه وهذا أجل النعم المفضي إلى صلاح الدارين رحمٰن مبتدأ والجملة خبرة ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة يعني آدم عليه السلام علمه البيان يعني أسماء كل شيء علمه اللغات

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

كلها فكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وقال أبو العالية والحسن المراد جنس الإنسان ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ باللسان والكتابة والفهم والإفهام حتى يتميز عن سائر الحيوانات وصار قابلاً للوحي وتنزيل القرآن، وقال السدي علم كل قوم لسانهم الذين يتكلمون به وجاز أن يقال خلق الإنسان يعني محمد ﷺ علمه البيان يعني القرآن فيه بيان ما كان وما يكون من الأزل إلى الأبد مطابقاً لبيان من معنى من الرسل هداية للناس وآية على نبوته، كذا قال ابن كيسان، فعلى هذا الجملتان الأخيرتان بيان وتفصيل للأولى ولهذا لم يورد العاطف بينها وكلها أخبار مترادفة للرحمٰن، قيل: ترك العاطف لكون كل منها مستقلاً بالخبرية وقيل بمجيئاً على نهج التحديد ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ الحسبان إما مصدر كغفران وسبحان وكقرآن ورجحان ونقصان من حسباناً أو جمع للحساب كالشّبان والركبان والمعنى الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر معلوم في منازلهم يتنسق بتلك أمور الكائنات السفلية ويختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب وأوقات الصلاة والصيام والحج والزكاة وآجال الديون ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ أي ما ليس له ساق من النبات ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ ماله ساق يبقى في الشتاء ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي ينقادان الله طبقاً فيما يريد منهما إنقياد الساجدين المكلفين طوعاً يقال سجودها سجود ظلمهما، قال الله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾(١) والجملتان خبران آخران للرحمٰن وكذا ما بعدهما مما عطف عليهما وكان حق النظم في الجملتين أن يقال وأجرى الشمس والقمر بحسبان وأسجد النجم والشجر والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له الوجوب العائد في الخبر لكن حذف العائد منهما لوضوحه وأدخل العاطف بينهما وبين ما بعدهما لاشتراكهما في الدلالة على وجود الصانع يحكم الذي يقدر ويدبرو يغير أحوال الأجرام العلوية والسفلية على نهج بديع وأسلوب حكيم ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿رَفَعَهَا﴾ أي خلقها مرفوعة ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد أراد بالميزان العدل والمعنى أمر بالعدل وأثبته في الذمم حتى انتظم أمر العال واستقام، وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد ما يوزن الأشياء ويعرف به المقادير من الميزان والمكيال والذراع ونحو ذلك فإنها سبب الإنصاف والإنتصاف وأصل الوزن التقدير ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ إما مضارع منصوب بأن في قوة المصدر متعلق بوضع بتقدير اللام يعني وضع الميزان لأن لا تجاوزوا الحق في الميزان ولا تظلموا وإما صيغة نهي وأن مفسرة تقديره أمرأن لا تطغوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ معطوف على تطفوا على تقدير كونه نهياً وعلى تقدير كونه مضارعاً

(١) سورة النحل، الآية: ٤٨.

معطوف على وضع بتقدير قال ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل ولا تنقصوا أمر الله تعالى بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ومن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان ثلاث مرات ولم يكتف بالضمير تشديد للتوصية وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه فويل للمطففين. **مسألة**: من اشترى مكيلاً مكايلة أو موزوناً موازنة فاكتاله أو اتزنه ثم باعه مكايلة أو موازنة لم يجز للمشتري الثاني أن يبيعه ولا أن يأكله حتى يعيد الكيل أو الوزن لأنه يجعل بأن يزيد على المشروط وذلك للبائع والتصرف في مال الغير حرام يجب التحرز عنه «وقد نهى النبيّ ﷺ عن بيع الطعام حتى يجري فيه الصاعان صاع البائع وصاع المشتري»[1] رواه ابن ماجه وابن إسحاق من حديث جابر وأعل بعبد الرحمٰن بن أبي ليلى ورواه البزار من حديث أبي هريرة وله طريقان ضعيفان عن أنس وابن عباس وروى عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن عثمان بن عفان وحكيم بن حزام كانا يبتاعان الثمر ويجعلان في الغرائر ثم يبيعانه بذلك الكيل فنهاهما رسول الله ﷺ أن يبيعا حتى يكيلا لمن ابتاعه منهما، قال ابن همام هذا الحديث حجة لكثرة طرقه وقبول الأئمة إياه فإنه قد قال بقولنا هذا مالك والشافعي وأحمد.

مسألة: ولا معتبر بكيل البائع قبل البيع وإن كان بحضرة المشتري لأنه ليس صاع البائع والمشتري وهو المشروط ولا بكيله بعد البيع بغيبة المشتري لأن الكيل من باب التسليم لأنه يصير به المبيع معلوماً ولا تسليم إلا بحضرته ولو كال البائع بعد البيع بحضرة المشتري قيل لا يكتفى به بظاهر الحديث فإنه اعتبر صاعين والصحيح أنه يكتفى به لأن المبيع صار معلوما بكيل واحد ولتحقق معنى التسليم، ومحل الحديث اجتماع الصفتين كما إذا اشترى المسلم إليه من رجل كرأ وأمر رب السلم أن يقبضه فإنه لا يصلح إلا بصاعين لاجتماع الصفتين بشرط الكيل لشراء المسلم إليه لنفسه وقبض رب السلم ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾منصوب بفعل مضمرة تفسيره ﴿وَضَعَهَا﴾ أي خلقها وخفضا مدحوة ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي للخلق، في القاموس الأنام كسحاب وسباط سائر الخلق والجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض، قال البيضاوي وقيل الأنام كل ذي روح قلت: الظاهر أن المراد به هاهنا الجن والإنس لأن الخطاب معهما كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ قال ابن كيسان يعني ما يتفكهون به من النعم التي لا تجمع الجملة تعليل لمضمون قوله تعالى والأرض وضعها للأنام ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ جمع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: النهي عن بيع الطعام قبل ما لم يقبض (٢٢٢٨).

كم بكسر الكاف وهو وعاء الثمر ﴿وَالْحَبُّ﴾ وهو ما يؤكل من البذور كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ وهو ورق الزرع والنبات اليابس كالتبن ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ أي الرزق وهو اللب كذا قال أكثر المفسرين من قولهم خرجت أطلب ريحان الله، قال ابن عباس كل ريحان في القرآن فهو الرزق، وقال الحسن وابن زيد وهو ريحانكم الذي يشم وهو فعيلان من الروح فقلب الواوياء وأدغم ثم خفف، وقيل أصله روحان قلب واوها ياء للتخفيف، قرأ العامة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان يرفع الاسماء الثلاثة عطفاً على الفاكهة، وجاز أن يكون الريحان معطوفاً على ذو العصف بتقديره وحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر عطفاً على العصف وما عداه بالرفع عطفا على الفاكهة وقرأ ابن عامر والحبة والنخل ذات الأكمام والحب والعصف والريحان، بنصب الثلاثة عطفاً على الأرض وضعها على تقديره وخلق النخل ذات الأكمام وخلق الحب والعصف وخلق الريحان ويجوز أن يراد ذا الريحان فحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بِحُسْبَانٍ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى الأنام وقوله أيها الثقلان وقيل خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب يخاطبون كذلك نظيره قوله تعالى ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[1] والفاء للسببية والإستفهام لتقرير آلآء وإنكار تكذيبهما فإن ذكر الآلاء سبب لإقرارها وشكر منعمها والرد عن تكذيبها وكذا الوعيد على الكفران والوعد سببان للإقرار والشكر، روى الحاكم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: «مالي أراكم سكوتاً والجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأيّ الآء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ

(١) سورة ق، الآية: ٢٤.

﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طين يابس به صلصلة أي تردد صوت وقيل الصلصال السنن من الطين ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار وهو الخذف قيل الفخر المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ومنه الفخار بمعنى الحراء لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر به، ولا اختلاف بين هذه وبين من حمأ مسنون ومن طين لازب ومن تراب لاتفاقها معنى لأنه تفيد أنه خلق من تراب ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصال ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ اللام للجنس يعني جنس الجن وقيل هو علم لأبي الجن وقال الضحاك هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ بيان لمارج وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه وهو في الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب، وقال مجاهد هو ما اختلط بعض ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي تعلو النار إذا وقدت من قولهم مرج أمر القوم إذا اختلط الجملة خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاض عليكما من أطوار خلقناكما حتى صرتما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك ﴿مَرَجَ﴾ أي أرسل ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب من مرجت الدابة إذا أرسلتها خبر آخر للرحمٰن ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حال من البحرين، أي يتجاوزان ويتماس سطوحهما ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى حال آخر ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ حال أخرى أي لا يبغي أحدهما على الأخرى بالممازجة وإبطال الخاصية، وقال قتادة لا يطغيان على الناس بالغرق، وقال الحسن مرج البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند وعن قتادة أيضاً بحر الفارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر، وقال المجاهد والضحاك بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من المنافع وظهور قدرة الله تعالى جملة معترضة وقوله تعالى ﴿يَخْرُجُ﴾حال أخرى من البحرين قرأ نافع وأبو عمر ويعقوب يخرج بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول من الإخراج والباقون بفتح الياء وضم الراء من المجرد ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من البحرين العذب والملح قيل الدرر إنما يخرج من الملح دون العذب فقيل في جوابه أنه يخرج من مجتمع الملح والعذب وقيل لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما وقيل: إنه جائز في كلام العرب أن

يذكر شيئين ثم يخص أحدهما بفعل كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[١] وكان الرسل من الإنس دون الجن وإن كان المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض كما قال مجاهد والضحاك فالوجه أنه إذا مطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيثما وقعت وقعت قطرة كانت لؤلؤ كذا قال ابن جرير ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ قرأ أبو بكر ويزيد بلا همزة والباقون بهمزة وهي كبار الدرر ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغارها كذا في القاموس، وقال مقاتل ومجاهد على الضد يعني اللؤلؤ صغار الدرر والمرجان كبارها وقيل المرجان الحزز الأحمر فهو نوع من الجواهر يشبه النبات والحجر وقال عطاء الخراساني هو البسد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ﴾ تعالى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار جمع جارية ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين أي اللائي ابتدأن وأنشأن السير والباقون بفتح الشين أي المرفوعات اللاتي رفع خشبها بعض على بعض وقيل المنشئات المسخرات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالمنشئات وهي صفة للجوار وقوله ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ صفة يعني كالجبال جمع علم وهو الحبل الطويل الجملة معطوفة على مرج البحرين خبر للرحمن بتبعيتها وإنما جعلها تابعة لها لكون الجواري تابعة للبحر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض من الحيوانات أو المركبات أو من كل شيء حتى الجبال والبحار والمعادن ومن للتغليب أو من الثقلين ﴿فَانٍ﴾ يوم القيامة، أو قيل ذلك متى شاء الله تعالى أو فان في حد ذاته موجود بوجود مستعار من الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ﴾ قيل هو من المتشابهات ﴿رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ أي ذو العظمة والسلطان والإستغناء المطلق ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الفضل العام قلت العام قلت عطف بقاء وجه ربك على فناء من الأرض وتخصيص ذكر الفناء ثم يقتضي أن المراد بالوجه هاهنا الجهة حتى يحصل المناسبة والمقارنة بين المعطوف والمعطوف عليه. فإن قيل معنى العطف هاهنا على المقابلة بين فناء الخلق وبقاء الخالق دون المقارنة؟ قلنا لو كان كذلك لم يفد تقييد الفناء بمن على الأرض فالمعنى كل من على الأرض من الثقلين فإنه في حد ذاته لا يعبأ به ويبقى من جهاته جهته إلى ربه وتوجهه إليه فإنه لا يطرء عليه فناء قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[٢] وهذه الصفة من عظيم صفات الله تعالى، روى الترمذي عن أنس وأحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح عن ربيعة بن عامرة قال: قال رسول الله ﷺ «ألظوابيا ذا الجلال والإكرام»[٣] وفي الحصن الحصين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٢٥).

أنه ﷺ مر برجل وهو يقول يا ذا الجلال والإكرام فقال عليه الصلاة والسلام «قد استجيب لك فسل» والإ لظاظة به من كريم صفات الإنسان الجملتان خبران آخران للرحمن والعائد في الجملة الأولى محذوف وفي الثانية وضع المظهر موضع المضمر والتقدير كل من عليها فان بإفنائه أو بقهرمانه ويبقى وجهه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ منها توفيقه للتوجيه إليه تعالى ومنها ما ذكر من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما على صدد الفناء رحمة وفضلاً ومنها ما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن حوائجهم من المغفرة والعافية وتوفيق العبادة والتجليات والبركات والرزق وغير ذلك، وقيل المراد بمن في السماوات والأرض الموجودات كلها وأورد كلمة من تغلبا فإنها كلها مفتقرة إلى الله تعالى في ذواتها وصفاتها وسائر ما يهمها ويهمن لها والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي وقت منصوب على الظرفية بيسأله أو بمقدر دل عليه ما بعده وما قبله يعني يعطي مسؤولهم ويحدث أمور كل يوم ﴿هُوَ﴾ يعني الله تعالى ﴿فِى شَأْنٍ﴾ دائماً ومن شأنه أن يحيى ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل آخرين ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويرهن فارغاً ويفرج مكروهاً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً للمؤمنين، ويدخل جهنم الكافرين ويعذبهم بأنواع التعذيب ويدخل الجنة من خاف مقام ربه ويكرمهم بأنواع التكريم أي ما لا يحصى من إنعامه وإحداثه في خلقه ما يشاء قال رسول الله ﷺ **«من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»**(١) رواه ابن ماجه وابن حبان.

في الصحيح من حديث أبي الدرداء وأخرج ابن جرير مثله من حديث عبد الله بن منيب والبزار مثله من حديث ابن عمر، وروى البغوي بسنده عن ان عباس قال إن مما خلق الله عز وجل لوحاً في درة بيضاء دفتاه ياقوته حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال الحسين ابن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت، قال أبو سليمان الداراني في هذه الآية كل يوم له إلى العبيد برّ جديد، وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الإختيار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (٢٠٢).

والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقيل شأنه جل ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاث عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل قال مقاتل نزلت الآية في يهود حيث قالوا إن الله لا يفضي يوم السبت شيئاً ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما يسعف سؤالكما وما يخرج لكما من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الرب والباقون بالنون على التكلم قيل معناه سنجرد لجزائكم وذلك يوم القيامة فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره قيل أنه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وليس المراد منه الفراغ من شغل فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن كذا قال ابن عباس والضحاك، وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، وقيل: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم يعني نحاسبكم ولنجز لكم ما وعدناكم فيتم ذلك ونفرغ منه وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل ﴿أَيُّهَ﴾ قرأ ابن عامر أيها بضم الهاء والباقون بفتح الهاء ووقف أبو عمرو والكسائي بالألف والباقون بغير الألف ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أحياءاً وأمواتاً، وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر (رض) لأنهما مثقلان بالذنوب وقيل لأنهما مثقلان بالتكليف والمناسب لهذه المعاني لثقلين التأويلات المذكورة في قوله تعالى: سنفرغ لكم أعني التهديد أو إتمام الوعد والوعيد وإنجازهما، وقال أهل المعاني كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل قال النبيّ ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما فإنهما مستعدان لصعود مدارج القرب والتجليات والمناسب لهذا المعنى أن يقال في تأويل قوله تعالى: سنفرغ لكم أنا نخلوا بكم خلوة لا يكون يقره من يخلو به هناك مدخل، عن أبي ذر العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال بلى، قلت وما آية ذلك في خلقه؟ قال يا أبا ذر أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به، قال: بلى، قال فإنما هو خلق من خلق الله والله أجل وأعظم»[1] رواه أبو داود، وأحسن قول الشاعر بالفارسية.

جباني مختصر خواتم كدوري بين جاء من وجائي توباشد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ألامر ظاهر على تأويل المتأخرين كان المراد بالفراغ التهديد ونحو ذلك فالمعنى أنه فلا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الرؤية (٤٧١٨).

تكذبان بالآء ربكما فإن التكذيب يوجب التعذيب والمراد بالآلاء كل نعمة بالإنسان وإن لم يكن شيئاً منها مذكوراً في الآية وقيل التهديد أيضاً نعمة ينزجر به المكلف وهذا تكلف.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فاخرجوا أمر تعجيز، وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السماوات والأرض فاهربوا واخرجوا والمعنى حيثما كنتم يدرككم الموت وقيل يقال هذا يوم القيامة، أخرج ابن جرير وابن مبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فيكون الملائكة على أرجائها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف فينزل الملك الأعلى بجنبه اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتوا قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[3]

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

وقوله تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾[١] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ والخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي إلا بقوة وقهر وأنّى لكم ذلك أو المعنى إلا بسلطان مني فإنه لا قدرة لأحد الإستفادة من الله تعالى لا حول ولا قوة إلا بالله كما أن النبيّ ﷺ نفذ ببدنه ليلة المعراج من السماوات السبع إلى سدرة المنتهى والصوفي ينفذ من دائرة الإمكان إلى مدارج القرب بحول الله وقوته، وقيل معناه حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني أي إلى سلطاني كقوله ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾[٢] أي إلي، وروي عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا ولن تعلموا إلا بسلطان أي بينة من الله عز وجل نصبها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب يوجب التعذيب وأنتم لا تقدرون على الفرار منه، وقيل من آلاء الله التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ومنها ما نصب من المصاعد العقلية والمعارج الثقلية وأسباب الترقيات فينفذون لها إلى ما فوق السماوات، قال البغوي وفي الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا الآية فذلك قوله عز وجل ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ يعني حين بعثتم من القبور قرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان وعو اللهب الذي لا دخان فيه كذا قال أكثر المفسرين، وقال مجاهد هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالجر عطفاً على النار والباقون بالرفع عطفاً على شواظ قال سعيد بن جبير والكلبي: النحاس الدخان وهو رواية عن ابن عباس فمعنى الرفع يرسل شواظ تارة ونحاس أخرى ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما الأخرى، عن ابن جرير يرسل شواظ من نار وشيء من نحاس، وجاز أن يكون نحاس في محل الرفع مجروراً للجوار وحكي أن الشواظ لا يكون إلا من النار والدخان جميعاً، وقال المجاهد وقتادة النحاس هو الصفر المذاب يصب على رؤسهم وهو رواية العوفي عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهل ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمنعان من الله فلا يكون لكم منه تعالى ناصر حين يسوقكم إلى المحشر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن التكذيب يوجب التعذيب وقيل من آلاء التهديد على موجبات العذاب فيجتنب منها والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ﴾ أي إنفرجت ﴿السَّمَاءُ﴾ فصارت أبواباً لنزول الملائكة الفاء تدل على أن إرسال شواظ من نار

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

يكون قبل انشقاق السماء فهذا الإنشقاق ليس للإفناء بل لنزول الملائكة بعد البعث من القبور كما ذكرنا في حديث الضحاك ﴿فَكَانَتْ﴾ عطف على انشقت يعني كانت السماء حينئذ ﴿وَرْدَةً﴾ أي كلون الورد الأحمر، وقيل كلون الفرس الورود وهو بين الكميت والأشقر كذا في القاموس وقال البغوي هو الأبيض الذي يضرب الحمرة أو الصفرة، قال قتادة السماء اليوم أخضر أو يكون لها يومئذ لون آخر إلى الحمرة، قيل: إنها تتلون ألواناً يومئذ كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها إنشقاقها لهذا فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها إنشقاقها لهذا الفرس في تلونه، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿كَالدِّهَانِ﴾ جمع دهن صفة وردة شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالذهن وأخلاف ألوانه كذا قال الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح كالدهان كعصر الزيت يتلون في الساعة ألواناً وقال مقاتل كدهن الورد الصافي، وقال ابن جريج يطير السماء كمدهن الزيت وذلك حين يصيبها حر جهنم وقال الكلبي كالدهان كالآدم الأحمر وجمعه أدهنته ودهن وجاز أن يكون خبراً بعد خبر لكانت يغنى كانت السماء متلونة كلون الورد الأحمر وكلون الفرس الورد وكانت مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به وجواب الشرط محذوف المعنى فما أعظم الهول وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضة بين الشرط والجزاء قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ الضمير راجع إلى قوله ﴿إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لتقدمهم رتبة يعني لا يسألون هل عملتم كذا حتى يدخلهم جهنم بعد السؤال لأن الله تعالى أعلم بهم منهم والكرام الكاتبون من الملائكة كتبوا علمهم والملائكة العذاب يعرفونهم بسيماهم كما سيجيء فيما بعد وهذا لا ينافي سؤالهم لم عملتم كذا بعدما نهتكم يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] كذا قال مجاهد عن ابن عباس، ونحو ذلك قال الحسن وقتادة وهو المعنى لما روي عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين حيث قال أنه لا يسألون سؤال شفعة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وعن عكرمة عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين إن في القيامة ومواطن يسألون في بعضها، وقال أبو العالية معناه لا يسأل غير المجرم عن ذنب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب سائل يقول إذا لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فبم يعرف ملائكة

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٢ ـ ٩٣.

العذاب المجرمين فقال يعرفهم بسيماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(١) أخرج المختفي في الديباج عن ابن عباس مرفوعاً أخبرني جبرئيل أن لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يقومون من قبورهم هم ينفضون رؤوسهم هذا يقول لا إله إلا الله والحمد لله فتبيض وجهه وهذا ينادي يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله مسودة في وجوههم.

وروى أبو يعلى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ الآية، قال يعرف يوم القيامة بذلك لا تستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو يعلى عن أبي هريرة مرفوعاً «يبعث الله تعالى يوم القيامة قوماً من قبورهم تأجج أفواههم ناراً فقيل من هم يا رسول الله؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾» وأخرج البزار عن أبي هريرة نحوه عن جابر يحشر المتكبرون يوم القيامة في صورة الذر في الباب أحاديث كثيرة وأخرج الأربعة والحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً «من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش»(٢) وفي الصحيحين نحوه، وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله»(٣) وروى أبو نعيم عن عمر والبيهقي عن ابنه محوه، وأخرج ابن خزيمة وابن حبان وابن عمر يبعث ملقي النخامة في القبلة يوم القيامة وهو في وجهه وأخرج الطبراني في الأوسط عن سعد بن وقاص مرفوعاً «ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار» والطبراني وابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً: «من كان ذا اللسانين جعل الله يوم القيامة له لسانين من نار» والأربعة والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً «من كان عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»(٤) وفي لفظ «ساقط»، وحديث «يحشر أمتي أفواج صنف على صورة القردة» الحديث ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾(٥) في سورة عم يتساءلون وورد في الأحاديث الصحاح يحشر الناس حاملين على أعناقهم ما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: من تحل له الزكاة (٦٤٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً (٢٦٢٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد بالغوا في تضعيفه.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء (٢٣١٤).

(٥) سورة النبأ، الآية: ١٨.

أخذوه بغير حق وفي الصحيحين مرفوعاً في الغلول «يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير»[١] الحديث ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أخرج البيهقي عن ابن عباس هذه الآية قال يجمع بين رأسه ورجله ثم يقصف كما يقصف الحطب، وأخرج هناد عن الضحاك في الآية قال يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء يفضي إلى ما ذكر من التعذيب ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركون يكذبونها في الدنيا الموصول مع الصلة صفة الجهنم والجملة مقولة ليقال المقدر وجملة يقال إما مستأنفة أو حال بمعنى أنه يؤخذ نواصيهم وأقدامهم في حال يقال لهم هذه جهنم التي كنتم تكذبونها ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي المجرمون ﴿بَيْنَهَا﴾ أي جهنم يحرقون فيها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بالغ إلى النهاية في الحرارة يعني يسعون بين الحميم والجحيم، أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً «يلقى على أهل النار الجوع فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ويغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يغيرون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا أدنيت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت في بطونهم»[٢] الحديث، وروى أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال: «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه» الحديث، وقال كعب الأحبار إن واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق به في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى يتخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء الله يوجب التعذيب قيل من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هاهنا مواعظ ومزاجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله لأنها يزجر من المعاصي والظاهر أن هذا القول تكلف، والمراد بالالآء كل نعمة لواحد منهم من الإيجاد والإبقاء والتزريق والهداية ونحو ذلك أورد الله سبحانه التوبيخ بهذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ثماني مرات بعد ذكر عجائب الخلقة وبدائع الصنعة على عدد الصفات الثمانية الحقيقية لله تعالى إلى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ وتنبيهاً على أنه لا ينبغي تكذيب آلاء من هذا شأنه في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الغلول (٣٠٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

الخلق والقدرة وسبع مرات عدد أبواب جهنم بعد ذكر الوعيدات من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منتقم كذلك خوفاً من انتقامه وثماني مرات بعد ذكر نعيم الجنة عدد أبواب الجنة وكذلك ثمان أخر بعد ذكر جنته أخرى تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منعم كذلك طمعاً في إنعامه والله تعالى أعلم.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق(رض) فكر ذات يوم في القيامة والموازين والجنة والنار فقال وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر يأتي علي بهيمة تأكلني وأني لم أخلق فنزلت ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال نزلت هده الآية في أبي بكر الصديق والمقام إما ظرف والمعنى خاف الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب أو موقف القايم عند ربه للحساب، وقال قتادة إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودانوا بالليل والنهار أو مصدر ميمي والمعنى خاف قيام ربه على أحواله من قام عليه إذا راقبه كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(١) وقيامه عند ربه للحساب فالإضافة إلى الرب للتفخيم والتهويل، وقيل لفظ المقام مقحم والمعنى لمن خاف ربه جنتان مبتدأ خبره لمن خاف أو فاعل للظرف والجملة الظرفية معطوفة على قوله ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فإنها مع ما يليها بيان الجزاء للأشرار وهذه مع ما بعدها بيان الجزاء للخيار وكلتاهما بيان لقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الذي هو خبر للرحمن، قال الضحاك هذا يعني الإنعام بالجنتين لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله تعالى وما عمل من خير افضى به إلى الله تعالى لا يحب

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

أن يطلع عليه أحد والآية تحتمل المعنيين أحدهما وهو الظاهر أن لمجموعهم جنتان، قال مقاتل جنته عدن وجنة نعيم وقيل جنة للخائفين من الإنس وجنة للخائفين من الجن فإن الخطاب للفريقين وثانيهما أن لكل واحد من الخائفين جنان، قال محمد بن علي الترمذي جنة لخوفه ربه وجنة لتركه شهوته وقيل جنة بعقيدته وأخرى لعمله أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، وهذا التأويل مستبعد جداً ويلزم منه أن يكون عدد الجنات على ضعف عدد الخائفين بل على ضعف ضعفهم لأن قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ معطوف على هذه الجملة فيكون لكل واحد من خاف مقام ربه أربع جنات، وقد ورد في الأحاديث أن الجنات كلها أربعة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «**جنتان من فضة أنيتها وما فيها وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها وما بين القوم وأن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١) رواه الشيخان في الصحيحين، ورواه البغوي عن عبد الله بن قيس عن النبيّ ﷺ.

وروى أحمد والطيالسي والبيهقي عن أبي موسى مرفوعاً بلفظ «جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب حليهما وآنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة حليهما وآنيتهما وما فيهما وما بينهم أن ينظروا ربهم» الحديث نحوه، روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ ألا أن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»(٢) ورد أيضاً بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت وإن زنى وإن سرق يا رسول الله، قال: وإن رغم أنف أبي الدرداء»(٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ﴾ وأصله ذوو للمذكر وذات أصله ذوات للمؤنث وتشتته ذواتا على الأصل ويقال في الجمع أيضاً ذوات تخفيفاغ ولا يستعمل شيئاً منها إلا مضافاً فإنها وضعت ليتوصل بها إلى الوصف بأسماء أجناس وهاهنا صفة للجنتان ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فنن وهي الغصة التي يتشعب من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها تورق وتثمر وتمد الظل، وهو قول مجاهد والكلبي وقال عكرمة ظل الأغصان على الحيطان،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ (٤٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٠).

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط وإسناد أحمد أصح. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: فيمن شهد أن لا إله إلا الله (٨).

قال الحسن ذواتا ظلال أو جمع فن والمراد به أوان الفواكه وأنواع الأشجار والثمار من قولهم أفنن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والمروي عن ابن عباس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا إلى الأعالي والأسافل والجملة صفة لجنتان يعني في كل واحدة من الجنة عين يعني شيء من هذا الجنس لا أن في كل واحدة منهما أدنى مجموعهما عينان فحسب لا مزيد عليهما، وكيف قد قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾(١) فلا بد أن يكون من كل نوع من الأنواع الأربعة أنهاراً كثيرة وذكر البغوي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «**أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش التي ذكرها الله تعالى يفجرونها تفجيراً والأخرى الزنجبيل والأخريان نضاختان من فوق إحداهما التي ذكر سلسبيلاً والأخرى التسنيم**» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان غريب ومعروف وقيل رطب ويابس والجملة صفة أخرى لجنتان، قال البغوي قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أن حلو، كذا أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عنه، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ منصوب على المدح لمن خاف أو حال منه لأن في معنى الجمع ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ صفة لفرش والإستبرق ما غلظ من الديباج، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود قال أخبرتم بالبطائن فيكف بالظواهر، وذكر البغوي نحوه عنه وعن أبي هريرة، وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن جبير قال ظواهرها من نور جامد، وذكر البغوي أنه قيل لسعيد بن جبير البطائن من إستبرق فما الظواهر قال هذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٢) وذكر البغوي عن ابن عباس قال وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف بالظواهر ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ حال من الضمير المستتر في لمن خاف اسم بمعنى مجني وهو ما يجتنى من الثمار يعني ثمارها دانية لا يصعب تناولها، وأخرج سعيد بن المنصور والبيهقي وهناد عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾(٣) قال أن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً أو مضطجعين على أي حال شاؤوا، وذكر البغوي عن ابن عباس

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

قال تدنوا الشجرة حتى يجتنبها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً، وذكر عن قتادة أنه قال لا ترد أيديم عنها بعد ولا شوك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في أماكن الجنة وقصورها التي دلت عليها الجنتان أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفواكه والفرش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء قصرت أبصارهن على أزواجهن كذا أخرج البيهقي عن مجاهد ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامع الإنسيات إنس ولا الجنيات جن، وأصل الطمث الدم ومنه يقال للحيض، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طرق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ قال لم يدمهن يعني بالجماع جملة لم يطمثهن حال من قاصرات الطرف وهو فاعل للظرف المستقر والجملة الظرفية صفة للجنتان، وقال الزجاج وغيره فيه دليل على أن الجن يتغشى كما يتغشى الإنس وقال مجاهد إذا جامع الرجل فلم يسم انطوى إن الجاعل أحليله فجامع معه قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهن خلقن في اجنات فعلى قوله هؤلاء... من حور الجنة، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال هن نساء أهل الدنيا خلقهن الله في الخلق الأخرى كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[1] لم يطمثهن حين عدن في الخلق الآخر إنس قبلهم ولا جان، وذكر البغوي قول الكلبي نحوه قرأ أبو عمرو عن الكسائي لم يطمثهن بضم الميم وأبو الحارث عنه في الثاني كذلك قال الداني هذه قراءتي والذي نص عليه أبو الحارث كرواية الدوري، وقال البغوي قرأ الكسائي إحداهما بالضم فإن كسر الأولى ضم الثانية وإن ضم الأولى كسر الثانية لما روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت أصلي خلف أصحاب علي (رض)... فأسمعهم يقرؤون لم يطمثهن بالرفع يعني بالضم وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم فكان الكسائي يضم إحداهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين وقرأ الجمهور بكسر الميم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال مرادف للجملة السابقة، أخرج البيهقي عن أبي صالح والسدي في هذه الآية قال بياض اللؤلؤ وصفاء الياقوت والمرجان قال صفاء لهن كصفاء الدر في الأصداف والذي لا تمسه الأيدي، وذكر البغوي عن قتادة قال صفاء الياقوت في بياض المرجان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يتفلون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون**» وفي رواية «لا يسقمون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الإلوة ورشحهم المسك

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٥ ـ ٣٧.

ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ولا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً»(١) متفق عليه، وأخرج الترمذي وصححه هو والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ **«أول زمرة تدخل الجنة كالقمر ليلة البدر والزمرة الثانية كأحسن كوكب دري في السماء لكل امرىء منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقهن من وراء الحلل»**(٢) وأخرج الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود قال إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء وذكر البغوي نحوه عن عمر بن ميمون، وأخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ كأنهن الياقوت والمرجان قال: «ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ولأن أدنى لؤلؤ عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفدها بصرة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أن المرأة من أهل الجنة ليرى ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها إن الله يقول ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو دخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب في الآخرة، روى البغوي بسنده عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ثم قال هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال عليه السلام «يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: في صفة نساء أهل الجنة (٢٥٣٥).

﴿قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي الجنتين المذكورين ﴿جَنَّتَانِ﴾ عطف على جنتان وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ عطف المفرد على المفرد ومن دونهما حال مقدم عليه والمعنى لمن خاف مقام ربه أربع جنات ولم يفعل هكذا ليدل على أن كون الأولين أفضل من الأخريين وجاز أن يكون من دونهما جنتان جملة معطوفة على جملة تقديره ومن دونهما جنتان لأربابهما، قال ابن عباس من دونهما في الدرجة، وقال ابن زيد من دونهما في الفضل، قال أبو موسى جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين رواه الحاكم والبيهقي عنه، وأخرج البيهقي عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» كذا ذكر البغوي قول ابن جريج وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال كان عرش الله على الماء ثم اتخذ لنفسه جنة ثم إتخذ فيها أخرى ثم أطبقها بلؤلؤة واحدة قال ومن دونهما جنتان، قال البغوي وقال الكسائي من دونهما أي أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان من ذهب والأخريان من ياقوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة فيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء وهو أيضاً أقل مما وصف به الأولين، لأنه ذكر هناك تجريان يعني من فوق من العرش وهاهنا نضاختان من تحت، أخرج ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال عينان تجريان هما خير من نضاختان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ قال بعضهم ليس النخل والرمان من الفاكهة فإن العطف يدل على المغايرة والفاكهة ما يقصد منها التفكه لا غير وثمرة النخل غذاء وثمر الرمان دواء، ولهذا قال أبو حنيفة من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رطباً ورماناً لا يحنث وقال أكثرهم هما من الفاكهة وإنما عطف تخصيصها بعد تعميم لمزيد فضلها كما عطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ورقها ذهب أحمر سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثالها القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم، وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال إن التمرة من ثمر الجنة طولها اثنى عشر ذراعاً ليس لها عجم وأخرج أيضاً عنه قال الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها

بشر كثير يأكلون منها فإذا جرى على ذكر أحدهم شيء يريده وجده في موضع يره حيث يأكل، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال «نظرت الجنة فإذا الرمانة من رمانها مثل البعير المقتب» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي خيرات بالتشديد فخففت لأن خير الذي بمعنى أخير لا يجمع والجملة صفة أخرى لجنتان أي في أماكنها وقصورها قال البغوي روى الحسن عن أبيه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه» رواه الطبراني، وأخرج ابن المبارك عن الأزواعي قال خيرات بذيات اللسان ولا يعزن ولا يؤدين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ﴾ وحوراء بالتحريك أن تشتد بياض العين وسواد سوادها وتشتد سود حدقتها وبرق جفونها ويبيض ما حولها إلا شدة بياضها وسوادها في شدة بياض الجسد أو أسود أو العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني آدم بل يستعار لها كذا في القاموس، أخرج البيهقي عن أم سلمة قال قلت يا رسول الله «أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال بياض أضخام شعر العين بمنزلة الحوراء جناح النسر» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال لشفرات من حور العين أطول من جناح النسر وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «**خلق الحور العين من الزعفران**» وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس ومجاهد موقوفاً وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك تعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لو أن حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها**» وأخرج عن ابن عباس قال: إن امرأة من نساء أهل الجنة لو بصقت في سبعة أبحر لكانت تلك الأبحر كلها أحلى من العسل وعن أنس عن النبيّ ﷺ «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها ولملأت ما بينها ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[١] رواه البخاري، وأخرج ابن أبي الدنيا عن كعب لو أن يداً من الحور دليت من السماء لأضاءت بها الأرض كما يضيء الشمس لأهل الدنيا ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ يعني محبوسات مستورات في الحجال، قال البغوي قصرن طرفهن وأنفسهن على أزواجهن فلا تبغين بهم بدلاً، وروى البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال محبوسات لا يبرحنه والخيمة لؤلؤة وفضة وأخرج البيهقي عن أنس قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحور العين وصفتهن يحار فيها الطرف (٢٧٩٦).

رسول الله ﷺ: «**لما أسري بي دخلت الجنة موضعاً يسمى البيدح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأصفر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله، قلت يا جبرئيل ما هذا النداء؟ قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً وقرأ رسول الله ﷺ** ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ والخيام جمع خيمة روى البغوي بسنده عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوف عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون**»(١) وفي الصحيحين نحوه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً، وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس قال الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مضارع من ذهب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ الخيمة درة مجوفة وأخرج مثله عن عمر موقوفاً وابن جرير مثله عن أبي مجلز مرسلاً، وقال ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال الخيمة لؤلؤة فيها سبعون باباً من در وأخرج هناد عن عمر بن ميمون قال الخيمة درة مجوفة ومثله عن مجاهد وابن أحوص، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن ابن مسور لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب ندخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم يكن قبل ذلك لامرحات ولا طمحات ولا نجرات ولا حور عين كأنهن بيض مكنون ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ يعني قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فائدة نساء الدنيا خير من الحور العين لحديث أخرج البيهقي عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم حور العين؟ قال «نساء الدنيا أفضل من حور العين كفضل الظهارة على البطانة» قلت وبم ذلك قال بصلاتهن وصيامهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا نحن الناعمات فلا نبأس أبداً ألا نحن المقيمات فلا نطفن أبداً ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا، قلت يا رسول الله المرأة تزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها منهم قال إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً في دار الدنيا فزوجته إياه فقالت أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ (٤٨٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة خيام أهل الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين (٢٨٣٨).

وأخرج هناد عن جبان بن جبلة قال إن نساء أهل الجنة إذا دخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من قوله ولمن خاف مقام ربه والمعنى لمن خاف مقام ربه جنتان كذا حال كونهم متكئين فيها على كذا لهم من دون هاتين الجنتين جنتان أخريان كذا حال كونهم متكئين على كذا أو حال من أربابهما المقدر يعني حال كون أربابهما متكئين ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ في القاموس الرفرف ثياب خضر يتخذ منها المجالس وبسط وفضول المجالس الفرش والوسادة، وفي الصحاح ضرب من الثياب شبه بالرياض، وقيل طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب والأوتاد وأخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى رفرف خضر قال المجالس، وأخرج هناد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال رياض الجنة، قال البغوي قيل الرفرف البسط وهو قول الحسن ومقاتل والقرطبي روى العوفي عن ابن عباس قال الرفرف فضول المجالس والبسط وقال قتادة هو مجالس خضر فوق الفرش، وقال ابن كيسان هي المرافق، وقال ابن عيينة الزرابي، وقال غيره كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ عطف على خضر في القاموس عبقر موضع كثير الجن وثيابها غاية الحسن والعبقري الكامل من كل شيء والسيد والذي ليس فوقه شيء والشديد وضرب من البسط، وقال البيضاوي منسوب إلى عبقر يزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب والمراد به الجنس ولذلك جمع حسان حملاً على المعنى وكذا ذكر في الصحاح، وأخرج البيهقي عن ابن عباس عبقري حسان قال الزرابي قال القتيبي كل ثوب موشى عند العرب عبقري، وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى الأرض يعمل بها الوشي، قال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري ومنه قول النبيّ ﷺ وسلم في عمر(رض) «فلم أر عبقرياً يفري فريه»(١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ قرأ ابن عامر ذو الجلال بالواو إجراء على الاسم والباقون بالياء والمعنى أنه تعالى اسمه من حيث أنه مطلق على ذاته فما ظنك بذاته، وقيل الاسم بمعنى الصفة أو مقحم روى البغوي بسنده عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول «اللّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام»(٢) وروى مسلم أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٦٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سلم من الصلاة (٢٩٥).

سورة الواقعة

آياتها ست وتسعون آية وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١)﴾ يعني إذا حدثت القيامة سماها واقعة لتحقق وقوعها متعلق بمحذوف مثل أذكر أو كان كيت وكيت ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ اللام فيه للتوقيت كما في قوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(١) يعني ليس وقت وقوعها ﴿كَاذِبَةٌ﴾ من نفس كاذبة تكذب على الله أو تكذب في نفيها كما تكذب الآن، وجاز أن يكون اللام للأجل أي ليس لأجل وقعتها نفس كاذبة فإن من أخبر عنها صدق أو ليس لها نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها من قولهم كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم إذا أشجعته عليه وسولت أنه يطيقه وجاز أن يكون كاذبة مصدراً كالعافية والنازلة واللاغية، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾(٢) أي لغواً والمعنى ليس لمجيئها كذب يعني أنها تقع صدقاً وحقاً ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأعداء الله الذين استكبروا في الدنيا وعتوا عتواً كبيراً ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأوليائه الذين تواضعوا لله

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١١.

والإسناد مجازي إلى الزمان يعني يوجد فيها خفض بأقوام ورفع آخرين صفتان للواقعة بعد توصيفها لجملة ليس لوقعتها كاذبة على طريقه ولقد أمر على اللئيم ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ أي حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، والظرف متعلق بخافضة أو بدل من إذا وقعت ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ أي سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها كذا قال الكلبي والحسن وابن كيسان، أو المعنى فتت فتاً حتى صارت كالسويق البسوس وهو الملتوت كذا قال عطاء ومقاتل ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبال ﴿هَبَآءً﴾ أي غباراً يرى في شعاع إذا دخل الكوة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرقا ﴿وَكُنتُمْ﴾ يا أمة محمد ﷺ لأن الخطاب معهم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً كل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج ﴿ثَلَٰثَةً﴾ الجمل الثلاث معطوف على رجت ثم فسر الأصناف الثلاثة فقال ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ يعني الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقال ابن عباس هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وقال الله لهم هولاء في الجنة ولا أبالي، وقال الضحاك هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم فالميمنة على هذه الأقوال من اليمين ضد اليسار، وقال الربيع والحسن هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم وكانت أعمارهم في طاعة الله فاليمين على هذا من اليمن ضد الشؤم ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ استفهام للتعجي من عظمة شأنهم عند الله وكمال يمنهم مبتدأ وخبرو الجملة خبر لما قبله العائد المظهر موضع الضمير يعني ما هم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يعني أصحاب الشمال والعرب يسمى اليد اليسرى الشؤمىٰ ومنه يسمى الشام واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشام عن يساره وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو كانوا على شمال آدم عند إخراج ذرية، وقال الله تعالى لهم هؤلاء للنار ولا أبالي أو الذين يعطون كتبهم بشمائلها أو الشائم على أنفسهم وكانت أعمارهم في المعاصي على اختلاف الأقوال ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ نحو ما ذكر ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ إلى الإسلام والطاعة ومراتب القرب إلى الله تعالى وهم الأنبياء عليهم السلام فإنهم مقدموا أهل الأديان إلى الإيمان والطاعات والأمم تبع لهم ومن لحقهم من الأمم بكمال متابعتهم واكتسابهم كمالات النبوة بالتبعية والوراثة وتشرفهم بالتجليات الذاتية الصرفة الداعية وهم الصحابة (رض) وبعض التابعين لهم بإحسان، ومن ثم قال ابن عباس السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة وقال عكرمة قال السابقون الأولون إلى الإسلام يعني الصحابة، وقال ابن سيرين هم الذين صلوا إلى قبلتين من المهاجرين والأنصار، وقال الربيع بن أنس السابقون إلى إجابة الرسول في الدنيا هم السابقون إلى الجنة، وقال علي كرم الله وجهه السابقون إلى الصلوات الخمس فإن مآل

الأقوال كلها أنهم هم الصحابة قال علي (رض) سبقتكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حلمي، قال المجدد الصحابة (رض) كلهم كانوا مستغرقين في كمالات النبوة ومن التابعين أكثرهم ومن أتباع التابعين أقلهم ثم انطمس أنوار النبوة واختفى آثارها وظهر كمالات الولاية وإستعلى أنوارها السكر والشطح وكثرة الخوارق المستفادة من التجليات الصفاتية والظلية حتى إذا مضى بعد الهجرة ألف سنة تدارك رحمة الله الواسعة أفاض كمالات النبوة بمقتضى طينة النبيّ ﷺ على بعض أتباعه حتى اشتبه آخر الأمة بأولها، فقال النبيّ ﷺ «**مثل أمتي كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أم آخره**»(١) رواه الترمذي عن أنس، وروى رزين عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «**أبشروا وأبشروا إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدرىٰ آخره خير أم أوله أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً ثم أطعم منها فوج عاماً لعل آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً وأعمقها عمقاً وأحسنها حسناً**» عن الدرداء عن النبيّ ﷺ قال «خير أمتي أولها وآخرها وفي أوسطها الكدر» رواه الحكيم الترمذي. السابقون خبر لما تقدم اللام فيما تقدم للجنس وهاهنا للعهد الذهني كما يقال صديقي زيد والمعنى السابقون هم الذين عرفت حالهم وكمالهم وما لهم كقول الشاعر أنا أبو النجم وشعري شعري، أو المعنى هم السابقون إلى الجنة ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ إلى الله تعالى جملة مستأنفة في جواب ما شأنهم، وجاز أن يكون السابقون الأول مبتدأ والسابقون الثاني تأكيد له وهذه الجملة خبر ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلق بقوله المقربون وجاز أن يكون ظرفا مستقراً خبر لأولئك أو خبر بعد خبر لقوله السابقون ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف هم ثلة أي كثير ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني من الصدر الأول من هذه الأمة وهم القرون الثلاثة الصحابة والتابعين وأتباعهم، قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم إن بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يأتمنون وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن**»(٢) متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وكذا روى مسلم عن أبي هريرة وكذا روى النسائي عن عمر(رض)، وعند الترمذي والحاكم عن عمران بلفظ «خير الناس قرني» الحديث وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ «خير الناس» وروى مسلم نحوه عن عائشة والطبراني والحاكم عن جعدة بن هبيرة، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «لا تسبوا أصحابي فلو أن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال (٢٨٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»(١) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهم أرباب كمال النبوة الذين وجدوا بعد ألف سنة كما ذكرنا من قبل، وقال أكثر المفسرين ثلة من الأولين يعني من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ وقليل من الآخرين يعني من أمة محمد ﷺ، قال الزجاج الذين عاينوا جميع النبيين من لدن آدم وصدقوهم أكثر ممن عاينوا النبيّ ﷺ، قلت: وهذا التأويل بعيد جداً لإستلزامه كون الأمم السابقة أقرب إلى الله تعالى وأفضل من هذه الأمة فإن فضل الأمة بكثرة الأفاضل وهذا لآيتان قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٣) وقوله عليه الصلاة والسلام «**أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال الترمذي حديث حسن، وروى أحمد والبزار والطبراني بسند صحيح عن جابر أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «**إني لأرجو أن يكون من تبعني ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال أرجو أن يكون ثلث الناس فكبرنا ثم قال أرجو أن يكون الشطر**» وروى البخاري عن ابن مسعود مرفوعاً: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم، قال والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»(٥) وروى الترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي، عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صفاً ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»(٦) وأخرج الطبراني من حديث أبي موسى وابن عباس ومعاوية ابن حيدة وابن مسعود نحوه ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ خبر آخر للضمير المحذوف والوضن نسج الدرع ويستعار لكل نسج محكم، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق مجاهد عن ابن عباس في هذه الآية قال موضونة بالذهب قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ. «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (٣٠٠١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (وترى الناس سكارى) (٤٧٤١) وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج (٣١٦٨).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في كم صف أهل الجنة (٢٥٤٦).

المفسرون هي موصولة منسوجة بالذهب والجواهر، وقال الضحاك موضونة مصفوفة ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ١٦﴾ حالان من الضمير في على، أخرج هناد عن مجاهد في قوله متقابلين قال لا يرى بعضهم قفا بعض وكذا قال البغوي وصفهم الله سبحانه بحسن العشيرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ للخدمة قيل غلمان ممن ينشأ للخدمة الجملة حال آخر من الضمير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون يبقون أبداً على شكل الولدان، قال الفراء يقول العرب لمن كبر ولمن شمط أنه مخلد، وقال ابن كيسان يعني ولداناً لا يحولون من حالة إلى حالة، وقال سعيد بن جبير مقرطون يقال خلد جارية إذا خلاها بالخلد وهو القرط، وقال الحسن هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها فهم خدم أهل الجنة، أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن ابن عمر قال إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً «إن أسفل أهل الجنة أجمعين من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم» وعن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيها أدنى من يغدو ويروح عليه خمس آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ الجار والمجرور مع ما عطف عليه متعلق بيطوف والأكواب جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا أذن لها ولا عرى كذا أخرج هناد عن مجاهد، وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس الأكواب الجرار من الفضة ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ ومن الأقداح ذات الخراطيم سميت أباريق لبروق لونها في الصفاء ﴿وَكَأْسٍ﴾ أي قدح فيه شراب وما لا شراب فيه فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ خمر جارية من منبع لا ينقطع أبداً ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا يصدع رؤوسهم من شربها كما يصدع من شرب خمر الدنيا الجملة مع ما عطف عليه صفة كأس ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قرأ الكوفيون بكسر الزاء من الإفعال والباقون بفتحها في القاموس نزف ذهب عقله أو سكر ومنه ولا ينزفون، وفي الصحاح أنزف القوم ينزف ماء بئرهم يعني نزحه كله وأنزف الشيء أبلغ من نزفه فمعنى قرائة الكوفيين لا ينفذ شرابهم ومعنى قراءة غيرهم لا يذهب عقولهم ﴿وَفَـٰكِهَةٍ﴾ عطف على كأس ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يختارون ما يشتهون ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ عطف على فاكهة ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، أخرج البزار وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فتخر بين يديك مشوياً**» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة: «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير في الجنة فيخر مثل البختى

حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولا تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير» وأخرج البيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «**إن في الجنة طيرا أمثال البخت، قال أبو بكر إنها لناعمة يا رسول الله، قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر**» وأخرج أحمد والترمذي مثله من حديث أنس، وأخرج هناد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «**إن في الجنة طير كأمثال البخت يأتي الرجل فيأكل منها ثم يذهب كان لم ينقص منها شيء**» وأخرج هناد وابن أبي الدنيا بسند حسن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشاً فيجيء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون أبيض من الثلج وألين من الزبد وأحلى من العسل ليس فيه لون يشبه صاحبه ثم يطير ويذهب» وأخرج هناد عن مغيث بن سمي قال طوبى شجرة في الجنة ليس في الجنة داراً لا يظلهم غصن من أغصانها فيه ألوان الثمرة ويقع عليها طير أمثال البخت فإذا تمنى الرجل طيراً دعاه فيقع على خوانه فيأكل من أحد جانبيه شواء والآخر قديداً ثم يعود طائراً يطير فتذهب ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على جنات بتقدير مضاف أي هم في جنات ومضاجعة حور عين أو على أكواب لأن معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بأكواب وبحور عين والباقون بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي فيها حور عين أولهم حور عين كذا قال الأخفش أو معطوف على ولدان أي يطوف عليهم حور عين، أخرج مجاهد قال الحور التي يجاور فيه الطرف باد مخ ساقها من وراء ثيابها وأخرج في حور عين قال سواد الحدقة عظم العين، وأخرج البيهقي عن أم سلمة قالت قلت أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال: «بيض ضخام شعر العيون بمنزلة الحور له جناح النسر» قالت أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ قال رسول الله ﷺ صفاءهن كصفاء الدر الذي في الأصداف لم تمسه الأيدي، وقوله كأمثال اللؤلؤ صفة بعد صفة لحور ﴿الْمَكْنُونِ﴾ المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي» قال البغوي يروى أنه سطع نور في الجنة قالوا ضوء ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها ويروى أن الحور إذا مشت سمعت تقديس الخلاخيل من ساقها وتجيد الأسورة من ساعديها وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف أي يجزون جزاء أو على العلية أي يفعل ذلك بهم جزاء لأعمالهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة حال آخر من الضمير في على ﴿لَغْوًا﴾ أي باطلاً كذا أخرج البيهقي عن ابن عباس وأخرج هناد عن الضحاك أنه قال

هزلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي نسبة إلى الإثم يعني لا يقال لهم أثمتم وسيء ما صنعتم، وأخرج البيهقي عن ابن عباس وهناد عن الضحاك أنه الكذب ﴿إِلَّا﴾ إستثناء منقطع ﴿قِيلًا﴾ أي قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ ذا سلامة منصوبة على البدلية على فشوا السلام بينهم، أخرج أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تستربهم الثغور وتتقىٰ بهم المكاره ويموت وحاجته في صدره لا يستطيع بها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته أئتوهم فحيوهم فيقول الملائكة نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم قال إنهم كانوا عباداً يعبدونني ولا يشركون ي شيئاً وتستر بهم الثغور ويتقىٰ بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره ولا يستطيع بها قضاء قال فيأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**»[1] أخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في البعث عن العطاء ومجاهد قال لما سأل أهل الطائف الوادي يحمى لهم عسل ففعل وهو واد معجب فسمعوا الناس يقولون في الجنة كذا وكذا قالوا يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ما أصحاب اليمين في سدر مخضود الآيات، وأخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال كانوا يعجبون بوجّ ظلاله من طلح وسدر فأنزل الله ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وأصحاب اليمين هم أصحاب القلوب الصافية والنفوس المطمئنة أولياء الله المتقون ويلحق بهم في الآخرة عصاة المؤمنين إما بعد مغفرة ذنوبهم بفضل الله تعالى وشفاعة الأنبياء والصلحاء وإما بعد تعذيبهم بالنار وتخليصهم من الذنوب يلتحقون بالمتقين الصالحين، فإن جهنم يخلص المؤمنين وينفي عنه خبث ذنوبه ورذائله كما ينفي الكبر خبث الحديد ﴿ما أصحاب اليمين﴾ أي عظيم شأنهم عند الله الجملة خبر مبتدأ بتأويل يقال في شأنهم ما أصحاب اليمين أو جملة معترضة للتعجب والتفخيم ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خبر المبتدأ أو خبر بعد خبر أي مقطوع شوكه أو مثني أغصانه من كثرة الحمل في القاموس خضد الشجر قطع شوكه ويقال خضد الغصن إذ ثناه وهو رطب، أخرج البيهقي عن أبي امامة قال سأل أعرابي يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة يؤذي صاحبها فقال رسول الله ﷺ وما هي؟ قال السدر فإن لها شوكاً، فقال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ ويخضد الله شوكها فيجعل مكان كل شوكة ثمرة

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

إنها تنبت ثمراً ثم تفتق لثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر» وأخرج الطبراني مثله من حديث عتبة بن عبد وأخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: مخضود قال موفر حملاً وطلح منضود الموز المتراكم ﴿وَطَلْحٍ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك، وفي القاموس شجر عظام الموز، وفي الصحاح شجر الواحد طلحة، وفي البيضاوي موز أوأم غيلان، قال البغوي روى خالد عن الحسن قال قرأ رجل عند علي(رض) عنه وطلح منضود قال وما شأن الطلح إنما هو وطلع منضود ثم قرأ «طلعها هضيم»[1] قلت إنها في المصحف بالحاء أفلا تحولها فقال إن القرآن لا يحاج اليوم ولا يحول ﴿مَّنضُودٍ﴾ يعني متراكم بثمره بعضها على بعض، أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن مسروق قال نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلها نزعت ثمرة عادت مكانها آخر والعنقود إثنا عشر ذراعاً، وذكر البغوي قول مسروق بلفظ أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها ثمر كله في القاموس نضيد متاعه إن جعل بعضه فوق بعض، وفي الصحاح النضيد السرير الذي ينضد عليه المتاع ومنه أستعير طلح نضيد ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ ممتد منبسطة كظل قبل طلوع الشمس من الصبح أو دائم لا ينسخه الشمس والعرب يقول للشيء الذي لا ينقطع ممدوداً، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها اقرأوا إن شئتم** ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾»[2] وأخرجه أحمد وزاد في آخره «وإن ورقها ليخمر الجنة» وأخرج هناد بن سري في الزهد وزاد في آخره فبلغ ذلك كعباً فقال والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلاً راكباً على حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغه حتى يسقط هرباً إن الله غرسها بيده وإن أفنانها من وراء سدر الجنة وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة، قال البغوي وروى عكرمة عن ابن عباس في وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ وقال شجرة في الجنة على ساق العرش يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل عليها ريحاً من الجنة فتتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾ أي منصب يجري دائماً من غير أخدود كأنه لما شبه حال الساقين المقربين في التنعيم بأعلى

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢٨٢٦).

ما يتصور لأهل المدن تشبه حال أصحاب اليمين أكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ الأجناس ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ قال البغوي قال ابن عباس لا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد أراد أخذها ويؤيده حديث ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد مكانها مثلها**» رواه البزار والطبراني، وذكر البغوي الحديث بلفظه «ما قطعت من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين» وقال بعضهم لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما ينقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء و يتوصل إليها إلا بثمن ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال البغوي قال علي(رض) وفرش مرفوعة على أسرة وقال جماعة المفسرين مرفوعة وعالية، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية قال: «**ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض**» ولفظ الترمذي «ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام»[1] وذكر البغوي نحوه عن أبي هريرة وقال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسيره معناه أن تفاوت الفراشين في الدرجات كما بين السماء والأرض، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة في هذه الآية قال لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً، وأخرج الطبراني عنه مرفوعاً «لو طرح منها فراش من أعلاها لهوىٰ إلى قرارها مائة خريف» وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة مرفوعة رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا أو ارتفاعهن على الأرائك، يدل عليه قوله تعالى في عقبه ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ الضمير عائد إلى الفرش إن المراد به النساء وإلا فإلى غير مذكور معلوم للسامع ﴿إِنشَآءً﴾ يعني خلقناهن جديداً إما ابتداء من غير ولادة وإما إعادة، قال البغوي قال ابن عباس يعني الآدميات العجوز الشمط يقول خلقناهن بعد الهرم خلقاً آخر ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي وأخرج الترمذي والبيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ «إنا أنشأناهن إنشاء» قال عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً»[2] وأخرج ابن جرير والبيهقي عن مسلمة بن يزيد سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**إنا انشأناهن إنشاء قال الشيب والأبكار التي كن في الدنيا**» أخرج البيهقي وابن المنذر عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة عجوز فبكت عجوز فقال

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٦).

رسول الله ﷺ أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز إنها يومئذ شابة إن شاء الله تعالى إن الله تعالى يقول إنا أنشاناهن إنشاء» وأخرج البيهقي عن عائشة قالت دخل النبيّ ﷺ علي وعندي عجوز فقال من هذه قلت إحدى خالاتي، قال أما أنه لا تدخل الجنة عجوز فدخل العجوز من ذلك ما شاء الله فقال رسول الله ﷺ قال الله تعالى إنا أنشأنا خلقاً آخر، وروى الطبراني في الأسط من وجه آخر عنها أن النبيّ ﷺ أتته عجوز فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «إن الجنة لا يدخلها عجوز» فذهب فصلى ثم رجع فقالت عائشة لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة فقال إن ذلك كذلك إن شاء الله إذا أراد إدخالهن حولهن أبكاراً، وقال مقاتل وغيره هن الحور العين أنشأهن الله لم يقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس وجع هناك ﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع وأبو بكر بإسكان الراء والباقون بضمها وهي جمع عروب أي عواشق لأزواجهن متحببات إليهم، أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ عرباً قال كلامهن عربي ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن في حديث أم سلمة عند البيهقي قالت قلت يا رسول الله عرباً قال أترابا قال: هن اللواتي قبضهن الله عجائز في الدنيا رمصاء شمطاء خلقهن الله بعد الكبر فجعلن عذارى، قال عرباً معشقاً محببات أتراباً على ميلاد واحد فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهن، وعن أبي هريرة(رض) عن النبيّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعداً أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم طوله ستون ذراعاً في عرضه سبعة أذرع**» رواه أحمد والطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا والبغوي بسند حسن وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ «من مات من أهل الدنيا من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون أبداً وكذلك أهل النار»[(١)] رواه الترمذي وأبو يعلى وابن أبي الدنيا، وعن معاذ بن جبل، أن النبيّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين بني ثلاث وثلاثين سنة» وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل أهل الجنة الجنة على طول أدم ستون ذراعاً بذراع الملك وعلى حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى وثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرداً مرداً مكحلين» رواه الطبراني في الأوسط بسند جيد، وعن المقداد بن الأسود مرفوعاً «محشر الناس ما بين السقط وبين الشيخ الفاني أبناء ثلاث وثلاثين وخلق آدم وحسن يوسف وقلب أيوب وذي أفانين» رواه الطبراني** ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بأنشانا أو جعلنا أو صفة لأبكار أو خبر لمحذوف أعني هن ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢)، وقال عنه: غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد.

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ خبر محذوف أي هم كثيرون من الأولين من هذه الأمة وكثيرون من الآخرين منهم كذا قال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك، روى البغوي بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ **«هما جميعاً من أمتي»** وأخرج مسدد في مسنده والطبراني وابن مردويه من حديث أبي بكرة عن النبيّ ﷺ في قوله «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» قال هما جميعاً من أمتي، لكن قال الدارقطني في علله هذا حديث أبي بكرة لم يثبت فمقتضى هذه الآية على هذا التأويل أن أمة محمد ﷺ لن يخلو عن أصحاب اليمين كما روى الشيخان في الصحيحين عن معاوية قال سمعت النبيّ ﷺ يقول «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[(١)] متفق عليه، فإن قيل يعارضه ما روى البغوي بسنده عروة بن رويم مرسلاً قال لما أنزل الله على رسوله (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) بكى عمر (رض) فقال يا رسول الله آمنا بالله وبرسوله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل لله عز وجل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فدعا رسول الله ﷺ فقال قد أنزل لله فيما قلت فقال عمر رضينا عن ربنا وتصديق نبيّنا فقال رسول الله ﷺ: **«من آدم إلينا ثلة ومني إلى القيامة ثلة ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل من قال لا إله إلا الله»** وكذا أخرج ابن أبي حاتم عنه مرسلاً وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله، وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ شق ذلك على المؤمنين فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فإن مقتضى هذا الحديث أن الثلة من الأولين من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وقلت لا وجه للحمل على التعارض بين الحديثين فإن قوله عليه الصلاة والسلام «من آدم إلينا ثلة ومني إلى القيامة ثلة» لا ينافي قوله عليه الصلاة والسلام «هما جميعاً من أمتي» فإنه يمكن أن يقال: إن الثلة التي من محمد ﷺ إلى القيامة ينقسم إلى الثلّتين ثلة من أولاهم وثلة من أخراهم، والمراد بالآية كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ. فإن قيل لو كان ثلة من الأولين في أمة محمد ﷺ فما وجه لبكاء عمر بعد نزول قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ولما شق ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب (٣٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٠).

من المسلمين قلت وجه بكائه(رض) الترحم على آخر هذه الأمة وزعم أن الناجي من أخرى هذه الأمة قليل ولذلك سلي بنزول قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني إلى المقربين في هذه الأمة وإن كانوا قليلاً لكن أصحاب اليمين منهم كثير وكلاً وعد الله الحسنى وليس قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ناسخاً لقوله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ كما يدل عليه ظاهر الحديث، فإن الأخبار لا يحتمل النسخ ولأن النسخ لا بد له من إتحاد المحل والآية الأولى في المقربين من أصناف الثلاثة والثانية في أصحاب اليمين فكيف يقال بالنسخ ويمكن أن يقال ثلة من الأولين يشتمل أصحاب لجميع الأنبياء وأصحاب محمد ﷺ ومن لحقهم من التابعين فإنهم السابقون إلى الإسلام الأولون فيه ممن بعدهم الذين يعتقون آثارهم في اتباع الأنبياء يؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[1] والآخريون هم المتأخر وهذه الأمة عند قرب الساعة فالمقربون منهم قليل، وأما أصحاب اليمين فكثير منهم وكذا من غيرهم كما ذكرنا قول رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» وقوله عليه السلام «ثمانون صفاً من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» روى البخاري عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال عرضت عليّ الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل والنبيّ معه رجلان والنبيّ معه الرهط والنبي ليس معه أحد ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عليه السلام هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فتقدم عكاشة ابن محصن فقال أمنهم أنا يا رسول الله قال نعم فقام آخر فقال أمنهم أنا؟ قال سبقك بها عكاشة»[2] قال البغوي وروي عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال عرضت عليّ الأنبياء الليلة بأتباعها حتى أتى عليّ موسى في كبكة بني إسرائيل رأيتهم أعجبوني فقلت أي من هؤلاء قيل: هذا أخوك موسى ومن معه من بني إسرائيل، قلت ربي فأين أمتي؟ قيل إنها عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدت بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت، فقال رضيت ربي، فقيل انظر عن يسارك فإذا الأفق قد رصد بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت فقلت ربي رضيت رضيت فقيل إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب عليهم، فقال النبيّ ﷺ «إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا وإن عجزتم وقصرتم فتكونوا من أهل الظراب فإن أعجزتم فكونوا من أهل

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١).

الأفق فإني قد رأيت ثمة أناساً يتهاوشون كثيراً».

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ﴾ نحو ما مر في التركيب والسموم الريح حارة تنفذ المسام ﴿وَحَمِيمٍ﴾ متناه في الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي دخان شديد السواد يفعول من الحمة تقول العرب أسود يحموم إذا كان شديد السواد، قال الضحاك النار سوداء وأهله سود وكل شيء فيها أسود، وقال ابن كيسان اليحموم اسم من أسماء النار ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ دكساير الظل ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي لا نافع بوجه ما أو كريم المنظر دفع بذلك ما أدلهم الظل من الاستراح ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي متنعمين منهمكين في الشهوات لا يتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي الذنب العظيم يعني الشرك وقال الشعبي الحنث العظيم اليمين الغموس ومعنى هذا أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب أئذا مستفهماً إنا بتركه والباقون بالإستفهام فيها وهم على أصولهم في التخفيف والتليين، وقوله إنا لمبعوثون خبراً لإذا أو كررت الهمزة على قراءة الجمهور للدلالة على إنكار البعث مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما ادخلت على العاطف في قوله ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقادم زمانهم معطوف على محل اسم أن بعد معنى الخبر أو على المستكن في مبعوثون والفصل بالهمزة حسن العطف على المستكن وقرأ نافع وابن عمرو أو بالسكون والعامل في الظرف ما دل عليه مبعوثون لا هؤلاء للفصل بأن والهمزة تقديره أنبعث إذا متنا ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ما وقت به الدنيا من يوم معلوم، والإضافة بمعنى من كخاتم فضة والميقات ما وقت به الشيء إلى حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد

دخول مكة إلا محرماً كلمة إلى بمعنى اللام يعني مجموعون لميقات يوم القيامة المعلوم المتيقن مجيئه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا﴾ أي يا أيها ﴿الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ من الأولى للإبتداء والثانية للبيان، قال ابن عباس «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف من يكون طعامه»[١] رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والحاكم، وقال عمر والخولاني بلغنا أن ابن آدم لا ينهش من الزقوم نهشة إلا نهشت منه مثلها رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجر نظراً إلى معناه فإن معناه الشجرة ﴿الْبُطُونَ﴾ من شدة الجوع ﴿فَشَارِبُونَ﴾ لغلبة العطش ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الشجر نظر إلى لفظه أو على الزقوم ﴿مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ﴾ قرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين والباقون بفتحها وهما لغتان، وقال البغوي الفتح على المصدر والضم على أنه اسم بمعنى المصدر كالضعف والضعف ﴿الْهِيمِ﴾ يعني الإبل العطاش كذا روى ابن أبي حاتم من طريق أبي طلحة عن ابن عباس هيمان للذكر ويهمع للأنثى كعطشان وعطشى وقيل الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيب الإبل لا تروى معه ولا يزال يشرب حتى يهلك كذا أخرج البيهقي عن مجاهد، وذكر البغوي عن عكرمة وقتادة وقال الضحاك وابن عيينه الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، قال البيضاوي هو جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على هيم كسحب وسحاب ثم خفف وفعل به ما فعل يجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد وهذا ﴿نُزُلُهُمْ﴾ فيه تهكم كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢] لأن النزل ما يعد للنازل تكرمة له يعني هذا أول ما يصيبهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء فما ظنك بما يصيبهم بعدما استقروا في الجحيم.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٢٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بعدما لم تكونوا شيئاً وأنتم تعرفون بذلك ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي هلا تصدقون على البعث بعد الموت فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

أو المعنى هلا تصدقون بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ الفاء العاطفة للعطف على محذوف والرؤية يعني العلم ومفعوله الأول الموصول مع الصلة، وهاهنا معطوف عليه ومحذوف مقدر وجملة أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون مفعول الثاني لكنه معلق بالإستفهام وتقديم المسند إليه الخبر الفعلي في انتم تخلقونه لإفادة التخصيص ولأن محل الإنكار والتقرير بالإستفهام هو المسند إليه دون النفس الخلق وتعريف الخبر في نحن الخالقون أيضاً الإفادة التخصيص تقدير الكلام أنظرتم فعلمتم ما تمنون في الأرحام فيصبر بشراً بكم مختص خلقه أم بنا، والإستفهام لإنكار نسبة الخلق إلى المخاطبين والإقرار لله سبحانه يعني تعلمون أن الخلق المختص بنا لا بكم ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان ﴿بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يعني قسمنا الموت عليكم كما قسمنا أرزاقكم على حسب إرادتنا فاختلف أعماركم من قصير وطويل ومتوسط أو المعنى وقتنا موت كل بوقت معين لا يستأخرون منه ولا يستقدمون، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص يعني تقدير الموت وتويقتها مختص بنا كما أن خلق كل مختص بنا فهذه الجملة مقررة لمضمون ما سبق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حال من فاعل قدرنا يعني حال كوننا غير مسبوقين أي لم يسبقنا أحد في تقديره أو حال كوننا غير مغلوبين من سبقته على كذا إذا غلبته عليه وأعجزته أو جملة معترضة والمعنى لا يسبقنا ولا معجزنا أحد فيهرب من الموت أو بغير دفنه ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ متعلق بحذوف حال من فاعل قدرنا تقديره قدرنا بينكم الموت قادرين على أن نبدل منكم أمثالكم مكانكم أو متعلق بقدرنا علة له وعلى بمعنى اللام يعني قدرنا الموت لأن نبدل منكم أمثالكم، وجاز أن يكون متعلقا بمسبوقين والمعنى ما نحن بمسبوقين غير قادرين على أن نبدل أمثالكم فنخلق بدلكم وجاز أن يراد أن نبدل صفاتكم

على أن أمثالكم جمع مثل بمعنى الصفة كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٢)] ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ عطف على نبدل يعني قادرين على أن ننشأكم بعد الموت ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي في أحوال وصفات لا تعلمونها من الثواب والعذاب ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عطف على قوله افرءيتم ما تمنون ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني خلقه الإنسان من المني وجوده بعدما لم يكن شيئاً مذكورا ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء للسببية يعني إذا علمتم النشأة الأولى فهلا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أن منشىء النشأة الأولى قادر على أن ينشأ نشأة الأخرى فإنها أقل صنعاً لحصول المراد ولتخصيص الأجزاء وسبق المثال وفيه دليل على حجة القياس ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ تبذرون حبة ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جعله حطاماً ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الزرع ﴿حُطَٰمًا﴾ قال عطاء تبنا لا قمح فيه وقيل هشيما لا ينتفع به في مطعم وغذاء ﴿فَظَلْتُمْ﴾أصله ظللتم حذف أحد اللامين تخفيفاً ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي تعجبون مما ينزل بكم في زرعكم، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل، وقيل تندمون على اجتهادكم ونفقاتكم وهو قول يمان، وقال الحسن تندمون على ما سلف منكم من المعصية التي أوجبت تلك العقوبة، وقال عكرمة تلاومون، وقال ابن كيسان تحزنون، وقال الكسائي هو التلهف على ما فات وهو من الأضداد، وقال العرب تفكهت أي فرحت وتفكهت أي حزنت، قلت: هو مستعار من أكل الفاكهة والتجنب عن الفاكهة، قال في القاموس تفكه تندم وبه تمنع وأكل الفاكهة وتجنب عن الفاكهة ضد ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم أئنا بهمزتين على الإستفهام للتقرير والباقون بهمزة واحدة على الخبر والجملة بتقدير القول حال من فاعل تفكهون تقديره فظلتم تفكهون قايلون إنا لمغرمون أي ملزمون غرامة ما أنفقنا والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض نكراً قال الضحاك وابن كيسان، وقال البغوي قال ابن عباس وقتادة لمعذبون والغرام العذاب ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا رزقنا إضراب بذكر الأهم فإن غرامة المال أسهل من حرمان الرزق المفضى إلى الهلاك ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ العذب ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السحاب واحدة مزنة، قيل المزن السحاب الأبيض ماءه أعذب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ لقدرتنا ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جعلناه أجاجاً ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً مراً كذا في القاموس قيل هو مشتق من الأجيج وهو تلهب النار فإن الماء الأجاج يحرق الفم وحذف اللام الفاصل بين جواب ما يتمحض للشروط وهو أن وبين ما يتضمن معناه وهو لو فإنها ليست للشرط المحض بل سرى فيها معنى الشرط إتفاقاً من

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٥. (٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

حيث إفادتها في مضموني جملتها أن الثاني امتنع لامتناع الأول لعلم السامع بمكانه أو للإكتفاء لسبق ذكرها في قوله تعالى لجعلناه حطاماً ولم يحذف فيها سبق اختصاصاً لما يصدق لذاته ويكون أهم وفقده أصعب لمزيد التأكيد ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية من إيجاد الإنسان وإبقائه ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي توقدون من واراى النار وريا وأوديته اتقدت يعني تخرجونها من الزناد والعرب يقدح العودين تحك أحدهما على الأخرى، يسمون الأعلى زند والأسفل زندة شبهوها بالفحل والطروقة ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد وهي المرخ والعفاد يسحق المرخ على العفاد وهما خضراوان ينقطر منهما الماء فينقدح النار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ الخالقون لها إبتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي نار الزناد ﴿تَذْكِرَةً﴾ في أمر البعث فإن من قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية كان أقدر على إعادة الحياة والرطوبة الغريزية فيما كان حياً رطباً من العظام فيبس وبلى أو تذكرة للطرق في الظلام أو تذكرة لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش وعممنا إليها الحاجة لتكونحاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون بها نار جهنم فإنها أنموذج لها، عن أبي هريرة إن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم قيل يا رسول الله إن كانت لمكافئة قال فإنها فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها**»(١) متفق عليه ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ قيل يعني للمسافرين النازلين بالقوا وهي الأرض القفر الخالية البعيدة من العمران وإنما خص ذكرهم بالإنتفاع لأن انتفاعهم بها أكثر من انتفاع المقيم فأنهم يوقدونها ليلاً ليهرب منهم السباع ويهتدي بها الضال ويستدفئون لها في البرد غير ذلك من المنافع وهذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد وعكرمة المراد بالمقوين المستمتعون بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون في البرد ويطبخون بها وقال ابن زيد معناه للجائعين يعني للذين خلت بطونهم من الطعام من أقوت الدار إذا خلت من سكانها يقول العرب أقويت منذ كذا وكذا يعني ما أكلت شيئاً منذ كذا، وقيل المراد بالمقوين الأغنياء يقال أقوى الرجل إذا قويت دابته وكثر ماله وصار إلى حالة القوة ولا شك أن فيها متاعاً للأغنياء والفقراء جميعاً لا إغناء بأحد عنها ولعل وجه تخصيص الذكر بالأغنياء لكثرة الطبخ عندهم، ومن هاهنا قيل فلان كثير الرماد أي كثير الطبخ كثير الضيافة والله تعالى أعلم ﴿فَسَبِّحْ﴾ والفاء للسببية كما تذكرت بدائع صنايعه وإنعاماته فتنزهه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة نار حر نار جهنم (٢٨٤٣).

عما يقول المنكر لوحدانيته الكافرون لنعمه أو فسبحه شكراً على نعمائه أو تعجبياً من أمر الظالمين في كفران نعمائه ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الباء زائدة ولفظ الاسم مقحم والمعنى سبح ربك جاز أن يكون الفاء للسببية والتقدير فسبح بذكر اسمه أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره والله أعلم (العظيم).

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ إذ الأمر ظاهر أوضح من أن يحتاج إلى قسم والفاء للسببية أو المعنى ذا قسم ولا مزيدة للتأكيد كما في لئلا يعلم والتقدير فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشبع فتحة لام الابتداء ويدل عليه قراءة عيسى بن عمر فلأ قسم، وقيل قوله لا رد لما قال الكفار في القرآن أنه سحر أو شعر أو كهانة يعني ليس الأمر كما تقولون أقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بموقع بإسكان الواو من غير ألف على الإفراد والباقون بفتح الواو وألف بعدها على الجمع والمراد بمواقع النجوم ساقطها وتخصيص المغارب في الذكر لما في غروبها من زوال أثرها الذي هو أول على إمكانها وحدوثها ووجود مؤثر لا يزول تأثيره، وقال عطاء بن أبي رباح أراد منازلها ومجاريها وقال الحسن أراد إنكدارها وانتشارها يوم القيامة، وقال ابن عباس النجوم نجوم القرآن وموضعها أوقات نزولها فإنه كان ينزل على النبيّ ﷺ نجوماً متفرقاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ جملة معترضة بين القسم وجوابه ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أخرى معترضة بين الصفة والموصوف لكمال الإستفهام ولو للتمني ومفعول تعلمون محذوف يعني ليتكم تعلمون عظمته ﴿عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته أنه لا يترك عباده سدى إنَّهُ يعني ما يتلوه محمد ﷺ ﴿لَقُرۡءَانٌ﴾ منزّل من الله تعالى غير منقول ﴿كَرِيمٌ﴾ لا عزيز

مكرم لأنه كلام الله «وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»[١] رواه الترمذي، والمعنى كثير الخير والنفع لاشتماله على أصول العلوم المهتمة في إصلاح المعاد والمعاش قال أهل المعاني الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير أو المعنى حسن مرضي في جنسه ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ ظرف مستقر صفة لقرآن ﴿مَّكْنُونٍ﴾ لا وهو اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قيل الضمير في لا يمسه راجع إلى الكتاب لقربه فالمعنى لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية الباعثة غالباً على المعاصي وهم الملائكة، وهذا القول غير مرضي فإن الإنسلاخ من الكدورات الجسمانية ليس من فضائل ولا يعد تطهراً وإلا يلزم فضل الملائكة على البشر وهو خلاف الإجماع بل الكدورات الجسمانية هي الحاملة للتجليات الذاتية الصرفة ولذلك اختص النبوة بالبشر فالقول الصحيح أن الضمير راجع إلى القرآن فالمعنى لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث فيكون بمعنى النهي، والمراد بالقرآن فالمصحف سمي قرآنا على قرب الجوار مجاناً كما في الحديث أنه ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[٢] متفق عليه من حديث ابن عمر، والمراد به المصحف وقد انعقد الإجماع على أنه لا يجوز مس المصحف للجنب والحائض ولا النفسا ولا لمحدث خلافاً لداود محتجاً بحديث أبي سفيان أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتاباً إلى هرقل وكان فيه (يا أهل الكتاب تعالوا) الآية، ولا شك أن الكافر نجس، قلنا: كتب رسول الله ﷺ تلك العبارة من قبل نفسه إمتثالاً لأمر الله تعالى لا من حيث أنه كلام الله تعالى ومن ثم حذف لفظه قل من صدر الآية ولو كان كتب من حيث أنه كلام الله لما حذف لفظة قل بل لا يجوز له حذفها كما لا يجوز حذفها في الصلاة والتلاوة، ولنا حديث عمر وبن حزم أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً وكان فيه «لا يمس القرآن إلا طاهر» رواه الدارقطني والحاكم في المعرفة والبيهقي في الخلافيات وروي الطبراني من حديث حكيم بن حزام قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» تفرد به سويد بن حاتم وهو ضعيف وحسن الحار في إسناده وفي الباب عن ابن عمر مرفوعاً رواه الدارقطني والطبراني وإسناده لا بأس به.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: السفر بالمصاحف إلى أرض العدو (٢٩٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (١٨٦٩).

مسألة:

يجوز مس القرآن وحمله بغلاف متجافٍ عند أبي حنيفة، وقال مالك والشافعي لا يجوز مع الغلاف أيضاً لأنه قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ وقال الله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾[1] ومن التكريم أن لا يمسه غير الطاهر ولو كان عليه غلاف، قلنا التكريم أثبت حرمة المس والمس لا يطلق إلا إذا كان بلا حجاب وستر وإنما التكريم ما ثبت بالشرع والزائد عليه تكلف.

مسألة

يكره مسه بالكم أو الذيل لأنهما تابعان لليد لا يجوز مس درهم فيه سورة الإبصرة لأن المصحف ما كتب عليه القرآن.

مسألة:

ويثبت بهذه الآية بدلالة النص أعني بالطريق الأولى عدم جواز قراءة القرآن للجنب وعليه انعقد الإجماع فإن المصحف وهو القرطاس الذي كتب عليه نقوش وضع إلا على لسان المطهرين والحائض والنفساء كالخبث عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد لما ذكرنا وعن مالك روايتان إحداهما أنها تقرأ الآيات اليسيرة والتي نقلها الأكثرون من أصحابه أنها تقرأ ما شاءت وهو مذهب داوود هو محجوج بما ذكرنا وبحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: **«لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن»**[2] رواه الدارقطني والترمذي وابن ماجه وفي إسناده إسماعيل ابن عياش وهو ضعيف، وقيل إنه قوي وتابعه مغيرة بن عبد الرحمٰن وأبو معشر بن موسى بن عقبة قال ابن الجوزي مغيرة أيضاً ضعيف وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني أخطأ ابن الجوزي أن ضعف مغيرة ابن عبد الرحمن وهو ثقة لكن في طريق مغيرة عبد الملك بن مسلم ضعيف وأما طريق أبو معشر ففيه متهم وأبو معشر ضعيف وله شاهد من حديث جابر رواه الدارقطني مرفوعاً وفيه محمد بن الفضل متروك.

مسألة:

كان القياس عدم جواز قراءة القرآن للمحدث أيضاً لما ذكر لكن الإستحسان يقتضي

---

(١) سورة عبس، الآية: ١٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في الجنب والحائض أنهما لا يقرآن القرآن (١٣١).

جواز القراءة للمحدث لأن الحدث لا يسري في الفم ولذلك لم يجب المضمضة في الوضوء بخلاف الجنابة، ويدل على جواز القراءة للمحدث حديث ابن عباس أنه بات ليلة عند ميمونة وهي خالته قال فاضطجعت في عرض الوسادة ورسول الله ﷺ وأهله في طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله قليلاً أو بعده بقليل إستيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه ثم قرأ العشرة الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلق فتوضأ منها[1] الحديث متفق عليه، وحديث علي بن أبي طالب لم يكن يحجب النبيّ ﷺ شيء من القرآن سوى الجنابة رواه أحمد وابن خزيمة وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم وابن الجار وصححه الترمذي وابن السكن وعبد الحق والبغوي في شرح السنة.

مسألة:

قال البغوي وروى محمد بن الفضل عن الكلبي في تفسير الآية قال لا يقرأ إلا الموحدون، قلت الموحد في اصطلاح الصوفية من لا يكون له مقصود غير الله سبحانه، وقال المجدد ما هو مقصود لك فهو معبود لك فإن المرء يتحمل كل ذل وانكسار ومشقة لتحصيل مقصوده وذلك هو التعبد وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت»** به رواه النووي في أربعينه، وقال عكرمة كان ابن عباس(رض) ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن، وقال الفراء معنى الآية لا يجد طعم القرآن ونفعه إلا من آمن به ومن هاهنا قال المجدد الألف الثاني إن الصوفي لا يجد بركات القرآن إلا بعد فناء نفسه وتطهر من الرذائل وأما قبل الفناء فقراءة القرآن له داخل في عمل الأبرار وبعد فناء النفس وزوالها عينها وأثرها فمراتب القرب إلى الله سبحانه منوط بتلاوة القرآن وكذا في الآخرة بعد دخول الجنة يرتقي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: **«يقال صاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر أية تقرأها»**[3] رواه أحمد والترمذي وأبي داود، والنسائي من حديث عبد الله بن عمر ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ صفة رابعة للقرآن وهو مصدر بمعنى المفعول

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: التخفيف في الوضوء (١٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣).

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤).

كالخلق بمعنى المخلوق ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن أنتُم يا أهل مكة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ الإدهان في الأصل إستعمال الدهن المتليين ثم استعير للمدارة والملاينة في الظاهر قال الله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1] ثم استعمل في النفاق، وهو المراد هاهنا قال في الفارس دهن نافق والمداهنة إظهار خلاف ما في الضمير كالإدهان، وقال البغوي هو من الأدهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر ثم قيل للمكذب مدهن وإن صرح بالكفر والتكذيب وكذا قال ابن عباس يعني يكذبون، وقال مقاتل بن حبان كافرون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الحسن في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به وقال جماعة من المفسرين معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون كذا أخرج أحمد والترمذي عن علي (رض) عن النبيّ ﷺ، قال هيثم بن عدي إن من لغتة أزد شنوة لا رزق فلان بمعنى فاشكر، وقيل هذا المعنى بحذف المضاف وتقديره تجعلون شكر رزقكم والمراد بالرزق حينئذ المطر وذلك أنهم كانوا إذا أمطروا قالوا مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك من الله تعالى فقيل لهم تجعلون رزقكم أي شكر رزقكم أنكم تكذبون يعني أنكم تأتون بالكفر مكان الشكر، عن زيد بن خالد الجهني قال لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح الحديبية في أثر السماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال الله تعالى: «من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب» وأخرج مسلم عن ابن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، وقال بعضهم هذه رحمته وضعها الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار في غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ فصلى ركعتين ثم دعى فأرسل الله سبحانه فأمطرت عليهم حتى استقوا منها فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه متهم بالنفاق ويحك قد ترى ما دعى النبيّ ﷺ فأمطر الله علينا السماء فقال إنما مطرنا بنوء كذا وكذا فنزلت وذكر ابن إسحاق أن هذه القصة كانت بالحجر.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفرمن قال مطرنا بالنوء (٧٣).

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا**» ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الضمير المرفوع عائدة إلى غير مذكور لفظاً بل حكماً فإنه معلوم يقيناً يعني إذا بلغت نفس أحدكم ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ عند الموت ﴿وَأَنتُمْ﴾ بها الحاضرون حول المحتضر ﴿حِينَئِذٍ﴾ متعلق بقوله ﴿تَنظُرُونَ﴾ حاله في خروج الروح وحالكم معه من العجز حيث لا يمكنكم الدفع عنه ولا تملكون شيئاً الجملة حال من فاعل بلغت والعائد المفعول المحذوف لتنظروا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ قال البيضاوي معناه نحن أعلم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى أسباب الإطلاع، وقال البغوي أقرب بالعلم والقدرة والرؤية، وقيل معناه ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم وهذه التأويلات مبنية على زعمهم بأن القرب منحصر في المكانيات والزمانيات وعدم دركهم قرباً غير متكيف لكنه ثابت بالشرع مدرك بفراست المؤمن لا يدركه العوام ولذلك استدرك بقوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ قربي وجملة ونحن أقرب حال ثان لفاعل بلغت ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا تأكيد لما سبق من حروف التحضيض ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مجرمين غير محاسبين بالبعث يوم القيامة، يعني غير مبعوثين بزعمكم أو غير مملوكين غير متهورين من دانه إذا أذله واستبعده وأصل التركيب للذل والانقياد ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي النفس إلى مقرها حتى ينتغي عن محلها الموت كالبعث أو المعنى ترجونها لكونكم غير مقهورين وهذا عامل الظرف وما ورد به التخصيص بلولا وهي بما في حيزها ودليل على جواب الشرط ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعمتم شرط مستغن عن الجزاء بما سبق وهو في المعنى تأكيد للشرط السابق يعني إن كنتم صادقين في أنكم غير مدينين كما يدل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته، فلولا ترجعون النفس إلى مقرها إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ولما سبق ذكر المحتضر المتوفي وأنه مجزي مقهور لله سبحانه غير مقدور لأحد غيره توجه النفس إلى أنه ماذا يصنع به القاهر المالك القريب المسلط عليه فقال تفصيلاً لمجمل أحواله ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفي ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ﴾ أما حرف شرط تقديره مهما يكن من شيء فالمتوفى إن كان من المقربين يعني السابقين الذين هم أفضل الأصناف الثلاثة المذكورة في صدر السورة فله روح فروح مبتدأ خبره ظرف محذوف والجملة الظرفية جزاء للشرط والجملة الشرطية لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية جزاء لشرط حذف بعد أما وأقيم جزاء الجزاء مقامه، يعني إن كان من المقربين وحذف الفاء كراهة توالي حرفي الشرط والجزاء أو اكتفى بالفاء الجزائية التي كانت في الجزاء للشرط الثاني قرأ يعقوب

فروح بضم الراء والباقون بفتحها فمن قرأ بالضم، قال الحسن يخرج روحه في الريحان وقال قتادة الروح الرحمة لأنها كالسبب لحياة المرحوم وقيل المراد به الحياة الدائمة ومن قرأ بالفتح فمعناه الفرح والراحة، كذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقال الضحاك المغفرة والرحمة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يعني رزق طيب كذا قال مجاهد وسعيد بن جبيرو مقاتل قال مقاتل هو بلسان حمير وقال آخرون الريحان الذي يشم، قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتي بعض من ريحان الجنة فبشم ثم يقبض روحه، وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وأما إن كان المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهو ثاني أصناف الثلاثة المذكورة ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾ أي عليك يا صاحب اليمين ﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يسلمون عليك، وقال البغوي معناه سلامة لك يا محمد منهم فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله وإنك ترى فيهم ما تحب من السلامة فترضى، قال مقاتل هو أن الله يتجاوز عن سياتهم ويقبل حسناتهم وقال القراء وغيه فسلام لك يا محمد إنهم من أصحاب اليمين أو يقال لصاحب اليمين سلام لك إنك من أصحاب اليمين ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن والنبيّ ﷺ ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن طريق الهدى يعني أصحاب الشمال والمشأمة الثالث من أصناف الثلاثة المذكورة وصفهم هاهنا بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم أوعدهم به ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ فالذي يعذبهم حميم جهنم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ إدخال نار عظيمة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور في شأن المحتضرين ﴿لَهُوَ حَقُّ﴾ الخبر ﴿الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي فصل بذكر ربك وأمره أو فنزهه بذكر اسمه عما لا يليق بعظمة شأنه أو نزه ربك وأمره أو فنزهه بذكر اسمه عما لا يليق بعظمة شأنه أو نزه ربك العظيم وسيجيء مثل هذين الآيتين آخر سورة الحاقة وقد سبق مني تفسيرها وذكرت هناك مسائل تسبيحات الركوع والسجود وما ورد فيهما من الأحاديث واختلاف الأئمة فلا نعيدها والله أعلم، عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم يصبه فاقة» أبداً رواه البغوي وأبو يعلى في مسنده والبيهقي بسند ضعيف في شعب الإيمان.**

سورة الحديد

آياتها تسعة وعشرون وأربع ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ
مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
(١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ذكر هاهنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع إشعاراً بأن التسبيح لله تعالى من مخلوقاته مستغرق بجميع الأوقات لا يختلف باختلاف الحالات ومجيء المصدر مطلقاً في بني إسرائيل أبلغ في هذه الدلالة والتسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه التنزيه والتبعيد من السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد وقد يتعدى باللام مثل نصحته ونصحت له، وجاز أن يكون تعديته باللام للإشعار بأن إيقاع الفعل ثبت لأجل الله وخالصاً لوجهه الكريم ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعم ذوي العقول وغيرهم وقيل المراد منه ما يأتي منه التسبيح ويصح وقيل المراد بالتسبيح من الجمادات ونحوها التسبيح

الحالي يعني دلالتها على تنزه الصانع عن السوء والصحيح أن شيئاً من الموجودات لا يخلو عن نوع من الحياة والعلم كما حققناه في تفسير سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[١] فالتسبيح منها مقالي أيضاً ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٢] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حال يشعر بما هو المبتدأ. للتسبيح ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه هو الموجد لها والمتصرف فيها والجملة إما حال من مفعول سبح أو مستأنفة ﴿يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾ استئناف أو خبر لمحذوف أي هو أو حال من المجرور في له ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء ليس قبله شيء فإنه هو الموجود للأشياء محدثها كلها ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقي بعد فناء الأشياء ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها فإن وجوده تعالى أصل لا يحتمل الإنفكاك والزوال وجود غيره مستعار في حكم الله وجود بالنظر إلى ذاته فهو الآخر بعد كل شيء ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾فوق كل شيء ليس فوقه في الظهور شيء فإن منشأه الظهور الوجود ولا ظهور للمعدوم ووجود كل شيء مستفاد منه وظل لوجوده فظهور كل شيء فرع لظهوره غير أنه تعالى لكمال ظهوره وشعشان وجوده اختفى عن الأبصار لقصورها كما اختفى الشمس عن عين الخفاش، واختفى الشمس أيضاً في نصف النهار لشدة الظهور وكمال النور عن أعين الناس فمن أدنى تميز يعترف بوجوده تعالى: حتى الصبيان والمجانين كما يعترف الناس لوجود الشمس في النهار ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكمال ظهوره وأيضاً باطن كنه ذاته دون كل شيء ليسدونه شيء حتى عجز عمن دركه بصائر أولي الأبصار من النبيين والصديقين الأخيار.

روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أبي هريرة وأبو يعلى الموصلي عن عائشة أنه ﷺ كان يقول وهو مضطجع «**اللّهم رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللّهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا عن الفقر**»[٣] قال البغوي وسئل عمر(رض) عن هذه الآية فقال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٠٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣١).

معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر علمه بالظاهر كعلمه بالباطن ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا من المتشابهات والأسلم فيه تفويض تأويله إلى الله تعالى والإيمان بما أراد ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالندور والمعادن والأموات عند الحشر ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالأمطار والملائكة والأحكام والبركات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة، والملائكة بأعمال العباد وأرواحهم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معية غير متكيفة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فإن نسبة جميع الأمكنة إلى الله تعالى على السواء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكره مع الإعادة كما ذكر مع الإبداء لأنه كالمقدمة لهما ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بأن ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمكنوناتها، ذكر السيوطي في جمع الجوامع عن علي(رض) في الدعاء لقضاء الحوائج أن يقرأ الفواتح من سورة الحديد وثلاث آيات من آخر الحشر ثم يقول يا من كذلك وليس أحد غيره كذلك إقض حاجتي كذلك ﴿آمِنُوا﴾ أيها الناس ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي شأنه كما ذكرنا ﴿وَرَسُولِهِ﴾ فإن الإيمان بالله على ما ينبغي لا يمكن إلا بتوسط الرسل ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي بعض الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها وهو مخلوق مملوك الله تعالى أو التي استخلفكم عمن قبلكم في تملكها والتصرف فيها وسيخلفكم فيها غيركم ذكرها الله سبحانه بهذا العنوان للحث على الإنفاق وتوهينه على النفس ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الفاء للتعليل وفيه مبالغات في الوعد، حيث أورد الجملة الاسمية وأعاد ذكر الإيمان والإنفاق وبني الحكم على الضمير ونكر الأجر ووصفه الكبير ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ جملة لا تؤمنون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيه معنى الفعل في مالكم أي تصنعون غير مؤمنين به وجملة مالك معترضة للتوبيخ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من الضمير في لا تؤمنون يعني أي عذر لكم في ترك الإيمان والحال أن الرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات والبينات ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ حال مرادف لما سبق أو من مفعول يدعوكم يعني والحال أنه قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان قبل ذلك حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ * شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾[1] أو المعنى قد أخذ الله ميثاقكم على لسان من قبلكم من الأنبياء وفيما سبق من الكتب أن إذا ﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١] وقيل أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والتمكين من المنظر، قرأ أبو عمرو أخذ بضم الهمزة وكسر الخاء على البناء للمفعول وميثاقكم بالرفع والإسناد إليه والباقون على البناء للفاعل ونصب ميثاقكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط حذف جزاءه تقديره عندي إن كنتم مؤمنين بالله على زعمكم فآمنوا بالله والرسول فإن الإيمان بالله على ما ينبغي لا يتصور إلا بتوسط الرسول وذلك أن الكفار أيضاً كانوا مقرين بالله تعالى ويزعمون الأصنام شفعاء إليه تعالى، في الصحيحين عن ابن عباس قال وفد عبد القيس لما أتوا النبيّ ﷺ أمرهم بأربع ونهاهم بأربع أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وقال احفظوهن وأخبروهن من وراءكم»[٢] قلت تقدير الكلام عندي أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع بعدما أمرهم بالإيمان وحده ثم فسر الإيمان بالشهادتين وفسر الأربع المأمورة بقوله وإقام الصلاة يعني أمرهم بإقام الصلاة الحديث، هذا الحديث يدل أن الإيمان بالله وحده لا يتصور إلا بعد الإيمان بالرسول، وقال البيضاوي تقدير الآية إن كنتم مؤمنين بموجب ما فإن هذا موجب له لا مزيد له، وقال البغوي إن كنتم مؤمنين يوماً تاماً فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا القيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن أو غير ذلك من المعجزات الباهرة ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ هو أو عبده ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي الكفر والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الإيمان أو العلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أرسل إليكم رسوله فأنزل عليه آياته ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ وأي فائدة لكم يعني لا فائدة لكم في عدم الإنفاق ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما يكون قربة إليه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني والحال أن الله يرث كل شيء فيها ولا يبقى لأحد مال وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث أنه يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب أولى وترك الإنفاق وجمع الأموال حتى ينتفع بها غيركم لا يفيدكم أصلاً عن عائشة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم (٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (١٧).

أنهم ذبحوا شاة فقال النبيّ ﷺ ما بقي منها يعني بعد الإنفاق قالت ما بقي منها إلا كتفاً قال: «بقي كلها غير كتفها»[١] رواه الترمذي وصححه، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»**[٢] رواه البخاري والنسائي ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ أي فتح مكة في قول أكثر المفسرين وقال الشعبي هو صلح الحديبية ﴿وَقَٰتَلَ﴾ قبله لا يستوي إفتعال بمعنى التفاعل وفاعله من أنفق مع ما عطف عليه المحذوف يعني لا يستوي من أنفق قبل الفتح وقاتل قبله ومن أنفق بعد التفح وقاتل بعده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا فيه ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ عند الله ثوابا وتقربا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ حينئذ، قال البغوي روى محمد ابن فضل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق (رض) فإنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

وروى البغوي بسند في تفسيره المعالم عن ابنعمر قال كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق(رض) وعليه عباءة فدخلنا في صدرها بخلال فنزل عليه جبرئيل فقال مالي أرى أبا بكر عليه عباءة فدخلها في صدرها بخلال فقال أنفق ماله علي قبل الفتح قال فإن الله عز وجل يقول إقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال أبو بكر أسخط على ربي وإني عن ربي راض، وكذا روى الواحدي في تفسيره. قلت: هذه الآية بمنطوقه تدل على أفضلية السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من آمن بعد الفتح وأنفق حينئذ وبهمومه وسياقه يدل على أفضلية الصديق على سائر الصحابة وأفضلية الصحابة على سائر الناس فإن مدار الفضل على السبقة في الإسلام والإنفاق والجهاد كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «من سن حسنة فأجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[٣]، وقد أجمع العلماء على أن أبا بكر أول من أسلم وأظهر إسلامه على يده أشراف قريش وأول من أنفق الأموال العظام

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما قدم من ماله فهو له (٦٤٤٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

في سبيل الله وأول من أحتمل الشدائد من الكفار ومن ثم قال رسول الله ﷺ: **«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبي بكر فإن له عندنا يد يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر»**[١] رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وعن ابن الزبير عن أبيه قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً أنفقها كلها على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله رواه أبو عمر، وروى البخاري في حديث طويل ثم يداً لأبي بكرفابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن، وروى البخاري أن عقبة بن معيط لما رأى النبيّ ﷺ يصلّي جعل رداءه في عنقه وخنقه فاطلع أبو بكر فدفع عنه وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات[٢]، وروى أبو عمر نحوه وزاد فأخذ الكفار أبا بكر فضربوه ضرباً شديداً فلما رجع أبو بكر إلى داره فكان كلما وضع يده على شعره سقط شعره مع يده ويقول تباركت يا ذا الجلال، وروى أبو عمرو في الاستيعاب إنه أعتق أبو بكر سبعة كانوا يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة، وقال أبو إسحاق إنه لما أسلم أبو بكر أظهر سلامه ودعى الناس إلى الله عز وجل وإلى رسوله وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه مجيباً سهلاً فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه فيما بلغني عثمان بن عفان رئيس بني عبد الشمس وزبير بن العوام رئيس بني أسد وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رئيساً لبني زهرة وطلحة بن عبد الله رئيس بني تميم فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين إستجابوا له وأسلموا وصلوا وانكسر شوكة قبائل قريش بإسلامهم، قال أبو الحسن الأشعري تفضيل أبي بكر على غيره من الصحابة قطعي، قلت قد أجمع عليه السلف وما حكى عن ابن عبد البر أن السلف اختلفوا في تفضيل أبي بكر وعلي فهو شيء غريب انفرد به عن غيره ممن هو أجل منه علماً واطلاعاً منهم الشافعي، وقد ذكرنا أدلة تفضيل الشيخين نقلاً وعقلاً في السيف المسلول وله مواقف رفيعة في الإسلام كثباته على كمال تصديقه ليلة الإسراء وجوابه للكفار في ذلك وهجرته مع رسول الله ﷺ وترك عياله وأطفاله وملازمته له في الغار وسائر الطريق وكلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الإمر في تأخير دخول مكة وثباته مع كمال حزنه في وفاة رسول الله ﷺ، وخطبه الناس وتسكينهم ثم قيامه في قصة البيعة لمصالح المسلمين وإهتمامه في بعث جيش أسامة وقيامه في قتال أهل الردة وتجهيزه الجيوش إلى العراق والشام وآخر مناقبه أنه فوض الخلافة إلى عمر (رض) ﴿وَكُلًا﴾ قرأ ابن عامر بالرفع والباقون بالنصب أي كل واحد من الفريقين من الصحابة الذين أنفقوا قبل الفتح والذين

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المؤمن (غافر) (٤٨١٥).

أنفقوا بعده ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لا يحل الطعن في أحد منهم ولا بد حمل مشاجراتهم على محامل حسنة وأغراض صحيحة أو خطأ في الإجتهاد وأيضا يدل صدر الآية على أفضلية الصحابة على من بعدهم بسبقهم في الإسلام والإنفاق والجهاد، وروى الشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»(١) ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن كعلمه بالظواهر فيجازي كلاً على حسبه ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي يقرض عباد الله بحذف المضاف أو المعنى ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه فصار كمن يقرضه فاستعير لفظ القرض لبدل على التزام الجزاء ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإخلاص وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطي أجره ضعفاً فاقرأ عاصم فيضاعفه من المفاعلة منصوباً على جواب الإستفهام باعتبار المعنى فكأنه قال يقرض الله أحد فيضاعفه له، وقرأ ابن عامر ويعقوب فيضعفه من التفعيل منصوباً وقرأ ابن كثير فيضعفه من التفعيل مرفوعاً عطفاً على يقرض والباقون فيضاعفه من المفاعلة مرفوعاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ حال من الضمير المنصوب في فيضاعفه يعني والحال أن ذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يطلب وإن لم يضاعف فكيف وقد يضاعف أضعافاً.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرف لقوله، أو فيضاعفه أو متعلق بمقدر يعني أذكر ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي يضيء نور التوحيد والطاعات معهم على الصراط وأينما كانوا ويكون ذلك دليلهم إلى الجنة وجملة يسعى حال من المؤمنين والمؤمنات ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٧٣)، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

بعض المفسرين أراد جميع جوانبهم فعبر بالبعض عن الكل ويؤيد هذا التأويل الدعاء المأثورة عن النبيّ ﷺ فإنه كان يقول إذا خرج للصلاة «**اللّهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً وخلفي نوراً وإجعلني نوراً**»[١] رواه الشيخان وأبو داود والنسائي، وروى ابن ماجه عن ابن عباس وفي رواية عن مسلم وأبي داود والنسائي وزاد «في لساني نوراً وأجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً اللّهم أعطني نوراً» فإن هذا الدعاء يقتضي إحاطة النور من جميع جوانبه ولعل وجه تخصيص الجهتين بالذكر أن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، وقال الضحاك ومقاتل يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم كتبهم، وقيل يجعل الله لهم نوراً في الجهتين إشعاراً بأنهم بحسناتهم سعدوا بصحائفهم البيض أفلحوا، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من كان في إيهامه يتقد مرة ويطفىء أخرى، وقال قتادة ذكر لنا أن النبيّ ﷺ قال من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن وإلى الصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا بين القدمين.

فصل

في موجبات النور والظلمة: أخرج أبو داود والترمذي عن بريدة وابن ماجه عن أنس كليهما عن النبيّ ﷺ قال: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[٢] وورد مثله في حديث سهل بن سعد وزيد بن الحارثة وابن عباس وابن عمر وحارثة بن وهب وأبي أمامة وأبي الدرداء وأبي سعيد وأبي موسى وأبي هريرة وعائشة(رض)، وروى أحمد والطبراني عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ «**من حافظ على الصلوات كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نوراً ولا**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل (٦٣١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٦٣ وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: الدعاء في السجود (١١١٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (٢٢٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم (٥٦٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: المشي إلى الصلاة (٧٨١).

برهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان» وروى الطبراني عن أبي سعيد مرفوعاً «قرأ سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة» وروى ابن مردويه عن ابن عمر «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدميه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة» وروى أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً «من تلا آية كانت له نوراً يوم القيامة» وروى الديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً «الصلاة عليّ نور على الصراط» وأخرج الطبراني في الأوسط «من ذهب بصره في الدنيا جعل الله له نوراً يوم القيامة إن كان صالحاً» وروى الطبراني عن عبادة بن صامت مرفوعاً في الحج «أما حلق رأسك فإنه ليس من شعرة يقع في الأرض إلا كانت له نوراً يوم القيامة» وروى البزار عن ابن مسعود مرفوعاً «إذا رميت الجمار كانت به نوراً يوم القيامة» وروى الطبراني بسند جيد عن أبي أمامة مرفوعاً «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» روىٰ البزار بسند جيد عن أبي هريرة مرفوعاً «من رمى بسهم في سبيل الله كان له نوراً يوم القيامة» وروى البيهقي في شعب الإيمان بسند منقطع عن ابن عمر مرفوعاً «ذاكر لله في السوق له بكل شعرة نور يوم القيامة» وروى الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً «من فرج عن مسلم كربة جعل الله له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط يستضيء بهما عالم لا يحصيهم إلا رب العزة» وأخرج الشيخان عن ابن عمر ومسلم عن جابر والحاكم عن أبي هريرة وابن عمر والطبراني عن ابن زياد قالوا قال: رسول الله ﷺ «**إياكم والظلم فإنه هو الظلمات يوم القيامة**»[1] والله تعالى أعلم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ يعني يقول لهم ذلك من يلقيهم من الملائكة كانت الجملة في الأصل فعلية تقديره يبشركم اليوم بجنات فعدلت إلى الاسمية للدلالة على الاستمرار بشرى مبتدأ وجنات خبره واليوم ظرف البشرى أي المبشر به جنات أو بشراكم دخول جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الجملة التي يفهم من الكلام السابق يعني يدخلونها خالدين فيها ولا يجوز أن يكون حالاً من جنات وإلا لزم جريانه على غير من هو له ﴿ذَٰلِكَ﴾ النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل من يوم ترى ﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزة بهمزة القطع وفتحها في الحالين وكسر الظاء من الإفعال من النظرة بمعنى المهلة كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] يعني مهلونا جعل تأنيهم في المشي حتى يلحقوا

---

(١) رواية الصحيحين «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وعند مسلم «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٢) سورة ص، الآية: ٧٩.

بهم إمهالاً لهم مجازاً والباقون بحذف الألف في الوصل وضمها في الإبتداء بمعنى الإنتظار، في القاموس نظره وانتظره وتنظره تأنى عليه ونظرة كفرجة التأخير، قال الله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[1] والله تعالى أعلم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي نستضيء بكم ونمشي في نوركم ولا يكون للمنافقين والكافرين نور يوم القيامة حيث لم يكن لهم نور الإيمان في الدنيا وهو المستفاد من القرآن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2] وبه قال الكلبي وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة الباهلي قال يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفة حتى يبعث الله بالنور أي المؤمن بقدر أعمالهم فيتبعه المنافقون ويقولون انظرونا نقتبس من نوركم، وأخرج عنه من وجه آخر في حديث طويل فيه فيغشى الناس ظلمة شديدة ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو مثل ضرب الله في كتابه ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3] فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كمالا يستضيء الأعمىٰ ببصر البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين قال يخدعون الله وهو خادعهم فيرجعون إلى المكان الذي قسم الله فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب الآية.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان دليلاً لهم من الله إلى الجنة فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم فأظلم على المنافقين فقالوا حينئذ للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا قالوا ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا نوراً هناك، وأخرج ابن المبارك من طريق مجاهد عن يزيد بن شجرة قال إنكم تكتبون عند الله بأسماءكم وسيماكم ونجواكم ومجالسكم فإذا كان يوم القيامة نودي يا فلان بن فلان لا نور لك، وقال البغوي إن الله يعطي المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم وهو قوله عز وجل ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[4] فبينما هم يمشون إذا بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأ نور المنافقين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(١) مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين كذا أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس بلفظ ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفىء نوره وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا والطبراني عنه نحوه، وأخرج مسلم وأحمد والدارقطني في الرواية من طريق ابن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله فذكر حديثاً طويلاً وفيه «ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلا لبيب وحسك تأخذ ما شاء الله ثم يطفى نور المنافقين»، والمختار عندي أن المنافقين لا يكون لهم نوراً أصلاً كما يدل عليه القرآن وما تقدم من الأحاديث ولعل المراد بالمنافقين الذين يعطي لهم نوراً فيطفىء قبل بلوغهم إلى الجنة في الأحاديث المتأخرة أصحاب الهواء من المؤمنين كالروافض والخوارج والقرينة على هذا المراد قوله عليه السلام في حديث ابن عباس ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً والموحد لا يكون إلا بالشهادتين بإخلاص، كما مر في حديث وفد عبد القيس أتدري ما الإيمان بالله وحده؟ والله أعلم.

﴿قِيلَ﴾ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة يقول لهم الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي إلى المكان الذي قسم فيه النور كما يدل عليه حديث أبي أمامة وابن عباس وذلك خديعة بهم أو المعنى ارجعوا ورائكم إلى الدنيا ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟﴾ هناك ﴿نُورًا﴾ بتحصيل الإيمان والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة وكسب الطاعات فإن هذا النور ظهور ذلك ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ يدخل فيه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ أي باطن السور أو الباب ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي من جهة الظاهرة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لأنه يلي النار، قال البغوي: روي عن عبد الله بن عمر قال إن السور الذي ذكر الله في القرآن بسور له باب هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم، وقال ابن شريح وكان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في البيت المقدس أنه الباب الذي قال الله تعالى عز وجل: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ الآية ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور حين حجب بينهم بالسور وبقوا في الظلمة ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نصلي ونصوم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملوها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

بالمؤمنين الدوائر بمحمد ﷺ الموت وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شككتم في الدين وفيما أوعدكم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الأباطيل وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطان أو الدنيا بأن الله كريم لا يعذبكم أو بأنه لا بعث ولا حساب، وقال قتادة ما زالوا على خدعتهم من الشيطان حتى قذفهم في النار ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالتاء لتأنيث المسند إليه والباقون بالياء لأن التأنيث غير حقيقي وقد وقع الفصل أيضاً ﴿مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بدل وعوض ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جهاراً ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي مكانكم الذي يقال فيه وهو أولىٰ بكم أو ناصركم على طريقة قولهم تحية بينهم ضرب وجيع أو متوليكم أي يتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن رواد وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان، أن أصحاب النبيّ ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه وقته ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي ترق وتلين وتخضع ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال البغوي قال عبد الله ابن مسعود وما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين، وقال ابن عباس إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشر سنة من نزول القرآن، وأخرج ابن المبارك في الزهد عن سفيان عن

الأعمش قال لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من العيش بعدما كان بهم من الجهد، مكانهم وفتروا عن بعض ما كانوا فنزلت ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن القاسم قال ملّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله ألم يأن للذين آمنوا الآية، وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[1] فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية، وعلى هذا فتأويل الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ في العلانية وباللسان تخشع سرائرهم وقلوبهم لذكر الله ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ قرأ نافع وحفص ويعقوب بتخفيف الزاء والباقون بالتشديد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن، الموصول معطوف على ذكر الله عطف أحد الوصفين على الآخر ويجوز أن يراد بالذكر ذكر الله سوى القرآن ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ أي الذين آمنوا منصوب بأن معطوف على تخشع وجاز أن يكون مجزوماً على أنه نهى معطوف على أمر مفهومه مما سبق فإن المقاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ليخشع قلوب الذين آمنوا ولا يكونوا أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ﴾ معطوف على أوتوا ﴿عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي الزمان بينهم وبين أنبيائهم أو طال عليهم الزمان بطول أعمارهم في الكفر والمعاصي ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معطوف على طال ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم لفرط القساوة جملة اسمية معطوف على فعلية، وجاز أن يكون حالاً وجملة ألم يأن مستأنفة ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة أو لإحياء الأموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القسوة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي يكمل عقولكم ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي المؤمنين والمؤمنات والباقون بالتشديد أي المتصدقين أدغمت التاء في الصاد ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب النفس والإخلاص عطف على معنى الفعل لأن المعنى الذين صدقوا أو تصدقوا وعطف القرض الحسن على التصدق للدلالة على أن المعتبر هو التصدق بالإخلاص، فإن قيل

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

عطف أقرضوا على الصلة في المصدقين وعطف المصدقات على الموصول ويلزم فيه العطف على الموصول قبل تمام الصلة وذلك غير جائز قلنا المصدقين والمصدقات اعتبر من حيث المعنى موصولاً واحد عطف على صلة أقرضوا والتقدير الناس تصدقوا وأقرضوا من الرجال والنساء وجاز أن يقدر للمصدقين والصدقات خبراً ثم يقدر موصولاً آخر معطوفاً عليه فيقال إن المصدقين والمصدقات يدخلون الجنة والذين أقرضوا الله الآية، وجاز أن يكون أقرضوا معطوفاً على خبر مقدر تقديره أن المصدقين والمصدقات أنفقوا أموالهم وأقرضوا الله قرضاً حسناً وعلى هذا يضاعف إما صفة لقرض أو مستأنف وجاز أن يكون التقدير أن المصدقين والمصدقات فازوا وقد أقرضوا وعلى هذا يكون وأقرضوا حالاً ولا يرد على هذه الوجوه أشكال والله تعالى أعلم. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف لهم من التفعيل والباقون من المفاعلة ولم يجزم يضاعف لأنه خبر إن وهو مسند إلى لهم أو إلى ضمير المصدر ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ عطف على يضاعف أو حال من الضمير في لهم وقد مر مثله فيما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي المبالغون في الصديق أو الصدق فإنهم صدقوا جميعها اخبار الله تعالى ورسوله ﷺ وهذه الآية تدل على جواز إطلاق الصديق على كل مؤمن ومن هاهنا قال مجاهد كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وشهيد، وكذا قال عمرو بن ميمون وللصديق إطلاق آخر أخص منه وهو من اكتسب كمالات النبوة بالوارثة والتبعية وهو المعنى من قوله تعالى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ وللرسول أو على الأمم يوم القيامة عطف على الصديقين وقيل مبتدأ وخبره ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة، فقيل هم الأنبياء لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1] يروى ذلك عن ابن عباس وقول مقاتل ابن حبان وقال مقاتل بن سليمان هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي الأجر والنور الموعدان لهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خالدين فيها دون غيرهم فإن الصحة تدل على الملازمة والتركيب يشعر بالإختصاص ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مبتدأ المراد ما يرغب فيه الناس في الحياة الدنيا بما لا يتوصل به إلى المنافع الآخرة ﴿لَعِبٌ﴾ مع ما عطف عليه خبر يعني لا فائدة فيها فإنها كانت قليلة النفع نظراً إلى ما يفيد في الآخرة شريعة الزوال عد لعبا كأنه لا فائدة فيها أصلاً ﴿وَلَهْوٌ﴾ يمنع الناس عما يهم لهم من الأمور الأخروية ﴿وَزِينَةٌ﴾ يتزينون به كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب وغير

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

ذلك مما لا مزية بها عند الله تعالى: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد وجملة إنما الحياة الدني الخ قائم مقام مفعولي اعلموا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ خبر آخر للمبتدأ. والكاف في محل الرفع ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ صفة الغيث تمثيل لأمور الدنيا في سرعة زوالها وقلة جدواها وإنما خص الإعجاب بالكفار لأن المؤمن إذا رأى شيئاً معجباً إنتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها وألان مطمح نظره إلى محاسن الأخروية فلا يمد عينه إلى زهرة الحياة الدنيا، وقيل المراد بالكفار والزراع ذكر في القاموس في معنى الكافر الزراع لأن معنى الكفر الستر والزارع يستر البذر في الأرض ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عطف على أعجب أي ثم يبس بعاهة ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ الحطام ما يكسر باليبس كذا في القاموس ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأعداء الله لاشتغالهم عما يفيدهم في الآخرة بما هو لعب ولهو ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لأوليائه لتجافيهم عن دار الغرور وتهيئهم لدار الخلود ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن لم يستعلمها الطلب الآخرة وأما من استعملها لطلب الآخرة فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي سارعوا مسارعة السابقين في المضمار بالإيمان والخوف والرجاء والأعمال الصالحة إلى ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ أي بسطها ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال السدي كعرض سبع السماوات وسبع أرضين يعني لو وصل بعضاً ببعض وإذا كان العرض كذلك فطولها أكثر منه ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وإن الإيمان وحده كاف في استحقاقها وأن الإيمان بالله لا يعتد به ما لم يؤمن برسوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ويتفضل به على من يشاء من غير إيجاب فيه دليل على أن إدخال المؤمنين الجنة إنما هو بفضل الله تعالى ومبني على وعده غير واجب على الله تعالى كما قال به المعتزلة خذلهم الله أخرج أبو نعيم عن علي (رض) قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً الحساب يوم القيامة إن شاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديهم فإلي أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي**» في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**أن لا ينجي أحداً منكم عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟** قال ولا أنا إلا أن يتغمدني برحمة منه وفضل»(١) وعن عائشة عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

النبيّ ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمته».

ولمسلم من حديث جابر نحوه وقد ورد هذا من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد وأبي موسى وشريك بن طارق أخرجهما البزار وشريك بن طريف وأسامة بن شريك وأسد بن كدر أخرجها الطبراني واستشكل هذا مع نحو قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وأجيب بأن درجات الجنة متفاوتة تنال بتفاوت الأعمال وأصل دخولها والخلود فيها بفضل الله ورحمته ويؤيده ما أخرجه هناد في الزهد عن ابن مسعود قال تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقيمون المنازل بأعمالكم وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنه لا يبعد منه التفضيل بذلك وإن عظم قدره.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ كجدب وعاهة وكائنة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة وموت الأحباب صفة لمصيبة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ في موضع الحال أي كائنة في حال من الأحوال الإحال كونها مكتوبة في اللوح مثبة في علم الله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلقها والضمير للمصيبة أو للأرض أو للأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإثبات مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.

يَسِيرٌ﴾ هين ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ أي كتب فيه لئلا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ منها فإن من علم أن الكل مقدر لا يجوز تغيره بأن عليه الأمر قرأ أبو عمرو بقصر الألف من الإتيان معادلاً، بقوله تعالى ما فاتكم والباقون بالمدأي بما أعطاكم الله وفي قراءة الجمهور إشعار بأن الفوات لا يستدعي علة فإنه عدم أصلي أما الوجود والبقاء فلا يتصور إلا بعلة والمراد به نفي الأسى المانع من التسليم لأمر الله والصبر والفرح الموجب للنظر والاختيال ولذلك عقبه بقوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ الجملة منصوبة على الحال ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبر بنعم الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾ بسطى الناس قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً قال جعفر الصادق يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ منصوب على أنه بدل من كل مختال أو مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنه عن إنفاق لا يضره الاعراض عن شكره لا ينفعه التقرب إليه لشكر نعمه، قرأ نافع وابن عامر بغير هو وكذلك في مصاحفهم والباقون بضمير الفصل ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ محمود في ذاته ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ من الملائكة إلى الأنبياء ومنهم إلى الأمم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لتبين الحق من الباطل والعمل الصالح من الفاسد والحلال من الحرام ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي العدل وقال مقاتل بن سليمان وهو ما يوزن به وإنزاله انزال الأمر بالاستعمال ليسوي به الحقوق، وقيل أن جبرئيل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال مرقومك يزنوا به ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل وأن لا يظلم أحد إحداً علة لانزال الكتاب والميزان ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ روي عن ابن عمر يرفعه أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح، وقال أهل المعاني معنى قوله تعالى أنزلنا الحديد أنشأنا وأحدثنا أي أخرج لهم الحديد من المعاد وعلمهم صنعته بوحيه، وقال قطرب هذا من النزل كما يقر إنزال الأمير على فلان نزلاً حسناً فمعنى الآية جعل ذلك نزلاً لهم ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾(١) ﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ أي حرب ﴿شَدِيدٌ﴾ فإن آلات الحرب متخذة منه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلتها ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ عطف على محذوف أي لتقاتلوا في سبيل الله أعدائه وليعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ وجاز أن يكون اللام صلة لمحذوف أي وإنزله ليعلم الله وجاز أن يكون معطوفاً على مفهوم فيه

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

بأس شديد تقديره وأنزلنا الحديد لأن فيه بأساً شديداً وليعلم الله ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المستكن في ينصره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد هلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يحتاج إلى نصرة أحد وإنما أمر الناس بالجهاد تفضلاً على الناس ليبتغوا به مرضاة الله واستوجبوا اثواب امتثال الأمر واعزاز الدين أو الشهادة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بيان وتفسير لما سبق من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ وخصا بالذكر بفضلهما وكثرة ذريتهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني فضلناهما بجعل النبوة والكتاب في ذريتهما فإن الكتب الأربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، أنزلت في ذرية إبراهيم وهو من ذرية نوح عليهما السلام وذكر في المدارك عن ابن عباس أن المراد بالكتاب الخط بالقلم يقال كتبت كتاباً ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم الإرسال والفاء للسببية ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ذُرِّيَّتِهِمَا ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي آثار نوح وإبراهيم من أرسل إليهم ولا يجوز إرجاع الضمير إلى الذرية لأن الرسلة المقفى بهم كانوا من ذريتهما ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا﴾ الرسل أجمعين قبل محمد ﷺ ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وكان آخر أنبياء بني إسرائيل وكان بعده فترة الرسل حتى بعث الله خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودة وليناً ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعطفاً على إخوانهم وعلى المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[1] وكما قال في صفة أصحاب النبيّ ﷺ رحماء بينهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ وهي المبالغة في العبادة والرياضة والإنقطاع عن الناس وترك الشهوات حتى المباحة منها كالأكل بالنهار والنوم بالليل والنكاح وغيرها منسوبة إلى الرهبان فعلان من الرهب بمعنى خاف كخشيان من خشي معطوف على رأفة جعلنا في قلوبهم الميل إلى رهبانية ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ من قبل أنفسهم صفة لرهبانية وابتداعهم إياها لا ينافي جعل الله تعالى ميلها في قلوبهم وجاز أن يكون رهبانية منصوباً بالفعل يفسره قوله تعالى ابتدعوها والجملة معطوفة على جعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة وابتدعوا من قبل أنفسهم رهبانية ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ أي ما كتبنا شيئاً من خصائل الرهبانية ﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فالاستثناء حيئنذ متصل وقيل الاستثناخ منقطع لعدم دخول ابتغاء مرضات الله في الرهبانية والمعنى ولكن كتبنا عليهم إبتغاء مرضات الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي الرهبانية النفي لسلب العمر، إلا لعموم السلب والمعنى فما رعوها جميعهم ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل ضيعها بعضهم بترك ما التزموا على أنفسهم من المبالغة في الرياضة أو لفصل الرياء والسمعة والميل إلى الدنيا أو

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

بكفرهم وقولهم ثالث ثلاثة أو قولهم بالاتخاذ أو بتهودهم وكفرهم بعيسى ومحمد أو بكفرهم بحمد ﷺ بعدما استقاموا على دين عيسى قبل مبعثه فهؤلاء كلهم ما رعوها حق رعايتها ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صحيحاً وحافظ حقوقها حتى آمنوا بمحمد ﷺ على ما وصى به عيسى عليه السلام ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي ممن إدعى باتباع عيسى عليه السلام ﴿أَجۡرَهُمۡۖ﴾ أي الأجر الموعود لهم على حسب أعمالهم فمن رعى حق رعاية الترهيب كما التزم أتاه أجر عمله ومن استقام على الدين الإيمان ولكن لم يراع الرهبانية حقها أتاه أجر عمله ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن اتباع عيسى وهم الذين قالوا بالتثليث وللاتخاذ والتهود أو دخلوا في دين الملوك وأثبتوا على دين عيسى لكنهم كفروا بمحمد ﷺ، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على ثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاثة وهلك سائرهن فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فقال النبيّ ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» وقال البغوي روي عن ابن مسعود قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال يا ابن أم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية قلت الله ورسوله أعلم؟ قال: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسىٰ يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا قليل فقالوا إن ظهرنا هؤلاء أفتونا ولم يبق للدين أحد يدعوا إليه فقالوا تعالوا فتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الذي وعدنا عيسى يعنون محمداً ﷺ فتفرقوا في غير أن الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ الآية فآتينا الذين آمنوا منهم يعني ثبتوا عليها أجرهم ثم قال النبيّ ﷺ يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال«الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلال».

قال وروي عن أنس عن النبيّ ﷺ «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»(١) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت الملوك بعد عيسى عليه

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وفيه زيد العمي وثقه أحمد وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجهاد، باب: فضل الجهاد (٩٤٣١).

السلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا نحن نكفيكم أنفسا، فقالت طائفة ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً ترفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم، وقالت طائفة دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما تشرب الوحش فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا.

وقالت طائفة ابنوا لنا دوراً في الفيافي نحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن قد غير الكتاب فجعل الرجل يقول نكون نحن في مكان فلان فنتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل: ورهبانية ابتدعوها أي ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاؤا من بعدهم فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعني الذين إبتدعوها مرضات الله وكثير منهم فاسقون هم الذين جاؤا من بعدهم قال فلما بعث النبيّ ﷺ لم يبق منهم إلا قليل حط رجل من صومعته وجاء سياح من سياحته وصاحب الدير من ديره وآمنوا به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه من لا يعرف عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا فشهدوا واقعة أحد فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[1] فلما نزلت قالوا يامعشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم

(١) سورة القصص، الآية: ٥٤.

يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ هو ما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وكذا أخرج ابن أبي داوود حاتم عن مقاتل قال لما نزلت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ الآية فخرَ مؤمن أهل الكتاب على أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا لنا أجران ولكم أجر فشق ذلك على الصحابة فأنزل الله تعالى هذه الآية فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وعلى هذه الرواية الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأصحاب النبيّ ﷺ عامة وحينئذ قوله وآمنوا برسوله تأكيد لما سبق يعني آمنوا بجميع ما جاء به الرسول حق الإيمان، وقال البغوي وأكثر المفسرين هذا خطاب أهل الكتابين من اليهود والنصارى يقول الله تعالى: ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد آمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين من رحمته يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل وبمحمد والقرآن، وقال البيضاوي ولا يبعد أن يثابوا أي اليهود أيضاً على دين السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام، وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها بها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»(١) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على الصراط كذا قال ابن عباس ومقاتل فهذه الآية نظيره قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾(٢) ويروى عن ابن عباس أن النور هو القرآن وقال مجاهد هو الهدى والبيان أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به إلى جناب القدس وجنات الفردوس ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وما سبق من ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال بلغنا أنه لما نزلت يؤتكم كفلين من رحمته حسد أهل الكتاب المسلمين عليها فأنزل الله تعالى ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ متعلق بأفعال واقعة في جواب الأمر على التنازع، قيل متعلق بحذوف تقديره أعلمكم بذلك لئلا يعلم ولا مزيدة المعنى ليعلم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إن هي المخففة والمعنى أن لا ينالون شيئاً من فضل الله إلا بمشيئة الله تعالى ولا يقدرون على نيله باختيارهم هذه الرواية عن قتادة يناسب ما روى الطبراني عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن مقاتل أن الخطاب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤).

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٢.

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ للمؤمنين عامة لا لأهل الكتاب، وذكر البغوي قول قتادة أنه حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فأنزل الله تعالى: ﴿ يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ على خلاف ما زعموا أنهم أبناء الله وأحبائه وأهل رضوانه وأنهم لا يتمكنون من نيل شيء من الأجر والثواب لأنهم لم يؤمنوا برسله وهو مشروط بالإيمان به وعلى هذا يناسب ما ذكر المفسرون في الآية خطاب لأهل الكتابين، وقيل لا غير مزيدة والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبيّ والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالون وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وكذا ذكر البغوي أن لا يقدرون على شيء من فضل الله على خلاف ما زعموا أنهم أبناء الله وأحبائه وأهل رضوانه وأنهم لا يتمكنون من نيل شيء من الأجر والثواب لأنهم لم يؤمنوا برسله وهو مشروط بالإيمان به وعلي عنه أنه قال قالت: اليهود يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل الله ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلم الذين لم يؤمنوا منهم أنه لا يقدرون على شيء من فضل الله فضلاً أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة ويؤيدة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبر بعد خبر لأن ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عملاً فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل من نصف النهار إلى العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضب اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء فقال الله تعالى: فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيه من شئت**»[(١)] وروى البخاري عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون عملا يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعلموا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا فهو باطل، فقال لهم ألا تفعلوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٩).

واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت من الأجر فعملوا حتى إذا كان صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غاب الشمس فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»(١) والله تعالى أعلم.

قلت: حديث ابن عمر حكاية عن اليهود والنصارى الذين علموا على أمرهم الله تعالى قبل أن ينسخ دينهم فلهم أجرهم عى ما وعدهم الله تعالى وحديث أبي موسى حكاية عن اليهود الذين كفروا بعيسى والنصارى الذين كفروا بمحمد ﷺ وتركوا ما أمرهم الله تعالى وقد أخذ منهم الميثاق أنه إذا جاءكم رسول مصدقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه فهؤلاء لا أجر لهم أصلاً وحبط ما كانوا يعملون، وفي الحديثين بشارة لأمة محمد ﷺ بأنهم يؤتون الأجور على أضعاف أجور الصالحين من الأمم الماضيين وبأنهم لا يزالوا على الحق إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى وعن معاوية قال سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٢) متفق عليه اللّهم أجعلني من الأمة القائمة بأمرك المؤيدة لدينك وبحرمة نبيك وآله وأصحابه أجمعين صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين، روى أبو داود والترمذي والنسائي عن عرباض بن سارية أنه صلّى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهن آية خير من ألف آية»(٣) قلت لعل ذلك الآية التسبيح روى النسائي عن معاوية موقوفاً أنهن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى، قلت ومنها على بني إسرائيل ولم يذكرها معاوية وقد روى الترمذي والنسائي والحاكم وحتى يقرأ بني إسرائيل والزمر خشيت أن النبيّ ﷺ كان يقرأ المسبحات السبع قبل أن يرقد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: الإجارة من العصر إلى الليل (٢٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب (٣٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢١) وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٩).

سورة المجادلة

آياتها اثنتان وعشرون وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت تبارك الذي وسع سمعه كل شيء أني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى الرسول ﷺ وهي تقول يا رسول الله أكل مالي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللّهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرئيل هؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام الدال في السين وكلمة قد لتقريب الماضي إلى الحال ويشعر بأن الرسول ﷺ أو المرأة يتوقع أن الله يسمع مجادلتها وشكواها ويفرج عنها كربها ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت والمجادلة الشدة في الخصومة والمراد هاهنا شدتها في مراجعة الكلام مثل شدة الخصمين ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ عطف على تجادلك ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿بَصِيرٌ﴾ بالأحوال، قال البغوي نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن صامت وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها أنت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال كان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية فقال لها ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة (رض) تغسل شق رأسه فقالت

يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به فقال رسول الله ﷺ: **«حرمت عليه»** فقالت أشكو إلى الله فافتي ووحدتي قد طالت صحبته ونفضت له بطني فقال رسول الله ﷺ: **«ما أراك إلا حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء»** فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال ﷺ حرمت عليه امتنعت وليت ما أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغار إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى الله وتقول اللّهم إني أشكوا إليك اللّهم فأنزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله، فقالت عائشة إقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه أخذه السبات فلما قضى بالوحي قال: أدعي زوجك فجاء فتلى عليه رسول الله ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآيات قالت عائشة تبارك الذي وسع سمعه الأصوات إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله تعالى قد سمع الله الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم في الموضعين بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء من المفاعلة وابن عامر وحمزة والكسائي بفتح الياء وتشديد الظلم وألف بعدها من الأفاعل أصله يتظاهرون أدغم التاء في الظاء والباقون من غير الألف من الأفعل أصله تفعل، والظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي كان ذلك طلاقاً في الجاهلية مثبتاً للحرمة المؤبدة فنقله الشرع إلى الحرمة المنتهية بالكفارة مشتق من الظهر وألحق به الفقهاء تشبيهاً بجزء منها لا يحل له النظر إليه كان يقول أنت علي كظهر أمي أو فخذها أو كفرجها وعند الشافعي لوشبهها بجزء لا يحرم نظره إليه كاليد والعين يكون الظهار أيضاً كذا لو شبهها بالجدة أو العمة أو الخالة أو البنت أو بامرأة أخرى محرمة عليه بالتأبيد، وشرط الشافعي أن يكون تحريمها غير طارئة فلاظهار عند الشافعي لو قال أنت علي كظهر مرضعتي وزوجة أبي وعند أبي حنيفة يكون ظهاراً لأنها في الحرمة المؤبدة كالأم وكذا لو شبه من امرأته جزءاً شائعاً أو جزأ يعبر به عن الكل كأن قال رأسك علي كظهر أمي أو فرجك أو وجهك أو رقبتك أو بدنك أو جسمك أو روحك أو نفسك أو نصفك أو ثلثك لأنها إما يعبر بها عن جميع البدن أو يثبت الحكم في الشائع فيتعدى إلى الكل، وإن قال يدك أو رجلك علي كظهر أمي لا يكون ظهاراً خلافاً للشافعي في أظهر أقواله وإن قال أنت علي كأمي أو مثل أمي يرجع إلى نيته لينكشف حكمه فإن قال نويت الكرامة صدق

لأن التكريم بالتشبيه فاش في الكلام وإن قال أردت الظهار يكون ظهاراً لأنه تشبيه بجميعها، وفيه تشبيه بالعضو لكه ليس بصريح فيفتقر إلى النية، وإن قال أردت الطلاق كان طلاقاً بائناً لأنه تشبيه بالأمر في الحرمة فكأنه قال أنت علي حرام ونوى به الطلاق وإن لم ينو أصلاً فليس بشيء لاحتمال الكرامة وقال محمد ظهار والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو قال أنت علي كظهر أمي إلى شهر مثلاً لا يكون ظهاراً عند الشافعي في رواية بل لغواً وفي رواية عنه يكون ظهاراً وبه قال أبو حنيفة وأحمد ويلزم الكفارة على هذا القول بالعزم على الوطء في المدة وإن لم يعزم حتى مضت المدة فلا كفارة عليه غير أنه عند أحمد، ولو وطىء المظاهر منها في المدة قبل الكفارة يأثم ويستقر عليه الكفارة وعند أبي حنيفة يا ثم ولا تستقر عليه الكفارة بل لو عزم الوطىء ثانياً في المدة كفّر ولو مضت المدة حلت عليه بلا كفارة ولو أبانها في المدة لا كفارة عليه وعند مالك وهو رواية عن الشافعي أنه ظهار مؤبد.

وفي الباب حديث سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال كنت امرءاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب وفي ليلتي شيئاً فأتتابع في ذلك حتى يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع فبينما هي تخدمني إذ تكشف منها شيء فوثبت عليها فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت إنطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأمري فقالوا لا والله لا تفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك فخرجت حتى أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته خبري.

فقال لي أنت بذاك فقلت أنا بذاك فقلت أنا بذاك قال أنت بذاك قلت نعم فقال لي أنت بذاك فقلت أنا بذاك فأمضي فيّ حكم الله عز وجل فإني صابر له، قال أعتق رقبة قال فضربت صفحة رقبتي بيدي فقلت لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال فصم شهرين، قلت يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال فتصدق، فقلت والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشياً ما لنا عشاء قال إذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ثم استعن سائرها عليك وعلى عيالك قال فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق

وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة قد أمرني بصدقتكم إليّ فادفعوها إلي[١].

رواه أحمد والحاكم وأصحاب السنن إلا النسائي، وأعله عبد الحق بالإنقطاع وابن سليمان لم يدرك سلمة حكى ذلك الترمذي عن البخاري ورواه الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان وأبي سلمة بن عبد الرحمن بلفظ إن سلمة بن صخر جعل امرأته على نفسه كظهر أمي إن غشيها حتى يمضي رمضان فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال أعتق رقبة الحديث. إحتج ابن الجوزي بهذا الحديث على كون الظهار المؤقت مؤقتاً وعلى أن إذا وطىء المظاهر قبل التكفير أثم واستقرت الكفارة في ذمته وليس في الحديث حجة على كونها الظهار المؤقت لكنه حجة على أنه لا يلغو سواء كان في الشرع مؤقتاً أو مؤيداً، ثم احتجاج ابن الجوزي لا يخلو عن المصادرة على المطلوب فإنه لو قلنا أن الظهار المؤقت لا يكون مؤقتاً بل يكون مؤيداً فلا يكون الحديث حجة على إستقرار الكفارة بالوطىء قبل الكفارة لجواز أن النبيّ ﷺ أمره بالكفارة لتحصيل الحل بعد رمضان ولفظنا أن الكفارة لا تستقر في الذمة بالوطىء قبل التكفير بل التكفير إنما هي لرفع الحرمة الثابتة بالظهار والوطء قبل التكفير موجب للإثم فقط والحرمة باقية بعد ذلك ولا يحتاج إلى التكفير إلا من عزم على الوطء وأراد الإستباحة بعد ذلك وأما من طلقها بعد الوطىء فلا حاجة إلى الكفارة كما هو مذهب أبي حنيفة، فالحديث حجة على كون الظهار المؤقت مؤبداً لأنه ﷺ أمره بصيام شهرين أن صيام شهرين لا يتصور منه إلا بعد إنقضاء رمضان الذي ظاهر في مؤقت إلى إنسلاخه فلو كانحرمة الظهار منتهية بانتهاء رمضان لا يحتاج إلى الكفارة بعد ذلك فلا يصح قول أبي حنيفة في الظهار المؤقت أن يكون مؤقتاً والله تعالى أعلم.

مسألة:

الظهار المعلق بشرط يصح، إحتج الرافعي بحديث سلمة بن صخر المذكور على صحة تعليق الظهار وتعقبه ابن الرافعة بأن الذي في السنن لا حجة فيه على جواز التعليق وإنما هو ظهار مؤقت لا تعليق فيه لكن اللفظ المذكور عند البيهقي يشهد بما قال الرافعي.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المجادلة (٣٤٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢١٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (٢٠٦٢).

مسألة :

لو علق الظهار بشرط ثم أبانها ثم وجد الشرط في العدة لا يصبر مظاهراً كذا قال ابن همام.

مسألة :

يصح الظهار بشرط النكاح عند أبي حنيفة فإذا قال لأجنبية إن تزوجتك فأنت علي كظهر أمي فتزوجها ولزم كفارة الظهار ولو قال أنت علي كظهر أمي في رجب ورمضان وكفر في رجب أجزاه عنها.

مسألة :

لو ظاهر فجن ثم أفاق فهو على حكم الظهار ولا يكون عائداً بالإفاقة ما لم يعزم على الوطىء خلافاً لأحد الوجهين للشافعي والله تعالى أعلم.

مسألة :

من قال لنسائه أنتن عليّ كظهر أمي كان مظاهراً منهن جميعاً إجماعاً وهل يتعدد الكفارة فعند أبي حنيفة والشافعي يتعدد بتعددهن وبه قال الحسن والطبراني والثوري وغيرهم وقال مالك وأحمد كفارة واحدة روي ذلك عن عمر رواه البيهقي من رواية سعيد بن المسيب عنه ومن رواية مجاهد عن ابن عباس عنه، وكذا روي عن علي وعروة وطاووس اعتبروه باليمين بالله في الإيلاء، قلنا الكفارة لرفع الحرمة الثابتة بالظهار وهي متعددة بتعددهن وكفارة اليمين لهتك حرمة إسم الله تعالى وهي واحدة.

مسألة :

لو كرر الظهار من امرأة واحدة في مجلس واحد أو مجالس متعددة يتكرر الكفارة عند أبي حنيفة وغيره لأن الظهار يثبت الحرمة والنكاح باق فيصح الظهار الثاني والثالث ولا منافاة في إجتماع أسباب الحرمة كالخمر يحرم على الصائم بعينها وللصوم واليمين إلا أنه إذا نوى بما بعد الأول تأكيداً فيصدق قضاء وديانة بخلاف الطلاق فإنه لو نوى تأكيداً لا يصدق قضاء لأن حكم الظهار بينه وبين الله تعالى وأوردت عليه أنه لما ثبت بالظهار الأول الحرمة فلا يثبت بالثاني وإلا يلزم تحصيل الحاصل والأسباب إذا كانت من جنس واحد لا يستدعي تعدد الحرمة فلا بد أن ترتفع حرمة الظهارات المتعددة بكفارة واحدة كما أن الحدث الثابت بأسباب متعددة ترفع بوضوء واحد والله تعالى أعلم ﴿مِنكُمْ﴾ حال

من فاعل تظاهرون وفيه تمجين لعادة العرب فإنه كان من أيمان أهل الجاهلية قبل التقييد بقوله منكم يفيد أنه لا يصح الظهار من الذمي، وبه قال أبو حنيفة ومالك خلافاً للشافعي وأحمد وهي رواية البرامكة عن أبي حنيفة لأن الكافر ليس منا وإلحاقه بالقياس متعذر لأن الظهار جناية حكمها تحريم يرتفع بالكفارة وشرك الكافر يمنع من رفع أثر الجناية عنه بالكفارة ولأنه ليس أهلاً للكفارة لأنها عبادة حتى اشترطت النية فلا يصح من الكافر فيبقى تحريماً مؤبداً وهو غير حكمه بالنص ولقائل أن يقول إن هذه الآية غير موجبة للتحريم ولا للكفارة بل تقتضي إثم المظاهر وإرتكابه منكراً من القول وزوراً وإنما يوجب التحريم والكفارة الآية التالية أعني قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ وليس فيه التقييد بقوله منكم ويلزم منه صحة ظهار الذمي فالأولى إن يقال أن الحرمة بالظهار لا يمكن إثباتها إلا حقاً للشرع وهم غير مخاطبين بحقوق الشرع فلا يصح ظهاره كما يجوز نكاحه بلا شهود أو في عدة كافر وإذا لم يثبت الحرمة وقت الظهار لكفره فإن أسلم بعد ذلك لا يثبت الحرمة بفقد سببه والله تعالى أعلم ﴿مِن نِّسَآئِهِم﴾ والتقييد بالنساء المضافة إلى المظاهرين يفيد إنه لاظهار إلا بالمنكوحة دون الأمة المملوكة موطوءة كانت أو غيرها وهو مذهبنا ومذهب الشافعي وأحمد وجمع كثير من الصحابة والتابعين خلافاً لمالك والثوري في الأمة مطلقاً وسعيد بن جبير وعكرمة وطاووس وقتادة والزهري في الأمة الموطوءة لنا أن إطلاق نسائهم على الإماء وإن صح لغة لكن صحة الإطلاق لا يستلزم الحقيقة بل إضافة النساء إلى رجل أو رجال حقيقة إنما يتحقق في الزوجات لأنه المتبادر ولأنه يصح أن يقال لهؤلاء جوايه لا نساءه ولأنه قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾(١) والمراد بنساء المؤمنين الزوجات دون الإماء فإن أدلاء الجلباب على الإماء غير واجب كيف وقد قال عمر(رض) إلغي عنك الخمار يا دفار اتشبهين بالحراير ولأن الظهار كان في الجاهلية طلاقاً فنقل عنه إلى تحريم منته بالكفارة ولا طلاق في الأمة ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ على الحقيقة حق يحرمن عليكم كما تحرم الأمهات ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى﴾ قرأ قالون وقنبل هاهنا وفي الأحزاب والطلاق اللاء بالهمزة من غير ياء وورش اللائي بياء مختلفة الكسر خلفاً عن الهمزة وإذا وقف صيرها ياء ساكنة والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين والباقون بالهمزة وياء بعدها في الحالين وحمزة إذا وقف ساكنة والبذي ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين والباقون جعل الهمزة بين بين على أصله ﴿وَلَدْنَهُمْ﴾ تعليل لقوله ما هن أمهاتهم ﴿وَإِنَّهُمْ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فإن الشرع انكره ﴿وَزُورًا﴾ كذباً، فإن قيل الزور الكذب إنما يطلق على الخبر والظهار إنشاء للتحريم لا يحتمل الصدق والكذب؟ قلنا الظهار وإن كان إنشاء لكنه في الأصل إخبار لزعمه حرمة مؤبدة أطلق على قوله بالزور والله تعالى أعلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف منه مطلقاً وإذا أنيب عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ الإختلاف فيه كما مر ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ اختلف أهل العلم في معنى الآية فقال أهل الظاهر معنى الآية يعودون لما قالوا من لفظ الظهار يعني كرر والفظ الظهار فلا يجب الكفارة عندهم إلا بتكرار اللفظ وهو قول أبي العالية وهذا القول يرده الإجماع والأحاديث الواردة في الباب فإنه لم يرد فيه شيء من الأحاديث تعليق الكفارة بتكرار اللفظ، وقال مجاهد إنهم كانوا في الجاهلية يظاهرون فمن ظاهر بعد الإسلام فقد عاد إلى ما قاله في الجاهلية أما حقيقة أو حكماً فإنه من اعتقد هذا القول فكأنه قاله، ويرد على هذا القول أن العطف يقتضي التغاير وكلمة ثم يوجب التراخي فكيف يقال العود هو الظهار بنفسه، وفسر ابن عباس العود بالندم يعني ندموا لما قالوا وأرادوا التحليل وإنما فسر العود بالندم لأن معنى العود الرجوع إلى الشيء بعد الإنصراف عنه كذا في الصحاح والرجل كان راضياً بالحل ثم إذا انصرف عنه إلى التحريم فإذا ندم عن التحريم فكأنه رجع إلى الحالة الأصلية من الرضاء بالحل وقال أكثر المفسرين الآية مصروفة عن الظاهر فقيل اللام بمعنى عن ومعنى يعودون لما قالوا يرجعون عما قالوا والرجوع عن هذا القول إنما هو إرادة التحصيل فالمعنى أرادوا والتحليل وقيل المضاف محذوف والتقدير يعودون لنقض ما قالوا ولتدارك ما قالوا أو لضد ما قالوا قال البيضاوي ويعودون لما قالوا أي إلى قولهم بالتدارك ومنه مثل عاد الغيث على ما أفسد ومعنى العود على هذا التقديرات الصيرورة عن حال أعني عن حال السخط إلى حالة الرضا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1] وحاصل معنى الآية حينئذ ثم يردون التحليل، قال الفراء يقال عاد فلأن لما قال أي فيما قال وفي نقض ما قال وهذا القول يحتمل التأويلين المذكورين، وعن ثعلب معناه ثم يعودون لتحليل ما حرموا وعلى هذا التقدير أيضاً المضاف محذوف غير أنه أراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول بمنزلة المقول فيه كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾[2] أراد المقول فيه وهو المال الولد، وقال أبو مسلم يعودون إلى المقول منها بإمساكها واستباحتها ثم العود والرجوع عن القول المذكور يحصل بالوطيء على قول

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٨٠.

الحسن وقتادة والزهري وطاووس قالوا لاكفارة عليه ما لم يطأها كما أن لا كفارة بعد اليمين ما لم يحنث وهذا القول يرده قوله تعالى من قبل أن يتماسا فإنه يوجب الكفارة قبل الوطيء، وعند الشافعي رحمه الله تعالى إذا أمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها ولم يطلقها فقد عاد ورجع عن القول المذكور ووجب عليه الكفارة وإن علقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحد في الوقت فلا كفارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة وأنه قصد بالظهار التحريم فإذا أمسكها فقد خالف قوله ورجع عما قاله فيلزمه الكفارة حتى قال لو ظاهر عن امرأته الرجعية ينعقد ظهاره ولا كفارة عليه حتى يراجعها فإن راجعها صار عائداً ولزمه الكفارة، قلنا لا نسلم أن مقتضى الظهار التحريم بالطلاق عقيبه حتى يكون عدم إتيانه بالطلاق وإمساكها على النكاح نقضه المقتضى الظهار كما قال ومخالفته لمقتضى الظهار بل كان مقتضى الظهار في الجاهلية الحرمة المطلقة المنافية للحل الثابت بالنكاح كما هو مقتضى الطلاق ثم صار في الشرع مقتضاه حرمة الوطيء مع بقاء النكاح المنتهية بالكفارة وشرع الكفارة رفع ذلك الحرمة فالسكوت بعد الظهار أرادته استباحة المرأة والعزم على وطئها ويمكن أن يقال المراد بالعود الوطيء كما قال الحسن ومن معه لكن لما جعل الله تعالى الكفارة شرط الحل الوطيء لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ ظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يريدون العود لما قالوا كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[1] المعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا يجوز القول بأنه لا كفارة عليه ما لم يطاها ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي فعليهم تحرير رقبة شرطاً للوطيء والفاء للتعقيب المجرد دون السببية، وقال أكثر العلماء إنها للسببية. واختلفوا في أن سبب وجوب كفارة الظهار ماذا؟ فقال الشافعي هو الظهار والعود يعني إمساكها عقب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها شرط لأن في الآية ترتب الحكم على الأمرين والكفارة يتكرر بتكرر الظهار فهو السبب، وقالت الحنفية الظهار لا يصلح سبباً للكفارة لأنها عبادة لو يغلب فيها العبادة والظهار منكر فمن القول وزوراً ولا يكون المحظور سبباً للعبادة والله سبحانه علق وجوبها بالأمرين الظهار والعود فالسبب مجموعهما والظهار معصية يصلح أن يكون سبباً للعقوبة والعود الذي هو إمساك بالمعروف عبادة والكفارة دائرة بين العقوبة والعبادة مجموع الأمرين يصلح أن يكون سبباً لها، وقال في المحيط سبب وجوبها العود فقط فأنه هو المستأخر من المذكورين وعليه رتب الكفارة والظهار شرط وإذا أمكن البساطة في العلة صير إليها لأنها الأصل بالنسبة إلى التركيب

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

والحكم قد يتكرر بتكرر الشرط كما يتكرر صدقة سببها رأس يمونه ويلي عليه، ويرد هاهنا أنه لو كان العزم على الوطىء فقط سبباً لوجوب الكفارة أو الظهار والعزم مجموعهما سبباً للوجوب لزم أن يجب الكفارة على من ظاهر ثم عزم على الوطىء ثم أبانها وماتت بعد العزم لوجوب السبب لكن لا يجب إذ لو وجبت لما سقطت وقد نص في المبسوط أنه لو أبانها أو ماتت بعد العزم لا كفارة عليه، والتحقيق أن إطلاق الواجب في مثل هذا المقام إنما هو مجازي وقد ذكر في أصول الفقه في تعريف الحكم أنه خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين للاقتضاء أو التخيير أو الوضع فخطاب الاقتضاء الإيجاب أو الندب وخطاب التخيير الإباحة وخطاب الوضع جعل الشيء ضرطاً لشيء أو سبباً له أو ركناً له أو مانعاً عنه وخطاب الوضع دون الإقتضاء فإن الله سبحانه جعل بهذه الكفارة سبباً لرفع الحرمة الثابتة بالظهار وشرطا لإباحة الوطىء كما جعل بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[1] الوضوء شرطا لإباحة الصلاة وسبباً للطهارة عن الحدث وبقوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[2] الصدقة شرطاً لإباحة المناجاة فليس الظهار في الحقيقة سبباً لوجوب الكفارة بل هو سبب لرفع حرمة الوطىء ولا إرادة الوطىء سبب لها بل النكاح سبب لوجوب حقوق الزوجية ومنها الوطىء والحرمة الثابتة بالظهار مانع عنها وما هو مانع عن الحقوق الواجبة يجب إزالتها فالنكاح كما هو سبب لوجوب حقوق الزوجية سبب لإزالة ما هو مانع عنها والكفارة سبب لإزالة الحرمة فالنكاح السابق صار بعد الظهار سبباً لوجوب الكفارة كما أن اليمين سبب للمنع عن المحلوف عليه وبعد الحنث يكون سبباً للكفارة وبهذه العلاقة يطلق على الظهار أنه سبب للكفارة كما يطلق على الحنث أنه سبب للكفارة ولا تزوج ثان حتى لو طلقها بعد الظهار ثلاثاً فعادت عليه بعد زوج آخر أو كانت أمة فملكها بعدما ظهر منها لا يحل قربانها حتى يكفر فيها.

مسألة:

يحرم على المظاهر دواعي الموطء أيضاً كالقبلة واللمس عندنا وعند مالك والشافعي قولان الجديد الإباحة وعن أحمد روايتان أظهرهما التحريم، لنا: أن الوطىء إذا حرم حرم بدواعيه كيلا يقع فيه كما في الإستبراء والإحرام بخلاف الحائض والصايم لأنه يكثر وجودهما ولو حرم الدواعي يفضي إلى الحرج ولا كذلك الظهار والاستبراء

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦. (٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

والإحرام ولأن الحرمة الثابتة بالظهار مشابهة بحرمة المحارم فيحرم الدواعي أيضاً كما فيهن.

مسألة:

للمرأة أن تطالبه بالوطىء وعليها أن تمنعه من الاستمتاع بها حتى يكفر وعلى القاضي أن يجبره على التكفير دفعاً للضرب عنها بحبسه، فإن أبى يضربه ولا يضرب في الدين ولو قال قد كفرت صدق ما لم يعرف بالكذب كذا في الفتح القدير.

مسألة:

يجزىء الرقبة الكافرة والمسلمة والذكر والأنثى والصغيرة والكبيرة لإطلاق الرقبة وقال مالك والشافعي وأحمد في رواية لا يجزىء إعتاق الرقبة الكافرة حملا للمطلق هاهنا على المقيد الوارد في كفارة القتل، قلنا: المطلق يجري على إطلاقه والمقيد على تقييده ولا وجه لحمل أحدهما على الأخرى وبسط هذا الكلام في أصول الفقه.

مسألة:

لا يجزىء العمياء ولا مقطوعة اليدين أو الرجلين أو يد ورجل من جهة واحدة أو مقطوعة إبهامي اليدين أو مقطوعة ثلاث أصابع سوىٰ الإبهام من كل يد ومقطوعة إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف والصماء التي تسمع إذا صيح يجزىء وإلا لا والحاصل إن فاتت جنس المنفعة لا يجزىء والمختلة تجزىء.

مسألة

لا يجوز عتق المدبر من الكفارة ولا أم الولد لكون رقهما ناقصاً وكذا المكاتب الذي أدى بعض كتابته وإن لم يؤد شيئاً جاز خلافاً فاللشافعي.

مسألة:

من اشترى أباه أو ابنه ينوي بالشراء الكفارة جاز عنها وكذا لو وهب له ونوى عند قبول الهبة خلافاً للشافعي ولو ورث ونوى عند موت مورثه لا يجوز اتفاقاً والحاصل أنه إذا دخل في ملكه بصنعه ونوى عند صنعه ذلك أنه للكفارة أجزاء وإلا لا.

مسألة:

لو قال إن دخلت الدار فأنت حر ونوى عن الكفارة فإن نوى وقت اليمين جاز وأن

نوى وقت الدخول لا يجوز ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ الضمير يرجع إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها المراد بالتماس المجامعة، وفيه دليل على أن الكفارة شرط الحل الاستمتاع وأن الظهار يوجب الحرمة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الحكم بالكفارة قبل المسيس ﴿تُوعَظُونَ﴾ ليزيل الحرمة الثابتة بالظهار أو لئلا يعود إلى الظهار مخافة الفرقة أو لأن إيجاب الكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيتعظوا بإيجاب الكفارة عن إرتكاب الظهار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا يقدر على اكتسابها بالشراء إما بفقد قيمتها أو بفقد رقبة يمكن تملكها بالشراء أو لكون ماله مشغولاً بالدين أو محتاجاً إليه لنفقته أو لنفقة عياله عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد خلافاً لمالك والأوزاعي فعندهما من ملك قيمة رقبة ويمكنه شراها يلزمه الإعتاق وإن كانت قيمة مشغولة بدينه أو محتاجاً إليه لنفقته ولا يجوز له الإنتقال إلى الصوم، لنا: أنه مشغول بحاجته الأصلية فكأنه ليس في ملكه مسألة ومن كانت له رقبة لكنه محتاج إلى خدمته فعند الشافعي وأحمد له أن ينتقل إلى الصوم إعتباراً بالماء المعد للعطش يجوز له التيمم والمال المشغول بالدين وعندنا يلزمه الإعتاق ولا يجوز الإنتقال إلى الصوم، والفرق لنا أن الماء مأمور بإمساكه لعطشه وإستعماله محظور عليه وكذا الدين مأمور بادائه بخلاف الخادم فإنه غير ممأمور بإمساكه لخدمته مسألة: المعتبر اليسار والعسار وقت التكفير أي الأداء وبه قال مالك وقال أحمد والظاهرية وقت الوجوب وللشافعي أقوال كالقولين والثالث يعتبر أغلظ الحالين ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي فعليه صيام شهرين ليس فيها رمضان ولا يوم الفطر والنحر وأيام التشريق لأن صوم رمضان لا يقع من الظهار لما فيه من إبطال ما أوجبه الله، وصوم الأيام المنهية لا ينوب عن الوجوب الكامل وقد قيد الله تعالى: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ فإن فاتت التتابع بعذرا وبلا عذر يجب الإستئناف إجماعاً وإن وطىء المظاهر في خلال الشهرين ليلاً عامداً أو نهاراً ناسياً لا يجب الاستئناف عند الشافعي وأبي يوسف رحمهما الله تعالى وهي رواية عن أحمد لعدم فوات التتابع وهو الشرط وإن كان تقديمه على المسيس شرطاً ففي عدم الاستئناف تقديم البعض وفي الاستئناف تأخير الكل عنه، وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد في أظهر رواية يستأنف لأن الشرط في الشرط في الصوم أن يكون قبل المسيس وأن يكون خالياً عن الجماع فيستأنف ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام لمرض أو كبر أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع أو خوف حدوث مرض ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ كل مسكين مدان عند أهل العراق وهو نصف صاع من أي جنس كان قال البغوي يروى ذلك عن عمر وعلي وعند أبي حنيفة نصف صاع من برأو صاع من شعير أو تمر وهو قول الشعبي

والنخعي وسعيد بن جهير والحاكم ومجاهد والكرخي بإسناده إلى مجاهد أنه قال كل كفارة في القرآن فهو نصف صاع من بر وقال مالك مد وهو رطلان بالبغدادي، وقال أحمد مد بغدادي من حنطة أو دقيق ومدان من شعير أو تمر ورطلان من خبز أي خبز حنطة، وقال الشافعي مد بمد النبيّ ﷺ وهو رطل وثلث رطل من غالب قوت البلد، روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن سليمان بن يسار قال أدركت الناس وهم يعطون في طعام المساكين مدا مدا ويروى أن ذلك يجزىء عنهم، والحجة لأبي حنيفة ما مر من حديث سلمة بن صخر وفيه «أطعم منك وسقاً من تمر ستين مسكيناً» لكن الحديث منقطع كما ذكرنا، وقد روى الترمذي من حديث أبي سلمة أن سلمة بن صخر البياضي جعل امرأته كظهر أمه حتى يمضي رمضان الحديث، وفيه قال أطعم ستين مسكيناً» قال لا أجد قال رسول الله ﷺ لعروة بن عمرو: «أعطه الفرق[1]» وهو مكتل يأخذ خمسة عشر صاعاً ليطعم ستين مسكيناً، ويمكن أن يقال أن قوله وهو مكتل يأخذ خمسة عشر صاعاً أو ستة عشر صاعاً من كلام الراوي والمرفوع إنما هو أعطه الفرق والفرق في اللغة الزنبيل سواء كان صغيراً أو كبيراً وعند الطبراني في حديث أوس بن الصامت قال فأطعم ستين مسكيناً ثلاثين صاعاً قال لا أملك ذلك إلا أن تعينني فأعانه النبيّ ﷺ بخمسة عشر صاعاً وأعانه الناس حتى بلغ ثلاثين صاعاً، وروى أبو داود عن خولة بنت مالك قالت ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه ورسول الله ﷺ يجادلني فيه ويقول إتقي الله فإنه ابن عمك فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ الآية فقال يعتق رقبة فقلت لا يجد فقال يصوم شهرين متتابعين، قلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال فيطعم ستين مسكيناً، قلت ما عنده شيء يتصدق به قال فإني سأعينه بفرق من تمر قلت يا رسول الله وإني سأعينه بفرق من تمر قلت يا رسول الله إني سأعينه بفرق آخر قال قد أحسنت فاذهبي فأطعمي هما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك قال والفرق ستون صاعا وقيل هو مكتل يسع ثلاثين صاعاً[2] قال أبو داود وهذا أصح. قال ابن همام وجه الأصحية أنه لو كان ستين لم يحتج إلى معاونتها بفرق أخرى في الكفارة واحتج الشافعي ومن معه بحديث أبي هريرة في كفارة الصوم جاء رجل إلى النبيّ ﷺ أفطر في رمضان الحديث قال فأتى بفرق قدر خمسة عشر صاعاً قال كله أنت وأهلك وصم يوماً

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في كفارة الظهار (١٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢١٥).

واستغفر الله رواه أبو داود من طريق هشام بن سعد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عنه وهشام بن سعد ضعفه النسائي وغيره ورواه أبو داود من حديث إسماعيل قال واقعت امرأتي الحديث وفيه قال خمسة عشر صاعاً وكذا وقع في رواية ابن أبي حفصة ومؤمل قال البخاري منكر الحديث لكن قال الذهبي ومحمد بن أبي حفصة أبو سلمة ضعفه النسائي وغيره وقواه غير واحد في رواية حجاج بن أرطأة عن الزهري عند الدارقطني بخمسة عشر صاعاً فقال أطعمه ستين مسكيناً وحجاج بن أرطأة ضعيف مدلس وروى عبد الله بن أحمد عن أبيه عن يحيى أنه لم ير الزهري ويؤيد هذا الحديث حديث علي(رض) عند الدارقطني يطعم ستين مسكيناً لكل مسكين مد وفيه فإن بخمسة عشر صاعاً فقال أطعمه ستين، قلنا: قال البخاري في الحديث اضطراب ففي بعض الروايات خمسة عشر صاعا وعند ابن خزيمة من طريق مهران خمسة عشر أو عشرون في الصحيحين ذكر حديث أبي هريرة وليس فيه تقدير الصيعان بل فيه أتى بفرق فيه تمر والفرق المكتل الضخم وفي مرسل سعيد بن المسيب ما بين خمسة عشر إلى عشرين وفيه عطاء الخراساني ذكره العقيلي في الضعفاء وقال البخاري عامة أحاديثه مقلوبة، وفي بعض الروايات عشرون صاعاً بالجزم كذا عند الدارمي في مرسل سعيد بن المسيب وفي حديث عائشة عند ابن خزيمة أتى بفرق فيه عشرون صاعاً وهذه الأحاديث واردة في كفارة الصوم ما احتج به أبو حنيفة وارد فيما نحن فيه، والشافعي رحمه الله تعالى ذهب إلى أقل ما ورد في مقدار الطعام احتياطاً ولكن أصح ما ورد في تقدير طعام المسكين حديث كعب بن عجرة الذي ذكرناه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[1] رواه الشيخان في الصحيحين وفيه أمره رسول الله ﷺ أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة أصوع، وفي هذا الحديث عند الطبراني لكل مسكين نصف صاع تمر ولأحمد عن نهر نصف صاع ولبشر بن عمر عن شعبة نصف صاع حنطة ورواية الحكم عن ابن أبي ليلى يقتضي نصف صاع من زبيب فإنه قال يطعم فرقاً من زبيب بين ستة مساكين، قال ابن حزم لا بد من ترجيح إحدى الروايات لأنها قصة واحدة في مقام واحد، قال الحافظ: المحفوظ عن شعبة نصف صاع من طعام والإختلاف على كونه تمر أو حنطة لعله من تصرف الرواة أما الزبيب فلم أره إلا في رواية الحكم وقد أخرجها أبو داود وفي إسناده أبو إسحاق وهو في المغازي لا في الأحكام إذا خالف وقيل المحفوظ رواية التمر فقد وقع الجزم بها عند مسلم من طريق أبي قلابة ولم يختلف فيه على أبي قلابة وكذا أخرج الطبراني

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

من طريق الشعبي عن كعب، وقال الحافظ وما وقع في بعض النسخ عند مسلم لكل مسكين صاع تحريف فمن دون مسلم والصواب ما في النسخ الصحيحة لكل مسكين نصف صاع ولما كان الإطعام في الآية مجملاً في مقدار الواجب وما ورد من الأحاديث في باب الظهار والصوم مضطربة في المقدار، فالحمل على هذا الحديث الصحيح المتفق عليه أولى من الحمل على صدقة الفطر فإن الأمر فيه بالأداء دون الإطعام فعلى هذا مذهب أهل العراق أقوى ومذهب أبي حنيفة أحوط والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو غداهم وعشاهم أكلتين مشبعتين بخبز حنطة ولو بغير إدام أو بخبز شعير بإدام سواء كانت غداء وعشاء أو غدائين أو عشائين بعد اتحاد ستين جاز ولو غدا ستين وعشا آخرين لم يجز ولو كان ممن أطعم صبياً فطيماً أو رجلاً شبعان لم يجز ويشترط الإشباع قليلاً أكلوا أو كثيراً ولا يشترط التمليك خلافاً للشافعي ولو أعطى مسكيناً واحداً ستين يوماً جاز عند أبي حنيفة خلافاً للجمهور وقد مرت المسائل اختلافاً واستدلالاً في كفارة اليمين في سورة المائدة.

فائدة:

لم يذكر الله تعالى قيد من قبل أن يتماسا في الإطعام كما ذكر في أخويه ومن هاهنا قال أبو حنيفة أنه جامع المظاهر التي ظاهر منها في خلال الإطعام لا يجب عليه الاستئناف لأن الله سبحانه ما شرط في الإطعام أن يكون قبل المسيس ونظر إلى عدم تقيد الإطعام بقبلية المسيس قال مالك إنه من أراد التكفير بالإطعام جاز له الوطء، والجمهور على أنه لا يجوز له ذلك والوطء قبله الجمهور على أنه يجوز له ذلك الوطيء قبل التكفير حرام مطلقاً لأن الظهار موجب للحرمة والكفارة سبب لإزالة الحرمة فما لم توجد الكفارة لا يحل له الوطء سواء كانت بالإطعام أو غير ذلك، لعموم قوله ﷺ فاعتزلها حتى تكفر فيها، روى أصحاب السنن الأربعة عن ابن عباس(رض) أن رجلاً ظاهر من امرأته فوقع عليها قبل أن يكفر فقال عليه السلام ما حملك على هذا؟ قال رأيت خلف لها في ضوء القمر، وفي لفظ بياض ساقيها، قال «فاعتزلها حتى تكفر»[1] قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب قال المنذر رجاله ثقات مشهور سماع بعضهم عن بعض، قال البغوي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢٢٠).

الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام وهذا مبني على أصلهم من حمل امطلق على المقيد قلت قوله تعالى من قبل أن يتماسا في الإعتاق والصيام ليس شرطاً لجواز الكفارة وإلا لزم أن من جامع امرأته بعد الظهار قبل الكفارة ثم كفر بعد فلك لا يجوز كفارته ولا تحل له المرأة بل هو بيان لحرمة الوطء قبل الكفارة ولعله سبحانه ترك القيد بعد الإطعام حذراً من التطويل واكتفاء بما سبق في أخويه ولم يقتصر على أحدهما الدفع توهم إختصاصه بالخصلة الأولى لو اقتصر عليه معها وتوهم اختصاصه لو اقتصر معها فذكره مرتين تنبيه على إرادة تكريره مطلقاً والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو جامع المظاهر قبل التكفير إستغفر الله لوقوعه في الحرم ويكفر بعد ذلك ليحصل له الحل بعد ذلك ويرتفع الحرمة الثابتة بالظهار ولا يجب عليه بالجماع قبل التكفير كفارة أخرى وقال بعض أهل العلم، يجب عليه كفارتان، لنا ما مرّ من حديث سلمة بن صخر أن النبيّ ﷺ أمرها بكفارة واحدة بعدما جامعها قبل التكفير وحديث ابن عباس مثل ذلك، وروى الترمذي وابن ماجه حديث سلمة بن صخر عن النبيّ ﷺ في مظاهر بواقع قبل أن يكفر قال: «كفارة واحدة»[1] وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال مالك في الموطأ فيمن يظاهر ثم يمسها قبل أن يكفر يكف عنها حتى يستغفر الله ويكفر ثم قال وذلك أحسن ما سمعت ﴿ذَٰلِكَ﴾ منصوب بفعل مقدر أى بينا ذلك الأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ذكر الله سبحانه الإيمان وأراد به شراءه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[2] أي صلاتكم يعني لتعملوا بشرائع الإسلام ترفضوا ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿وَتِلْكَ﴾ الكفارات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ يمتنع بها المكلف عن إتيان المحرمات من الظهار ونحوه أو المعنى تلك الأحكام حدود الله لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقبلون أحكام الله تعالى ولا يمتنعون عن المحرمات ويتجاوزون عن حدوده ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في عدة المتوفى عنها زوجها (١١٩٥).

(٢) الآية هي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا
هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا
جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ
يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، فإن كلاً من المتعادين في حد غير حد الآخر والمعنى يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما ﴿كُبِتُوا۟﴾ قال في القاموس كبته يكبته صرعه وآخزاه وصرفه وكسره ورد العدو بغيظه أذله والمكبت الممتلىء غماً ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار الأمم الماضية ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ دالة على صدق الرسول الله ﷺ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوب بالظرف المستقر أعني للكافرين أو بمهين أو بإضمار أذكر تعظيماً لليوم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد للضمير المنصوب في يبعثهم أو حال منه أي مجتمعين ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ على رؤوس الأشهاد تفضيحاً لهم وتقريراً لعذابهم ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ يعني أحاط الله ما عملوا علماً لم يغب منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرته أو لتهاونهم به عند ارتكابه وإنما يحفظ من الأمور ما يستعظم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يعزب عنه شير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إستفهام إنكار بمعنى تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً ﴿مَا يَكُونُ﴾ من كان التامة أي ما يقع من ﴿نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ قرأ أبو جعفر تكون بتاء التأنيث نجوى والباقون بالياء لأجل الفصل بمن الزائدة والنجوى اسم مصدر كذا في القاموس مشتق من النجاة وهي ما ارتفع من الأرض فإن السرائر مرفوع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه والمعنى ما يقع من تناجي من الرجال ويجوز أن يقدر مضاف أو بأول نجري بمتناجين ويجعل صفة لها ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ استثناء مفرغ حال من ثلاثة يعني في حال من الأحوال إلا حال كون الله تعالى جاعلهم أربعة من حيث أنه

معهم غير متكيفة وشريكهم في الإطلاع ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ تخصيص العددين إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين أو لأن الله وتر والله يحب الوتر والثلاثة أول الأوتار التي يمكن فيها التشاور لأن التشاور لا بد له غالباً من المتنازعين وواحد يتوسط بينهما ويرجح رأي أحدهما والمتنازعين إما يكون من كل جانب واحداً فالمجموع ثلاثة وإما يكون جماعة وأدنى الجماعات اثنان فالمجموع خمسة، فذكر العددين وأشار إلى غيرهما من الأعداد بقوله ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعني أقل عدداً من الثلاثة كالإثنين ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من الثلاثة أو من الخمسة كالأربعة والستة وما فوقها قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على محل نجوى قبل دخول من أو محل أدنى إن جعلت لا لنفي الجنس ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ معية غير متكيفة مقتضية للإطلاع على ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ فإن عمله تعالى ليس لقرب المكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريرا لما يستحقونه من الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه تعالى هو الخالق للذات والصفات من اعلوم وغيرها والمقلب للأحوال، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال كان بين اليهود وبين النبيّ ﷺ موادعة فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره، وذكر البغوي نحوه وزاد وإن المؤمنين حين يرونهم يتناجون كانوا يقولون ما نريهم إلا وقد بلغنهم من إخواننا الذين خرجوا في السرايا بقتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم فيحزنهم فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم النبيّ ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظرنا يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي المناجات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ مضارع بمعنى الماضي أي عادوا عطف علي نهوا وإيراد صيغة المضارع لإستحضار صورة العود الشنيعة ﴿لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لم ينتهوا ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ عطف على يعودون، قرأ حمزة يتنجون وهو يفتعلون من النجوى والباقون على وزن يتفاعلون ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثم عند الله وعدوان على المؤمنين وتواص بمعصية الرسول وكان نفس النجوى أيضاً معصية للرسول فإنه عليه الصلاة والسلام نهاهم عنه، أخرج أحمد والبزار بسند جيد عن ابن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليكم ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهو قولهم السام عليكم والسام الموت وهم يوهمونه أنهم يقولون السلام عليكم ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني فيما بينهم إذا أخرجوا من عند النبيّ ﷺ أو يقولون في قلوبهم ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ من التحية وأنه ليس

نبي إن كان نبيا عذبنا الله به قال الله عز وجل ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من ضمير حسبهم ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم، عن عائشة قالت إستأذن رهط من اليهود على النبيّ ﷺ فقال السام عليكم فقلت بل عليكم السام واللعنة فقال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» قلت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال قد قلت وعليكم[(١)]» وفي رواية عليكم ولم يذكر الواو متفق عليه، وفي رواية البخاري قالت إن اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا السام عليكم قال وعليكم فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش» قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمع ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» وفي رواية لمسلم: «لا تكوني فاحشة فإن الله لا يحب الفحش»، وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليكم»[(٢)]، متفق عليه وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليكم**» متفق عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل يعني الذين آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم وهم المنافقون وقال عطاء يريد الذين آمنوا بزعمهم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كما يفعله اليهود ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ باداء الفرائض والطاعات وما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي الإحتراز من معصية الرسول ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تفعلون وتتركون، فإنه مجا«يكم، أخرج ابن جرير عن قتادة قال كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك بغيظ المؤمنين ويكبر عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ الذي يأتونه لغيظ المؤمنين وحزنهم ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه المزين لها وحاملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره يتناجون ليحزن أو يزين الشيطان النجوى ليحزن أو متعلق بالظرف المستقر يعني كائن من الشيطان ليحزن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوهمهم لوصول مكروه ﴿وَلَيْسَ﴾ النجوى أو الشيطان ﴿بِضَارِّهِمْ﴾ أي المؤمنين ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بقضائه ومشيئته، الجملة حال من فاعل الظرف المستقر ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الفاء في فليتوكل جواب أما المحذوفة تقديره وأما على الله فليتوكل المؤمنون ولا يبالوا بنجواهم، عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام (٦٢٥٧) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٤).

دون الثالث إلا بإذن فإن ذلك يحزنه» رواه البغوي وروى أحمد والشيخان والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس فإن ذلك يحزنه»[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قال البغوي قال مقاتل بن حبان كان النبيّ ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء أناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبيّ ﷺ فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك من أقيم من مجلسه وعرف النبيّ ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنها أنزلت يوم جمعة وقد جاء ناس من أهل بدر فذكر نحوه، وقال البغوي قال الكلبي نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكر في سورة الحجرات قصته، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً مجلسهم عند رسول الله ﷺ فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ توسعو أو ليقسحوا بعضكم عن بعض من قولهم أفسح عني أي تنحَ ﴿في المجالس﴾ قرأ عاصم على صيغة الجمع بالألف والباقون الممجلس بغير ألف على التوحيد والمراد بالمجلس حينئذ الجنس أو مجلس رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يتنافسون على القرب من النبي ويحرصون على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة (٦٢٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: لا يتناجى اثنان دون الثالث (٣٧٧٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث (٢٨٢٥).

استماع كلامه ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي يوسع الله لكم فيما تريدون الوسعة من المكان والرزق والصدر ويوسع لكم الجنة، روى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمر قال: رسول الله ﷺ: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا» وروي أيضاً من طريق الشافعي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا» وقال أبو العالية والقرظي والحسن هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال كان الرجل يأتي القوم في الصيف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ قرأ نافع وابن عمرو وعاصم بخلاف عن أبي بكر بضم الستين فيها ويبتدؤن بهمزة الوصل والباقون بكسر السين ويبتدؤن بكر الهمزة، والمعنى ارفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم، وقال البغوي قال عكرمة والضحاك كان رجال يتثاقلون عن الصلاة إذا نودي بها فأنزل الله هذه الآية معناه إذا نودي للصلاة فانهضوا لها، وقال مجاهد وأكثر المفسرين معناه إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة إلى الجهاد وإلى كل خير وحق فقوموا لها ولا تقصروا ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ بالنصر وحسن الذكر ومهابتهم في أعين الناس وغير ذلك في الدنيا وإيوائهم في غرف الجنان في الآخرة ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ العلماء منهم خاصة ﴿درجات﴾ تميز من نسبة الرفع إلى المفعول تقديره يرفع الله درجات الذين آمنوا في الجنة بما جمعوا من العلم والعمل فإن العمل إذا صدر من أهل العلم يؤتي من الأجر ما لا يؤتي غيره لأنه يعتدىٰ به دون الجاهل فله أجره وأجر من يقتدي به من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(١) الحديث رواه مسلم من حديث جرير، قال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن عن كثير بن قيس وسماه الترمذي قيس ابن كثير قال: قال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

على العابد كفضل الأعلى على أدناكم»[١] رواه الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده فقال: «كلاهما على خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منهم أما هؤلاء فيتعلمون الفقه أو العلم ويعلمون الجاهل منهم أفضل وإنما بعثت معلماً ثم جلس فيهم» رواه الدرامي، قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: أيها الناس افهموا هذه الآيه ولترغبكم في العلم فإن الله يقول يرفع الله المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا من الإكرام والنبي ﷺ مصيب فيما أمر وأولئك المؤمنون مثابون فيما ائتمروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه،فيه ترغيب لمن عمل وتهديد لم يمتثل الأمر واستكرهه أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن مسلمين أكثروا المسائل على رسول ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾ الرسول ﴿صَدَقَةً﴾ وقال البغوي قال مقاتل بن حبان نزلت في الأغنياء وذلك أنهم يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، وقال ابن عباس في رواية ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، قال البغوي: انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل اليسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت الرخصة، قال مجاهد: نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي رضي الله عنه تصدق بدينار وناجاه ثم نزلت الرخصة وكان علي يقول آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل أحد بعدي وهي آية المناجاة، وروى ابن أبي شيبه في مصنفه والحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه: إن في كتاب الله آية فما عمل بها أحد غيري كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم، وذكر في المدارك عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم وسألت رسول الله ﷺ عشر مسائل فأجابني عنها قلت يا رسول ما الوفاء، قال: التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، قلت ما الفساد؟ قال: الكفر بالله والشرك، قلت: ما الحق؟ قال: الإسلام والقرآن والولاية وإذا اهتبت إليك، قلت ما الحيلة؟ قال ترك الحيلة، قلت ما عليّ؟ قال: طاعة الله ورسوله قلت وكيف أدعوا الله؟ قال بالصدق

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥)، بلفظ «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».

واليقين، قلت وماذا أسأل، قال: العافية قلت ما أصنع لنجاة نفسي قال كل حلالاً وقل صدقاً قلت ما السرور؟ قال الجنة، قلت ما الراحة؟ قال لقاء الله، فلما فرغت منها نزل نسخها ﴿ذَٰلِكَ﴾ التصدق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حب المال ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لذنوبكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ الصدقة لأجل الفقر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ رخص للفقراء وأجاز لهم المناجاة من غير تصدق كأن هذه الجملة مخصص لما سبق من عموم الحكم، وأخرج الترمذي وحسنه عن علي(رض) قال لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبيّ ﷺ ما ترى دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال فكم؟ قلت: شعيرة قال «إنك لزهيد» فنزلت[(١)] ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ استفهام للتقرير والمعنى خفتم الفقر من ﴿أَن تُقَدِّمُوا﴾ أو المعنى خفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ ما جمع الصدقات لجمع المخاطبين أو لكثرة التناجي قال عليّ فيها روى الترمذي عنه فخفف الله عن هذه الآية ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ التصدق لأجل الفقر أو البخل ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ تجاوز عنكم ولم يعاقبكم أو المعنى رجع بكم عنها وخفف بنسخ الصدقة ورخص لكم أن لا تفعلوه وفيه إشعار بأن إشفاقكم ذنب تجاوز الله عنه وإذ هنا بمعناه، وقيل تقدير الكلام فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم تجاوز عنكم ونسخ الصدقة، قال مقاتل بن حبان كان ذلك عشر ليال، وقال الكلبي ما كانت إلا ساعة من النهار ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ولا تهاونوا في أدائها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر ودوموا عليها فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً فيجازيكم عليه.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

روى أحمد والبزار وابن جرير والطبراني والحاكم من حديث ابن عباس أنه ﷺ كان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المجادلة (٣٣٠٠).

في حجرة من حجراته وفي رواية كان في ظل حجرة وقد كان الظل يتقلص فقال «يدخل عليكم رجل جبار» وفي رواية «قلبه قلب جبار وينظر بعيني الشيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور، فدعاه رسول الله ﷺ فقال حين رآه على ما تشتمني أنت وأصحابك فقال ذرني آتك فانطلق فدعاهم فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا فأنزل الله هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تنظر إستفهام للإنكار وإنكار النفي تقرير للإثبات ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ والمراد بالموصول المنافقون وهم عبد الله ابن نبتل وأصحابه وبقوم غضب الله عليهم اليهود فهم والوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسراء النبيّ ﷺ ﴿مَّا هُم﴾ ويعني المنافقين ﴿مِّنكُمْ﴾ في الدين والولاية ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود جملة ما هم منكم حال من الموصول ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عطف على تولوا ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ وهو إدعاء الإسلام ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من فاعل يحلفون يعني يحلفون عالمين بأنهم كاذبون لا كمن يحلف خطأ زعما منه أنه صادق فيما يقول، قال السدي ومقاتل نزلت في عبد الله المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله ﷺ في حجرة فدائر نحو حديث ابن عباس المذكور وفيه فحلف بالله ما فعل وجاء باصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الماضي فتحزنوا على سوء العمل وأصروا عليه ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ جملة مستأنفة أو حال من فاعل يحلفون بتقدير قد ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقاية لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناس في خلال أمنهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان، وقيل المعنى فصدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر بعذابهم أو وعيد آخر بعذابهم فوق عذابهم الأول لكفرهم والثاني لصدهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾(١) وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء جملة لن تغنى صفة أخرى بعذاب بحذف الرابط تقديره لهم عذاب مهين لن تغنى عنهم في دفعه أموالهم أو مستأنفة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ الظرف متعلق بقوله فلهم عذاب مهين ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي الله تعالى يقولون والله ربنا ما كنا مشركين كما ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إنهم منكم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحيلة للنجاة ويزعمون أن الأيمان الكاذبة ترفع على الله كما تروح عليكم في الدنيا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ الباقون الغاية في الكذب فأنهم يكذبون مع عالم الغيب

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٨.

حيث لا ينفعهم الكذب ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ غلب وإستولى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ جملة مستأنفة ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ وأغفلهم عنه تعالى بحيث لا يخافون عذاب الله ولا يزعمون أن الله مجازيهم وأنه يعلم سرهم وخفاياهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنوده وأتباعه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم فوقوا حظهم وبدلوا نصيبهم من الجنة بالنار المؤبدة وقد ورد في الحديث الطويل عن أبي هريرة مرفوعاً «إن الكافر في القبر يفرج له فرجة، قبل الجنة فينظر إلى زينتها وما فيها فيقال له انظر إلى ما صرفه الله عنك ثم يفرج له فرجة إلى النار فينظر إليها يحطم بعضها فيقال له هذا مقعدك» رواه ابن ماجه وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾»(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي في جملة، من هو أذل خلق الله تعالى لا يرى أحد أذل منهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح قضاء ثابتاً ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الياء والباقون بالإسكان قوله لأغلبن جواب قسم محذوف أويقر لما كان كتب لإفادة اللزوم بمعنى القسم أورد في جواب اللام، قال الزجاج غلبة الرسل على نوعين من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب ومن لم يؤمن بالحرب فهو غالب بالحجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ لا يمتنع عنه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه أحد ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ مفعول ثان لتجد إن كان بمعنى العلم وإن كان بمعنى المصادفة فهو حال أو صفة ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذه الآية تدل على أن إيمان المؤمن يفسد بموادة الكافرين وأن المؤمن لا يوالي الكفار وإن كان قريبه، قيل نزلت الآية في أبي حاطب بن بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وسيأتي القصة في سورة الممتحنة إن شاء

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١).

الله تعالى وأخرج ابن المنذر عن أبي جريج قال حدثنا أن أبا قحافة سب النبيّ ﷺ فصكه أبو بكر صكة فسقط فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال أفعلت يا أبا بكر فقال والله لو كان السيف قريباً مني لضربته به فنزلت ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شودة قال نزلت هذه الآية في أبي عبيد بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، وأخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر وجعل أبو عبيدة تحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت، وروى مقاتل بن حبان عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ أو أبنائهم﴾ يعني أبا بكر ابنه يوم بدر إلى البراز فقال دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الأولى فقال له رسول الله ﷺ متعناه بنفسك يا أبا بكر ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام ابن المغيرة يوم بدر وعليا وحمزة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لم يوادوهم ﴿كَتَبَ﴾ أي أثبت ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي التصديق فهي موقنة لا تدخل فيها الشك ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ بروح منه أي بنور من عند الله وبنصره سمي بنصره إياهم روحاً لأن أمرهم يحيى به وقال السدي يعني بالإيمان، وقال الربيع يعني بالقرآن وحججه وقيل برحمة منه وقيل أيدهم لجبرئيل ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعة والجملة بتقدير قد حال من فاعل يدخلهم أو من مفعوله ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ﴾ بثوابه بحسبهم في الآخرة أو بما قضى الله تعالى عليهم في الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وجنده وأنصار دينه يتبعون أمره وينهون عما نهى عنه ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدنيا والآخرة الآمنون من كل مرهوب.

سورة الحشر

آياتها أربع وعشرون وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

في الصحيحين عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس(رض) سورة الحشر قال قل سورة النضير[(١)]، وأخرج البخاري عنه أن سورة أنفال نزلت في بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بيان للموصول يعني بني النضير كانوا من أولاد هارون عليه السلام ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي كانت لهم بالمدينة، قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني نضير عند مرجع النبيّ ﷺ من أحد وفتح قريظة عند مرجعه عن الأحزاب وبينهما سنتان. وسبب إخراجهم أن النبيّ ﷺ لما دخل المدينة صالح بنو النضير على أن لا تقاتلوه ولا تقاتلوهن معه فقبل ذلك رسول الله ﷺ منهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً أو ظهر على المشركين، قالت بنو النضير والله النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحد وانهزم المسلمون إرتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف من بني النضير في أربعين راكباً من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير (٤٠٢٩).

اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن يكون كلمتهم واحدة على محمد ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب في أربعين من اليهود المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبرئيل فأخبر النبيّ ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان وأمر النبيّ ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلم ذكرنا قصة قتله في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[1] وكان النبيّ ﷺ اطلع منهم على خيانات منها أنهم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك كلنا فلما كان الغد غدا إليهم رسول الله ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعضهم لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله فأرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون رجلاً أخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة من أصحابه وخرجت ثلاثة من اليهود واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك رسول الله ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، روى القصة أبو داود والبيهقي وعبد ابن حميد وعبد الرزاق بإسناد صحيح، وذكروا حديثاً طويلاً وفيه أن بني النضير فعلوا ذلك الغدر حين كتب إليهم قريش بعد وقعة بدرانكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لتفعلن كذا وذكر البغوي هذه القصة، وقال بعد ذلك فلما كان الغد غدا إليهم رسول الله ﷺ بالكتاب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ومن خياناتهم أن النبيّ ﷺ لما أتاهم يستعين في دية الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضميري في منصرفه من بئر معونة فهمت اليهود أن يطرحوا على رسول الله ﷺ حجراً من فوق الحصن فعصمه الله تعالى وأخبره به ذكرنا القصة في سورة المائدة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾[2] الآية ذكر ابن حميد عن عكرمة أن الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

سبحانه لما أخبر نبيه بذلك ورجع نبي الله ﷺ إلى المدينة قال لهم كنانة بن صوريا هل تدرون لم قام محمد قالوا لا والله ماندري وما تدري أنت، قال بلى والتوراة إني لأدري قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر فلا تخدعوا أنفسكم والله إنه رسول الله وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم وأنه لآخر الأنبياء وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون فجعله الله حيث شاء وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغيرو لم تبدل أن مولده بمكة وأن دار هجرته يثرب وصفته بعينها ما يخالف حرفاهما في كتابنا ولكني أنظر إليكم طاعنين يتضاعى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفاً أموالكم وإنما هي شرفكم فأطيعوني في خصلتين والثلاثة لا خير فيها قال ما هما قال: تسلمون وتدخلون مع محمد فتأمنوا على أموالكم وأولادكم وتكونوا على ما عليه أصحابه ويبقى بأيديكم أموالكم ولا تخرجون من دياركم قالوا لا نفارق التوراة وعهد موسى، قال فإنه مرسل إليكم أخرجوا من بلدي فقولوا نعم دماً ولا مالاً فإنه لا يستحل لكم دمار ولا مالا ويبقى أموالكم إن شئتم بعتم وإن شئتم أمسكتم قالوا أما هذه فنعم، قال سلام بن مشكم قد كنت لما صنعتم كارهاً وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري فلا تعقب ما في كلامه وأنعم له بالخروج من بلده فلما دخل النبيّ ﷺ المدينة أرسل إلى محمد بن مسلمة فلما جاء قال إذهب إلى اليهود بني النضير فقل لهم إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي فلما جاءهم قال إن رسول الله ﷺ أرسله برسالة ولست أذكرها لكم حتى أعرفكم بشيء تعرفونه فقالوا ما هو فقال أنشدكم بالتوراة التي أنزل على موسى هل تعلمون أني جئتكم قبل أن يبعث محمد ﷺ وبينكم التوراة فقلتم لي في مجالسكم هنا يا بْنَ المسلم إن شئت أن نعذبك عذبناك وإن شئت نهودك هودناك فقلت بل عذبوني ولا تهودوني فإني والله ما أتهود أبداً فعذبتموني في صفحة لكم والله لكأني أنظر إليها كأنها خدعة فقلتم لي ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود كأنك تريد الحنيفة التي سمعت بها أما أن أبا عامر الراهب ليس بصاحبها بل صاحبها الضحوك القتال في عينيه حمرة ويأتي من قبل اليمن يركب البعير ويلبس الشملة وتجزى بالكسرة وسيفه على عاتقه ينطق بالحكمة كأنه وسن حَيّكم هذه والله ليكونن بقريتكم هذه سلب وقتل مثل قالوا اللّهم نعم قد قلنا وليس به فاقد، فقلت إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أنكم قد نقضتم الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي وأخبرهم بما كانوا هموا به وظهور عمرو بن جحاش على البيت ليطرح عليه الصخرة ويقول أخرجوا من بلدي وقد أجلكم عشراً فمن رأى بعد ذلك ضربت عنقه فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون وأرسلوا إلى ظهرهم بالحد فبيناهم على ذلك إذا جاءهم رسول عبد الله بن أبي بن سلول

سويد وأعسر فقالا يقول عبد الله بن أبي لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا مع حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم ويمدكم قريظة فإنهم لم يخذلوكم يمدكم حلفائكم من غطفان وأرسل ابن أبي كعب بن أسد القرظي يكلمه أن يمده أصحابه، فقال لا ينقض رجل واحد العهد فيئس ابن أبي أخطب بن قريظة وأراد أن يلحم الأمر فيما بين النضير ورسول الله ﷺ فلم يزل يرسل إلى حيي بن أخطب فقال حيي أنا أرسل إلى محمد أعلمه أن لا يخرج من ديارنا فليصنع ما بدا له وطمع حيي فيما قال ابن أبي، فقال له سلام بن مشكم لولا أن يسفه رأيك لأعتزلتك بمن أطاعني من يهود فلا تفعل يا حيي فوالله إنك لتعلم ونعلم من معك أنه لرسول الله وإن صفته عندنا وإنما لم نتبعه لأنا حسدناه حيث خرج النبوة من بني هارون فلتقبل ما أعطانا من الأمر وتخرج من بلاده وقد عرفت أنك حالفتني في الغدر به فإذا كان أوان التمر جئنا أو جائنا إلى تمرة أو صنع ما بدا له ثم انصرف إلينا فلم يقبل حيي قوله وأرسل حيي أخاه جدي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول: له: إنا لا نبرح من ديارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع وأمره أن يأتي ابن أبي فيخبره برسالته إلى رسول الله ﷺ ويأمره أن يتعمل ما وعده من النضير فلما سمع رسول الله ﷺ رسالة قول جدي بن أخطب أظهر التكبير وكبر المسلمون لتكبيره، وقال حاربت يهود ثم دخل جدي على ابن أبي وهو في بيته ومعه نفر من جلسائه وقد نادىٰ منادي رسول الله ﷺ يأمرهم بالسير إلى بني النضير فدخل عبد الله بن عبد الله بن أبي على ابنه وعلى النفر الذين معه وعنده جدي بن أخطب فلبس درعه وأخذ سيفه وخرج بعد فجاء جدي إلى حيي فقال ما وراءك، قال الشر ساعة أخبرت محمداً ما أرسلت به أظهر التكبير وقال حاربت يهود قال وجئت ابن أبي فلم أر عنده خبراً قال أنا أرسل إلى حلفاء من غطفان فيدخلون معكم فسار النبيّ ﷺ إلى بني النضير واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وصلّى رسول الله ﷺ العصر بفناء النضير فلما أراد رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جدر حصونهم يرمون بالنبل والحجارة واعتزلهم بنو قريظة فلم يعينوهم، فلما صلّى رسول الله ﷺ العشاء رجع إلى بيته في عشرة من أصحابه استعمل على العسكر علياً ويقال أبا بكر وبات المسلمون يحاصرونهم حتى أصبحوا ثم أذن بلال فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلّى بالناس في قضاء بني حطم فأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ نحن نعطيك الذي سألت ونخرج من بلادك فقال رسول الله ﷺ لا أقبله اليوم ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة فقال سلام بن مشكم، أقبل ويحكم قبل أن تقبل شراً من ذلك قال حيي

ما يكون شرا من هذا قال يسبي الذرية ويقتل القاتل مع الأموال والأموال أهون علينا فأبى حيي أن يقبل يوماً أو يومين، فلما رأى ذلك يامين بن عمير وأبو سعيه ابن وهب قال أحدهما لصاحبه والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما تنظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا فنزلا من الليل فأسلما وحرز أموالهما ودمائهما وحاصر رسول الله ﷺ على قول محمد بن عمر بن سعد والبلاذري وأبو معشر وابن حبان خمسة عشر يوماً وقال ابن إسحاق وأبو عمرو ست ليال وقال سليمان التيمي قريباً من عشرين ليلة، وقال ابن الطلاع ثلاث وعشرين ليلة وعن عائشة خمسة وعشرين وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم وكان المسلمون يخربون بأيديهم ويحرقون حتى وقع الصلح ونزلت اليهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة وجعل ما بين الرجل من قيس عشرة دنانير ويقال خمسة أوسق من تمر حتى قتل عمرو بن جحاش غيلة فسر رسول الله ﷺ فقال بنو النضير إن لنا ديوناً على الناس فقال عليه السلام تعجلوا فكان لأبي رافع على أسيد بن حضير عشرين ومائة دينار إلى سنة فصالحه على ثمانين فخرجت بنو النضير حملوا النساء والذرية وما استقلت به الإبل من الأمتعة فكان الرجل يهدم بيته عن إيجاف بابه وقبض رسول الله ﷺ الأموال والحلقة فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، قال ابن عباس صالحهم رسول الله ﷺ على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤا من متاعهم وللنبي ﷺ ما بقي، وقال الضحاك أعطى كل ثلاثة نفر بعيراً ففعلوا ذلك فخرجوا من المدينة إلى الشام أي أذرعات وأريحا إلا أهل ستين آل حقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا الخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ اللام بمعنى الوقت كما في قوله تعالى: ﴿قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِى﴾[1] قال الزهري كانوا في سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى وكان الله عز وجل قدكتب عليهم الجلاء ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وقال ابن عباس ومن شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه فكان هذا أول حشر إلى الشام قال لهم النبيّ ﷺ أخرجوا قالوا إلى أين قال أرض المحشر ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى أرض الشام وقال الكلبي إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب(رض) وقال مرة الهمداني كان أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر وقال قتادة كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا روى البخاري من حديث أنس: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب» من غير ذكر الآية والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم حال من فاعل أخرج ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي بنو النضير عطف على ما ظننتم ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وسلطانه حصونهم مبتدأ ومانعتهم خبر مقدم عليه والجملة خبر أن وتغير النظم وتقديم وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها وزعم أنهم في عزة ومنعة لسببها ويجوز أن يكون مانتهم مبتدأ من القسم الثاني صفة وحصونهم فاعل له والجملة خبر أن أيضاً ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمر الله وعذابه وهو الاضطرار إلى الجلاء ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ حيث ألقى الرعب في قلوبهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الفزع والخوف كذا في القاموس، أو المعنى ألقى فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها كذا قال البيضاوي، وفي القاموس رعبه كمنعه ملأه عطف تفسيري على تتبعهم بيان لجهة إتيان عذابهم ﴿ يُخْرِبُونَ﴾ صفة مصارع بمعنى الماضي أورد لاستحضار صورة بديعة ﴿بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على أيديهم من حيث أن تخريب المؤمنين سبب لبغضهم ونقض عهدهم فكأنهم استعملوهم فيه والجملة حال من الموصول المفعول لأخرج في قوله تعالى هو الذي أخرج الذين كفروا أو بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ كأنه تفسير له أو مستأنفة في جواب ما صنعوا قرأ أبو عمر ويخربون بالتشديد من التفعيل وهو أبلغ لما فيه من التكثير والباقون بالتخفيف من الأفعال وقيل الإخراب التعطيل وترك الشيء خراباً والتخريب أن النبيّ ﷺ صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل فكانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يحتسنونه فيحمونه على بلهم ويخرب المؤمنون باقيها، وقال ابن زيد كانوا يقلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد ويخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً وبغضاً وقال قتادة كان المسلمون يخربون ما يليهم ويخربها اليهود من داخلها قال ابن عباس كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع لهم المقاتل وجعلوا أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى بعدها فيتحصنون فيها ويكسرن ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ الآية ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ﴾ فانظروا واتعظوا بما نزل بهم ولا تفعلوا من الكفر والفسوق مثل ما فعلوا كيلا ينزل بكم مثل ما نزل بهم من العذاب، استدلوا بهذه الآية على حجة القياس من حيث أنه تعالى أمر بالاعتبار والمجاوزة من أصل إلى فرع لمشاركة بينهما في وصف

يصلح سبباً لذلك الحكم ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يا ذوي العقول والبصائر، قال محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه قال محمد بن عمر حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما خرجت بنو النضير أقبل عمرو بن سعد اليهودي فأطاف بمنازلهم فرأى خراباً ففكر ثم رجع إلى بني قريظة فقال رأيت اليوم عبراً رأيت دار إخواننا خالية بعد ذلك العز والشرف والجلد والرأي الفاضل والعقل البارع قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل وقد وقع قبل ذلك بابن الأشرف بياتاً في بيته أفتادا وقع بابن سنية سيد يهود وأجلدهم وأنجدهم ووقع ببني قينقاع وإجلاءهم وهم جد يهود كانوا أهل عدة وسلاح ونجدة فحصرهم فلم يخرج إنسان رأسه حتى سباهم فكلمهم فيهم فتركهم على أن إجلائهم من يثرب يا قوم لقد رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به علمائنا آخرهم ابن السيان أبو عمير وابن حواس هما أعلم يهود جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه ثم أمرنا باتباعه وأن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينه ودفنا لحبرتنا هذه فأسكت بالقوم فلم يتكلم منهم متكلم فأعاد الكلام أو نحوه وخوفهم بالحرب والسبي والجلاء، فقال الزبير بن باطا والتوراة قد قرأت صفة في كتاب باطا التوراة التي نزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا، فقال له كعب بن سعد ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه قال أنت قال فلِمَ والتوراة جعلت بينك وبينه قط؟ قال الزبير بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناك وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سعدي على كعب فقال أما والتوراة التي نزلت على موسى يوم طور سينا إنه للعز والشرف في الدنيا إنه لعلى منهاج موسى ونزل معه أمته في منزله غداً في الجنة، قال كعب نقيم على عهدنا وعقدنا فلا يخفر محمد ذمتكم وننظر ما يصنع حيي فقد أخرج إخراج ذل وصغار لا فلا أراه يغزو محمداً فإن ظفر بمحمد فهو ما أردنا وأقمنا على ديننا وإن ظفر بحيي فما في العيش خير تحولنا من جواره قال عمرو بن سعدي ولم نؤخر الأمر وهو مقبل؟ قال كعب ما على هذا فوات متى أردت هذا من محمد أجابني إليه قال عمرو بلى والتوراة إنه عليه نعوتاً إذا سار إلينا محمد فاجأنا في حصوننا حتى ننزل على حكمه فيضرب أعناقنا قال كعب بن أسد ما عندي في أمره إلا ما قلت ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً يقول هذا لإسرائيل ولا يعرف لي فضل النبوة لا قدر الفعال، قال عمرو بن سعدي بل لعمري ليعرفن ذلك لك فبينما هم على ذلك لم يزعم إلا بمقدم النبيّ ﷺ قد حلت بساحتهم فقال هذا الذي قلت لك وذلك أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وحاربوه في وقعة الخندق ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي الخروج من الوطن

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي كما فعل بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ جملة مستأنفة يعني إن نجوا من عذاب الدنيا لا ينجون من عذاب النار في الآخرة البتة ﴿ذَٰلِكَ﴾ لحقهم في الدنيا وما كانوا بصدده وما استحقوه من عذاب الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعذبه عذاباً شديداً لأنه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

أخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال لما نزل رسول الله ﷺ بني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها، وذكر محمد بن يوسف الصالحي أنه ﷺ استعمل على قطعها أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام وكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون فقيل لهما ذلك فقال أبو ليلى العجوة أحرق لهم وقال عبد الله بن سلام قد عرفت أن الله سيغنم أموالهم العجوة خير أموالهم فلما قطعت العجوة شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل، فجعل سلام بن مشكم يقول يا حيي العذق من العجوة بفرس فلا يطعم ثلاثين سنة تقطع فأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ كنت تنهى عن الفساد فلم تقطع النخل ووجد بعض المسلمين في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون فساداً فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعها فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ كما فعل أبو ليلى، ما شرطية منصوب المحل مفعول لقطعتم ومن لينة بيان له يعني أي شيء قطعتم حال كونه من لينة فعلتم من اللون ويجمع على الألوان وقيل هو من اللين كذا ذكر في الصحاح. قال البغوي اختلفوا في معنى اللينة فقال قوم النخل كلها لينة خلا العجوة وهو قول عكرمة وقتادة ورواية زاذان عن ابن عباس قال كان النبيّ ﷺ يقطع نخلهم إلا العجوة وأهل المدينة ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لين ولينة وقال الزهري هو ألوان النخل كلها إلا العجوة والبرنية وقال مجاهد وعطية هي النخل كلها من غير استثناء، وقال العوفي عن ابن عباس من النخل وقال سفيان هي كرام النخل وقال مقاتل هي ضرب من

النخل يقال لتمرها اللون وهي شديد الصفرة يرى نواة من خارج يغيب في الضرس وكان من أجود تمر هي أعجب إليهم وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن رصيف وأحب إليهم رصيف ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما فعل عبد الله بن سلام ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني فقطعه وتركه بإذن الله ليس في شيء من ذلك إثم، أخرج البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني نضير وقطع وهي البويرة هذه الآية كذا روى أصحاب الكتب وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن جابر قال رخص قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبيّ ﷺ قالوا يا رسول الله هل علينا إثم فيها قطعنا وتركنا فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾ الله بالإذن في القطع ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اليهود عطف على بإذن الله وعلة لمحذوف، والجملة معطوفة على جملة تقريره وفعلتم أو إذن لكم لنخزيهم على فسقهم بما غاظهم منه.

مسألة:

من هٰهنا قال أبو حنيفة إذا حاصر الإمام حصناً للكفار جاز أن يقطع أشجارهم ويفسد زروعهم وهدم بيوتهم ويحرقها، قال ابن همام هذا إذا لم يغلب على الظن أنهم مأخوذون بغير ذلك فإن كان الظن أنهم مغلوبون وأن الفتح لا بد منه كره ذلك لأنه فساد وفي غير محل الحاجة وما أبيح إلا لها، وقال أحمد لا يجوز قطع أشجارهم إلا بأحد الشرطين أحدهما أن يفعلوا بنا مثل ذلك ثانيهما أن يكون لنا حاجة إلى قطع ذلك لنتمكن من قتالهم، وقال الشافعي يجوز إتلاف بنائهم وشجرهم لحاجة القتال والظفر بهم وكذا إن لم يرج حصولها لنا فإن رجى ندب الترك والدليل على جواز قطع الأشجار هذه الآية والحديثين المذكورين وما روى أحمد عن أسامة بن زيد قال بعثني رسول الله ﷺ إلى قرية قال ائتها صباحاً ثم حرق قال ابن الجوزي احتجاجاً لمذهبه: إنه قد روى أصحابنا أن النبيّ ﷺ كان إذا بعث جيشاً قال لا تعودوا عيناً ولا تعقروا شجراً إلا شجراً يمنعكم من القتال والحديثان يعني حديث ابن عمر وحديث أسامة بن زيد محمولان على ما ذكرنا انتهى كلامه، قلنا لا يجوز على ما ذكر ابن الجوزي لأن بني نضير لم يقطعوا أشجار المدينة قط ولا دليل على كون القطع لحاجة القتال بل الآية صريحة في أن الأمر بالقطع كان لخزي الفاسقين وكبت أعداء الله وكسر شوكتهم لا لغرض آخر لكن الظاهر أن الفتح لم يكن غالباً في الظن حين أمر النبيّ ﷺ بقطع أشجارهم يدل على قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ وما روى أصحاب أحمد حجة على عدم جواز القطع إن صح لا يمكن أن يكون معارضاً لكتاب الله المستلزم للجواز والله أعلم.

قال البغوي فلما ترك بنو النضير رياعهم وضياعهم طلب المسلمون تقسيمهما بينهم كما فعل لغنائم خيبر فبين الله تعالى حكمها وقال ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الفيء الرجوع وأفاء بمعنى عاد، وقال الجوهري الفيء الرجوع إلى حالة محمودة قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ﴾[1] ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ولما كان الرجوع يقتضي سبق الملك قال البيضاوي أفاء بمعنى صير مجازاً وبمعنى رده عليه فإنه كان حقيقياً بأن يكون له عليه السلام لأن الله خلق الإنسان لعبادته وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ما أجريتم على تحصيله من الوجيف بمعنى سرعة السير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه، والمعنى أنه لم يلحق المؤمنين في تحصيل ما أفاء الله من بني النضير من المشقة بالحرب وإيجاف الخيل والركاب حتى يستحقوا الغنائم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ ويقذف الرعب في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط في الظن وتارة بلا وسائط هذه الآية والأحاديث الصحيحة تدل على أن بني نضير كان خالصاً لرسول الله ﷺ ثم صرفه عليه السلام حيث شاء، روى الشيخان الصحيحين عن مالك بن أوس ابن الحدثان النضيري أنه قال عمر بن الخطاب إن الله قد خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعط أحداً غيره ثم قرأ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله ﴿قَدِيرٌ﴾ فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ينفق عليه وعلى أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذه ما بقي فيجعله مجعل مال الله[3]، وأيضاً في الصحيحين عنه أنه جاء عمر حاجبه يرفأ فقال هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال نعم فأدخلهم فلبث قليلاً ثم جاء فقال هل لك في عباس وعلي(رض) يستأذنان؟ قال نعم، فلما دخلا قال عباس يا أمير المؤمنين إقض بيني وبين هذا وهما يختصمان في التي أفاء الله على رسوله من بني النضير فقال الرهط يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال ائتدوا أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال لا نورث ما تركناه صدقة يريد بذلك نفسه، قالوا قد قال ذلك فأقبل عمر على عليّ وعباس فقال أنشدكما بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال ذلك قالا نعم قال فإني أحدثكم عن هذا الأمر إن الله قد خص

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس (٣٠٩٤).

رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ إلى قوله (قدير) فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ثم والله ما اختارها دونكم ولا أستأثرها عليكم فقد أعطاكموها وقسمها فيكم حتى بقي المال منها فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقه سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته ثم توفي رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر فأنا ولي رسول الله ﷺ فقبضه أبو بكر فعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأنتم حينئذ جميع وأقبل على علي وعباس يذكر أن أن أبا بكر فيه كما يقولان والله يعلم أنه فيها لصادق بار راشد ثم توفي الله أبا بكر فقلت أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضتها سنين من إمارتي أعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأبو بكر والله يعلم إني فيه صادق بارّو تابع للحق ثم جئتماني كلا كما وكلمتكما واحدة وأمركما جميع فقلت لكما إن رسول الله ﷺ قال لا نورث ما تركنا صدقة فلما بدا لي أن أدفعه إليكما، قلت إن شئتما دفعت إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه تعملان فيه بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وما عملت فيه منذ وليت وإلا فلا تكلماني فقلتما ادفعه إلينا بذلك فدفعته إليكما أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك فوالله الذي تقوم بإذنه السماء والأرض لا أقضي فيه بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنه فادفعا إليّ فأنا أكفيلماهما. وأيضاً في الصحيحين عن عمر قال كانت أموال بني نضير مما أفاء الله على رسوله ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خاصة ينفق على أهله نفقه سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أموال أهل القرى، بيان للأول ولذلك لم يعطف لكنه يعم الأول يعني بني النضير وغيره فإن قيل لو كان هذا بياناً للأول لكان للأنصار أيضاً حقاً في فيء بني النضير مع أن النبيّ ﷺ لم يعط من فيء بني النضير شيئاً للأنصار غير ثلاثة منهم؟ قلنا كان للأنصار أيضاً فيه حقاً لكنهم آثروا المهاجرين على أنفسهم وجعل حقهم لهم كما سيأتي قال ابن عباس في تفسير أهل القرى وهي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة، وقال جلال الدين المحلي كان الصفراء ووادي القرى وينع، قلت: والصحيح أن خيبر فتحت عنوة وقسمت بين أهل الحديبية على ثمانية عشر سهماً كما مر في سورة الفتح ﴿فَلِلَّهِ﴾ إفتتاح كلام للتبرك، وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه وليس المراد منه أن سهماً منه له تعالى مفرداً فإن الدنيا والآخرة كلها الله تعالى وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي وعامة الفقهاء وعامة المفسرين وقال بعضهم يصرف سهم الله تعالى في عمارة الكعبة والمساجد ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني أقرباء رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم وبنو

المطلب لحديث جبير بن مطعم قال لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان فقلنا يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا» وشبك بين أصابعه رواه الشافعي، وفي رواية أبو داود والنسائي نحوه وفيه «أنا وبنو المطلب لا نفترق في الجاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد» وشبك بين أصابعه[1] ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الصغار الذين لا أب لهم ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر البعيد من ماله كان المستفاد فيما مر من الآية أن الفيء مختص بالنبيّ ﷺ وضم هاهنا مع رسول الله ﷺ الأصناف المذكورة إشعاراً بما يفعل لرسول الله ﷺ في ذلك المال ولما كان مال الفيء بحيث لا نصيب فيه لرجال بعينهم كما في الغنائم للغانمين بل قسمة مفوض إلى رسول الله ﷺ وإلى خلفائه من بعده، وجاز لهم اختيار أشخاص من الأصناف المذكورة به عليه السلام نافياً لاختصاص المال به عليه السلام والله تعالى أعلم ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ متعلق بالظرف المستقر أعني فلله وللرسول قرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتاء الفوقانية على التأنيث ودولة بالرفع على الفاعلية وكان حينئذ تامة والباقون بالياء التحتانية على التذكير على أن ضمير الفاعل راجع إلى الموصول ودولة منصوب على أنه خبر كان الناقصة ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يعني لا يكون ما يتداوله الأغنياء بينهم ودن الفقراء كما كان في الجاهلية بل جعل الله لرسول الله ﷺ أن يقسمه على ما يراه مصلحة فيما أمر به ثم قال ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ من الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ ولا تطمعوا فيما زاد على ما طابت نفسه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ من الغلول وغيره ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ ذكر هذه الجملة معترضة كيلا يطمع الناس من الرسول فما لا يرضاه وهذا نازل في الفيء وهو عام في كل ما أمر به النبيّ ﷺ ونهى عنه، عن عبد الله بن مسعود قال «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتنمصات للحسن المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت إنه قد بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والأمارة، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى (٢٩٧٦)، وأخرجه النسائي في كتاب: قسم الفيء (٤١٣٥).

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ قالت بلى قال فإنه قد نهى عنه[1] رواه البخاري ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة رسوله ﷺ معترضة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه تعليل لما سبق.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدل من لذي القربى وما عطف عليه فإن الرسول لا يسمى فقيراً وقد أخرج الله رسوله من الفقراء لقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قيل: هذا بدل الكل من الكل واللام في الفقراء للعهد والمراد منه هم المذكورون أعني ذوي القربى واليتامى والمساكين فلا يلزم أن لا يكون المذكورون سابقاً مصرفاً نظراً إلى المبدل منه لا يكون مقصوداً بالنسبة بل البدل هو المقصود بالنسبة، وعندي أن الفقراء المهاجرون وما عطف عليه أعم مطلقاً مما سبق فإنهم استوعبوا المؤمنين إلى يوم القيامة أجمعين غنيهم وفقيرهم على ما سنذكر إن شاء الله تعالى فهذا بدل الكل من البعض وهو من قبيل الاشتمال وعلى كلا التقديرين فما سبق في الذكر من ذوي القربى وما عطف عليه وإن لم يكن مقصوداً بالنسبة لفظا لكنها داخلة في المقصود أعني البدل أو عينه والله أعلم. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي بمكة ﴿وَأَمْوَالِهِمْ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم وفي الآية دليل على أن كفار مكة ملكوا أموال المهاجرين التي خلفوها وهاجروا عنها لأن الله تعالى أطلق عليهم الفقراء والفقير من لا يملك شيئاً وليس من لا يملك مالاً وهو في مكان لا يصل إليه فقيراً بل هو مخصوص باسم ابن السبيل ولذا عطفوا عليه في نص الصدقة، ومن هاهنا قال أبو حنيفة ومالك الكفار إذا استولت على أموال المسلمين ملكوها بشرط الإحراز بدارهم عند أبي حنيفة وبمجرد الإستيلاء عند مالك وقال الشافعي لا يملكونها وذكر ابن همام لأحمد فيه روايتين كقول أبي حنيفة وكقول الشافعي وذكر ابن الجوزي قول أحمد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (٤٨٨٦).

كقول الشافعي لا غير ويؤيد مذهب أبي حنيفة من الأحاديث ما رواه أبو داود في مراسيله عن تميم بن طرفة قال وجد رجل مع رجل ناقة له فارتفعا إلى النبيّ ﷺ فأقام البينة أنها له وأقام الآخر البينة أنه اشتراها من العدو فقال رسول الله ﷺ إن شئت أن تأخذ بالثمن الذي اشتراها به فأنت أحق وإلا فخلّ عنه ناقته والمرسل عندنا وعند أكثر أهل العلم حجة، وأخرج الطبراني مسنداً عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة في سنده ياسين الزيات ضعف وأخرج الدارقطني ثم البيهقي في سننهما عن ابن عباس عنه ﷺ قال في ما أحرز العدو فاستنقذه المسلمون منهم إن وجده صاحبه قبل أن يقسم فهو أحق به وإن وجد قد قسم فإن شاء أخذه بالثمن فيه حسن بن عمارة قال الدارقطني متروك، وأخرج الدارقطني عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من وجد ماله في الفيء قبل أن يقسم فهو له وإن وجده بعدما قسم فليس له شيء» وفيه إسحاق بن عبد الله بن فروة ضعيف وفي طريقه الآخر رشدين ضعيف أيضاً أخرجه الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً: «من أدرك ماله في الفيء قبل أن يقسم فهو له فإن أدركه بعد أن يقسم فهو أحق به بالثمن» وفيه ياسين ضعيف وبه قال الشافعي واحتجوا أيضاً بأن عمر بن الخطاب قال من أدرك ما أخذ العدو قبل أن يقسم فهو له وما قسم فلا حق له فيه إلا بالقيمة وقال هذا إنما روى عن الشعبي عن عمرو عن رجاء بن حيوة عن عمر مرسلاً وكلاهما لم يدرك عمر وروى الطحاوي بسنده إلى قبيصة بن ذؤيب أن عمر بن الخطاب قال فيما أخذه المشركون فأصابه المسلمون فعرفه صاحبه أي أدرك قبل أن يقسم فهو له وإن جرت فيه السهام فلا شيء له وروى فيه أيضاً عن أبي عبيدة مثل ذلك وروى بإسناده إلى سليمان بن يسار عن زيد بن ثابت مثله، وروى أيضاً بإسناده إلى قتادة عن جلاس أن عليّ ابن أبي طالب(رض) قال من اشترى ما أحرز العدو فهو جائز وهذه الأحاديث وإن كانت بعضها ضعيفة وبعضها مرسلة لكنها اعتضد بعضها ببعض وصارت حجة وعملاً بهذه الأحاديث شرط أبو حنيفة الإحراز وقال إن ظهر عليها المسلمون فوجدها المالكون قبل أن يقسم فهي لهم بغير شيء وإن وجدوها بعد القسمة أخذوها بالقيمة إن أحبوا وكذا إن دخل دار الحرب تاجر فاشترى ذلك فأخرجه إلى دار الإسلام فمالكه الأول بالخيار إن شاء أخذه بالثمن الذي اشتراه وإن شاء تركه وكذا لو وهبوا لمسلم يأخذه المالك بقيمته واستدل بعض الحنفية بما في الصحيحين أنه ﷺ لما سئل يوم الفتح أين تنزل غداً بمكة قال هل ترك لنا عُقيل من منزل؟ وجه الاحتجاج أن عقيلاً استولى عليه وهو على كفره، وقيل إن الحديث إنما هو دليل على أن المسلم لا يرث الكافر فإن عقيلاً استولى على الرباع بإرثه إياها أبا طالب فإنه

مات وترك علياً وجعفر مسلمين وعقيلاً وطالباً كافرين فورثاه والله تعالى أعلم. احتج الشافعي بحديث رواه أحمد ومسلم في صحيحه عن عمران بن حصين قال كانت العضباء لرجل من بني عقيل وكانت من سوابق الحاج فأسر الرجل وأخذت العضباء معه فحبسها رسول الله ﷺ لرجله ثم إن المشركين أغاروا على سرح المدينة وفيه العضباء وأسروا إمرأة من المسلمين وكانوا إذا نزلوا يريحون إبلهم في أفنيتهم فلما كانت ذات ليلة قامت المرأة وقد نوموا فجعلت لا تضع يدها على بعير إلا رغا حتى أتت على العضباء فأتت على ناقة ذلول فركبتها ثم توجهت قبل المدينة ونذرت لئن الله عز وجل نجاها عليها لتخرنها فلما قدمت عرفت الناقة فأتوا بها النبيّ ﷺ فأخبرت المرأة نذرها فقال رسول الله ﷺ تبسماً خبرتها أو وفيتها إن الله أنجاها عليها لتنحرنيها ثم قال رسول الله ﷺ «لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم».

وجه الاحتجاج أنه لو ملكها المشركون ما أخذها رسول الله ﷺ وما بطل نذرها وحديث رواه داود عن ابن عمر قال ذهب فرس له فأخذها الكفار فظهر عليهم المسلمون فرد عليه في زمن رسول الله ﷺ، وأبق عبد له فلحق بالروم فظهر عليهم المسلمون فرد عليه خالد بن وليد وفاة رسول الله ﷺ، والجواب عن الحديث الأول أن ظاهر هذا الحديث يدل على أن الكفار لم يحرزوا العضباء بديارهم حيث قال وكانوا إذا نزلوا يريحون أهلهم في أفنيتهم وعن الحديث الثاني أنا نقول على حسب مقتضى هذا الحديث حيث نقول أن المشركين إذا غلبوا على أموالنا وملكوها فظهر عليهم المسلمون ووجدها ملاكها قبل القسمة ردت تلك الأموال عليها بلا شيء وبعد القسمة ردت بالقيمة وإن عبداً إذا أبق فدخل إليهم فأخذوه لم يملكوه عند أبي حنيفة ثم إذا ظهر عليهم المسلمون يأخذ المالك القديم بغير شيء موهوباً كان أو مشتري مغنوماً قبل القسمة وبعده والله تعالى أعلم، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني ثواباً زائداً على قدر أعمالهم أضعافاً كثيرة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ جملة يبتغون حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني دينه عطف على يبتغون ﴿وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إدعاء إيمانهم وحالهم على صدق دعواهم فمن قال من الروافض إنهم كانوا منافين وكانوا كاذبين في ادعاء الإيمان كفر لاستلزام إنكار هذه الآية، وقال قتادة هؤلاء المهاجرين الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانت فيه من شدة حتى ذكر أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه يقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله وثار غيرها، قلت وكانوا يحبون القتل في سبيل الله روى البغوي في

المعالم وشرح السنة عن أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد عن النبيّ ﷺ أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً**»(١) وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة»(٢) قلت لعلهم يدخلون الجنة قبل أغنياء المهاجرين بأربعين خريفاً وقبل أغنياء سائر الناس بخمسمائة سنة والله تعالى أعلم. أخرج ابن المنذر عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض يعني الأرض المملوكة للأنصار نصفين قال لا ولكن تكفونهم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم قالوا رضينا فأنزل الله تعالى يعني أنزل فيهم قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الآية وروى البخاري عن أبي هريرة بلفظ قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخل قال لا تكفونا المؤن ونشرككم في الثمر قالوا سمعنا وأطعنا وليس ذكر نزول الآية صحيح والمعنى تبوءوا دار الهجرة وتمكنوا في الإيمان وهم أنصار شبه الإيمان بالمقر لدوام إثباتهم عليه وأثبت التبوء على الاستعادة التخييلية وجاز أن يكون الإيمان منصوباً بالفعل المقدر يعني وأخلصوا الإيمان من قبيل علفتها تبناً وماء بارداً، وقيل المعنى تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان وهي المدينة فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام سمى المدينة دار الإيمان لأنها مظهره عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالى سمى المدينة طابة**»(٣) رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله في حديث قال قال رسول الله ﷺ: «**إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**»(٤) متفق عليه وروى مسلم عن أبي هريرة بمعناه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هجرة المهاجرين وقيل تقدير الكلام والذين تبوء الدار من قبلهم والإيمان ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسهم ﴿حَاجَةً﴾ قيل المحتاج إليه يسمى حاجة والمعنى طلب حاجة وقيل المراد ما يحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والغيظ ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي من أجل ما أعطى المهاجرون دونهم من الفيء

---

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في القصص (٣٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها (١٣٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث (١٨٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها (١٣٨٣).

ذلك أن النبيّ ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار إلا ثلاثة منهم فطابت أنفس الأنصار بذلك، قال محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد إن رسول الله ﷺ لما تحول من بني عوف بن عمر الى المدينة تحول المهاجرون فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم، اقترعوا فيهم بالسهمان فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم فكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس فقال أدع لي قومك قال ثابت الخزرج يا رسول الله ﷺ فقال: الأنصار كلها فدعى الأوس والخزرج فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم وإيثارهم على أنفسهم ثم قال رسول الله ﷺ «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله تعالى عليّ من بني النضير» وكان المهاجرون على مالهم من السكنى ومساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رض) وخيراهما خيراً فقالا يا رسول الله بل تقسمه بين المهاجرين ويكونوا في دورنا كما كانوا ونادت الأنصار وجزاهم الله خيراً رضينا وسلمنا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم إرحم الأنصار»** فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً إلا رجلين كانا محتاجين سهل بن حنيف وأبا دجانة وأعطى سعد بن معاذ (رض) عنهم سيف بن أبي الحقيق وكان سيفاً له ذكر عندهم، وذكر البلاذري في فتوح البلدان له أن رسول الله ﷺ قال للأنصار ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسم هذه فيهم خاصة قالوا بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي يقدمون المهاجرين بأموالهم ومنازلهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وحتى أن من كان عنده إمرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾فاقة وحاجة إلى ما يؤثر، قال البغوي روي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: يوم النضير للأنصار فذكر نحو ما ذكر البلاذري، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، قالت والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت وفي رواية فهيأت طعامها ونومت صبيانها ثم قامت

كأنها تصلح سراجها فأطفأ فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد أعجب الله وأضحك من فلان وفلانة فأنزل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾»[١] وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن رجلاً من المسلمين فذكر نحوه وفيه أن الرجل الذي أضاف ثابت بن شماس فنزلت فيه هذه الآية، وأخرج الواحدي من طريق ابن دثار عن ابن عمر قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال إن أخي فلان وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليهم فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وروى البخاري عن أنس بن مالك قال دعى النبيّ ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا لا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلنا قال: «فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة بعدي»[٢] وذكر البلاذري في فتوح البلدان أنه قال أبو بكر جزاكم الله يا معشر الأنصار فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أرتعت ... بنا تعلنا في الوطنين فنزلت
أبوا أن يحلونا ولو أن آمنا ... به تلقى الذي يلقون منا طلت.

وروى الآجري في كتاب الشريعة عن قيس بن أبي حازم نحوه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشح البخل والحرص كذا في القاموس وفي الصحاح بخل مع حرص، قال البغوي فرق العلماء بين الشح والبخل، روي أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود إني أخاف أن أكون قد هلكت قال وما ذاك قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، قال عبد الله: ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله عز وجل ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل وقال عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمع عين الرجل إلى ما ليس له، وقال سعيد بن جبير الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة، وقيل الشح الحرص الشديد الذي يحمله على إرتكاب المحارم، وقال ابن زيد من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ولم يدعه الشح إلى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله به فقد وقى شح نفسه، عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٣٠).

جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم أن يسفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم**»(١) رواه مسلم وأحمد وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً**»(٢) رواه البغوي وكذا روى النسائي ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد المهاجرين والأنصار وهم الذين أسلموا من الصحابة بعد الفتح والمؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ﴾ حا من فاعل جاؤا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في الدين ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فإن السابقين لهم حق على اللاحقين حيث اهدوا بالإيمان والشرائع يتوسطهم كما اهتدوا أولئك بتوسط النبيّ ﷺ ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقداً وحسداً وبغضاً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من قبل من المهاجرين والأنصار ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكل من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية، قال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل الفقراء المهاجرين والذين تبوؤا الدار والإيمان والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فاجهد أن لا تكون خارجاً من هذه المنازل، روى البغوي بسنده عن عائشة قالت أمرتم بالإستغفار لأصحاب محمد ﷺ يسموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا يذهب هذه الأمة حتى تلعن آخرها أولها»، وروى صاحب الفصول من الإمامية الإثنا عشرية إلى جعفر محمد بن علي الباقر أنه قال لجماعة خاضوا في أبي بكر وعمر وعثمان أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا اللذين سبقونا بالإيمان الآية، وفي الصحيفة الكاملة أنه كان من دعاء الإمام علي بن الحسين(رض) اللّهم وصل على أصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا النصيحة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره وكافئوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعتهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به ومن كانوا منطوين في محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتقت منهم القرابات أو سكنوا في ظل قرابته فلا تنس لهم اللهّم ما تركوا لك وفيك وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاه لك إليك واشكرهم على

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٧٨).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠١).

هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه اللّهم وصلِ على التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك الحديث، قال مالك بن معول قال عامر بن شرحبيل الشعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم فقالوا حواري عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم فقالوا أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة لا يقوم لهم راية ولا يثبت لهم أقدام ولا يجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا نار للحرب أطفأ الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض جهنم أعاذنا الله وإياكم من الهواء المضلة قال مالك بن أنس من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس لهم حق في فيء المسلمين ثم تلا ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى أتى على هذه الآية: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أكثر المفسرين الذين تبوَّؤا الدار والإيمان وللفقراء الذين جاؤا من بعدهم وعلى هذا وصف الفقر شرط لاستحقاق الفرق الثلاثة وعندي الذين تبؤوا معطوف على الفقراء ووصف الفقر ليس شرطاً لاستحقاق واحد منهم كيف وابن السبيل مصرف اتفاقاً مع أنه لا يسمى فقيراً، أو إنما ذكر وصف الفقر في المهاجرين جرياً على الغالب لأن أكثر المهاجرين حينئذ كانوا فقراء لا للإحتراز كما أن في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[1] كونهن في الحجور ليس للاحتراز بل خرج مخرج العادة جرياً على الغالب وإنما قلت هكذا للإجماع على أن مال الفيء هو للمسلمين كافة غنيهم وفقيرهم يصرف في مصالحهم ويعطى لقضاة المسلمين وعمالهم وعلمائهم وإن كانوا أغنياء وكذا للمقاتلة سواء كانوا غنياً وفقيراً، وكان أبو بكر(رض) يقسم المال بين الناس على السوية وكان عمر(رض) يفضل في القسمة بفضلهم. قال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني ابن أبي نجيح قال قدم علي أبي بكر الصديق(رض) مال فقال من كان له عند النبيّ ﷺ عدة فليأت فجاء جابر بن عبد الله فقال قال لي رسول الله ﷺ لو جاء ومال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه فقال له أبو بكر خذ فأخذ بكفيه ثم عدة فوجده خمسمائة فقال خذ إليها ألفاً فأخذ ألفاً ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله ﷺ وعده شيئاً وبقي بقية من المال فقسمه بين الناس بالسوية على الصغير والكبير والحر المملوك والأنثى فخرج على تسعة دراهم وثلث لكل إنسان، فلما كان العام المقبل جال

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

أكثر من ذلك فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرون درهماً فجاء ناس من المسلمين قالوا يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا فسويت بين الناس وعن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم قال فقال أما ما ذكرتم من السوابق والقدم فما أعرفني بذلك وإنما ذلك شيء ثواب على الله هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما كان عمر بن الخطاب(رض) وجائن الفتوح فضل وقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ففرض أهل السوابق والقدم من المهاجرين والأنصار فمن شهد بدراً خمسة آلاف ولمن كان له إسلام كإسلام بدر دون ذلك أنزلهم على قدر منازلهم من السوابق. قال أبو يوسف وحدثني أبو معشر قال حدثني عمر مولى عفرة وغيره قال لما جاءت عمر بن الخطاب الفتوح وجائته الأموال قال أن أبا بكر رأى في هذا المال رأياً ولي فيه رأي آخر لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ففرض للمهاجرين والأنصار فمن شهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف وفرض لأزواج النبيّ ﷺ اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية، فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف فأبيا أن يقبلا فقال لهما إنما فرضت لهن للهجرة فقالتا لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله ﷺ وكان لنا مثله فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً وفرض للعباس عم رسول الله ﷺ اثني عشر ألفا وفرض لأسنان بن زيد أربعة آلاف وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف فقال يا أبت لم زدته عليّ ألفاً ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي وما كان له ما لم يكن لي فقال إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك وكان أسامة أحب إلي رسول الله ﷺ وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين، فمر به عمرو بن أبي سلمة فقال زيدوه ألفاً فقال له محمد بن عبد الرحمن بن جحش ما كان لأبيه أبي سلمة ما لم يكن لآبائنا وما كان له ما لم يكن لنا؟ فقال عمر إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفاً فإن كانت لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً وفرض لأهل والناس ثمانمائة فجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس فقال عمر افرضوا له ألفين، فقال إن أبا هذا يعني يوم أحد فقال ما فعل رسول الله ﷺ فقلت ما أراه إلا قد قتل فسل سيفه وكسر غمده وقال إن كان رسول الله ﷺ قد قتل فإن الله حي لا يموت فقاتل حتى قتل وهذا يرعى الشاء في مكان كذا كذا فعمل عمر بهذا خلافته. قال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن أبي جعفر إن عمر لما أراد أن يفرض للناس وكن رأيه آخر من رأيهم قالوا له ابدأ بنفسك فقال لا فبدأ بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ ففرض للعباس ثم لعلى حتى وإلى بين

خمس. . . حتى انتهى إلى عدي بن كعب، قال حدثنا المخالد ابن سعيد عن الشعبي عمن شهد غمر بن الخطاب قال لما فتح الله عليه الفارس والروم جمع ناساً من أصحاب النبيّ ﷺ فقال ما ترون فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم للبركة قالوا اضع ما رأيت فإنك إن شاء الله موفق ففرض الأعطيات فقال بمن أبدأ فقال عبد الرحمٰن بن عوف ابدأ بنفسك فقال لا والله ولكن أبدأ ببني هاشم رهط النبيَّ ﷺ فكتب من شهد بدراً من بني هاشم من مولى أو عربي لكل رجل منهم خمسة آلاف وللعباس بن عبد المطلب اثني عشر ألفاً ثم فرض لمن شهد بدراً من بني أمية بن عبد الشمس ثم الأقرب فالأقرب إلى بني هاشم ففرض للبدريين أجمعين عربيهم ومولاهم خمسة آلاف وللأنصار أربعة آلاف أربعة آلاف وكان أول أنصاري فرض له محمد بن مسلمة ولأزواج النبيّ ﷺ عشرة آلاف ولعائشة إثني عشر ألفاً ولمهاجرة حبشة أربعة آلاف أربعة آلاف ولعمر بن أبي سلمة لمكان أم سلمة أربعة آلاف فقال محمد بن عبد الله بن جحش لم تفضل علينا؟ فذكر نحو ما ذكر في الحديث السابق وللحسن والحسين خمسة آلاف لمكانهما من رسول الله ﷺ ثم فرض للناس ثلاثمائة وأربعمائة للعربي والمولى وفرض لنساء المهاجرين والأنصار ستمائة وأربعمائة وثلاثمائة ومائيتين وفرض لأناس من المهاجرين ألفين ألفين وفرض لبرقيل حين أسلم ألفين وقال له دع أرضي في يدي أعمرها وأؤدي عنها الخراج ما كانت تؤدي فرفض. قال أبو يوسف وحدثني محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة فذكر حديثاً وفيه فرض للمهاجرين خمسة خمسة آلاف وللأنصار ثلاثة آلاف ولأزواج النبيّ ﷺ إثنا عشر إثنا عشر ألفاً فلما أتى زينب بنت جحش مالها قالت يغفر الله أمير المؤمنين لقد كان في صواحباتي من هو أقوى على قسمة هذا مني فقيل أن هذا كله لك ناصرت به فغضب وغطته بثوب ثم قالت لبعض من عندها أدخلي يدك لأن فلان الفلان فلم تزل تعطي حتى قالت لها التي قلت تدخل يدها لا أراك تذكيريني ولي عليك حق قالت لك ما تحت الثوب فكشفت فإذا ثمة خمسة وثمانون درهماً ثم رفعت يدها فقالت اللّهم لا يدركني عطاء لعمر بن الخطاب بعد عامي هذا أبداً فكانت أول أزواج النبيّ ﷺ لحوقاً به زينب وذكر لنا أنها اسخى أزواج النبيّ ﷺ، وحمل عمر زيد بن ثابت عطاء الأنصار فبدأ بأهل العوالي فبدأ بيني عبد الأشهل ثم الأوس لبعد منازلهم ثم الخزرج حتى كان هو آخر السائب بن يزيد عن أبيه قال سمعت عمر ابن الخطاب(رض) يقول والله الذي لا إله هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعته وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا

كأحدكم ولكن على منازلهم لنا من كتاب الله تعالى وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وتلاده في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام والله لئن بقيت ليأتين الراعي لجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعني في طلبه وكان ديوان حمير على حدة وكان يفرض لأمير الجيوش والعرى في العطاء ما بين تسعة آلاف وثمانية آلاف وسبعة آلاف على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور، قال وكان يفرض للمنفوس إذا ترحته أمه فإذا ترعرع بلغه به مائتين فإذا بلغ زاده قال ولما رأى المال قد كثر قال لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس بأولادهم حتى يكونوا في العطاء سواء قال فتوفي قبل ذلك.

مسألة:

إختلف الأئمة أن المال الذي يحصل بلا قتال كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه خوفاً وما صولحوا عليه ومال مرتد قتل أو مات ومال ذمي مات بلا وارث وزكاة بني تغلب وما أهداه أهل الحرب إلى الإمام وكذا أخراج الأرض هل يخمس أم لا؟ فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد في أظهر قوليه لا يخمس بل جميعه لمصالح لما صلح المسلمين كسد الثغور وبناء القناطير والجسور ويعطي قضاة المسلمين والمحتسبين وعمالهم وعلمائهم منه ما يكفيهم ويدنو منه أرزاق المقاتلة وذراريهم كذا في الهداية وفي التجنس يعطي المعلمين والمتعلمين ويدخل فيه طلبة العلم أيضاً، وقال الشافعي في القديم لا يخمس إلا ما تركوه فزعاً وهربوا وفي الجديد أنه يخمس جميع ذلك ثم يجعل الخمس خمسة أسهم سهم منها لنبي هاشم وبني المطلب يشرك فيه الغني والفقير وسهم لابن السبيل ويعم الأصناف الأربعة المذكورة، وقيل يخص بالحاصل في كل ناحية من فيها منهم وسهم لمصالح المسلمين كسد الثغور والقضاة والعلماء ويقدم الأهم وأما الأخماس الأربعة فالأظهر أنها للمرتزقة وهم أجناد المرصدون للجهاد فيضع الإمام ديواناً فيعطي كل واحد منهم كفاية ويقدم في الإعطاء قريشاً ومنهم بني هاشم والمطلب ثم عبد الشمس ثم نوفل ثم عبد العزى ثم سائر البطون الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ ثم الأنصار ثم سائر العرب ثم العجم ولا يثبت في الديوان أعمى ولا زمناً ولا من لا يصلح للقتال فإن فضلت الأخماس الأربعة عن حاجات المرتزقة وزع عليهم على قدر مؤنتهم والأصلح أنه يجوز أن يقسم غلته كذلك كذا في المنهاج ويؤيد مذهب الجمهور في عدم التخميس ما ذكره محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد في أموال بني النضير أنه قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ألا تخمس ما أصبته؟ قال رسول الله ﷺ لا أجعل شيئاً جعله الله

تعالى دون المؤمنين بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية كهيئته ما وقع فيه السهمان، قال ابن همام ذكروا أن قول الشافعي في تخميس الجزية مخالف للإجماع، قال الكرخي ما قال به أحد قبله ولا بعده ولا في عصره، ووجه قوله القياس على الغنيمة قال ابن همام إنه صلّى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ونصارى نجران وفرض الجزية على أهل اليمن ولم ينقل منه التخميس ولو كان لنقل، وروى أبو داوود بسند فيه ضعف أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله أن ما حكم عمر بن الخطاب فرآه المؤمنين عدلاً موافقاً لقول النبيّ ﷺ والله تعالى أعلم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يعني عبد الله بن سلول وأصحابه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ في الكفر أو الصداقة والموالاة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جهاراً ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود من بني النضير والقريظة وقد ذكرنا قصة عبد الله بن سلول أنه أرسل إلى بني النضير رسولين وقال تخرجوا أن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال أسلم ناس من بني قريظة وكان منهم منافقون نزلت فيهم هذه الآية وعلى هذا المراد بالأخوة في النسب فكان المنافقون يقولون لبني النضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ وأي في قتالكم أو خذلانكم أحداً يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ ويعني إن قاتلكم الرسول ﷺ والمؤمنون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ عليهم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ حال من فاعل يقولون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المنافقون ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ منصوب بتقدير القول يعني والله يشهد ويقول إنهم لكاذبون أو هو متعلق بيشهد بتضمن

القول ثم بين كذبهم بقوله ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ﴾ أي اليهود ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ أي المنافقون جواب للقسم لفظاً وجزاء للشرط معنى وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ﴿مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وفيه معجزة حيث كان الأمر في المستقبل كذلك فإن بني نضير أخرجوا ولم يخرج معهم عبد الله بن أبي بن سلول ولا منافقوا قريظة وقريظة قوتلوا وقتلوا لم ينصرهم منافقوا مدينة ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير، وقال الزجاج معناه لو قصدوا نصر اليهود ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي كفار اليهود ولا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصروهم، وجاز أن يكون ضمير لا ينصرون راجعاً إلى المنافقين ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي مرهوبة ﴿فِى صُدُورِهِم﴾ أي المنافقين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حيث يؤمنون باللسان دون القلب مخافة الناس دون الله تعالى العالم بما في الصدور ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف منكم دون الله تعالى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعرفون الله تعالى وعظمته وأن الله تعالى: هو النافع والضار وأفعال العباد إنما هي مخلوقة له تعالى فهو الحقيق بأن يخشى دون غيره ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي الكفار والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين على عزم وإجتهاد ولإلقاء الله تعالى الرعب في قلوبهم ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالأروب والخناديق يعني لا يبرزون لقتالكم رهبة منكم ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو جدار بكسر الجيم وفتحالدال وألف بعدها على التوحيد، وأمال أبو عمرو فتح الدال والباقون بضم الجيم والدال على الجمع ﴿بَأْسُهُم﴾ يعني صبرهم وشجاعتهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني في مقابلة الكفار بعضهم بعضاً ﴿شَدِيدٌ﴾ يعني ليس ذلك الرهبة منكم لضعفهم وجنبهم فإنهم أشد بأساً إن حارب بعضهم بعضا بل لقذف الله الرعب في قلوبهم معجزة لرسوله وإظهار الدين فإن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين على حربكم ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي متشتتة بسبب إلقاء الرعب فإن في حالة شدة الخوف لا يتقرر قلبه على نهج مستقيم بل قد يريد الحرب نظراً إلى مصالح دنيوية وقد يريد الفرار لاستيلاء الرعب والخوف ﴿ذَٰلِكَ﴾ التشتت ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحق من الباطل ولا يتدبرون ولا يفهمون أن هذا الرعب إنما استولي عليهم لكفرهم ومحاربتهم بالنبي المحق ﷺ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني مثلهم أي بني النضير كمثل الذين من قبلهم ﴿قَرِيبًا﴾ يعني أهل بدر من مشركي مكة كذا قال مجاهد وقال ابن عباس يعني ببني قينقاع من اليهود هم قوم عبد الله بن سلام كانوا حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول أو عبادة بن الصامت وغيرهما من قومهما وكانوا أشجع يهود وكانوا صاغة ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ في الدنيا وذلك أنه لما قدم النبيّ ﷺ مهاجراً وادعته اليهود كلها

كتب بينه وبينهم كتاباً وألحق كل قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم شروطاً منهما أن لا يظاهروا عليه عدواً فلما كانت يوم بدر كانت قينقاع أول يهود ونقضوا العهد وأظهروا البغي والحسد، فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد قدمت امرأة من العرب بحلب لها فباعت بسوق بني قينقاع وجلست إلى صايغ بها لحلي فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل فعمد الصانع إلى طرف ثوبها من ورائها فحله بشوكة وهي لاتشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ونبذوا العهد إلى النبيّ ﷺ واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب السلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع وأنزل الله سبحانه ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فقال ﷺ إنما أخاف من بني قينقاع فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب واستخلف على الدينة أبا لبابة فتحصنوا فحاصرهم أشد الحصار فقاموا على ذلك خمسة عشر ليلة حتى قذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن للرسول ﷺ أموالهم وأن لهم النساء والذرية فكنفوا واستعمل على كنافهم المنذر بن قوامة السلمي ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وقالوا يا رسول الله أنوي الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم وقال يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه فقال له رسول الله ﷺ ويحك أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا بوجهه ظللاً قال ويحك أرسلني قال والله لا أرسلك حتى تحسن إليّ في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد صغرني من الأحمر والأسود ونحصدهم في الغداة واحدة إني والله امرىء أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ خلوهم لعنهم الله ولعن من معهم وتركهم من القتل وأمرهم أن يجلوا من المدينة فخرجوا بعد ثلاث وولي إخراجهم منها عبادة بن الصامت، وقال محمد بن مسلمة فجلعوا بأذرعات وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاثة نِسْعٌ ودرعين وثلاثة رماح وثلاثة أسياف ووجد في منازلهم سلاحاً كثيراً وآلة الصناعة فأخذ رسول الله ﷺ صيغة والخمس وقسم أربعة أخماسه على أصحاب فكان أول خمس بعد بدر وكان هذه الواقعة يوم السبت لنصف من شوال سنة ٢هـ على رأس عشرين شهراً من مهاجرته ﷺ ونزل في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ آيات من سورة المائدة إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(١) الآية وقد ذكرنا في المائدة ﴿وَلَهُمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١ ـ ٥٦.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة يعني لا ينقص عذابهم في الآخرة بما أصابهم وبال أمرهم في الدنيا ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه في اغترار اليهود على القتال كمثل الشيطان ﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ قال البغوي روى عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة يقال له برصيصا يعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة وأن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا أجد أحداً يكفيني أمر برصيصا، فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبيّ ﷺ وجاءه في صورة جبرئيل ليوسوس على وجه الوحي فدفعه جبرئيل إلى أقصى أرض الهند فقال الأبيض لإبليس أنا أكفيك فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل من صلاته إلا في عشرة أيام ولا يفطر إلا في عشرة أيام مرة، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لم يجبه فقال له إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك فما حاجتك؟ قال حاجتي أني أحببت أن أكون معك فأتاوب بك وأقتبس من علمك وعملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك فقال برصيصا إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، وأقبل الأبيض يصلّي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها فلما انفتل رآه قائماً يصلّي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده قال ما حاجتك؟ قال حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام معه حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوما مرة وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى وكان بلغنا عنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذي رأى منه شدة اجتهاده فلما ودعه قال له الأبيض إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله به السقيم ويعافي به المبتلي والمجنون، قال برصيصا أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً إني أخاف إن علم به الناس شغلوني عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلكت الرجل قال فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله إن لصاحبكم جنوناً أفأعالجه؟ قالوا نعم فقال لهم إني لا أقوى على جنيته ولكن أرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه انطلقوا إلى

برصيصا قال عنده الإسم الأعظم الذي إذا دعابه أجاب فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الأبيض يفعل مثل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيعافون وانطلق الأبيض إلى جارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة أخوة وكان أبوهم ملكهم فمات واستخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل فجاء الأبيض إلى تلك الجارية فعذبها وخنقها ثم جاء إليهم في صورة متطيب فقال لهم أتريدون أن أعالجها قالوا نعم، قال إن الذي عرض لها مارد ولا يطلق ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت وتردونها صحيحة قالوا ومن هو قال برصيصا الزاهد قالوا وكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من هذا قال ابنوا صومعة إلى جنب صومعته حتى تشرفوا عليه فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعة ثم قولوا هي أمانة عندك فاحتسب فيها قال انطلقوا إليه فسألوه فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم به الأبيض فوضعوا الجارية في صومعة فقالوا هذه أختنا هذه أمانة فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته رأى الجارية وما بها من جمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها شيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب الشيطان ثم أقبل على صلاته ثم جاءها فخنقها وكانت تكشف عن نفسها فجاء الشيطان وقال واقعها فستتوب بعد ذلك والله تعالى غفار الذنوب والخطايا فتدرك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت فظهر حملها، فقال له الشيطان ويحك قد افتضحت يا برصيصا فهل لك أن تقتلها وتتوب فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقدر عليه فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرفه خارجها من التراب ثم رجع برصيصا إلى صومعة فأقبل على صلاته إذ جاءه إخوتها يتعادون أختهم وكانوا يجيئون في فرط الأيام يسألون عنها ويوصونه بها فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه فأنصرفوا، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصا قد فعل بأختك كذا وكذا وإنه دفنها في موضع كذا فقال الأخ في نفسه هذا حلم وهو من عمل الشيطان فإن برصيصا خير من ذلك قال فتتابع عليه ثلاث ليال مرات ليلاً فلم يكترث فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال الأوسط مثل ما قال الأكبر فلم يخبر به أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك، فقال أصغرهم لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا وقال الأوسط وأنا والله قد رأيت مثله . . . فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم تتهموني، فقالوا والله ما نتهمك واستحيوا منه فانصرفوا فجاءهم الشيطان،

وقال ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وإن طرف إزارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فمشوا في مواليهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي، فهدموا صومعته فأنزلوه ثم كتفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر يجتمع عليه أمران قتل ومكابرة إعترف فلما إعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشية فلما صلب أتاه الأبيض قال يا برصيصا أتعرفني قال لا قال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها فإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ثم قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وفضحت أشباهك من الناس فإن مت على هذه الحالة فلم يفلح أحد من نظرائك، قال فكيف أصنع؟ قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك ما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك، قال وما هي؟ قال تسجد لي، قال أفعل فسجد له فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صار عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك إني بريء منك ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنما قال ذلك رياء وإلا فالخشية من الله تعالى لم يخلق في الشياطين، وقيل المراد بالإنسان الجنس ويقول الشيطان أكفر إغراءه على الكفر إغراء الأمر المأمور وقوله إني بريء بقوله في الآخرة مخافة أن يشاركه في العذاب وينفعه ذلك نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾(١) وقيل المراد بالإنسان أبو جهل قال له إبليس يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾(٢) يعني من الهلاك في الدنيا ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي الإنسان والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أي نفس كل أحدكم ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ يعني أي شيء قدمت من عمل صالح ينجيه أو سيء يوبقه فينزع عنه ويستغفر منه ﴿لِغَدٍ﴾ أي ليوم القيامة سماه غداً لدنوه أو لأن الدنيا كيوم واحد والآخرة غد في الحديث «الدنيا يوم ولنا فيها صوم» ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد أو الأول لأداء الواجبات والثاني لترك المحارم لاقترانه لقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يبالون بإتيان مناهيه وترك أوامره ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً وأراهم يوم القيامة من الهول وأنساهم أنفسهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي الذين استمهنوا أنفسهم فاستحقوا النار والذين استكملوا أنفسهم فاستحقوا الجنة، استدل الشافعية بهذه الآية أن المسلم لا يقتل بالكافر قصاصاً وليس شيء فإن المراد عدم مساواتهم في الآخرة حيث قال الله تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قيل هذا تمثل وتخييل يعني لو جعل في الجبل تميزاً وأنزل عليه القرآن تخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صربته ورزانته حذراً من أن لا يؤدي حق الله عز وجل في تعظيم القرآن والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، وجاز أن يقال أن الجمادات إن كانت في الظاهر عديمات الشعور لكنها بالنسبة إلى خالقها ذات شعور وخشية قا الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1] وقال النبيّ ﷺ: «**الجبل ينادي الجبل أي فلان جبل هل مر بك أحد يذكر الله فإذا قال نعم إستبشر**»[2] الحديث ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في الآية توبيخ على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: في البقاع التي يذكر الله تعالى عليها (١٦٧٨٣).

عدم تفكر الإنسان وتدبره وعدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قد بسطنا الكلام في تفسير الغيب والشهادة في سورة الجن في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١) ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الظاهر من كل عيب البليغ في النزاهة عما لا يليق به ﴿السَّلَامُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال ابن عباس الذي آمن الناس من ظلم وآمن من آمن به من عذاب فهو من الأمان ضد التخويف، وقيل معناه المصدق لرسله باظهار المعجزات ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الشهيد على عباده بأعمالهم يقال همن يهمن إذا كان رقيباً على الشيء كذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل كذا قال في القاموس حيث قال همن على كذا إذا صار رقيباً عليه حافظا وكذا قال الخليل، وقيل أصله ما من من الأمن قلبت همزة الثانية ياء أو الأولى هاء ومعناه المؤمن كذا قال ابن زيدان معناه المصدق، وقال سعيد بن المسيب والضحاك وابن كيسان هو اسم من أسماء الله تعالى في الكتب السماوية الله تعالى أعلم بتأويله ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس هو العظيم وجبروت الله عظيمه فهو صفة ذات، وقيل هو من الجبر بمعنى الإصلاح يقال جبرت الأمر وجبرت العظم إذا أصلحته بعد الكسر فهو يغني الفقير ويصلح الكسر في الحديث «جابر العظم الكسير» وقال السدي ومقاتل هو الذي يقهر الناس ويجبر على أراد سُئِلَ بعضهم عن معنى الجبار قال هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعل لا يقدر أحد على أن يحجره ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ التفعل للمبالغة والكبر والكبرياء الامتناع فهو الممتنع عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً وقيل المتكبر المتعظم، وقيل ذو الكبرياء وهو الملك ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ المقدر للأشياء كما قال يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق وفي القاموس المبدأ الشيء المخترع على غير مثال سبق ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجود للأشياء بريأ من التفاوت في القاموس برأ الله الحق كجعل برءاً وبرؤا خلقهم ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ قال البغوي المماثل للمخلوق بالعلامات التي يتميز بها بعضها عن بعض يقال هذه صورة الأمر أي مثاله فأولاً يكون خلقاً ثم برأ ثم تصويراً وفي الصحاح ما يتنقش به الأعيان ويتميز بها عن غيرها وذلك ضربان: أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة بل يدركه الإنسان وكثير

(١) سورة الجن، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

من الحيوانات كصورة الإنسان والفرس والجهاد بالمعاينة، قلت: ومنه ما امتاز به زيد من عمرو، الثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص بها الإنسان من الفعل والمعاني التي خص بها شيء دون شيء وإلى الصورتين أشار الله تعالى بقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾(١) وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(٢) وقال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾(٣) وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٤) وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»(٥) فالصورة أراد بها ما خص الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة وبها فضله على كثير من الخلق وإضافة إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضية والتشبيه تعالى عن ذلك وذلك على سبيل التشريف كقوله بيت الله وناقة الله، قلت: ويمكن أن يراد به خلقه تعالى على صفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك التي بها لبس خلقه الخلافة وأمتاز به عما عداه وأحتمل ثقل الأمانة وجاز أن يكون ضمير صورته راجعاً إلى آدم. يعني خلقه على صورة لم يعط أحداً غيره والله تعالى أعلم ﴿لَهُ﴾ تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على محاسن الصفات والمعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كلها فإنها راجعة إلى الكمالات في القدرة والعلم، عن المعقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً من قال حين يمسي كان بتلك المنزلة**»(٦) رواه الترمذي، وقال حديث غريب، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ خواتيم الحشر من ليلة أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو ليلة فقد أوجب الجنة**» رواه ابن عدي والبيهقي وسنده ضعيف.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٣.

(٣) سورة الانفطار، الآية: ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام (٦٢٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب باب: النهي عن ضرب الوجه (٢٦١٢).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٢).

سورة الممتحنة

آياتها ثلاث عشرة آية وفيها ركوعان وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

ذكر البغوي وغيره أن سارة مولاة أبي عمرو بن صفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله ﷺ أمُسلمةٌ جئت؟ قالت لا، قال أمهاجرة جئت؟ قالت لا قال فما جاء بك؟ قالت كنتم الأهل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال أين أنت من شبان مكة وكانت مغنية نائحة، قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبرئيل فأخبر النبيّ ﷺ تعالى عليه وآله وسلم بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة ومقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً فقال لهم: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى**

المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفع إليكم فاضربوا عنقها»[١] قال فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ فقالوا لها أين الكتاب فحلفت بالله ما معها كتاب فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه وقال أخرجي الكتاب وإلا لأجزونك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأته في شعرها فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال هل تعرف الكتاب؟ قال نعم قال فما حملك على ما صنعت؟ قال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن اتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئاً فصدقه رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب فقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي الصحيحين عن علي قال بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من الكتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب قال فأخرجته عن عفاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبيّ ﷺ فقال ما هذا يا حاطب؟ قال لا تعجل عليّ يا رسول الله اني كنت امرأ ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها اهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن نأخذ منهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاباً لكفر فقال النبيّ ﷺ صدقت وفيه أنزلت هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ قيل الباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم (٢٤٩٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

والمعنى تلقون إليهم بالمودة بالمكاتبة، وقال الزجاج معناه تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ بالمودة التي بينكم وبينهم والجملة حال من فاعل لا تتخذوا أو صفة لأولياء جرت على غير ن هي له فلا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن والجملة حال من فاعل أحد الفعلين ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة وهو حال من فاعل كفروا استئناف لبيان ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ أي لأن آمنتم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ فيه تغليب المخاطب والإلتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من أوطانكم ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ علة للخروج وعمدة للتعليق أو حال من فاعل خرجتم يعني خرجتم مجاهدين أو ظرف بتقدير الوقت أي خرجتم في وقت الجهاد أو مفعول مطلق من قبيل ضربته سوطاً أي خرجتم خروج جهاد وجواب الشرط محذوف دل عليه لا تتخذوا ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ قال مقاتل بالنصيحة بدل من تلقون أو استئناف والباء زائدة صلة لتسرون أو للسببية والمعنى أنه لا طائل لكم في أسر المودة وإلقاء الأحباء إليهم سراً بسبب المودة ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ وقيل أعلم بفعل مضارع والباء زائدة وموصولة أو مصدرية ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أي اتخاذ المودة ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الهدى ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يأخذوكم ويظفروا بكم في القاموس ثقفة كمنعه صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي لا ينفعكم القاء الودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾أي بما يسوئكم كالقتل والضرب والشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لو للتمني والجملة بيان الوداد والماضي في جواب أن الشرطية وإن كان يفيد معنى الاستقبال ولكن أورد صيغة الماضي للإشعار بأنهم ودوا ذلك قبل كل شيء وإن ودادهم حاصل بالفعل ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي قرباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أشركو أو الذين توالون المشركين لاجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه رد لعذر الحاطب بن بلتعة ومن كان يعتذر بنحو ذلك ﴿يَفْصِلُ﴾ قرأ عاصم على البناء للفاعل من الثلاثي المجرد ونافع وابن كثير وأبو عمرو على البناء للفاعل من باب التفعيل وابن عامر على البناء للمفعول منه ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي ليفرق الله بينكم حين يفر بعضكم من بعض لشدة الهول ويصير الأخلاء يومئذ أعداء إلا المتقين أو المعنى يفصل بينكم أي يدخل المؤمنين الجنة والمشركين النار فما لكم تتوالونهم اليوم وترفضون حق الله ونبيه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ

وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسۡوَةٌ﴾ اسم لما يؤتسى به أي اقتداء ﴿حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

من المؤمنين متعلق بالظرف المستقر أعني لكم الذي هو خبر أو صفة ثانية لأسوة ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ ظرف لخبر كان أو خبر لكان ﴿لِقَوۡمِهِمۡ﴾ الكفار ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء ﴿مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ الكفر بالحقيقة ضد الإيمان لأنه ستر الحق والنعمة لكن أطلق هاهنا للتبري كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾(١) ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ فينقلب العداوة والبغضاء ألف ومحبة ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ قال البيضاوي وغيره إستثناء من قوله أسوة حسنة وفيه إشكال فإن أسوة نكرة لا يتيقن دخول المستثنى فيه حتى يكون متصلاً ولا عدم دخوله حتى يكون منقطعاً نظيره قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾(٢) فالأولى أن يقال أنه استثناء من محذوف تقديره اتبعوا أقوال إبراهيم إلا قوله لأبيه لأستغفرن لك كذا قال صاحب البحر المواج، وعندي أنه استثناء من قوله في إبراهيم بتقدير المضاف تقديره قد كانت لكم أسوة حسنة في قول إبراهيم إلا قوله لأبيه لأستغفرن لك ولعل هذا هو المراد من كلام البيضاوي فإن استغفاره لأبيه الكافر لا ينبغي فيه التأسي والإتباع وإنما كان ذلك قبل النهي لموعدة وعدها إياه ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ هذا من تمام المستثنى ولا يلزم من إستثناء المجموع إستثناء كل جزء منه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الشمس، الآية: ١٤.

وكلمة من زائدة وشيء في محل النصب على المفعولية لا ملك ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في محل النصب بتقدير القول يعني قال إبراهيم ومن معه ربنا عليك توكلنا وهو متصل بما قبل الاستثناء إذ هو أمر من الله تعالى للمؤمنين تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم بين الكفار تقديره قولوا ربنا عليك توكلنا وتركنا موالاة الكفار والإستنصار بهم ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع ﴿رَبَّنَا﴾ كرر النداء بربنا لتأكيد المناجاة والإستعطاف ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني لا تسلطهم علينا فيعذبونا فيؤاخدونا بذلك فتكون فتنة لهم أي سبباً لعذابهم، وقال الزجاج يعني لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق وقال مجاهد لا تعذبنا بأيدهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا فإن المعاصي قد يكون سببا لتسليط الكفار على المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يقدر أحد على إيصال الشر بمن يجبره ويتوكل عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الحاكم العالم المعتذر على إجابة الدعاء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم ومن معه ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير لتأكيد الحث على التأسي ولذلك صدر بأنفسهم ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي يرجو إلقاء الله وثوابه ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي يرجوا إتيان يوم القيامة وقوله لمن كان بدل من لكم وفيه إيماء إلى أن الإيمان يقتضي التأسي عليه السلام وتركه يوذن بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن تأسي الأنبياء ويوالي الكفار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادة وعن تأسي رسله وعن كل شيء وإنما منفعة التأسي بالأنبياء راجع إلى المتأسي ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لأولياءه ولأهل لطاعة، قال البغوي قال مقاتل فلما أمر الله تعالى بعداوة الكفار وعادى المؤمنون أقربائهم وأظهروا لهم العداوة والبراءة علم الله تعالى شدة وجد المؤمنين بذلك أنزل الله بتسليتهم قوله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾ فأنجز الله وعده قريباً فإن الآية نزلت قبل الفتح كما ذكرنا وبعد الفتح أسلم كل من كان بمكة وصاروا أولياء إلا من قتل منهم يوم الفتح كالحويرث بن نفيل وغيره وسميناهم في سورة النصر. فإن قيل كلمة الذين عاديتم عام تقتضي موالاة جميعهم وقد قتل منهم كافراً قلنا قد يطلق العام ويراد به الخاص مجازاً ألم تسمع قولهم ما من عام إلا وقد خص منه البعض وقد يسند الفعل إلى الكل مجازاً لوجود المسند إليه فيهم كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾(١) ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك وعلى كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط من موالاتهم قبل النهي ولما بقي من قلوبهم من ميل الرحم، أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت أتتني أمي راغبة فسألت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: صلة الوالد المشرك (٥٩٧٨).

النبيّ ﷺ أأصلها قال نعم فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[١] الآية، وأخرج أحمد والبزار والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير قال قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر وكان أبو بكرطلقها في الجاهلية فقدمت بنتها بهدايا فأبت أسماء أن تقبل منها أو تدخلها منزلها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن رسول الله ﷺ فأخبرته أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي تكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً بدل من الذين بدل إشتمال أي لا ينهاكم الله عن مبرتهم ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي تقضوا إليهم القسط والعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وقال ابن عباس نزلت الآية في خزاعة كانوا قد صالحوا النبيّ ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا فرخص الله تعالى في مبرهم ومن هاهنا يظهر أنه يجوز دفع الصدقة النافلة إلى الذمي وقد مرت المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[٢] ومن ثم أمر النبيّ ﷺ بإعطاء سارة مولاة أبي عمر وكما ذكرنا في أول السورة والله أعلم ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم الرجال المشركون من أهل مكة بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من الموصول بدل إشتمال ومن هالهنا يظهر أن المنهي عنه إنما هو موالاة أهل الحرب دون مبرتهم يشرط أن لا يضربا لمؤمنين وقد قال الله تعالى في الأسارى من أهل الحرب ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٣] والمن نوع من البر فعلى هذا يجوز دفع الصدقة النافلة لأهل الحرب أيضاً إن لم يكن في ذلك تقويتهم على الحرب وقد قال رسول الله ﷺ «في الكبد الحارة أجر» رواه البيهقي بسند صحيح فس شعب الإيمان عن سراقة بن مالك، وروى عنه أحمد بسند صحيح وابن ماجه بلفظ «في كل ذات كبد حرى أجر»[٤] وكذا روى أحمد عن ابن عمر أما دفع الزكاة إلى الكفار فلا يجوز إجماعاً وسند الإجماع حديث معاذ وفيه «قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم»[٥] ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي أهل الحرب ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل صدقة الماء (٣٦٨٦) وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٣٩٥).

(٥) سورة الممتحنة، الآية: ١.

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولا مفهوم لهذه الآية فإنه لا يجوز موالاة أهل الذمة أيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[١] وقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[٢] والله تعالى أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

روى البخاري وكذا مسلم عن عروة بن الزبير عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا كان فيما اشترط سهيل بن عمر على النبيّ ﷺ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه فكره المؤمنون ذلك وأبىٰ سهيل إلا ذلك فكاتبه النبيّ ﷺ فردّ يومئذ أبا جندل إلى سهيل بن عمر ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسئلون النبيّ ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها لما أنزل الله فيهن[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي فاختبروهن بما غلب على ظنكم موافقة قلوبهن ألسنتهن في الإيمان فإن الإيمان صفة القلب ولا يعلم بما في الصدور إلا الله تعالى ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ علما يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة (٢٧١١).

بالخلق وظهور الأمارات وسماه علماً إيذاناً بأن الظن كالعلم في وجوب العمل به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى﴾ ازواجهن ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ لأنه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لحصول الفرقة بين الكافر والمسلمة وقد مر في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾(١) أنه يقع الفرقة بين المهاجرة وبين زوجها الكافر لمجرد الخروج من دار الحرب عند أبي حنيفة لاختلاف الدارين وعند الأئمة الثلاثة بعد ثلاث حيض من وقت إسلامه إن دخل بها وإلا فمن وقت إسلامها ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ بتجديد النكاح لعدم جواز نكاح الكافر بالمسلمة وجاز أن يكون التكرير للتأكيد، قال عروة في الحديث السابق فأخبرتني عائشة(رض) أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله (غفور رحيم) قال عروة قالت عائشة(رض) فمن أقرت بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ قد بايعناك كلاماً يكلمها به والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ما بايعهن إلا بقوله. وقال البغوي قال ابن عباس: أقبل رسول الله ﷺ معتمرا حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركوا مكة على أن ما أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ لم يردوه إليه وكتبوا عليه كتاباً وختموا عليه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم وقيل صيفي بن الراهب في طلبها وكان كافراً فقال يا محمد اردد عليَّ امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذا طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن، قال ابن عباس امتحانهن أن تستحلف ما خرجت لبغض زوجها ولا عشقاً لرجل من المسلمين ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس للدنيا ولا خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ولرسول الله ﷺ فاستحلفها رسول الله ﷺ على ذلك فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها فتزوجها عمر وكان يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء بعد الإمتحان ويعطي أزواجهن مهورهن، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد قال هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهدنة فخرج أخواها عمارة والوليد بن عقبة حتى قدما رسول الله ﷺ وكلماه في أم كلثوم أن يردها إليهم فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ومنع أن يردون إلى المشركين فأنزل الله آية الإمتحان، وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب أنه بلغه أنها نزلت في أميمة بنت بشر أو امرأة أبي حسان بن الدحداح، وأخرج عن مقاتل

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

أن امرأة تسمى سعيدة كان تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك جاءت زمن الهدنة فقالوا ردها علينا، وأخرج ابن جرير عن الزهري أنها نزلت عليه وهو بأسفل الحديبية كان صالحهم أنه من أتاه منهم رد إليهم فلما جاءت النساء نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتُوهُم﴾ الضمير عائد إلى الكفار والمراد أزواجهن ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ عليهن يعني المهور التي دفعوا إليهم وذلك لأن الصلح كان جرى على ردهن فلما تعذروهن لورود النهي عنه لزم رد مهورهن فلو رأى الإمام مصلحة على صلح مثل صالح النبيّ ﷺ بالحديبية وجب رد مهر مهاجرة جاءت من الكفار، قال البغوي قال الزهري ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء لم يرد الصداق وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد والله تعالى أعلم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي المهاجرات وإن كان لهن أزواج في دار الحرب لوقوع الفرقة بينهم وبينهن والآية تدل على عدم اشتراط مضى العدة كما هو في مذهب أبي حنيفة خلافاً لصاحبه ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أي مهورهن شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن أعطى أزواجهن الكفار لا يقوم مقام المهر، أخرج ابن أبي منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟﴾ قرأ أبو عمر ويعقوب بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الإفعال ﴿بِعِصَمِ﴾ جمع عصمة وهو ما اعتصم به من عقد الموالاة والنكاح ونحو ذلك ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع الكافرة نهى الله سبحانه عن المقام على نكاح المشركات، قال البغوي قال الزهري فلما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب امرأتين بمكة مشركتين قرينة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جردل الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهيم بن حذافة ابن غانم وهما على شركهما وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وهي على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعد بن العاص بن أمية، قال الشعبي وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن اربيع أسلمت ولحقت بالنبيّ ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركا ثم أتى المدينة وأسلم فردها على رسول الله ﷺ ﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ أيها المسلمون ﴿أَنفَقْتُمْ﴾ من مهر امرأة منكم لحقت بالمشركين مرتدة إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾ أي الكفار من مهرو أزواجهم المهاجرات ﴿مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ ممن تزوجها منكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير أو جعل الحكم

حاكماً على المبالغة والضمير يحكم عائد إليه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما يعلم خيراً لكم وما تقتضيه الحكمة، وقال البغوى في قول الزهري فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عز وجل وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم وأبي المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمروا من أداء نفقات المسلمين فأنزل الله ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي إن سبقكم وأنفلت منكم ﴿شَيْءٌ﴾ أي أحد ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلحقت بهم مرتدة وإيقاع شيء موقع أحد للتحقير والمبالغة في التعميم أو المعنى شيء من مهرو أزواجكم إلى الكفار فلم يؤدوها، أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال نزلت هذا الآية في أم الحكم بنت أبي سفيان إرتدت فتزوجها رجل ثقفي ولم ترتد امرأة من قريش غيرها ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قال البغوي قال المفسرون معناه غنمتم فاصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، وقيل معناه ظفرتم وكان العاقبة لكم، وقيل معناه اجتمعوهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ مرتدات إلى الكفار منكم من الغنايم التي صارت في أيديكم من الكفار ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي مثل ما أنفق المؤمنون الذين ذهب أزواجهم مرتدات عليهن، قال البغوي روى ابن عباس أنه قال لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة رجعن إلى الإسلام فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهورهن من الغنيمة أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزى بن فضلة وتزوجها عمر بن عبدو وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم بنت خردل كانت تحت عمر بن الخطاب، وقال البيضاوي وفي تفسير الآية فعاقبتم أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم لأداء المهر شبه الحكم بأداء هؤلاء مهور نساء اولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من المهر المهاجرة ولا توتوا زوجها الكافر، قلت والصحيح هو التفسير الأول، قال البغوي إختلف القول في أن أداء مهر من أسلمت أزواجهن هل كان واجباً أو مندوبا وأصله أن الصلح هل كان وقع على رد النساء أولا فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جيمعاً لما روى أنه لا يأتيك منا أحد إلا رددته ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فعلى هذا كان رد المهر واجباً عوضاً عن المرأة ثانيهما أن الصلح لم يقع على رد النساء لما روى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته ذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في

الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت عليها لضعف قلبها وقلة هدايتها إلى المخرج فيه بإظهار كلمة الكفر تقية مع إخفاء الإيمان فعلى هذا كان الرد مندوباً، قلت والظاهر أن الصلح على رد الرجال والنساء جميعاً ومن ثم إذا هاجرت نساى مؤمنات نزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولولا ذلك فلم يكن وجه لإرجاعهن إلى الكفار ولا لنزول الحكم وإن رد المهر كان واجباً كما يدل عليه صيغ الأمر وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إتيان ما أمر الله به فإن قيل فعلى هذا يلزم نقض العهد وهو حرام وقلنا نسخت حرمة نقض العهد في مادة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أو تقول هذا من قبيل نبذ العهد على السؤال، قال البغوي واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المهور إذا شرط رد النساء في معاقدة الكفار؟ فقال يوم لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة، قلت: لاوجه لهذا القول ما لم يثبت بهذا الحكم ناسخ مثله في القوة وقال قوم غير منسوخة ويرد إليهم ما انفقوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ حال من المؤمنات ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ متعلق بيبايعنك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ على عادة الجاهلية فإنهم كانوا يوادون البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ أي بكذب يبهت السامع ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي يختلقن ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني لا يكون له مصداق تختلقه من عند أنفسها قبل قيد بهذا توبيخاً وتخويفاً بأن الأيدي والأرجل يشهدون يوم القيامة بما صدر من اللسان من المعاصي فلا تفترين بين الشهود، قيل المراد به أن تلتقط ولدا وتقول لزوجها هذا ولدي منك فهو البهتان بين الأيدي والأرجل لأن الولد تحمله أمها في بطنها بين يديها وتضعه من فرجها بين رجليها وصفه بصفة الولد الحقيقي واللفظ يعم كل بهتان ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ يعني في إتيان حسنة فأمرهن بها أو لانتهاء عن سيئة تنهاهن والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر بالمعروف تنبيهاً على أنه لا يجوز طاعة المخلوق في معصية الخالق، قال مجاهد المراد بالمعروف أن لا يخلو المرأة بالرجال، وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمٰن بن زيد هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتحريق الثياب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه عند المصيبة ولا تحدث المرأة الرجال إلا ذا محرم ولا تخلوا برجل غير ذي محرم ولا تسافر إلا مع ذي محرم، وأخرج ابن الجرير والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أم سلمة ولا يعصينك في معروف قال النوح.

روى البخاري عن أم عطية قالت بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا لا تشركن بالله شيئاً فانطلقت ورجعت وبايعها[١] وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ «**أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال قطران ودرع من جرب**»[٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعاء الجاهلية**»[٣] وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال «لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة»[٤] ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذ الشروط جزاء لقوله إذا جاءك المؤمنات ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عما مضى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يحق ما سلف من العبد عصيانه ﴿رَّحِيمٌ﴾ يوفق فيما يأتي، روى البخاري عن عائشة قالت كان النبيّ ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية لا يشركن بالله شيئاً قالت وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها[٥]، وروى البغوي بسنده عن محمد بن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول بايعت رسول الله ﷺ في نسوة فقال فيما استطعتن وأطقتن فقلت رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا قلت يا رسول الله صافحنا فقال «إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة» قيل نزلت هذه الآية يوم الفتح وليس لك لما ذكرنا في تفسير آية الإمتحان حديث عائشة(رض) أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وآية الامتحان قد نزلت بعد صلح الحديبية ولكن النبيّ ﷺ يوم فتح مكة فرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا بايع النساء وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ يبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان مقنعة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن على أن تشركن بالله شيئاً» فرفعت هند رأسها فقالت والله إنك لتأخذ أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبيّ ﷺ ولا يسرقن فقالت هند إن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: بيعة النساء (٧٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اشروط، باب: ليس منا من شق الجيوب (١٢٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الحدود وشق الجيوب (١٠٣).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: في النوح (٣١٢٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: بيعة النساء (٧٢١٤).

أبا سفيان رجل شحيح وأني أصبت من ماله هناة فلا أدري أتحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ فقال لها وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال ولا تزنين، فقالت هند أو تزني الحرة؟ فقال ولا تقتلن أولادهن، فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ، فقال ولا تأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، فقالت هند والله إن البهتان قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال ولا يعصينك في معروف، قالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا ولي أنفسنا أن تعصينك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن، وإنما خصت النساء في البيعة بهذا التفصيل مع أن بيعة الرجال على الإسلام يشتمل إنقياد رسول الله ﷺ في جميع ما أمر به لضعف عقلهن وقلة تفقههن لاستنباط التفصيل من الإجمال ولكثرة وقوع الأمور المذكورة من النساء ألا ترى إلى كثير من النساء المسلمات يعتقدن ما يستلزم الشرك ويسرقن كثيراً من أموال الأزواج ويقتلن أولادهن بالواد والزنا من النساء وأقبح من الرجال غالباً لأن فيه تفويت حق الزوج مع حق الله تعالى ونسبة أولاد الغير إلى أزواجهن وإرائهن إياهم أموال الأزواج وإنهن تأتين كثيراً بالبهتان والكذب ويكثرن اللعن ويكفرن العشية ويكثرن النياحة الدعاء بالويل وضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك ما لا يفعله الرجال غالباً فلذا خصهن بتفصيل هذه الشروط كما خص الرجال بشرط الجهاد الذي اختص به والله تعالى أعلم.

أخرج ابن المنذر من طريق ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يوادون رجالاً من يهود فأنزال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني اليهود وكما يدل علمه قول ابن عباس المذكور وكذا قال البغوي أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين يتواصلونهم فيصيبون من ثمارهم فنهاهم الله تعالى عن ذلك وقيل المراد به عامة الكفار ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إن كان المراد بهم اليهود فهم ليعلمهم يكون محمد ﷺ نبياً حقاً مؤيداً بالمعجزات مكتوباً عندهم في التوراة وكفرهم به ﷺ عناداً وحسداً بتسلط الشيطان وما كتب الله عليهم الشقاوة يئسوا من نعماء الآخرة وعلموا يقيناً أنه لا حظ لهم في الآخرة مع اعتقادهم بالآخرة ونعمائها فما أصبرهم على النار أعوذ بالله منها وإن كان المراد به عامة الكفار فهم يئسوا من الآخرة بعدم إيمانهم بالغيب والثواب والعذاب ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي المشركين ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أن يبعثوا ويثابوا أو ينالهم

خيراً بينهم وعلى تقدير كون المراد بقوم غضب الله عليهم عامة الكفار وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الكفر أيسهم فالجار والمجرور ظرف لغو متعلق بيئس، وقيل هو ظرف مستقر بيان للكفار حال منه والمعنى كما يئس الكفار الذين صاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة كذلك يئس اليهود من الآخرة حياً في الدنيا كذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والله تعالى أعلم.

سورة الصف

آياتها أربع عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن سلام قال قعدنا نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعلمناه فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ قرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، وذكر البغوي قول المفسرين أن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله عز وجل لعملنا وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال قالوا لوكنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل لعلمنا فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ فكرهوا الجهاد فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن عباس نحوه وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس وابن جرير عن الضحاك قال

أنزلت ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في الرجل في القتال ما لا يفعله من الضرب والطعن والقتل، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في قولهم يوم أحد وقال محمد بن كعب لما أخبر الله رسوله ﷺ ثواب شهداء بدر قالت الصحابة لئن لقينا بعده قتالاً لنفرغن فيه وسعنا خفروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية، وقال ابن زيد نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ المقت أشد الغضب ونصبه على التميز من نسبة كبر إلى فاعله وهو أن تقولوا وفيه دلالة على أن قولهم هذا مقت خالص كبير عند الله الذي يحقر دونه كل عظيم مبالغة في المنع من أن يقولوا كذبا ما لا يفعلوه أو يعدوا شيئاً ثم لا يفوا به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي مصطفين مصدر بمعنى الفاعل أو وصف به مبالغة، وجاز أن يكون صفاً مصدر بفعل محذوف والجملة حال من فاعل يقاتلون تقديره يصفون في أنفسهم صفاً لا يزالون في القتال عن أماكنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في تراصهم من غير فرجة وبلا تحرك للفرار حال من المستكن في الحال الأول والرص إتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه ﴿وَ﴾ آذكر ﴿إذ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالعصيان والرمي بالأدرة وهي نفخة في الخصيتين ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم بالمعجزات وانجيتكم من أهل فرعون يسومونكم سوء العذاب، وجاوزت بكم البحر والعلم بالنبوة يوجب التعظيم ويمنع الإيذاء ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي عدلوا عن الحق ولم يمتنعوا عن الإيذاء ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هداية موصولة إلى معرفة الحق أو الجنة، قال الزجاج لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لعله لم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ أي من قبل ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ أسكن الباء ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وفتحها الباقون ومصدقاً ومبشراً حالان من ضمير إني رسول الله والعامل فيهما وفي الرسول من معنى الإرسال لا الجار والمجرور فإنه ظرف لغوصلة للرسول فلا يعمل ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهو أحد إسمي رسول الله ﷺ أفعل من الحمد يعني أكثر حامدية لله تعالى من غيره والأنبياء كلهم حمادون وأكثر محمودية من غيره من المخلوقات والأنبياء كلهم محمودون موصوفون بالخصال الحميدة وهو ﷺ أكثر مناقباً وأجمع خصائلاً ومحاسناً بها يستحق الحمد من غيره، قال المجدد(رض) إسمه ﷺ أحمد له خصوصية بنشأ الروحانية، ولذلك سماه عيسى بذلك الاسم قبل إنشاء العنصرية بالجسمانية واسمه عليه السلام محمد له خصوصية

بنشأ الجسمانية وله ولايتان ولاية محمدية وهي المحبوبية الممتزجة بالمحبة وولاية أحمدية وهي المحبوبية الخالصة، فعلى هذا الأولى أن يقال اشتقاقه من المحمودية والله تعالى أعلم، ذكر عيسى عليه السلام تصديقه بالأنبياء حتى يكون دليلاً على صدق دعواه الرسالة فإن الحق يطابق الحق والأنبياء وشهداء بعضهم لبعض فذاك أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين الذي بشر به الأنبياء كلهم والتوراة وغيرها من الكتب السماوية ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى أو أحمد ﷺ ﴿بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وبالقرآن المعجز الباقي بمضي الدهور والأزمان وشق القمر وغير ذلك ما لا يحصى والظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني كفار بني إسرائيل أو كفار قريش وغيرهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ قرأ حمزة ساحر إشارة إلى عيسى أو محمد ﷺ وقرأ الباقون سحر إشارة إلى ما جاء به المعجزات ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر ﴿وَمَنْ﴾ يعني لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ نسبة الشريك والولد إليه وبأن قالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾(١) و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾(٢) أو قال شريعة موسى شريعة مؤبدة إلى يوم القيامة ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الظاهر حقيقة المقتضى له خير الدارين فيضع موضع الإجابة الإفتراء على الله ويكذب رسله ويسمى آياته سحراً حال من فاعل أفترى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من كان في علمه القديم ظالماً، فالله لا يرشده الحق وإلى ما فيه فلاحه ﴿يُرِيدُونَ﴾ حال للقوم الظالمين أو إستئناف في جواب قائل يقول ما شأنهم ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ أن يطفؤا واللام مزيدة لما فيه من معنى الإرادة كما زيدت في لا أبالك لما فيها من معنى الإضافة أو للمتعليل والمفعول به محذوف أي يريدون الإفتراء ليطفؤا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي دينه ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بمقالاتهم الكاذبة المفتراة كمن يريد أن يطفىء نور الشمس والقمر يطف ففيه إشارة إلى تمثيل لطيف ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مبلغ غايته بنشره وإعلائه، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإضافة والباقون بالتنوين والنصب ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كلمة لو متصلة للتسوية والجملة حال أي مستويا كراهة المشركين وعدمها يعني أنه تعالى لا يبالي في إعلاء دينه كراهة المشركين ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمد ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بما يهتدي به الناس إلى الحق، من القرآن والمعجزات الباهرة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي دين الله وهو الملة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

الحنيفة البيضاء ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بالسيف والحجة ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي جميع الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ قد مر نظيره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد من التفصيل للتكثير والباقون مخففاً من الإفعال ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما أن تجارة الدنيا تنجي من الفقر وعذاب الجوع ونحو ذلك، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ قال المسلمون لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فنزل قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بيان للتجارة يعني هي الجمع بين الإيمان وبين المجاهدة بالأموال والأنفس سمي تجارة لأن فيه مبادلة الأموال والأنفس بنعيم الآخرة ورضوان الله ومبادلة الأهواء يعني العقائد الباطلة بالعلوم الحقة المكفى عنها بالإيمان وفيه مرابحة صريحة، أورد لفظ الخبر والمراد به الأمر إيذاناً بأن هذا الشيء لا يترك، وإشعاراً بمدح الصحابة بأنهم معتادون بذاك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الجمع بين الإيمان والمجاهدة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الأهواء والأنفس والأموال ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى إن كنتم تعلمون كونه خيراً فأتوا به ولا تتركوه والمعنى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان حينئذ خيراً لكم حيث تحبون الإيمان والجهاد وفوق كل شيء ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي الله سبحانه ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ للأمر المدلول عليه بقوله تؤمنون وتجاهدون تقديره إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم أو للاستفهام المدلول عليه للإستفهام المذكور تقديره هل تقبلون أن أدلكم أن تقبلوا يغفر لكم، ولا يجوز أن يكون جواباً باطل أدلكم لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة إلا أن يقال أن الدلالة سبب للعمل والعمل يوجب المغفرة فقد رتب المسبب على سبب السبب إيذاناً بقوة سببية دلالته وإرشاده ﷺ للإهتداء بقوة تأثير نفسه الشريفة ووضوح أمره بحيث لا

يضل بعدها إلا من هو أشقى الناس في علم الله تعالى وأخبث الإستعداد ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ عطف الجزء على الكل ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي استقرار وثبات يقال عدن بمكان كذا أي استقر ومنه المعدن المستقر للجوهر، قال القرطبي قيل الجنات سبع دار الحلال ودار السلام ودار الخلد وجنة عدن وجننة المأوى وجنة نعيم وجنة الفردوس وقيل أربع فقط كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[(١)] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾[(٢)] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[(٣)] والأربعة كلها يوصف بالمأوى والخلد والعدن والسلام، وهذا ما اختاره الحكيم أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عمر قال: خلق الله تبارك وتعالى أربعاً بيده العرش وعدن والقلم وآدم ثم قال لكل شيء كن فكان، وأخرج ابن المبارك والطبراني وأبو الشيخ والبيهقي عن عمران بن حفصين وأبي هريرة قال سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قال قصر من اللؤلؤ في ذلك القصر داراً من ياقوت حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد خضراء في كل بيت سرير على كل سرير سبعون لوناً من الطعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ويعطي المؤمن في كل غداة من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المغفرة وإدخال الجنة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يستحقر بالنسبة إليه كل فوز ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ مرفوع على الإبتداء والخبر محذوف أي ذلك نعمة عاجلة أو منصوب بإضمار يعطيكم أو تحبون أو مجرور عطف على تجارة، يعني هل أدلكم على تجارة تنجيكم وتجارة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ صفة الأخرى وفيه تعريض أن الناس يؤثرون العاجل على الأجل ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل يعني النصرة على قريش وفتح مكة أو فتح خيبر وقال عطاء يريد فتح فارس والروم، قلت: الظاهر أن المراد جنس النصرة والفتح فإنهما يترتبان على السعي والمجاهدة من العبد قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[(٤)] فإن كان أخرى مرفوعاً على الإبتداء والخبر محذوف فقوله نصر وفتح بدل أو بيان وجاز أن يكون أخرى مبتدأ

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ (٤٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٠.

وهذا خبره وعلى قول النصب والخبر هذا خبر مبتدأ محذوف أي هو نصر وفتح والجملة صفة الأخرى أو استئناف ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما وعدهم عليها عاجلاً واحداً عطف على محذوف تقديره قل يا محمد ياأيها الذين آمنوا أهل أدلكم وبشرهم أو على تؤمنون فإنه في معنى الأمر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم أيها الرسول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دينه قرأ الكوفيون وابنعامر بالإضافة والحجازيون وأبو عمرو بالتنوين ولام في الله على أن المعنى كونوا بعض أنصار الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ تشبيه باعتبار المعنى والمراد قل يا محمد ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى أو كونوا أنصار الله كما كان الحواريون حين قال عيسى ابن مريم ﴿للحواريين﴾ قد مر تحقيق الحواريين في سورة آل عمران ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ فتح الياء نافع وأسكنها الباقون أي جندي متوجهاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى نصر دينه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أول من آمن به وكانوا إثنا عشر رجلاً كما مر هناك ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إضافة الأنصار إلى عيسى إضافة أحد المتشاركين إلى الأخرى لما بينهما من الاختصاص والإضافة إلى الله أي إلى دينه إضافة الفاعل على المفعول ﴿فَـَٔامَنَت﴾ بعيسى ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اسبقهم إلى الإيمان الحواريون ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ معهم ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالحجة أو بالحرب ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين قال البغوي قال ابن عباس لما رفع عيسى تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال وروى المغيرة عن إبراهيم قال أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه، قلت لكن عطف قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت﴾ وقوله تعالى فأَيَّدْنَا وفَأَصْبَحُوا على قوله قال الحواريون بكلمة الفاء التي للتعقيب بلا تراخ يدل على أن بعضهم كفر من بعض وتأيده الله تعالى للمؤمنين وظهورهم على الكافرين بعد قول الحواريين ذلك بلا مهلة والله تعالى أعلم.

سورة الجمعة

آياتها إحدى عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ المتزه عما لا يليق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في ملكه وصنعه فإن كل شيء يدل على وجوده وينزه عما لا يليق بشأنه وأيضاً كل شيء وإن كان جماداً فله نوع من الحياة والشعور فيقر بوحدانيته ويسبحه ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني العرب كان أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي من جملتهم أمياً مثلهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ تعالى مع كونه أمياً لم يعهد منه قراءة ولا تعلماً ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك والخبائث ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ المعجز البليغ الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتون بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الشريعة المحكمة المطابقة بشرائع الأنبياء في الأصول المشهود عليها بالكتب السماوية بالقبول ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ يعني وأنهم يعني العرب كانوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بعثته ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر بطلانه حيث يعبدون الحجارة ويأكلون الجيفة ويقولون ويعتقدون ما لا يقبل العقل والنقل ﴿وَآخَرِينَ﴾ عطف على الضمير المنصوب في يعلمهم أي ويعلم أمما آخرين منهم أي كائنين من جنس الأولين حيث يدينون بدينهم ويسلكون على طريقهم، قال عكرمة ومقاتل هم التابعون، وقال ابن زيدهم جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة وهي رواية ابن نجيح عن مجاهد، وقال

عمرو بن سعيد بن جبيرو ليث عن مجاهدهم العجم لحديث أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ قال رجل من هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه رسول الله ﷺ حتى سأل مرتين أو ثلاثاً قال فينا سلمان الفارسي قال فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء**»(١) متفق عليه، وفي رواية عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كان الدين عند الثريا بالذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه**» قلت هذا الحديث يدل على فضل رجال من العجم وإنهم ممن أريد بهذه الآية ولا دليل على نفي خيرهم على ما يدل عليه عموم الآية ولعل المراد لقوله ﷺ من هؤلاء أبناء فارس أكابر النقشبندية(رض) فإنهم من آل بخارى أو سمرقند ونحو ذلك وهم منتسبون في الطريق إلى سلمان الفارسي(رض) فإنهم ينتسبون إلى جعفر الصادق عن القاسم بن محمد عن سلمان عن أبي بكر الصديق عن رسول الله ﷺ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم وقيل لما يلحقوا بهم في الفضل والثواب لأن التابعين ومن بعدهم لا يدركون فضل الصحابة حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد ويرد على هذا التأويل أن المراد لو كان كذلك لورد بصيغة المضارع أي لا يلحقوا بهم في المستقبل من الزمان دون الماضي فإن لما يقتضي نفي اللحوق في الماضي والتوقع في المستقبل إلا أن يقال إلا يراد بصيغة الماضي للدلالة على تحقيق وجودهم ونفي للحوق المستفاد من كلمة لا نظراً إلى الأكثر وتوقع اللحوق نظراً إلى بعض من يأتي بعدهم ولو بعد ألف سنة فكأنه إشارة إلى المجدد ألف ثاني وكمل خلفائه فإنهم بلغوا بكمال متابعة النبيّ ﷺ ووراثته تبعاً ونيل أقصى كمالاته واكتسبوا كمالات النبوة والرسالة وأولي العزم والخلة والمحبة والمحبوبية التي لم يتحقق بعد الصدر الأول فاشتبهوا بالصحابة فصار مثل لأمة المرحومة كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أوآخره كما قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أو آخره أو كحديقة أطعم فوج منها عاماً ونوج منها عاماً لعل أخرها فوجاً هي أعرضها عرضاً**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ (٤٨٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس (٢٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذا خليلا» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

وأعمقها عمقاً وأحسنها حسناً» رواه رزين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم الخارق للعادة وتأييده عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في اختياره وإياه من بين كافة البشر وتعليمه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي بعثة محمد ﷺ وتعليمه وتزكية الضالين ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ على محمد ﷺ حيث إصطفاه وجعله هادياً وعلى من اتبعه حيث هداهم وزكاهم به عليه السلام ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ عطائه ويقتضيه حكمته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقر دونه كل نعمة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علموها وكلفوا بالعمل بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي لم يعملوا بما فيها ولم ينتفعوا بها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها وجملة يحمل حال من الحمار والعامل فيه معنى المثل أو صفة له إذ ليس المراد الحمار المعين نظيره ولقد أمر على اللئيم يسبني وهكذا كل عالم لا يعمل بعلمه، قال رسول الله ﷺ: «**اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[1] رواه ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم اليهود كذبوا بالقرآن وبآيات التوراة الدالة على نبوة محمد ﷺ، والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثل القوم المكذبين مثلهم أو هو الموصول بحذف المضاف أي بئس القوم مثل الذين كذبوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقت اختيارهم الظلم أو لا يهدي من سبق في علمه أنه يكون ظالماً.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي تهودوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ فأنهم كانوا يقولون نحن أولياء الله وأحباءه ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني محمداً ﷺ وأصحابه ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي ادعوه من دون الله تعالى على أنفسكم حتى تنقلوا من دار البلية إلى دار الكرامة فإن الموت جسر توصل الحبيب إلى الحبيب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم فتمنوه وقد ذكرنا مسألة جواز تمني الموت وعدمه في صورة البقر في مثل هذه الآية ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنهم يعلمون علماً يقيناً أنهم استحقوا النار الكبرى بسبب ما قدموا من

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢).

الكفر والمعاصي وتحريف آيات التوراة الناطقة ببعث محمد ﷺ فكيف يتمنون الموت الموصلة إلى النار فإنهم أحرص الناس على حياة يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وأشد خوفاً وفراراً من الموت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيجاديهم على ما قدموا ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أيها اليهود أي تخافون أشد المخافة من أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم ولا تجزون على تمنيه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ لا حق بكم لا محالة لا ينفعكم الفرار منه، الجملة خبر أن ذكر الله سبحانه أن المؤكدة في الجملة مكرراً لكمال التأكيد نظراً إلى كمال إصرارهم على الكفر والمعاصي الذي كان هو الدليل على شدة إنكارهم الموت، والفاء لتضمن الإسم معنى الشرط باعتبار الوصف كأنه فرارهم يسرع لحوقه بهم فكأنه سبب اللحوق وذلك أن الفرار من الموت موجب للغفلة عنه وفي الغفلة لا يظهر طول البقاء في الدنيا ويظهر كأنه الموت جاء سريعاً ومن كان ذكر الموت مشتاقاً له يشق عليه البقاء في الدنيا وينتظر الموت غالباً فيظهر عليه طول الحياة وبعد الموت لشدة اشتياقه، وجاز أن يكون الخبر محذوفاً والفاء للتعليل والتقدير أن الموت الذي تفرون منه لا ينفعكم الفرار منه فإنه أي لأنه ملاقيكم البتة وحينئذ لا يلزم تكرار أن على حكم واحد وجاز أن يكون الموصول خبراً لأن الفاء عاطفة يعطف على الخبر أو على الجملة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أذن من ﴿يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيان لإذ أو قيل من هاهنا بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[1] أي في الأرض.

اختلف العلماء في تسمية هذا اليوم بالجمعة مع الإتفاق على أنه كان يسمى في

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

الجاهلية بالعروبة معناه اليوم البين المعظم من أعرب إذا بين، قيل أول من سماه جمعة كعب بن لؤي وهو أول من قال أما بعد كانت تجمع إليه قريش في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبيّ ﷺ ويعملهم بأنه من مولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به وينشد في ذلك أبياتاً منها قوله: يا ليتني شاهداً نجواء دعوته. إذا قريش تبتغي الحق خذلانا. وكان بنو إسماعيل يؤرخون ببناء الكعبة فلما مات كعب بن لؤي أرخ الناس من موته حتى كان عام الفيل وهو مولد النبيّ ﷺ فأرخ الناس منه إلى أن هاجر النبيّ ﷺ وكان بين موت كعب ومبعث النبيّ ﷺ خمسمائة وستون سنة كذا في شرح خلاصة السير، وقيل سمي بالجمعة لأن الخلائق يجمع فيه كذا ذكر أبو حذيفة البخاري في المبتدأ عن ابن عباس وإسناده ضعيف وقيل لأنه جمع فيه خلق آدم عليه السلام، روى أحمد والنسائي وابن خزيمة وابن حبان عن سلمان(رض) أن رسول الله ﷺ قال أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات قال في الثالثة «هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم» الحديث، وله شاهد عن أبي هريرة رواه ابن أبي حاتم موقوفاً بإسناد قوي وأحمد موقوفاً بإسناد ضعيف قال الحافظ ابن حجر وهذا أصح ويليه ما رواه عبد الرزاق عن ابن سيرين بإسناد صحيح إليه في قصة اجتماع الأنصار مع أسد بن زرارة (رض) وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة صلّى بهم وذكرهم فسموه يوم الجمعة وذلك قبل قدوم النبيّ ﷺ أن يجمع فكتب إلى مصعب بن عمير (رض) أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسنتهم فاجمعوا فيه نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين، قال: أول من جمع مصعب حتى قدم رسول الله ﷺ وفي سنده أحمد بن محمد بن غالب الباهلي وهو متهم بالوضع قال الزهري والمعروف في هذا المتن الإرسال، وقيل كان ذلك باجتهاد الصحابة روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن ينزل الجمعة فقالت الأنصار إن لليهود يوماً يجمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلم فلنجعل يوماً فجمع فيه فنذكر الله ونصلّي ونشكر فجعلوا يوم العروبة واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وأنزل الله عز وجل بعد ذلك ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ قال الحافظ هذا وإن كان مرسلاً فله شاهد بإسناد حسن رواه أبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وغير واحد من حديث كعب بن مالك (رض) عنه قال كان أول أول من صلّى بن الجمعة، قبل مقدم النبيّ ﷺ المدينة أسعد بن زرارة[1] الحديث أو كان كعب إذا سمع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (١٠٨٢).

نداء الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة قال عبد الرحمن بن كعب قلت لكعب كم كنتم يومئذ؟ قال أربعون فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد ولا يمنع ذلك أن يكون النبيّ ﷺ علم بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها كما في حديث ابن عباس والمرسل بعد ذلك ولذلك جمع بهم رسول الله ﷺ أول ما قدم المدينة.

قصة: مقدم النبيّ ﷺ المدينة وأول جمعة صلّى: روى البخاري عن عائشة (رض) وابن سعد عن جماعة من الصحابة أن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرون حتى تعليهم الشمس على الظلال ويؤذيهم والظهيرة وذلك في أيام حارة، حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت فإذا رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فنظر رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته يا بني قبيلة يعني الأنصار هذا صاحبكم الذي تنتظرون فثار المسلمون فتلقوا رسول الله ﷺ ذلك يوم الإثنين لهلال ربيع الأول أي أول ليلة، وفي رواية جرير بن حازم عن أبي إسحاق لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق لاثني عشر ليلة خلت وعند أبي سعيد لثلاث عشرة من ربيع الأول، قال الحافظ الأكثر أنه قدم نهاراً ووقع في رواية لمسلم ليلاً ويجمع بأن القدوم كان كان آخر الليل فدخل بها نهاراً، فنزل رسول الله ﷺ بهم قباء في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم وأبو بكر حبيب بن أساف أحد بني الحارث فصاح كلثوم بغلام له يا نجيح فقال رسول الله ﷺ نجحت يا أبا بكر وكان لكلثوم بن هدم بقبا مربد يعني الموضع الذي يبسط فيه التمر ليجف فأخذه رسول الله ﷺ وبناه مسجداً في الصحيح أقام رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وفي رواية عبد الرزاق بنى المسجد بنو عمرو بن عوف، وفي الصحيح أنه ﷺ أقام فيهم بضع عشر ليلة وفيه عن أنس أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وقال ابن إسحاق خمس ليال وقال ابن حبان أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وقال ابن عباس وابن عقبة ثلاث ليال فكأنهم لم يعتد اليوم الخروج ولا الدخول وعن قوم من بني عمرو بن عوف أنه أقام إثنين وعشرين يوماً. روى أحمد والشيخان عن أبي بكر وسعد بن منصور عن ابن الزبير وابن إسحاق عن عويم بن ساعد وغيرهم أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النجار وكانوا إخوانهم لأن أم عبد المطلب كانت منهم فجاؤا متقلدين بالسيوف فقالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه إركبوا آمنين مطاعين وكان اليوم يوم الجمعة فركب رسول الله ﷺ ناقته القصوى والناس معه عن يمينه وشماله وخلد منهم الراكب والماشي فاجتمعت بنو عمرو بن عوف

فقالوا يا رسول الله أخرجت حلالاً أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها أي ناقة فإنها مأمورة فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة فتلقاه الناس يقولون الله أكبر جاء رسول الله ﷺ.

روى البيهقي عن عائشة جعل النساء والولائد والصبيان يقلن طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى لله داع، أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع، وروى أحمد عن أنس «أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً برسول الله ﷺ» روى البخاري عن البراء قال: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[1]. فلم يمر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا هلم يا رسول الله أتى للفرد المنعة والثروة فيقول لهم خيراً ويدعوا ويقول إنها مأمورة خلوا سبيلها فمر ببني سالم فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أنزل فينا العدد والعدة والحلقة ونحن أصحاب العصباء والحدائق والدرك يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفاً يلجأ إلينا فجعل رسول الله ﷺ يتبسم ويقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فقام إليه عبد الله بن الصامت وعباس بن فضلة فجعلا يقولان يا رسول الله ﷺ إنزل فينا فيقول بارك الله عليكم إنها مأمورة فلما أتى مسجد بني سالم وهو المسجد الذي في الوادي وادي وانونا، قال البغوي أدركت الجمعة في بني سالم بن عمرو بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ اليوم في ذلك مسجداً فصلاّها في ذلك الوادي، قيل كانت أول جمعة صلاها في المدينة وأول خطبة خطبها في الإسلام وقيل إنه كان يصلّي في مسجد قباء عند ابن سعد أنه ﷺ لما علي صلّي معه الجمعة مائة نفس ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق فمر ببني ساعدة فقال سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وأبو دجانة هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد، وسعد يقول يا رسول الله ليس من قومي أكثر غدقاً ولا قم بئر مني مع الثروة والجلد والعدو فيقول رسول الله ﷺ يا أبا ثابت خل سبيلها فإنها مأمورة فمضى واعترضه سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وبشر بن سعد فقالا أين يا رسول الله لا تجاوزنا واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمر يقولان نحو ذلك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ثم مر ببني عدي البخاري وهم أخواله، فقال أبو سليط وصرفة بن أبي أنيس يا رسول الله نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله ليس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (٣٩٢٥).

أحد من قومنا أولىٰ بك لقرابتنا بك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة فصارت حتى وازيت دار بني عدي ابن النجار قامت إليه وجوههم ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد فبركت على باب مسجد النبيّ ﷺ فجعل جبار ابن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فلم يفعل فنزل رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب هذا المنزل إن شاء الله تعالى فنزل رسول الله ﷺ وقال: «**اللّهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**» قال أربع مرات.

روى الطبراني عن ابن الزبير نزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب ونزل معه زيد بن حارثة قال ابن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيجان: إن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة بناه تبع الأول وكان معه أربعمائة أحبار فتعاقدوا على أن لا تخرجوا منها فسألهم تبع عن سر ذلك فقالوا إنا نجد في كتابنا أن نبياً اسمه محمد ﷺ هذه دار هجرته فنحن نقيم لعلنا نلقاه فأراد تبع الإقامة معهم ثم بدا له فعمر لكل واحد من أولئك داراً واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالاً جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامه وفيه شهد على أحمد أنه رسول الله ﷺ بارىء النسم فلولا عمري إلى عمره لكنت وزيراً أو ابن عم، وختم بالذهب ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ أن أدركه وإلا فمن أدركه من ولده وولد ولده وبنى للنبي ﷺ داراً لينزلها إذا قدم المدينة فدار الدار إلى إعلائك إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم وأهل المدينة الذين نصروه من أولاد أولئك العلماء، ويقال: إن الكتاب الذي فيه الشعر كان عند أبي يوسف حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ وهو غريب فيما نزل رسول الله ﷺ إلقاء في بيته والله تعالى أعلم.

مسألة:

قيل المراد بهذا النداء في الآية الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة لحديث ابن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمكام على المنير على عهد النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء[١]، وتسميته ثالثاً باعتداد الإقامة ثاناً فعلى هذا قيل السعي إلى الجمعة وترك البيع ونحوه إنما يجب بالنداء الثاني والصحيح أن السعي وترك البيع ونحوه يجب بالأذان الأول لعموم قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ وصدقه على الأذان الأول أيضاً ﴿فَٱسْعَوْا﴾ يعني فامضوا أو كان عمر بن الخطاب يقرأ فأمضوا وكذلك هي في قراءة ابن مسعود،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الأذان يوم الجمعة (٩١٢).

وقال الحسن أما والله ما هو بالسعي عن الإقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وعن قتادة في هذه الآية أنه قال السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾(١) يعني فلما مشى معه، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٢) وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾(٣) أي عملكم لشتى وقد نهى رسول الله ﷺ السعي بمعنى العدو عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**»(٤) رواه الستة في كتبهم، وروى أحمد وما فاتكم فاقضوا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني الصلاة وقال سعيد بن المسيب هو موعظة الإمام يعني الخطبة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أراد ترك ما يشغل عن الصلاة والخطبة وإنما خص البيع بالذكر لاشتغالهم غالباً بعد الزوال في الأسواق بالبيع والشراء فلو عقد البيع في الطريق وهو يمشي إلى الجمعة لا بأس به ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السعي إلى الصلاة وترك ما يشغل عنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البيع والشراء وغير ذلك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مصالح أنفسكم شرط مستغن عن الجزاء بما مضى. مسألة: يحرم البيع عند أذان الجمعة إجماعاً حيث يوجب الإثم وهل يصح إنعقاداً؟ قال مالك وأحمد لا ينعقد، وقال أبو حنيفة والشافعي ينعقد وهذه المسألة مبنية على مسألة أصولية فإن النهي عن الأفعال التي لا وجود لها إلا باعتبار الشرع كالصلاة في الأرض المغصوبة والبيع ونحو ذلك باشرط الفاسد يوجب القبح بغيره فيقتضي صحة العقد حتى يتحقق الإبتلاء عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لا سيما في البيع وقت النداء فإن القبح هاهنا إنما هو لأمر مجاور لا في صلب العقد أصلاً فلا يكون البيع فاسداً أيضاً كما يكون فاسداً بالشروط الفاسدة وعند أكثر الأئمة يوجب القبح لذاته كما أن النهي عن الأفعال الحسية كالزنا والسرقة يوجب القبح لذاته اتفاقاً لأنه الأصل في المنهي عنه، لكن الشافعي في هذه المسألة وافق أبا حنيفة وقال صح البيع نظراً إلى أن النهي إنما هو لأمر مجاور وهو الاشتغال عن الصلاة والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة الليل، الآية: ٤.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى المسجد (٣٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: السعي إلى الصلاة (٥٧١)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار (٦٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة (٦٠٢).

فصل:

إعلم أن الجمعة فريضة محكمة باالكتاب والسنة والإجماع يكفر جاحدها إما الكتاب فهذه الآية أمر في السعي ورتب الأمر بالسعي للذكر على النداء للصلاة فالظاهر أن المراد بالذكر الصلاة ويجوز أن يراد به الخطبة والأولى أن يراد به الخطبة والصلاة جميعاً لصدقه عليها معاً. وأما السنة فحديث أبي هريرة قال قال رسول الله: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا له والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد**»(١) متفق عليه، وعن أبي عمر وأبي هريرة قالا سمعنا رسول الله ﷺ يقول على اعواد المنبر: «**لينتهين أقوام على ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**»(٢) رواه مسلم وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة «**لقد هممت أن آمر رجلاً يصلّي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم**»(٣) رواه مسلم وعن طارق بن شهاب قال قال: رسول الله ﷺ «**الجمعة حق واجب على كل مسلم في الجمعة إلا على أربعة: مملوك أو إمرأة أو صبي أو مريض**»(٤) رواه أبو داود، وقال طارق رأى النبيّ ﷺ ولم يسمع منه، قلت فالحديث مرسل صحابي وهو حجة إتفاقاً، قال النووي الحديث صحيح على شرط الشيخين، وأخرج البيهقي من طريق البخاري عن تميم الداري قال الجمعة واجبة إلا على ضبي أو مملوك أو مسافر رواه الطبراني عن الحاكم وابن مردويه، وزاد فيه المرأة والمريض، وعن أبي جعد الضميري وكانت له صحبة عن النبيّ ﷺ قال: «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه**»(٥) رواه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وحسنه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة (٨٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: التغليظ في ترك الجمعة (٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الجمعة للمملوك والمرأة (١٠٦٦).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر (٤٩٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشديد في ترك الجمعة (١٠٥١)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: التشديد في التخلف عن الجمعة (١٣٦٣).

وعن عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «**من ترك الجمعة من غير عذر كتب منافقاً في كتاب لا يمحىٰ ولا يبدل**»(١) وفي بعض الروايات «ثلاثاً» رواه الشافعي ورواه أبو يعلى بلفظ «من ترك ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» ورجاله ثقات وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا مريض أو مسافر أو المرأة أو صبي أو مملوك فيمن إستغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد» رواه الدارقطني، فأجمع العلماء أنه فرض على الأعيان وغلط من قال هي فرض كفاية.

مسألة:

لا يجب الجمعة على المسافر إجماعاً وحكي عن الزهري والنخعي وجوبها على المسافر إذا سمع النداء ولا عبد ولا امرأة إلا في رواية عن أحمد في العبد خاصة، وقال داود يجب واختلفوا في المكاتب والمأذون والعبد الذي حضر مع مولاه على باب المسجد لحفظ الدابة إذا لم تخل بالحفظ والحجة في عدم وجوب الجمعة على العبد مطلقاً ما مر في الأحاديث من الاستثناء للمملوك.

مسألة:

لا تجب الجمعة على الأعمى إذا لم يجد قائداً إليها بالإتفاق فإن وجده وجبت عليه عند مالحك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة لا تجب، إحتج الجمهور بما مر من الأحاديث إذ ليس فيه إستثناء الأعمى قلنا هو داخل في المريض والمريض وكل من كان له عذر أو خوف لا تجب علينا الجمعة إجماعاً وكذلك الشيخ الكبير ومن كان متعهد المريض، قالوا الأعمىٰ إذا وجد قائداً صار قادراً كالبصير، قلنا إنه غير قادر بنفسه وقدرته بغيره لا يعتبر كالزمن إذا وجد من يحمله.

مسألة:

يجوزترك الجمعة بعذر المطر والوحل، روى البخاري في الصحيح عن محمد بن سيرين قال قال ابن عباس لمؤذنه يوم المطر إذا قلت أشهد أن محمد رسول الله فلا تقل حي على الصلاة فقل صلوا في بيوتكم فكأن الناس استنكروا فقال فعله من هو خير مني أن الجمعة عزيمة وإني كرهت أن أخرجكم فتمشوا في الطين والدحض(٢). مسألة إذا حضر

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده الجزء الأول/ الباب الحادي عشر في صلاة الجمعة (٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الرخصة إن لم يحضر الجمعة في المطر (٩٠١).

الجمعة عبد أو مسافر أو امرأة أو مريض صح عنه الجمعة وسقط عنه الظهر إجماعاً.

مسألة:

تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين إذا لم يكن فيهم حرا ومقيم إذا كانوا في مصر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لا بالنساء والصبيان إجماعاً وعند الثلاثة لا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين ولا يتم بهم العدد بل لا بد للجمعة أربعين أحراراً مقيمين أو خمسين أو ثلاثة على إختلاف الأقوال وأما المعذورون بالمرض أو الخوف أو المطر والأعمى أو الزمانة فيتم بهم اعدد إتفاقاً لنا أن الجمعة واجبة على الرجال كلهم دون النساء إجماعاً ودون الصبيان لكونهم غير مكلفين لعموم قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولكن رخص في تركها العبيد والمسافرين وأصحاب العذر فمن أتى منهم بالجمعة فقد أتى بالعزيمة فيصح جمعة كالمسافر إذا صام رمضان يتأدى من صومه فرضه.

مسألة: كره ظهر المعذور والمسجون في المصر بجماعة عند أبي حنيفة وقال مالك والشافعي وأحمد أنه لا يكره بل يسن وكذا من فاته الجمعة بلا عذر والله أعلم.

مسألة:

الخطبة شرط لانعقاد الجمعة إجماعاً لقوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إذ المراد به الخطبة، ومن هاهنا قال أبو حنيفة لو اقتصر في الخطبة على تسبيحة أو تحميدة لكفى لأن ذكر الله يعم الطويل والقصير ولا إجمال فيه، وهذا الاستدلال ضعيف لاحتمال كون المراد بذكر الله الصلاة فالأولى أن يقال سند الإجماع على اشتراط الخطبة مواظبة النبيّ ﷺ كما نقل إلينا متواتراً أو مواظبته يقتضي إشتراط ذكر طويل يسمى في العرب خطبة وبه قال أبو يوسف ومحمد ومالك والشافعي وأحمد على أنه لو كان المراد بذكر الله الخطبة فالإضافة للعهد والمعنى فاسعوا إلى ذكر الله الذي يفعله النبيّ ﷺ فعلى هذا أيضاً يشترط أن يكون ذكراً طويلاً، وما روي أن عثمان صعد المنبر في أول جمعة وولى الخلافة قال الحمد لله فأرتج عليه فقال أبو بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالات وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال وسيأتيكم الخطب بعد وأستغفر الله لي ولكم ونزل وصلّى بهم ولم ينكر عليه أحد منهم فأهل الحديث لا يعرفونه والله أعلم.

مسألة: يجب عند الشافعي ومالك الخطبة قائماً ويجب الجلسة بين الخطبتين عند الشافعي وقال أبو حنيفة وأحمد لا يجب القيام في الخطبة ولا الجلوس بينهما والدليل على الوجوب النقل المستفيض، روى مسلم عن جابر بن سمرة أنه رأى رسول الله ﷺ يخطب

قائماً على المنبر ثم يجلس ثم يخطب قائماً فقال جابر فمن أنبأك أنه كان يخطب قاعداً فقد كذب فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة[1]، وروى الشافعي عن جابر بن عبد الله كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس، وروى مسلم عن جابر بن سمرة «كانت للنبيّ ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس عن ابن عمر قال كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة مرتين بينهما جلسة» متفق عليه، وروى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد يوم الجمعة وابن أم الحكم يوم الجمعة مرتين بينهما جلسة» متفق عليه، وروى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد يوم الجمعة وابن أم الحكم يخطب قاعداً فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ إحتج ابن همام بهذا الحديث إن القيام ليس بواجب حيث لم يحكم كعب ولا غيره بفساد صلاة ابن الحكم فعلم أنه ليس بشرط عندهم والله تعالى أعلم.

مسألة:

سن أن يشتمل الخطبة على خمسة أشياء: حمد الله تعالى والصلاة على رسوله ﷺ والوصية بالتقوى وقراءة القرآن والدعاء للمؤمنين والمؤمنات وكلها واجبة عند الشافعي ويشترط الطهارة في الخطبتين على الراجح من مذهب الشافعي وعندالجمهور لا يشترط.

مسألة:

يشترط في الخطبة حضور واحد عند أبي حنيفة لتحقيق معنى التخاطب وعند الشافعي وغيره لا يجوز للإمام أن يبدىء بالخطبة قبل اجتماع العدد وهو الأربعون عند الشافعي أو خمسون أو ثلاثة عند غيره فإن نفر واحد منهم قبل افتتاح الصلاة لا يجوز أن يصلّي الجمعة بل يصلّي الظهر، وإن عادوا بعد قبل طول الفصل بنى على ذلك الخطبة وبعد طوله استأنف الخطبة.

مسألة:

يحرم الكلام في حال الخطبة لمن حضر الخطبة عند أبي حنيفة يحرم إلا أن يكون أمراً لمعروف كقصة عمر مع عثمان كذا قال ابن همام وكذا قال الشافعي في القديم، وقال مالك جاز الكلام للمخاطب بما فيه مصلحة الصلاة نحو أن يزجر الداخلين عن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة (٨٦٢).

تخطي الرقاب وإن خاطب إنساناً بعينه جاز لذلك الإنسان أن يجيبه كما وقع في قصة كلام عمر وهو يخطب مع عثمان وسنذكر الحديث في مسألة غسل الجمعة، وقال أحمد يجوز للمخاطب الكلام مطلقاً وقد تعارضت الأحاديث في الباب. في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت**»(١) وروى أحمد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً**» فهذين الحديثين يدلان على الحرمة وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢) وأما ما يدل على الإباحة فما روى البيهقي من طريق عبد الرحمان بن كعب أن الرهط الذي بعثهم رسول الله ﷺ إلى ابن أبي الحقيق بخيبر ليقتلوه فقدموا على رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يوم الجمعة فقال لهم حين رأهم «أفلحت الوجوه» فقالوا أفلح وجهك يا رسول الله، قال أقتلتموه؟ قالوا نعم فدعى بالسيف الذي قتل به وهو قائم على المنبر فسأله فقال أجل هذا طعامه في ذباب سيفه» الحديث قال البيهقي مرسل جيد وروي عن عروة نحوه ثم روي من طريق ابن عبد الله بن أنس عن أبيه قال بعثني رسول الله ﷺ إلى ابن أبي الحقيق نحوه، وروى مسلم من حديث أبي رفاعة العدوي قال انتهيت إلى النبيّ ﷺ وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، قال فأقبل عليّ وترك خطبة وجعل يعلمني ثم أتم الخطبة(٣)، وروى أصحاب السنن الأربعة وابن الخزيمة والحاكم من حديث بريدة قال: «كان النبيّ ﷺ من المنبر فحملهما فوضعه بين يديه ثم قال: «**صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»(٤) وروى أبو داود عن جابر قال لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر قال اجلسوا فسمع ذلك ابن مسعود فجلس على باب المسجد فرآه رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب (٩٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة في الخطبة (٨٥١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: حديث التعليم في الخطبة (٨٧٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: صلاة العيدين، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (١٥٧٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٣٧٨٣).

فقال تعالى يا عبد الله ابن مسعود، عن أنس أن رجلاً دخل والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال متى الساعة؟ فأومأ الناس إليه بالسكوت فلم يقبل وأعاد الكلام فقال النبيّ ﷺ ماذا أعددت لها؟ قال حب الله ورسوله، قال: «إنك مع من أحببت»[١] رواه أحمد والنسائي وابن خزيمة والبيهقي، وعن أنس بينما النبيّ ﷺ يوم الجمعة فقام أعرابي فقال يا رسول الله هلك المال فذكر حديث الإستسقاء[٢] متفق عليه، قال الشافعي تعارض الأحاديث يقتضي الكراهة في المستمع وقال أبو حنيفة أحاديث الآحاد لا يصادم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣] لاسيما إذا تعارضت فقال بالتحريم وذلك أحوط وقال أحمد الآية والأحاديث لا يدل على تحريم الكلام للمخاطب والله تعالى أعلم.

مسألة:

لا بأس بالكلام قبل الخطبة وبعد الفراغ لحديث أنس قال كان رسول الله ﷺ ينزل من المنبر يوم الجمعة فيكلم الرجل في الحاجة فيكلم ثم يقدم إلى مصلاه رواه أحمد، وقال أبو حنيفة يكره مطلقاً محتجاً بالآثار أخرج ابن أبي شيبة عن علي وابن عباس وابن عمر كانواي كرهون الصلاة والكلام بعد خروج الإمام.

مسألة:

إذا جاء رجل والإمام يخطب يصلّي ركعتين عند الجمهور ويجوز فيهما وقال أبو حنيفة، لا يصلّي لما ذكرنا أثر علي وابن عباس وابن عمر ونحو ذلك عن عروة والزهري ولقوله ﷺ «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت» قالوا هذا الحديث بدلالة النص يمنع عن الصلاة وتحية المسجد لأن المنع عن الأمر بالمعروف وهو أعلى من سنة الجمعة وتحية المسجد منع عنهما بالطريق الأعلى والأولى ويرد عليه أن الأمر بالمعروف إن كان ذلك المعروف أمراً واجباً فهو أولى من السنة وأما إذا كان المعروف مستحباً فليس أولى من السنة والسكوت حين استماع الخطبة غير واجب عند الشافعي فكيف يحتج عليه بدلالة النص وللجمهور حديث جابر بن عبد الله قال قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب في الله عز وجل (٦١٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: امرء مع من أحب (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: رفع اليدين في الخطبة (٩٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

رسول الله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما**»[١] متفق عليه، وفي لفظ مسلم جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة والنبيّ ﷺ يخطب فجلس فقال: له: «يا سليك قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما» وفي الباب عن أبي سعيد لابن حبان وغيره، وأخرج الطبراني عن أبي ذر أنه أتى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقعد فقال رسول الله ﷺ هل ركعت؟ فقال لا قال قم فاركع ركعتين، وأجاب ابن همام بأن الدارقطني روى في سننه عن أنس قال رجل دخل المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فقال له النبيّ ﷺ «**قم فاركع ركعتين**»[٢] وأمسك عن الخطبة حتى فرغ عن صلاته، ثم قال أسنده عبيد بن محمد العبدي قولهم فيه، ثم أخرج عن أحمد بن حنبل ثنا معتمر عن أبيه قال جاء رجل الحديث وفيه ثم انتظروه حتى صلّى قال وهذا المرسل وهو الصواب، قال ابن همام والمرسل حجة، قلت: لو صح المرسل فهو واقعة حال لا يعارض إطلاق قوله ﷺ «إذا جاء أحدكم والإمام يخطب فليركع» وأيضاً لا يجوز الصلاة عند أبي حنيفة بعد خروج الإمام مطلقاً ولو بعد الفراغ عن الخطبة فعلى تقدير الصلاة حين سكت رسول الله ﷺ أيضاً لا يطابق الحديث مذهب أبي حنيفة والله تعالى أعلم.

مسألة:

اتفقوا على أنه لا يجوز الجمعة في الصحراء إلا عند أبي حنيفة في فناء المصر قال حيث له حكم المصر وعلى أن الجماعة شرط في الجمعة وذلك مأخوذ من لفظ الجمعة. واختلفوا في موضع يقام فيه الجمعة وفي عدد الجماعة الذين ينعقد بهم الجمعة؟ فقال الشافعي وأحمد وإسحاق كل قرية استوطنها أربعون رجلاً أحراراً عاقلين بالغين لا يظعنون عنها شيئاً ولا ضيفاً إلا ظعن حاجة يجب عليهم إقامة الجمعة ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة، وقال مالك القرية إذا كانت بيوتها متصلة وفيها مسجد وسوق يجب فيها الجمعة ويعتبر في انعقاد الجمعة عدد الغبراء بهم قرية عادة، وقال أبو حنيفة لا يصح الجمعة إلا في مصر جامع والمصر هو كل بلد فيها سكك وأسواق ولها رساتيق ووال ينصف المظلوم من الظالم أي بقيد على الإنصاف وإن كان جائراً وعالم يرجع إليه في الحوادث وقيل ما لا يسمع أكبر مساجده أهله مصر، والحجة لاشتراط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين (٩٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: التحية والإمام يخطب (٨٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في كم تؤتى إلى الجمعة (٤٩٩).

المصر رواه ابن أبي شيبة موقوفاً عن علي لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة صححه ابن حزم وضعفه أحمد، ويمكن الاحتجاج لاشتراط المصر وعدم جوازه في القرى أن أهل العوالي كانوا يصلون الجمعة مع النبي ﷺ كما في الصحيح وأهل قبا كانوا يصلّون معه كذا روى ابن ماجه وابن خزيمة، وأخرج الترمذي من طريق رجل من أهل قباء عن أبيه قال أمرنا النبيّ ﷺ أن نشهد الجمعة من قباء[1]، روى البيهقي أن أهل ذي الحليفة كانوا يجمعون بالمدينة ولم ينقل عن الصحابة أنهم حين فتحوا البلاد واشتغلوا بنصب المنابر والجمع إلا في الأمصار دون القرى ولو كان لنقل وصلاته ﷺ أول جمعة في بني عمرو بن سليم يدل على جواز الجمعة في قرية قريبة من المصر كما يجوز أن يصلّي الجمعة في أي ناحية من نواحي المصر فكذا يجوز في فناء المصر والله تعالى أعلم. ومحصل الكلام أن قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ليس على إطلاقه إجماعاً حيث لا يجوز في البراري ولا في كل قرية بل في بعضها فقدره شافعي وغيره وقرية مخصوصة كما ذكرنا، وقدر أبو حنيفة بالمصر والمصر أخص فإذا صلّى الجمعة في المصر صح الجمعة وسقط الظهر فلا يجب الجمعة بالشك ولا بسقط الظهر الثابت في الذمة يقيناً بالشك والله أعلم، وما روى الطبراني وابن عدي عنه ﷺ أنه قال: «الجمعة واجبة على كل قرية فيها إمام وإن لم يكونوا إلا أربعة» وفي رواية «إلا ثلاثة» فليس مما يجوز به الاحتجاج لأنه من رواية الحكم بن عبد الله ومن رواية الوليد بن محمد كلاهما عن الزهري عن أم عبد الله الدوسية، قال الدارقطني لا يصح هذا عن الزهري وكل من رواه عنه متروك الوليد والحكم متروكان، قال أحمد أحاديث الحكم كلها موضوعة وفي سند الحكم مسلمة بن علي قال يحيي ليس بشيء، وقال النسائي متروك وكذا حديث جابر ابن عبد الله مضت السنة إن في كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضحى وفطر في سنده عبد العزيز بن عبد الرحمن قال أحمد أضرب على أحاديثه فإنها كذب أو قال موضوعة. وكذا حديث أبي أمامة الجمعة على خمسين رجلاً وليس على ما دون الخمسين جمعة رواه الطبراني وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك وهياج بن نظام وهو متروك أيضاً ورواه البيهقي وفي سنده النحاش وهو واهٍ أيضاً، وأما حديث ابن عباس «أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بجواثا قرية بالبحرين» رواه البخاري فلا يدل على جواز الجمعة في كل قرية فإن اسم القرية يشتمل لمصر وغيره قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن (٨٩٢).

الله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] يعني مكة وطائف ولا شك أن مكة مصر وفي الصحاح أن جواثا حصن بالبحرين فهي مصر إذ لا يخلو الحصن عن حاكم عليهم وعالم، وفي المبسوط أنها مدينة بالبحرين ولما لم يروا عدداً معيناً للجماعة شرطاً للجمعة في حديث صالح للإحتجاج، قال الحسن وأبو ثور تنعقد الجمعة باثنين لأن إثنين فما فوقه جماعة، وقال أبو يوسف ومحمد والأوزاعي ينعقد بثلاثة إذا كان فيهم والٍ وقال أبو حنيفة أربعة لأن قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ يقتضي ثلاثة وقوله ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقتضي ذاكراً فذلك أربعة، قلت: وهذا الإستدلال غير صحيح فإن صيغة الجمع إنما هو لكون الخطاب عامة لا لاشتراط عدد الجماعة والإلزم إشتراط الجماعة في جميع المأمورات بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢] ونحو ذلك ويمكن أن يقال لا بد في الجمعة فوق جماعة سائر الصلوات لاشتراط الجماعة فيها ولدلالة لفظ الجمعة عليه ولذا قيل الجمعة جامعة للجماعات وأولى الجماعات في الصلاة اثنان فلا بد أن يكون الجمعة ثلاثة كما قال أبو يوسف ولما كان عند أبي حنيفة الجماعة شرطاً والإمام آخر قال لا بد أن يكون ثلاثة سوى الإمام والله تعالى أعلم.

مسألة:

الوالي وإذنه شرط بصحة الجمعة عند أبي حنيفة خلافاً لمالك والشافعي وأحمد وليس على اشتراط السلطان أو إذنه دليلاً يعتمد عليه وقد روى مالك والشافعي عنه وابن حبان بسنده إلى أبي عبيدة مولى بني نظير قال شهدت العيد مع علي وعثمان محصور، قال الحافظ ابن حجر إن مدة الحصار كانت أربعون يوماً وكان يصلّي بهم تارة طلحة وتارة عبد الرحمن ابن عديس وتارة غيرهما، قال ابن همام هذا وقعة حال فيجوز كونه عن إذنه كما يجوز كونه بغير إذنه فلا حجة فيه لفريق فيبقى قوله ﷺ «من تركها وله إمام جائر أو عادل ألا فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له»[٣] رواه ابن ماجه وغيره حيث شرط في لزومها الإمام كما يفيده قيد الجملة الواقعة حالاً. قلت: هذا حديث رواه ابن ماجه عن جابر مرفوعاً وفيه عبد الله العدوي وهو واه وأخرجه البزار من وجه آخر وفيه علي بن زيد بن الجدعان قال الدارقطني أن الطريقين كلاهما غير ثابت، وقال ابن عبد البر هذا الحديث واهي الإسناد.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١. (٢) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (١٠٨١).

مسألة:

وقت الظهر شرط لأداء الجمعة عند الجمهور لأنها تنوب عن الظهر ويسقط فريضة الظهر بأداء الجمعة فلا يجب ما لم يجب الظهر وما لم يجب لا يقع من الفرض، وقال أحمد يجوز الجمعة قبل الزوال لحديث سهل بن سعد قال ما كنا نتغدى ولا نقيل إلا بعد الجمعة وحديث سلمة بن أكوع كنا نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم نرجع فلا نجد للحيطان فيئاً نستظل[١] الحديثان في الصحيحين وحديث أنس بن مالك قال «كنا نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم نرج للقايلة» رواه البخاري، والجواب أن نفي التغدي لا يستلزم كون الجمعة قبل الزوال والإستثناء مبني على المجاز والمعنى لا نجد للحيطان فيئاً نستظل عدم طول الظل بحيث يمشي فيه الراكب والماشي وذلك لا يكون في أول الوقت. ولنا من الأحاديث ما ذكرنا سابقاً أن النبيّ ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أما بعد فانظر اليوم الذي يجهر فيه اليهود بالزبور فاجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن نظره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين، حديث أنس «أن النبيّ ﷺ كان يصلّي الجمعة حين تميل الشمس»[٢] رواه البخاري والترمذي وقال صحيح، وحديث جابر بن عبد الله قال «كنا نصلّي الجمعة ثم نذهب إلى رحالنا حين تزول الشمس»[٣] رواه مسلم، وحديث سلمة بن الأكوع كنا نجمع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس الحديث رواه مسلم، وعن يوسف بن مالك قال قدم معاذ بن جبل على أهل مكة وهم يصلون الجمعة والفيء في الحجر فقال لا تصلوا حتى تفيء الكعبة من وجهها رواه الشافعي.

مسألة:

لو شرع الجمعة في الوقت وحدها حتى خرج الوقت أتمها ظهراً عند الشافعي وقال أبو حنيفة يبطل صلاته ويبتدىء بالظهر لأن الجمعة غير الظهر لا يجوز بناء أحدهما على الآخر وسقوط الظهر بالجمعة يثبت على خلاف القياس فيراعي فيه جميع ما ورد منها الوقت، وقال مالك إذا لم يصل الجمعة حتى دخل وقت العصر صلّى فيه الجمعة ما لم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤١٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: صلاة الجمعة حين تزول الشمس (٨٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: وقت الجمعة إذا زالت الشمس (٩٠٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في وقت الجمعة (٥٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب، الجمعة: باب: صلاة الجمعة حين تزول الشمس (٨٥٨).

تغرب الشمس وإن كان لا يفرغ إلا بعد غروبها وهو قول أحمد ومذهب مالك مبني على وقت الضروري للظهر إلى غروب الشمس كالعصر.

مسألة:

يشترط عند أبي حنيفة لأداء الجمعة الاذن العام حتى لو أن والياً أغلق باب بلد وجمع بحشمه ومنع الناس من الدخول لا يصح الجمعة عنده خلافاً لجمهور العلماء. احتج ابن همام في هذه المسألة بإشارة قوله تعالى: ﴿نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ فإن النداء يقتضي الإذن وهذا الإستدلال ضعيف فإنه تعالى جعل النداء سبباً لوجوب السعي إلى الجمعة ولا يلزم منه كون النداء شرطاً لأدائها كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[1] يدل على وجوب الإستماع والإنصات عند قراءة القرآن لا على كون الاستماع والإنصات شرطاً لجواز القراءة حتى لا يجوز قراءة الإمام في الصلاة والخطبة إن قرأ المقتدي والله تعالى أعلم، قلت: ويمكن الاستدلال على اشتراط الإعلان والإذن العام بما مر أن النبيّ ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير ليصلّي بالناس الجمعة في المدينة ولم يصل بنفسه الكريمة بمكة مع إمكان صلوته الجمعة بأصحابه في بيته فذلك دليل على أن الإعلانات والإذن العام شرط لأداء الجمعة ولم يكن ذلك مقدورا بمكة والله تعالى أعلم.

مسألة:

من كان مقيماً في قرية لا يقام فيها الجمعة أو في برية هل يجب عليهم حضور الجمعة بالمصر قال أبو حنيفة ومحمد لا يجب عليه الجمعة مطلقاً، وقال أبو يوسف والشافعي وأحمد وإسحاق إن كان يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات هادئة والرياح يجب عليهم حضور الجمعة كذا قال مالك لكن حده بفرسخ وربيعة بأربعة أميال، وقال ابن همام قال بعض العلماء قدر ميل، وقيل قدر ميلين ولم يجده الشافعي وعن أحمد في التحديد نحو قولهما والحجة بهذا القول عموم قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟﴾ وقوله عليه السلام «إنما الجمعة على من سمع النداء»[2] رواه أبو داود وغيره من عبد الله بن عمرو في رواية بلفظ «الجمعة على من سمع النداء» وقال سعيد بن المسيب يجب الجمعة على من أواه الليل، وقال الزهري يجب على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من تجب عليه الجمعة (١٠٥٥).

من كان على ستة أميال وهي رواية عن مالك وفي رواية عن أبي يوسف يجب على ثلاثة فراسخ قال في البدائع هذا حسن، ولعل هذين القولين تحديد لمن أواه الليل فإنه من كان على ستة أميال أو تسعة كان ذهابه ومجيئه إثنا عشر أو ثمانية عشر ميلاً وذلك مرحلة فإن اثني عشر ميلاً أدنى المراحل غالباً وثمانية عشر أكثرهما، والحجة لهذا القول حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «الجمعة على من آواه الليل إلى أهله»[(١)] رواه الترمذي، والحديث غير قابل للإحتجاج قال أحمد لما سمع هذا الحديث استغفر ربك وفي سنده حجاج بن نصير، قال أبو حاتم الرازي تركوا حديث يروى عن معارك بن عباد، وقال أبو حاتم أحاديثه منكرة وقال أبو زرعة واهي الحديث يروي عن عبد الله بن سعيد المقبري قال يحيى بن سعيد الشيباني كذبه في مجلس وقال يحيى بن معين ليس بشيء لا يكتب حديثه، والإحتجاج على وجوب الجمعة على من سمع النداء وعلى من آواه الليل بصلاة أهل العوالي مع النبيّ ﷺ وصلاة أهل قباء معه كما ذكرنا وبما روى البيهقي أن أهل ذي الحليفة كانوا يجمعون بالمدينة لا يجوز لأنه لا يدل على وجوب الجمعة عليهم والظاهر أنهم كانوا يجمعون مع النبيّ ﷺ إحراز الفضيلة من غير وجوب وأما ما رواه الترمذي من طريق رجل من أهل قبا عن أبيه وكان من الصحابة قال أمرنا النبيّ ﷺ أن نشهد الجمعة من قباء ففيه رجل مجهول.

مسألة:

إذا وقع العيد يوم الجمعة قال أحمد أخر حضور صلاة العيد عن الجمعة ويصلون الظهر، وقال عطاء يسقط الجمعة والظهر معاً في ذلك اليوم فلا صلاة بعد العيد إلا العصر والأصح عند الشافعي أن من حضر العيد من أهل القرى جاز لهم أن ينصرفوا بعد العيد ويتركوا الجمعة وأما أهل البدو فلا يسقط عنهم الجمعة، وقال أبو حنيفة ومالك لا يسقط الجمعة بصلاة العيد عمن وجب عليه الجمعة أصلاً، واحتج أحمد بحديث زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ العيد أول النهار ثم رخص في الجمعة ثم قال من شاء أن يجمع الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع لا يجوز أن يسقط بحديث آحاد وكيف ينوب النافلة عن الفريضة، وفي الباب عن ابن عمر اجتمع عيدان على عهد رسول الله ﷺ فصلّى بالناس ثم قال: «من شاء أن يأتي الجمعة فليأتها ومن شاء أن يتخلف فليتخلف» وفيه مبدل بن علي ضعيف وبازة بن المفلس قال يحيى بن معين كذاب وحديث أبي هريرة نحوه وفيه بقية

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء من كم تؤتى الجمعة (٤٩٩).

مدلس روى الحديثين ابن الجوزي.

مسألة: من كان من أهل الجمعة وأراد السفر بعد الزوال لم يجز له الخروج إلا إذا تمكن الجمعة في طريقه أو يتضرر تخلفه عن الرفقة، وقبل الزوال جاز له السفر عند أبي حنيفة ومالك وقال الشافعي لا يجوز مطلقاً وقال أحمد لا يجوز إلا أن يكون سفر جهاد، واحتج من قال بعدم الجواز بحديث ابن عمر مرفوعاً من سافر يوم الجمعة دعت عليه الملائكة أن لا يصحب في سفره وفيه ابن لهيمة ضعيف، واحتج من جواز السفر لمن أراد الغزو بحديث ابن عباس أن ﷺ بعث عبد الله بن رواحة في سربة فوافق ذلك يوم الجمعة فغدا أصحابه وتخلف هو ليصلّي ويلحقهم فلما صلّى قال له رسول الله ﷺ ما خلفك قال أردت أن أصلّي معك وألحقهم فقال: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم»[1] رواه أحمد والترمذي وأعله الترمذي بالإنقطاع وقال البيهقي إنفرد به الحجاج ابن أرطأة وهو ضعيف، واحتج من قال بالجواز بما روى أبو داود في المراسيل عن الزهري أنه أراد أن يسافر يوم الجمعة ضحوة فقيل له في ذلك فقال أن النبيّ ﷺ سافر يوم الجمعة، وروى الشافعي من عمر أنه رأى رجلاً عليه هيئة السفر فسمعه يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت فقال له عمر أخرج فإن الجمعة لا يحبس عن سفر، وروى سعيد بن منصور أن أبا عيد بن الجراح سافر يوم الجمعة ولم ينتظر الصلاة قال أبو حنيفة الجمعة يجب بعد الزوال فلا يجوز الخروج بعد الوجوب ويجوز قبله يدل على ذلك حديث الزهري وابن عمر والله تعالى أعلم.

مسألة:

لا يجوز في بلدة وإن عظم أكثر من جمعة واحدة عند أبي حنيفة وبه قال الطحاوي وهو مذهب مالك والقول القديم للشافعي وكذا روى أصحاب الإملاء عن أبي يوسف أنه لا يجوز في مصر إلا أن يكون فيه نهر كبير حتى يكون كمصرين ولذا كان يأمر بقطع الجسر تبعداً فإن لم يكن فالجمعة لمن سبق فإن صلوا معاً فسدتا وعنه أنه يجوز في موضعين إذا كان المصر عظيماً لا في ثلاثة، وقال أحمد إذا عظم البلد وكثر أهله كبغداد جاز فيه جمعتان وإن لم يكن بهم حاجة إلى أكثر من جمعة لم يجز، وقيل إن البغداد كان في الأصل قرى متفرقة في كل قرية جمعة ثم اتصلت العمارة بينها فبقيت الجمعة على

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السفر يوم الجمعة (٥٢٣).

حالها والراجح المتأخر من أقوال الشافعي أن البلد إذا كبر وعسر اجتماع أهله في موضع واحد جاز إقامة جمعة أخرى بل يجوز التعدد بحسب الحاجة وعن محمد بن الحسن أنه يجوز تعددها مطلقاً ورواه عن أبي حنيفة، قال السرخسي الصحيح من مذهب أبي حنيفة جواز إقامتها في مصر واحد في مسجدين وأكثر، قال ابن همام وبه نأخذ لإطلاق لا جمعة إلا في مصر شرط المصر فإذا تحقق تحقق في كل ناحية منها، وجه رواية المنع أنها سميت جمعة لاستدعائها استجماع الجماعات فهي جامعة لها قال الأثرم لأحمد أجمع جمعتين في مصر قال لا أعلم أحداً فعله، قال ابن المنذر لم يختلف الناس أن الجمعة لم يكن تصلّي في عهد النبيّ ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين إلا في مسجد النبيّ ﷺ وفي تعطيل الناس مساجدهم يوم الجمعة وإجتماعهم في مسجد واحد من البيان بأن الجمعة خلاف سائر الصلوات وأنه لا يصلّي إلا في مكان واحد ولا أعلم أحداً قال بتعدد الجمعة غير عطاء وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن أول جمعة أحدثت في الإسلام في بلد مع قيام الجمعة القديمة في أيام المعتصم في دار الخلافة من غير بناء مسجد لإقامة الجمعة وسبب ذلك خشية الخلفاء على أنفسهم في المسجد العام وذلك في سنة ثمانين ومائتين ثم بنى في أيام المكتفي مسجد فجمعوا فيه، وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عمر كتب إلى أبي موسى وإلى عمرو بن العاص وإلى سعد بن أبي وقاص أن يتخذوا مسجداً جامعاً ومساجد للقبائل فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى المسجد الجامع فشهد الجمعة.

فائدة:

قال ابن همام إذا اشتبه على الناس وجود شرائط الجمعة ينبغي أن يصلي أربعاً بعد الجمعة ينوي بها آخر فرض ظهر أدركت وقته ولم أؤد بعد فإن لم يصح الجمعة وقعت ظهره فرضاً وإن صحت كانت نفلاً باب ما ولارد عن الأخبار في سنن الجمعة وفي ساعة الجمعة.

مسألة: غسل يوم الجمعة سنة وحكى عن مالك وداود أنه واجب لحديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «**غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**»[١] متفق عليه، وحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل**» متفق عليه، والحديث مشهور بل متواتر عد أبو القاسم بن مندة من رواه عن نافع عن ابن عمر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: فضل الغسل يوم الجمعة وهل على الصبي شهود يوم الجمعة أو النساء (٨٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦).

فبلغوا فوق ثلاثمائة وعد من رواه عن ابن عمر فبلغوا أربعة عشر صحابياً، وأجيب بأن الأمر للإستحباب ومعنى الوجوب اللزوم على وجه السنة بقرينه اقترانه بما لا يجب فيما رواه أحمد من حديث أبي سعيد مرفوعاً «إن الغسل يوم الجمعة على كل محتلم والسواك وأن يمس من الطيب ما يقدر عليه» وفي الصحيحين عن عائشة كان الناس عمال أنفسهم فكانوا يروحون كهيئتهم فقيل لهم لو اغتسلوا والدليل على عدم وجوب الغسل حديث الحسن عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فبها ونعمت ومن اغتسل فذلك أفضل»**(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن خزيمة وقال الترمذي حديث حسن ورواه بعضهم عن قتادة عن الحسن عن النبيّ ﷺ مرسلاً وحديث أبي هريرة مرفوعاً: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام»(٢) رواه مسلم، ولا شك أن الأحاديث الدالة على عدم الوجوب ليست في القوة مثل أحاديث الوجوب لكن عمل الصحابة وإجماع الأمة على عدم الوجوب يثبت أن أحاديث الوجوب إما منسوخة أو مأولة، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أن عمر بينما هو قائم في الخطبة يوم الجمعة إذ دخل رجل من المهاجرين الأولين فناداه عمر أية ساعة هذه؟ قال إني شغلت فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين فلم أزد على أن توضأت فقال والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل قال ابن الجوزي والرجل عثمان ولم ينكر عمر على عثمان في ترك الغسل ولم ينكر أحد فظهر أن الغسل سنة ليس بواجب، وأحاديث التي يحتج بها للوجوب مأولة وليست بمنسوخة ولو كانت منسوخة لم يقل عمر أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل فأن المنسوخ لا يحتج به فظهر أن الأمر للإستحباب والسنية والله تعالى أعلم.

مسألة:

سن يوم الجمعة أربع ركعات قبل الجمعة وأربع بعدها عند أبي حنيفة وقال أبو يوسف بعدها ست ركعات ومحمد قيل مع أبي يوسف ولا دليل على أربع قبل الجمعة إلا عموم أنه كان ﷺ يصلّي إذا زالت الشمس أربعاً ويقول: «هذه الساعة تفتح فيها أبواب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في الوضوء يوم الجمعة (٤٩٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الرخصة في ترك الغسل يوم الجعة (٣٥٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: الرخصة في ترك الغسل يوم الجمعة (١٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: فضل من استمع وأنصت في الخطبة (٨٥٧).

السماوات فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»[١] رواه ابن ماجه عن أبي يوسف بإسناد حسن والقياس على الظهر وقد صح أنه ﷺ «كان لا يدع أربعاً قبل الظهر وركعتين، قبل الغداة»[٢] رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة وأما الصلاة بعد الجمعة فقد صح عن ابن عمر «أن النبيّ ﷺ كان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلّي ركعتين في بيته»[٣] رواه مالك والشيخان في الصحيحين وأبو داود والنسائي، وفي سنن أبي داود عن ابن عمر أنه إذا كان بمكة فصلّى الجمعة تقدم فصلّى ركعتين ثم يتقدم فيصلّي أربعاً وإذا كان بالمدينة فصلّى الجمعة ثم رجع إلى بيته فصلّى ركعتين فقيل له كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، قال ابن همام فالظاهر أن السنة ستة غير أن ابن عمر لم يعلم كل ما كان يفعله النبيّ ﷺ بمكة فإذا كان مسافراً كان يصليها في المسجد فيعلم ابن عمرو به قال أبو يوسف وأبو حنيفة أخذاً بما روى عن ابن مسعود أنه كان يصلّي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً قال الترمذي في الجامع وإليه ذهب ابن المبارك والثوري، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إذا صلّى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات»[٤] والله تعالى أعلم.

مسألة:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة واستن ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد فلم يتخط رقاب الناس ثم ركع ما شاء الله أن يركع فأنصت إذا خرج الإمام كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي قبلها**»[٥] رواه أبو داود ورواه البغوي وقال قال أبو هريرة وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وروى البخاري نحوه عن سلمان بغير زيادة ثلاثة أيام وعن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في الأربع ركعات قبل الظهر (١١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الركعتان قبل الظهر (١١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة وقبلها (٩٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة (٨٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: صلاة الإمام بعد الجمعة (١٤٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريع أبواب التطوع وركعات السنة (١٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة (٨٨١).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: في الغسل يوم الجمعة (٣٤٦).

عمل سنة أجر صيامها وقيامها»[١] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم الأول فالأول فإذا خرج الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة والمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة ثم الذي يليه كالمهدي بقرة ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً حتى ذكر الدجاجة والبيضة، رواه البغوي وفي الصحيحين نحوه، وعن أبي هريرة قال قال** رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»** رواه مسلم وعنه قال قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه»**[٢] متفق عليه وزاد مسلم قال: «وهي ساعة خفيفة» وفي رواية لهما قال «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلي يسأل الله خيرا فيها إلا أعطاه إياه» وعن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول **في شأن ساعة الجمعة: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الصلاة»** رواه مسلم. وعن أبي هريرة قال خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ فكان مما حدثته أن قلت قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين يصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه قال كعب ذلك في كل سنة يوم فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة فلقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة، فقلت قال كعب ذلك في كل سنة قال عبد الله بن سلام كذب كعب، فقلت له ثم قرأ كعب التوراة فقال هي في كل جمعة فقال عبد الله بن سلام صدق كعب، ثم قال عبد الله بن سلام قد علمت أية ساعة هي؟ قال أبو هريرة فقلت أخبرني ولا تضن عليّ فقال عبد الله بن سلام هي آخر ساعة في يوم الجمعة**

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الغسل يوم الجمعة (٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الغسل يوم الجمعة (١٠٨٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة (٤٩٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: فضل غسل يوم الجمعة (١٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الساعة التي في يوم الجمعة (٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

قال أبو هريرة فقلت له وكيف يكون آخر ساعة في يوم الجمعة؟ وقال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي فيها» وتلك الساعة لا يصلّى فيها فقال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله ﷺ «من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي» قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو ذاك[١]. رواه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي، وعن أوس بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: **«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فإن صلاتكم معروضة عليّ قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد رمت؟ قال إن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء»**[٢] رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي، وعن أبي لبابة عن ابن المنذر قال قا النبيّ ﷺ: **«إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال خلق الله آدم وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض وفيه توفى الله آدم وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه ما لم يسأل حراماً وفيه تقوم الساعة ما من ملك مقرب ولاسماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحير إلا وهي مشفق من يوم الجمعة»**، رواه ابن ماجه، وروى أحمد عن سعد بن معاذ أن رجلاً من الأنصار أتى النبيّ ﷺ فقال أخبرنا عن يوم الجمعة ماذا فيه من الخير قال: «فيه خمس خلال» وساق إلى آخر الحديث، وعن أبي هريرة قال قيل لأي شيء سمي الجمعة؟ قال إن فيها طبقت طينة أبيك آدم وفيها الصعقة والبعثة وفيها البطشة وفي آخرها ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له رواه أحمد، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه مشهود يشهده الملائكة وإن أحداً لم يصل عليّ إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرع منها، قال قلت وبعد الموت؟ قال إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء فبني الله حي يرزق»** رواه ابن ماجه، وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»**[٣] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الجمعة ليلة

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجعة (١٤٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٦)، وأخرجه النساي في كتاب الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فضل الجمعة (١٠٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيمن مات يوم الجمعة (١٠٦٨).

أغر ويوم الجمعة يوم أزهر» رواه البيهقي في الدعوات الكبير.

فائدة:

ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري في ساعة الجمعة بضعة وأربعين قولاً واختار الجزري صاحب الحصن منها ما رواه مسلم من حديث أبي موسى هي ما بين أن يخرج الإمام إلى أن يقضي الصلاة واختار أكثر العلماء ما ذكر من حديث أبي هريرة عن عبد الله بن سلام هي آخر ساعة من يوم الجمعة وكذا روى النسائي وغيره من حديث جابر «التمسوها آخر ساعة بعد العصر» قال البيهقي كان النبيّ ﷺ يعلم هذه الساعة بعينها ثم أنسيها كما أنسي ليلة القدر روى ذلك ابن خزيمة في صحيحه عن أبي سعيد قال سألنا عنها النبيّ ﷺ فقال إني علمتها ثم أنسيتها كما أنسيت ليلة القدر قال الأثرم لا تخلو هذه الأحاديث من أحد وجهين إما أن يكون بعضها أصح من بعض وإما أن يكون هذه الساعة منتقلة في الأوقات المذكورة كما تنتقل ليلة القدر في ليالي العشر الأخير، قلت: ويمكن الجمع بين حديثي أبي موسى وعبد الله بن سلام بأن عبد الله بن سلام كان يحكي عن التوراة ولم يكن في زمن موسى عليه السلام يصلّي صلاة الجمعة بل كانوا يعظمون السبت ويصلون فيه فإذا لم يصل صلاة الجمعة في قرية أو بادية فالساعة في حقهم آخر ساعة من الجمعة وإذا يصلّي صلاة الجمعة فالساعة في حقهم ساعة الصلاة كما يدل عليه حديث أبي موسى وليس غير هذين القولين قولاً له سند معتمد عليه والله تعالى أعلم.

فصل:

عن أبي هريرة أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «كان يقرأ في الركعة الأولى ن صلاة الجمعة سورة الجمعة وفي الركعة الثانية سورة المنافقين» رواه مسلم، وعن النعمان بن بشير قال كان النبيّ ﷺ «يقرأ في العيدين وفي الجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل آتاك حديث الغاشية وربما اجتمعا في يوم واحد فيقرأ بها» رواه مسلم، ولأبي داود والنسائي وابن حبان من حديث سمرة أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سبح إسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وروى البغوي أنه سئل النعمان بن بشير ماذا كان يقرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة فقال كان يقرأ هل أتاك حديث الغاشية، وعن أبي سعيد مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» وله شاهد من حديث ابن عمر في تفسير ابن مردويه.

فصل:

عن جابر مرفوعاً «لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالفه في مقعده ولكن ليقل افسحوا»[١] رواه مسلم عن أرقم بن أرقم مرفوعاً «الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجارّ فصبه» رواه البيهقي، وعن عبد الله بن عمر «من لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهر» رواه أبو داود ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديت صلاة الجمعة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي الرزق أمر إباحة بعد المنع لأجل الصلاة، قال ابن عباس إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر، وقيل فانتشروا في الأرض ليس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله أخرجه ابن جرير من حديث أنس مرفوعاً وابن مردويه عن ابن عباس موقوفاً، وقال البغوي قال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم، فعلى هذه الأقوال الأمر للإستحباب ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مجامع أحوالكم ولا تحصوا ذكره بالصلاة، عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحى عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة**»[٢] رواه الترمذي وقال غريب رواته ثقات إلا أزهر بن سنان ففيه خلاف، وعن عصمة قال قال رسول الله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله سبحانه الحديث وأبغض الأعمال إلى الله التحريف قلنا يا رسول الله ما سبحان؟ قال يكون القوم يتحدثون والرجل يسبح قلنا يا رسول الله وما التحريف؟ قال القوم يكونوا بخير فيسألهم الجار والصاحب فيقولون نحن بشر**» رواه الطبراني ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تفلحوا بخير الدارين، أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً[٣]، وقال ابن عباس في رواية الكلبي لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط وفي صحيح أبي عوانة أن جابراً قال كنت

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه (٢١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا دخل السوق (٣٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة (٩٣٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً﴾ (٨٦٣).

فيمن بقي رواه الدارقطني بلفظ فلم يبق إلا أربعون رجلاً وإسناده ضعيف تفرد به علي بن عاصم وخالف أصحاب حصين فيه، وروى العقيلي من حديث جابر أيضاً وزاد كان من الباقين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وأبو عبيدة أو عمار الشك من اسد بن عمر الراوي وبلال وابن مسعود وهؤلاء أحد عشر رجلاً وجابر ثاني عشر فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا﴾ أي تفرقوا ﴿إِلَيْهَا﴾ الجملة الشرطية معطوفة على الشرطية السابقة وفيها التفات من الخطاب إلى الغيبة أفرد الضمير للتجارة برد الكناية إليها لأنها المقصود فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع ورؤيته، وأخرج ابن جرير عن جابر أيضاً قال كان الجواري إذا نُكحوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبيّ ﷺ قائماً على المنبر فينفضون إليها فنزلت، قال صاحب لباب النقول فكأنها نزلت في الأمرين معاً قال ثم رأيت ابن المنذر أخرجه عن جابر بقصة النكاح وقدوم العير معاً من طريق واحد وأنها نزلت في الأمرين فللّه الحمد وعلى هذا فالوجه لإفراد الضمير راجعاً إلى التجارة للدلالة على أن الإنفضاض إلى التجارة مع الحاجة إليها والإنتفاع بها إذا كان مذموماً كان الانفضاض إلى اللهو أولى بذلك، وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه وقال الحسن وأبو مالك أصاب أهل المدينة جوع وغلا سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبيّ ﷺ إلا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد سال بكم الوادي ناراً»، وقال مقاتل بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبل دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة فكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلا أتته وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبرو غيره فنزل عند أحجار الزيت وهو مكان من سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا إثنا عشر رجلاً وامرأة فقال رسول الله ﷺ كم بقي في المسجد فقالوا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبيّ ﷺ: «لولا هؤلاء لقد سومت لهم الحجارة من السماء» فأنزل الله هذه الآية وأراد باللهو الطبل، قيل كانت العير إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطب كذا صرح مسلم في رواية أنهم انفضوا وهو يخطب ورجحه البيهقي على رواية من روى وهو يصلي يجمع بينهما بأن يراد من قال وهو

يصلّي يخطب مجازاً وقد مر فيما سبق حديث كعب بن عجرة وقال علقمة سئل عبد الله كان النبيّ ﷺ قائماً أو قاعداً قال أما تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ وفي قصة انفضاض الناس في حالة الخطبة وبقاء اثني عشر رجلاً دليل على جواز الجمعة بأقل من أربعين رجلاً واحتمال أنه ﷺ لم يصل بهم الجمعة وصلى الظهر، أو أنهم رجعوا إلى النبي ﷺ بعد الانفضاض أو اجتمع إليه رجال آخرون وغيرهم فصلى بهم أمر لا يقتضيه سياق القصة لا دليل عليه، ولو كان شيء من الاحتمالات المذكورة نقل والله تعالى أعلم، وليس في القصة دليل على اشتراط اثني عشر رجلاً كما قال بعضهم كما أنه لا دليل في قصة أسعد بن زرارة أنه صلى أول جمعة جمع بأربعين رجلاً على اشتراط أربعين رجلاً ولا في صلاته ﷺ في بني سالم بن عمرو بمائة رجل على اشتراط المائة والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو شرع الإمام الصلاة بعدد ينعقد بهم الجمعة على اختلاف الأقوال فذهب منهم واحد ولم يبق ذلك العدد، قال أبو حنيفة إن ذهب قبل سجود الإمام في الركعة الأولى بطلت الجمعة ويستأنف بالظهر وإن ذهب بعد سجوده أتمها جمعة وقال مالك إن انفضوا بعد تمام الركعة، بسجدتيها أتمها جمعة وقال أحمد إن انفضوا بعد إحرام أتمها جمعة وقال الشافعي في أصح أقواله أن بقاء الأربعين إلى آخر الصلاة شرط كما إن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة ولو نقص من الأربعين واحد قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقين أن يصلوها أربعاً ظهراً وفي قول للشافعي إن بقي معه اثنان أتمها جمعة وفي قول له إن بقي واحد أتمها جمعة وعند المزني إن انفضوا بعدما صلى بهم الإمام ركعة أتمها جمعة وإن لم يبق مع الإمام واحد وإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً إن انتقص من أربعين واحد، وقال زفر إن نفروا قبل القعدة بطلت الجمعة واستأنفت ظهراً.

مسألة: إذا أدرك المسبوق مع الإمام شيئاً من الصلاة سواء أدرك قعدة أو سجدة سهو أتمها جمعة عند أبي حنيفة وعند مالك والشافعي وأحمد أدرك ركعة أدرك الجمعة وأتمها وإن أدرك دونها أتمها ظهراً وقال الطاووس لا يدرك الجمعة ما لم يدرك الخطبتين والله تعالى أعلم ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب على الصلاة والثبات مع النبيّ ﷺ ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ فإن ذلك محقق قوي محلاً بخلاف ما يتوهمون من نفعها ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه يوجب الأرزاق فإياه فاسئلوا ومنه اطلبوا.

مسألة: يستحب الإجمال في طلب الرزق والاقتصاد ويكره الحرص وحب المال

عن أبي حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلكم ميسر لما كتب له**» رواه الحاكم وأبو الشيخ وابن ماجه نحوه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض لكن الغنى غنى النفس وإن الله يؤتي عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم**» رواه أبو يعلى وسنده حسن وأوله متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلب الأجل**» رواه ابن حبان والبزار والطبراني ولفظه «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه» وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**لو فر أحدكم من رزقه أدركه كما يدركه» رواه الطبراني في الأوسط والصغير بسند حسن، وعن سعد بن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي**» رواه أبو عوانة وابن حبان، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم ومن أعطي الذلة في نفسه ذائعاً غير مكره فليس منا**» رواه الطبراني، وعن كعب بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف**»[1] رواه الترمذي وصححه هو وابن حبان، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ يقول: «**اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع**»[2] رواه النسائي وهو عند مسلم والترمذي من حديث زيد بن أرقم وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من قلب لا يخشع (٥٤٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل (٢٧٢٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقىٰ من فتنة المال (٦٤٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٩).

سورة المنافقون

آياتها إحدى عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم قال سمعت عبد الله بن أبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك عمي لرسول الله ﷺ، فدعاني النبيّ ﷺ فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبني وصدقه فأصابني شيء لم يصبني قط مثله، فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إلى رسول الله ﷺ فقرأها ثم قال إن الله صدقك[1] وذكر محمد بن إسحاق وغيره من أهل السير أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جريرية زوج النبيّ ﷺ فلما سمع بهم رسول الله ﷺ إستخلف على المدينة زيد بن الحارثة فيما قال محمد بن عمرو وابن سعد وقال ابن هشام أبا ذر الغفاري وخرج رسول الله ﷺ وقاد المسلمون ثلاثين فرساً منه عشرة للمهاجرين منهما فرسان لرسول الله ﷺ وخرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين ليصيبوا من عرض الدنيا فلقى رسول الله ﷺ بني المصطلق على ماء من مياههم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (٤٩٠٠)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٢).

يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل وتهيأ الحارث للحرب فصف رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادىٰ في الناس قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ففعل ذلك عمر قالوا افترامو بالنبل وتزاحف الناس فاقتتلوا فهزم الله سبحانه بني المصطلق، وقتل من قتل منهم ونقل رسول الله ﷺ أبنائهم ونسائهم وأموالهم فأفاءها الله عليه فبينما الناس على ذلك الماء وإذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له خمسة فازدحم جهجاه وسنان بن وبرة الجهني حليف ابن عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا وضرب جهجاه سناناً فسال الدم، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاه رجل من المهاجرين يقال له جعال فأقبل جمع من الحيين وشهر السلاح حتى كادت أن يكون فتنة عظيمة فخرج رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية فأخبرها بالحال فقال دعوها فإنها فتنة أي مذمومة في الشرع ولينصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه ناصر وإن كان مظلوماً فلينصره، ثم إن جماعة من المهاجرين كلموا عبادة بن الصامت وجماعة من الأنصار فكلموا سناناً فترك حقه وكان عبد الله بن أبي بن سلول جالساً وعنده عشرة من المنافقين مالك وسويد وقاعس وأوس بن قبطي وزيد بن الصلت وعبد الله بن نبيل ومعتب بن قشير وفي القوم زيد بن أرقم (رض) غلام حديث السن فقال ابن أبي أفعلوها فقد نافرونا وتكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك إنا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أجللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم والله لو أمسكتم من جعال ودونه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم وليتحولوا إلى غير بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن أرقم(رض) أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين فقل عبد الله بن أبي أسكت فإنما كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وكره رسول الله ﷺ خبره وتغير وجهه فقال يا غلام لعلك كذبت عليه فقال لا والله يا رسول الله لقد سمعت فقال لعله أخطأ سمعك فقال لا والله يا رسول الله قال لعله شبه عليك، قال لا والله يا رسول الله، وشاع في العسكر قول ابن أبي وليس في الناس حديث إلا ما قال ابن أبي وجعلها الرهط من الأنصار يلومون الغلام ويقولون عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل وقد ظلمت وقطعت الرحم فقال زيد والله لقد سمعت ما قال والله ما كان في الخزرج رجل أحب إلى أبي من

عبد الله بن أبي ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ وأني لأرجو ان ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي، فقال عمر بن الخطاب(رض) دعني أضرب عنقه يا رسول الله وفي رواية قال عمر مُر عباد بن بشير أو قال محمد بن مسلمة فليأتك رأسه، قال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا يحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فإنه كان في حر شديد ولم يكن يرتحل حتى يبرد ولم يشعر العسكر إلا ورسول الله ﷺ قد طلع على ناقته القصوى فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأتاه فقال أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني فقال عبد الله والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله فعذره النبيّ ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد(رض) وكذبوه فقال له عمه وكان زيد معه ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ والناس ومقتوك وكان زيد بسائر النبيّ ﷺ فاستحىٰ بعد ذلك أن يدنوا من النبيّ ﷺ فلما استقبل رسول الله ﷺ وسار فكان أول من لقيه سعد بن عبادة ويقال أسيد بن حضير وبه جزم بن إسحاق فقال السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته فقال عليه السلام وعليك ورحمة الله وبركاته قال يا رسول الله قد رحلت في ساعة منكرة لم تكن ترحل فيها فقال أولم يبلغك ما قال صاحبك؟ قال أي صاحب يا رسول الله قال ابن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل، فقال فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت فهو الأذل وأنت أعز والعزة لله ولك وللمؤمنين، ثم قال يا رسول الله: «أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز فما بقيت عليهم الإخرزة واحدة عند يوشع اليهودي فدارب بهم فيها لمعرفته بحاجتهم إليها ليتوجوه فجاء الله بك على هذا الحديث فلا يرى إلا أن قد سلبته ملكه، وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ مقالة عمر بن الخطاب فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل فيما بلغك عنه فمرني به فوالله لأحملنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا والله لقد علمت الخزرج ما كان رجل فيها أبر بوالديه مني وإني لاخشى يا رسول الله أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار وعفوك أفضل منك وأعظم، فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله ما أردت قتله وما أمرت به ونحسن صحبة ما كان بين أظهرنا فقال عبد الله يا رسول الله إن أبي كانت أهل هذه البحيرة قد اتقوا عليه ليتوجوه عليهم فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ومعه قوم يطوفون به يذكرون أموراً قد

غلب الله تعالى عليهم ثم سار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم حتى أذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا أمس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عما كان تقوّل ابن أبي ثم راح رسول الله ﷺ حتى نزل على ماء بالحجاز فوق البقيع يقال له البقعاء.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قدم رسول الله ﷺ فلما كانت قربت المدينة فهاجت الريح تكاد تدفن الراكب فقال رسول الله ﷺ: «**بعثت هذه الريح لموت منافق**» فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات عظيم من عظماء المنافقين[1]، قال محمد بن عمرو لما أخذتهم الريح قالوا لم تهج هذه الريح إلا لأمر قد حدث بالمدينة وإنما بالمدينة الذراري والصبيان وكان بين النبيّ ﷺ وبين عيينة بن حصين مدة وكان ذلك عند انقضائها فقال رسول الله ﷺ: «**ليس عليكم منها بأس ما بالمدينة ورب إلا ملك يحرسها وما كان يدخلها عدو حتى تأتوها ولكن قد مات الذي بالمدينة منافق عظيم النفاق ولذلك عصفت الريح**» وكان للمنافقين بموته غيظ شديد وهو زيد بن رفاعة بن التابوت مات ذلك اليوم كان كهفا للمنافقين، قال محمد بن عمر عن جابر كانت الريح أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ثم سكنت آخر النهار وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك الريح حتى دفن عدو الله ثم سكنت، قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبي مات خليلك الذي من موته فتح للإسلام وأهله زيد بن رفاعة بن التابوت قال يا ويلاه كان والله كان قال من أخبرك يا أبا وليد، قال رسول الله ﷺ أخبرنا أنه مات هذه الساعة فسقط في يديه وانصرف كئيباً حزيناً. قال محمد بن عمر من حديث ابن عمر أنه فقدت ناقة رسول الله ﷺ القصوى من بين الإبل فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه فقال زيد بن الصلت وكان منافقاً وهو في جماعة والأنصار منهم عبادة ابن بشر بن وقس وأسيد بن خضير فقال أين يذهب هؤلاء في كل وجه قالوا يطلبون ناقة رسول الله ﷺ قد ضلت، قال أفلا يخبره الله تعالى بمكانها فأنكر عليه القوم، فقالوا قاتلك الله يا عدو اللهنافقت ثم أقبل عليه أسيد بن حضير فقال فوالله لولا أني لا أدري ما يوافق رسول الله ﷺ من ذلك لأنفذت حصك بالرمح يا عدو الله فلم خرجت معنا وهذا في نفسك، قال خرجت لأطلب عرض الدنيا ولعمري إن محمداً ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة يخبر عن أمر السماء وتعودوا به جميعاً فقالوا والله لا يكون منك سبيل أبداً ولا يظلنا وإياك أظل أبداً ولو علمناه ما في نفسك ما صبحنا فوثب هارباً منهم أن يقعوا به

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٢).

ونبذوا متاعه فعمد إلى رسول الله ﷺ فجلس معه فراراً من أصحابه متعوداً به وقد جاء رسول الله ﷺ جبرئيل بالوحي، فقال رسول الله ﷺ والمنافق يسمع إن رجلاً من المنافقين قال ألا ضلت ناقة رسول الله ﷺ وقال لا يخبر الله بمكانها فلعمري إن محمداً يخبرنا بأعظم من شأن الناقة ولا يعلم الغيب إلا الله وإن الله سبحانه قد أخبرني بمكانها وأنها في الشعب مقابلكم قد تعلق زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها فأتوا بها من حيث قال رسول الله ﷺ، فلما نظر إليها سقط في يده فقام سريعاً إلى رفقائه الذين كانوا معه فإذا رجله منبوذ وإذا هم جلوس لم يقم رجل منهم من مجلسه فقالوا له حين دنى لا تدن منا أكلمكم فدنى فقال أنشدكم الله هل أتى منكم أحد محمداً فأخبره بالذي قلت قالوا لا والله ولا قمنا من مجلسنا، قال إني قد وجدت عند القوم ما تكلمت به وتكلم به رسول الله ﷺ فأخبرهم عما قال رسول الله ﷺ وإني كنت في شك في شأن محمد فأشهد أن محمداً رسول الله فكأني لم أسلم إلا اليوم قالوا فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فذهب إلى رسول الله ﷺ واستغفر له واعترف بذنبه ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدم عبد الله بن عبدالله بن أبي فجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطى يد راحلته فقال أبوه ما تريد يا لكع؟ قال والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله وتعلم أيهما الأعز من الأذل أنت أو رسول الله ﷺ فمن مر به من المسلمين يسرع عبد الله ويمر غير ذلك فيقول تصنع هذا بأبيك حتى مر به رسول الله ﷺ فسأل عنه فقيل عبد الله بن أبي يأبى لأبيه حتى تأذن له فمر رسول الله ﷺ وعبد الله واطى على يد راحلة أبيه وابن أبي يقول لأنا أذل من الصبيان لأنا أذل من النساء فقال له رسول الله ﷺ خلّ عن أبيك فخلى عنه.

روى محمد بن عمر عن رافع بن خديج قال سمعت عبادة بن الصامت يقول يومئذ لابن أبي قبل أن ينزل فيه القرآن آية رسول الله ﷺ يستغفر لك قال فرأيت يلوي رأسه معرضاً يقول عبادة والله لينزلن الله تعالى في رأسك قرآناً يصلّى به قال فبينما رسول الله ﷺ يسير من يومه وزيد بن يعارض رسول الله ﷺ راحلته يريد وجهه في السير إذا نزل عليه الوحي قال زيد بن أرقم فما هو إلا رسول الله ﷺ يأخذ البرحات ويعرق جبينه ويثقل يد راحلته عرفت أن رسول الله ﷺ يوحي إليه ورجوت أن ينزل الله لصدقي، قال زيد فسري عن رسول الله ﷺ فأخذ بأذني وأنا على راحلتي حتى ارتفعت عن مقعدي ويرفعهما إلى المساء وهو يقول وفت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك ونزلت سورة المنافقين في ابن أبي من أولها إلى آخرها وحده وجعل بعد ذلك ابن أبي إذا حدث حديثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه شأنهم كيف ترى

يا عمر؟ قال إني والله لقد علمت لأمر رسول الله ﷺ بركة أعظم من بركته فهذه الراوية تدل على أن سورة المنافقين نزلت في السفر قبل حلول المدينة، وقال البغوي فلما وافى رسول الله ﷺ بالمدينة قال زيد بن أرقم جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد وقال يا زيد إن الله صدقك وأوفى بأذنك قالوا فلما نزلت الآية وبإن كذب عبد الله بن أبي، قيل له يا أبا خباب إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه قال أمرتموني أن أؤمن فآمنت فأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فأنزل الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، ولما دخل ابن أبي المدينة لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات.

فائدة:

كانت تلك الوقعة في شعبان سنة ست كذا قال ابن إسحاق وبه جزم خليفة بن خياط والطبري، وقال قتادة وعروة كانت في شعبان سنة خمس وفي ذلك الوقعة تزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، روى محمد بن إسحاق وأحمد وأبو داود ومحمد بن عمر عن عائشة قالت كانت جويرية امرأة حلوة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينما النبيّ ﷺ عندي على الماء إذ دخلت جويرية تسأله في كتابتها فوالله ما هو أن زينتها فكرهت دخلوها على النبيّ ﷺ وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت فقالت يا رسول الله إني امرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت في سهم ثابت بن قيس ابن شماس وابن عمه فتخلصني من ابن عمه يتحدث بالمدينة فكاتبني على ما لا طاقة لي ولا بد أن وما اكريني إلا أني رجوتك ﷺ فأعني في مكاتبتي فقال رسول الله ﷺ أو خير من ذلك؟ فقالت ما هو يا رسول الله قال أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم يا رسول الله قد فعلت فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه فقال ثابت هي لك بأبي وأمي فأدى رسول الله ﷺ ما كان من كتابتها وأعتقها وتزوجها وخرج إلى الناس ورجال بني المصطلق قد اقتسموا وملكوا وطيء نسائهم، فقال المسلمون أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك الشيء، قالت عائشة فأعتق مائة أهل بيت بتزويج رسول الله ﷺ إياها فلا امرأة اعظم بركة على قومها منها، روى محمد بن عمر عن حرام بن هشام بن عروة عن أبيه قال قالت جويرية رأيت قبل قدوم

النبيّ ﷺ بثلاث ليال كان القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري فكرهت أن أخبرها أحداً من الناس حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سبينا رجوت الرؤيا فلما أعتقني وتزوجني فو الله ما كلمت في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر فحمدت الله، ثم روى الحافظ ابن عائد أنه أقبل الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية في فدائها فلما كان بالعقيق نظر إلى إبله التي يفدي بها ابنته فرغب في بعيرين منها كانا من أفضلها تغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فدائها فقال رسول الله ﷺ فأين البعيرين الذين غيبت بالعقيق بشعب كذا وكذا فقال الحارث أشهد أنك رسول الله ﷺ ولقد كان مني في البعيرين وما إطلع على ذلك إلا الله تعالى فأسلم وروى محمد بن عمر فكان أبو سعيد يقول فقدم علينا وأفدهم فافتدوا الذرية والنساء ورجعوا إلى بلادهم.

فائدة:

فيما سبق من القصة أن النبيّ ﷺ دعاهم إلى الإسلام قبل القتال، وروى الشيخان عن ابن عون «كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فكتب إلي إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم[1] الحديث وفيه حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والإطلاع ولذلك صدق الله سبحانه المشهود به وكذبهم في الشهادة لعدم صدور ذلك الأخبار عن علم يقيني فقال ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ الله ﴿لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في إخبارهم أن هذا القول صادر عن علمهم وإذعانهم حتى يصدق على هذا القول لفظ الشهادة هذا على تقدير كون كلمة تشهد إخباراً وأما لو قيل أنه إنشاء للشهادة فهولا يحتمل الصدق والكذب والمشهود به أعني قولهم إنك لرسول الله كلام صادق البتة لا ريب فيه فمعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنهم كاذبون في زعمهم والله أعلم وزعم النظام من المعتزلة أن الصدق ما طابقته الإعتقاد والكذب ولم يطابقه مستدلاً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية (٢٥٣٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام (١٧٣٠).

بهذه الآية وليس كما قال ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ يعني حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه فإنها من ألفاظ الحلف ﴿جُنَّةٗ﴾ وقاية عن القتل والسبي والجملة صفة لكاذبون أو مستأنفة ﴿فَصَدُّواْ﴾ صدوداً أي أعرضوا أو امتنعوا أو صدوا صداً أي صرفوا ومنعوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الدخول في دين الإسلام ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصدهم ذلك الحال من النفاق واتخاذ الأيمان جنة الصد ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ ظاهراً عند المؤمنين ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ إذ أخلوا إلى شياطينهم أو آمنوا إذا رأوا آية ثم كفروا إذا سمعوا من شياطينهم شبهة ﴿فَطُبِعَ﴾ عطف على كفروا يعني طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بحيث سلب عنها إدراك الحق ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان الفاء للسببية ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾ عطف على اتخذوا ﴿ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ لفخامتها وصباحتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لتحسب أنه صدق، قال ابن عباس كان ابن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبيّ ﷺ قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل بسكون الشين على التخفيف أو على أنه كبدن جمع بدنة والباقون بضمها على وزن أسد ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ جملة التشبيه حال من الضمير المجرور في قولهم أي يسمع لقولهم حال كونهم مشبهين بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحيطان في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والعرفان والعقل السليم ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي واقعة عليهم لما في قلوبهم من الرعب، وقيل ذلك لكونهم على وجل من أن يظهر نفاقهم ويباح دمائهم فلا يسمعون صحة في العسكر بأن نادى مناد أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة إلا ظنوا أنه أمر بقتلهم وأدركوا فعلى هذا عليهم مفعول ثان ليحسبون وجاز أن يكون عليهم ظرفا لغوا متعلقاً بصيحة والمفعول الثاني ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ وعلى هذا الضمير راجع إلى الكل وجمعه بالنظر إلى الخبر لكن ترتب قوله ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ يأبى عن هذا التأويل بل هو قرينة على أن ضميرهم العدو راجع إلى المنافقين يعني هم الكاملون في العداوة أمر الله سبحانه بالحذر عنهم يعني لا تصاحبهم ولا تأمنهم لأنه من خاف على نفسه كثيراً يكون كاملاً في العداوة لا يبالي بإيصال الشر بمن يخاف منه ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ أي لعنهم الله دعاء وطلب من ذاته أن يلعنهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق أخرج ابن جرير وقتادة وابن المنذر عن عكرمة مثله وقد ذكرنا سابقاً في القصة أنه قيل لعبد الله بن أبي لو أتيت النبيّ ﷺ فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ﴾ مجزوم على جواب الأمر ﴿لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ﴾ جزاء للشرط قرأ نافع ويعقوب بالتخفيف والباقون بالتشديد إشعاراً بأنهم فعلوها مرة بعد أخرى يعني أعرضوا وأعطفوا رؤوسهم استكباراً عن

ذلك ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الحاضر عند ذلك القول ﴿يَصُدُّونَ﴾ صدور أي يعرضون عن الإستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإعتذار حال من فاعل يصدون، أخرج ابن المنذر عن عروة ومجاهد وقتادة مثله أنه لما نزلت إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم قال النبيّ ﷺ لأزيدن على سبعين فأنزل الله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ استغفرت مع ما عطف عليه بتأويل المصدر مبتدأه وسواء خبره والمعنى إستغفارك لهم وعدمه مستو عليهم وقوله ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بيان للاستواء، وأخرج ابن المنذر من طريق العوفي عن ابن عباس قال لما نزلت آية براءة قال النبيّ ﷺ اسمع أبي وقد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين من مظنة الإستصلاح لأنهماكهم في الكفر والنفاق ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار تعليل لعدم الغفران ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعني جهجاه وأمثاله من فقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يتفرقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي نعماءالجنة والمطر وتقدير الرزق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأرزاق وبيده ملكوت كل شيء لا يعطي أحد احداً أشياء إلا بأذنه وتقديره ولا يمنعه إلا بمشيته والجملة حال من فاعل يقولون ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله وقدرته ولو فقهوا لما قالوا مثل ذلك ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من يقولون فيما سبق فإن عدم الإنفاق في زعمهم موجب لضعف النبيّ ﷺ وضعفه سبب لخروجه من المدينة فكأنه امتناعه من الإنفاق، إخراج أسند الله سبحانه هذا القول إلى جميع المنافقين وإن كان القائل منهم وأحد وهو ابن أبي لرضا الباقين بهذا القول الخبيث ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من سفرنا هذا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوة حقيقة حال من فاعل يقولون الثاني ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بإعزازه تعالى إياهم وإظهار دينه ونصرهم على الأعداء ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لفرط جهلهم وغرورهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا يشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ أي تدبيرها والاهتمام بها ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسرون يعني الصلوات الخمس واللفظ أعم من ذلك

يشمل جميع العبادات ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإشتغال المانع من الذكر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث باعوا الجليل الباقي بالحقير الفاني كان فيما سبق تشنيع المنافقين صريحاً وفي هذه الآية وما بعده تعريض بتشنيعهم فإن الاشتغال بالأموال والأولاد عن الصلاة وترك الزكاة وسؤال تأخير الموت وتمنيه إنما شأن المنافقين لا ينبغي للمؤمنين التشبيه بهم في شيء من ذلك ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ عطف على لا تلهكم قال ابن عباس يريد زكاة الأموال ﴿مِّن قَبْلِ﴾ ظرف لانفقوا ﴿أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي يرى دلالة وحينئذ يوصي، عن أبي هريرة قال، قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا وقد كان لفلان»(١) متفق عليه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾ بعد الموت إن لم يتصدق في الحياة تحسراً ﴿لَوْلَا﴾ آي هلا ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ وقيل لا زائدة ولو للتمني يعني لو أخرتني أي أمهلتني في الدنيا بتأخير الموت ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ أمد ﴿قَرِيبٍ﴾ غير بعيد ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾أصله فأتصدق قلبت التاء بالصاد فأدغمت منصوب على جواب التحضيض تقديره لولا كان منك تأخيري في الدنيا فتصدق مني ﴿وَأَكُن﴾ قرأ أبو عمرو أكون بالواو منصوباً عطفاً على أصدق قالوا إنما حذفت الواو في رسم خط المصحف اختصاراً والباقون بغير واو مجزوماً على الرسم لتوهم الجزم في أصدق على تقدير ترك الفاء فكأنه عطف على موضع ألفاء وما بعده ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المؤمنين هذا قول مقاتل وجماعة قالوا نزلت الآية في المنافقين، وقيل الآية نزلت في المؤمنين والمراد بالصلاح إتيان الواجبات وترك المنهيات، قال البغوي روى الضحاك وعطية عن ابن عباس قال ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاة وأطاق الحج ولم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية وقال أكن من الصالحين أحج ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ أي يمهلها وإن تمنى الجملة حال من فاعل فيقول رب لولا أخرتني والعائد وضع المظهر موضع المضمر ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وانتهى عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فجاز عليه قرأ أبو بكر بالياء على الغيبة ليوافق ما قبله والباقون بالتاء للخطاب والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح (١٤١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحسح (١٠٣٢).

سورة التغابن

آياتها ثماني عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قد مر تشريحها ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدم الظرفان للدلالة على الحصر والجملة الظرفية حال من الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى كل ممكن على السواء ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يعني خلقكم الله تعالى ثم صار بعضكم كافراً وبعضكم مؤمناً يدل على ذلك فاء التعقيب كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾[١]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه ليس في هذه الآية دليل للمعتزلة على أن الإيمان والكفر ليسا بتقدير الله تعالى ولا مخلوقاً له بل مخلوقاً للعبد فإن الأشياء كلها مقدرة في الأزل قال الله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] وأفعال العباد التي فيه نوع اختيار للعبد حيث يسمى العبد كاسبا لها ويترتب عليها الثواب أو العذاب كلها مخلوقة لله تعالى قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] هذا هو المذهب الصحيح الذي انعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم لا يجوز تأويل الآيات على خلاف هذا المذهب فإنها مفضية إلى النار، قال الله تعالى:

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾[١] عن أنس بن مالك قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه»[٢] رواه البخاري، وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً نحو ذلك وفي آخره «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيدخلها»[٣] وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»[٤] وفي الباب أحاديث كثيرة، وروى عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم كما خلقهم مؤمناً وكافراً يعني خلقهم مقدراً من بعضهم كفره موجهاً إليه ما يحمله عليه ومن بعضهم إيمان موفقاً لما يدعوه إليه، روى البغوي عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً**»[٥] وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٦] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ متلبساً بالحكمة البالغة دالة على صانع حكيم ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من سائر الحيوانات ظاهراً وباطناً وزينكم بأحسن أوصاف الكائنات صالحا للعلم والعقل والمعرفة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تضيعوا إستعدادكم باختيار الرذائل فتحشرون على أقبح الصور ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ رأى بالأسرار والمعتقدات التي في الصدور ولا يخفى عليه ما يصلح أن يعلم كلياً كان أو جزئياً لأن نسبته بكل شيء على السواء قدم ذكر القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرة الخالق أولى بالذات وعلى علمه بما فيها من الإتقان والإختصاص ببعض الانحاء وتكرير

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: القدر (٦٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٥٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩٣).

(٦) سورة نوح، الآية: ٢٧.

ذكر العلم بمنزلة تكرير الوعيد على إتيان ما يخالف أمره ورضاه، وقوله يعلم مع ما عطف عليه خبر ثالث لقوله هو في ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ياأيها الكفار ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي قبلكم قوم لوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم فذاقوا عطف على كفروا والفاء للسببية ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ضرر كفرهم في الدنيا وأصله أثقل ومنه الوبيل للطعام الثقيل والوابل للمطر الثقيل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب في الدنيا والآخرة بأنه أي بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والدلائل الواضحة ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ البشر إسم جنس يطلق على الواحد والكثير ولما كان المراد هاهنا الجمع قال يهدوننا ولم يقل يهدينا إستفهام للإنكار أنكروا أو تعجبوا من كون البشر رسلاً من الله هداة إليه ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ عن التدبر في المبينات ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم وإنما كان إرسال الرسل تفضلاً ومنة من الله تعالى عليهم والراضي بالضرر لا يستحق النظر ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ من كل شيء ﴿حَمِيدٌ﴾ في نفسه لا يحتاج إلى من يحمده ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من أهل مكة ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ تقديره أنهم لن يبعثوا إن مع جملتها قائم مقام مفعول زعم والزعم إدعاء العلم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ بيان لقوله بلى أكد الجواب بالقسم ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ من الخير والشر يعني تحاسبون وتخبرون بأعمالكم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والحساب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإمكان الموعود وكمال القدرة ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد تفريع على وجوب البعث ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ يعني القرآن فإنه بإعجازه ظاهر الحقيقة بنفسه مظهر لغيره من الشرائع والأحكام والأحبار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مجاز عليكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الظرف لمضمون بما تعملون خبير يعني مجازيكم في ذلك اليوم أو لقوله تعالى لتنبؤن أو مقدر

باذكر قرأ يعقوب نجمعكم بصيغة المتكلم ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يعني يوم القيامة يجمع فيه الملائكة والثقلان كلهم أولهم وآخرهم واللام للتعليل والمعنى يجمعكم لأجل ما يكون في يوم الجمع من الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ذلِكَ اليوم يَوْمُ التَّغابُنِ تفاعل من الغبن يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء في الجنة مكان الأشقياء لو كانوا سعداء ولإعطاء المظلوم من حسنات الظالم عوض مظلمته مستعاد من تغابن التجار اللام فيه للعهد يعني يوم التغابن الحقيقي دون التغابن الدنيوي، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال يرثون أي المؤمنون مساكنهم ومساكن إخوانهم يعني الأشقياء التي أعدت لهم لو أطاعوا الله وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مرديه البيهقي في البعث بسند صحيح، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى أولئك هُمُ الوارثون**»[1] وفي الصحيحين من حديث أنس: «إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدل الله به مقعداً من الجنة»[2] الحديث، وأخرج ابن ماجه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**من فر من ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة**»[3] وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا أو أكل مال هذا أو سفك دم هذا أو ضرب هذا فيعطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن قنت حسناته، قبل أن يقضي ماعليه أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم طرح في النار**»[4] وروى البخاري عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه فليحلله منها في الدنيا فإنه ليس ثمة دينار ولا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨)، وأخرجه مسلمفي كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: الحيف في الوصية (٢٧٠٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨).

درهم إن كان عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[١] وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً عندالطبراني: «ما يوجد ثمة دوانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا يدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه يوضع عليه» ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قرأ نافع وابن عامر نكفر وندخل بالنون على التكلم والباقون بالياء التحتية على الغيبة وكذا في سورة الطلاق يدخله سورة الطلاق يدخله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي مجموع الأمرين ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه جامع لدفع المضار وجلب المنفع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، النار كان الآيتين بيان التغابن وتفصيل له أو تفصيل لغاية الجمع المفهوم من يوم الجمعة تقسيم له.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ من زائدة ومصيبة في محل الرفع فاعل أصاب يعني ما أصاب مصيبة أحدا من الناس بشيء ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتقديره وإرادته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويصدق إنه ما أصابه من مصيبة إلا بإذن الله ويعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطيك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ﴿يَهْدِ﴾ الله ﴿قَلْبَهُۥ﴾، أي يوفقه للصبر والرضا والتسليم، عن ابن الديلي قال أتيت أبي بن كعب فقلت له قد وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني لعل الله يذهبه من قلبي فقال إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبه وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته (٢٤٤٩).

كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار، ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك قال ثم أتيت حذيفة بن اليماني فقال مثل ذلك ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبيّ ﷺ مثل ذلك»[(١)].

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالها ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ عطف على قوله آمنوا بالله وما بينهما معترضات ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله ورسوله والفاء للسببية فإن تبلغ الأمر بالإيمان والطاعة سبب لقوله إن توليتم ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني توليكم لا يضر محمداً شيئاً إذ ليس الواجب عليه إلا التبليغ وقد بلغ وضرر التولي يعود عليكم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة في محل التعليل للأمر بالإيمان والطاعة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على آمنوا وأطيعوا أو فيه إلتفات من الخطاب إلى الغيبة تقديره آمنوا وأطيعوا الله وعليه فليتوكلوا، قدم الظرف للحصر فإن حصر الخير والشر كما كان بتقديره وجب حصر التوكل عليه دون غيره وغير الأسلوب للدلالة على أن الإيمان يقتضي التوكل لما ذكرنا هذا على تقدير كون الظرف متعلقاً بما بعده وجواز تقديم الظرف على الفاء الجزائية لتوسع في الظرف وإلا فهو متعلق بفعل مقدر يفسره ما بعده وتقديره وإن كنتم متوكلين على أحد فتوكلوا على الله فليتوكل المؤمنون عليه فحينئذ تكرير الأمر بالتوكل تأكيد أو إشعار بأن الإيمان يقتضي التوكل.

أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس أن رجالاً من أهل مكة أسلموا فأبوا أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يعني للهجرة إلى المدينة، قال البغوي منعهم أزواجهم وأولادهم وقالوا صبرنا على إسلامكم ولا نصبر على فراقكم فأطاعوهم فتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ حيث يشغلكم عن طاعة الله ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ولا نأمنهم غوايلهم وشرهم ولا تطيعوهم حتى تدعوا الهجرة، قال ابن عباس فيما روى عنه الترمذي والحاكم ثم إنهم لما أتوا المدينة

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٨٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: في القدر (٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التغابن.

وقدموا على رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم يعني الأزواج والأولاد والذين ثبطوهم عن الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾(١) منهم إذا طلعتم على عداوة ولا تقاتلوهم بمثلهم ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ أي تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ ذنوبهم وجملة إن تعفوا مع ما عطف عليه معطوفة على جملة إن من أزواجكم وأولادكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني إن تعفوا وتغفروا يغفر الله لكم ويرحمكم، أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم نزلت في عوف بن مالك الأشجع كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا إلى من تدعنا فرق ويقيم فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة يعني أنهم أعداء لكم يحملك على ترك الطاعة والجهاد فأحذروهم أن تقبلوا منهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فلا تعاقبوهم على خلافهم إياكم يغفر الله إن الله غفور رحيم ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني إبتلاء من الله تعالى وإختبار لكم فمن أدى حقوق الله تعالى وحقوق الناس مع كثرة العلائق والعوائق بعثه الله تعالى على منازل الأبرار وكان أفضل ممن أذى بلا عوائق، ومن ثم راجع أهل السنة أن خواص البشر أعني الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وعوامهم أعني الأولياء والصلحاء أفضل من عوامهم إذ لا عائق للملائكة عن طاعة الله تعالى ومن شغله الأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى وأداء الحقوق وبعثه على ارتكاب المعاصي وناول الحرام رده الله إلى أسفل السافلين ﴿وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فاطلبوه وآثروا محبته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

فائدة:

ذكر الله سبحانه عداوة الأزواج والأولاد وأورد هناك من التبعيضية لأن بعض الأزواج والأولاد ليسوا كذلك ولم يورد من التبعيضية في كونهم فتنة واختباراً لأنها لا يخلو عن إشتغال القلب وقد ذكرنا في سورة الجمعة في حديث بريدة نزوله ﷺ حين رأى الحسن والحسين يمشيان ويعتزان وحمله إياهما وقوله صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما نزلت إتقوا الله حق تقاته إشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً للمسلمين ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ عطف على آمنوا وأطيعوا والفاء للسببية فإن الإيمان سبب للتقوى يعني ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ مواعظه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أموالكم في سبيله خالصة لوجهه ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ منصوب بفعل مقدر

يعني إفعلوا ما هو خير لأنفسكم من أموال وأولاد فهو تأكيد للحث على امتثال ما سبق من الأوامر أو منصوب على المفعولية أنفقوا الخير المال كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾(١) أو هو صفة لمصدر محذوف يعني إنفاقاً أو خبر لكان المقدر جواباً بالأمر ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة الحشر ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ إما تقدير المضاف يعني إن تقرضوا عباد الله والمراد به صرف المال في طاعة الله ورجاء من الله تعالى الثواب والجزاء ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني مقروناً بالإخلاص وطيب النفس بريا من الريا والسمعة والمن والأذى منصوب على المصدرية ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي يجعله لكم عشراً إلى سبعة مئة أو أكثر، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف من التفعيل والباقون من المفاعلة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق جملة إن تقرضوا تعليل الأمر بالإتفاق ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بالقليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الناس وما يشاهدون أو ما هو موجودا لأن وما وجد قبل ذلك وما سيوجد ولم يوجد بعد ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب تام القدرة والعلم الأخبار الخمسة محمولة على إسم الله تعالى وجاز أن يكون عالم الغيب والشهادة خبر المبتدأ المحذوف أعني هو ﴿الْحَكِيمُ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

سورة الطلاق

آياتها اثنتا عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ
لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن
يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ
لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا
﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ
جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة ثم نكح امرأة مزينة فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله ما يغني عني إلا ما يغني هذه الشعرة فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال الذهبي الإسناد واهٍ والخبر خطأ وعبد يزيد لم يدرك الإسلام.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أنس قال طلق رسول الله ﷺ صفية فأتت أهلها فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل لها راجعها فإنها صوامة قوامة، وأخرج ابن جرير عن قتادة مرسلاً وابن المنذر عن ابن سيرين مرسلاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن العاص وطفيل بن عمرو بن سعيد بن العاص والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خص النداء بالنبيّ ﷺ وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمة فندائه كندائهم أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم، وقيل مجازه ياأيها النبيّ قل لأمتك إذا طلقتم النساء أي أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف له بمنزلة

الشارع كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[(١)] فإنا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾[(٢)] ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال الشافعية اللام بمعنى الوقت أي وقت عدتهن وأيده البغوي بأنه كان ابن عباس وابن عمر على أن الطلاق في الحيض حرام لحديث ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء»[(٣)] متفق عليه، قال البغوي نزلت هذه الآية في هذه القصة يعني طلاق ابن عمر امرأته في الحيض فيظهر بذلك أن العدة بالأطهار دون الحيضات والمراد بالقروء في العدة الأطهار وقالت الحنفية اللام للوقت يعني في غير معهود في الإستعمال وسيلزم ذلك تقديم العدة الطلاق أو مقارنته لاقتضائه وقوعه في وقته بل اللام هاهنا للعاقبة على طريقة له وللموت وابنوا للخراب يعني طلقوهن حتى تعقبه العدة أو اللام صلة لمحذوف والتقدير طلقوهن مستقبلات لعدتهن يقال في التاريخ بإجماع أهل العربية خرجت لثلاث يقين من رمضان، وفي حديث ابن عمر المذكور في رواية مسلم أنه صلّى الله تعالى عليه وسلم تلى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لقبل عدتهن ومعنى قراءة ابن عباس وابن عمر وطلقوهن في قبل عدتهن أي في استقبال عدتهن فظهران العدة بالحيضات دون الأطهار وقد مر الخلاف في مسألة العدة بالحيضات أو الإطهار ومسألة حرمة الطلاق في الحيض في سورة البقرة.

مسألة:

أجمع العلماء أيضاً على أن الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه حرام أيضاً لقوله ﷺ: «**فيطلقها طاهراً قبل أن يمس**» وعلى أنه لا يحرم طلاق امرأة حائض لم يدخل بها ولا طلاق صغيرة لم تحض ولا أيسة بعدما جامعها لأن الحرمة لتطويل العدة ولا عدة على غير المدخول بها وعدة الصغيرة والآيسة بالأشهر وذا لا يمتد بالطلاق بعد الجماع أيضاً ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني اضبطوها بالحفظ وأمكثوها ثلاثة قروء كوامل لئلا تقع الرجعة بعد العدة أو التزوج بزوج آخر قبل انقضاء العدة وكل ذلك لا يجوز ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ أي المطلقات رجعيات كن أو بوائن ﴿مِنۢ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦. (٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في أول كتاب: الطلاق (٥٢٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها (١٤٧١).

بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن في وقت الطلاق وهي بيوت الأزواج حتى تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باختيارهن ومن هذه الآية يثبت أنه لا يجوز للمطلقة مطلقاً رجعية كانت أو بائنة الخروج من بيت الزوج ليلا ونهاراً إلا بضرورة فإن الضرورة مستثناة في العبادات وهي تبيح المحذورات والضرورة مثل انهدام البيت أو خوف السرقة أو عدم وجدان كراء البيت أو ضيق المنزل عليهما أو كون الزوج فاسقاً والطلاق بائناً ولم يكن هناك قادر على حيلولة أو نحو ذلك وقال أحمد يجوز للمطلقة البائنة أن تخرج من بيتها في حوائجها نهاراً وعن الشافعي كالمذهبين، قال البغوي إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن أو نحو ذلك يجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً إجماعاً احتجوا بحديث جابر قال: طلقت خالته فأرادت أن تجد نخلاً فزجرها رجل أن تخرج فأتت النبيّ ﷺ فقال: «بلى فجدي نخلك فإنه عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفاً»[١] رواه مسلم، قال أبو حنيفة حديث الآحاد لا يعارض الآية القطعية غير أنها تخرج في ضرورة ملجئة إجماعاً.

مسألة:

إذا لزمت العدة في السفر في غير موضع الإقامة أن لم يكن بينها وبين مصرها الذي خرجت منه مسيرة سفر رجعت وإن كانت تلك في كل جانب خيرت بين الرجوع والتوجه إلى القصد سواء كان معها اولى أولا والرجوع أولي ليكون الإعتداء في منزل الزوج، وقيل يختار أقربها وإن كانت هاهنا وبين مصرعا مسيرة سفر وبينها وبين المقصد أقل يتوجه إلى المقصد وإن كانت في موضع الإقامة تعتد ثمة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند أبي يوسف ومحمد إن كان معها ولي جاز له الرجوع إلى الوطن والمسير إلى المقصد على التفصيل المذكور.

مسألة: يجوز للمتوفىٰ عنها زوجها في العدة الخروج من بيت زوجها نهاراً ولا يجوز ليلاً، وقال الشافعي يجوز مطلقاً وقد مر المسألة في سورة البقرة، قال البغوي إن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نسائهم نستوحش في بيوتنا فأذن لهن النبيّ ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن فإذا كانت وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها وذكر في سورة البقرة حديث أخت أبي سعيد الخدري قال لها النبيّ ﷺ في عدة وفاة زوجها: «**أمكثي في بيتك حتى يبلغ**

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: جواز خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها (١٤٨٣).

الكتاب أجله»[١] ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ إستثناء مفرغ في محل الظرف أي لا تخرجوهن في وقت من الأوقات إلا وقت أن يأتين قال ابن عمرو السدي وإبراهيم النخعي يجوز للفاحشة خروجها من بيتها قبل إنقضاء العدة وبه أخذ أبو حنيفة، قال ابن همام هذا أبدع وأغرب يقال في الخطابيات لا تزني إلا أن تكوني فاحشة ولا تشتم إنك إلا أن تكون قاطع رحم ونحوه وعلى هذا التأويل إستثناء من الثاني، وقال ابن مسعود الفاحشة الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها وبه أخذ أبو يوسف، قال ابن همام وهذا ظهر من جهة وضع اللفظ لأن إلا غاية والشيء لا يكون غاية لنفسه، وقال ابن عباس الفاحشة المبينة أن تبدوا على أهل زوجها فيحل إخراجها وكذا قال قتادة أن معناه أن يطلقها على نشوزها وعلى هذين التأويلين استثناء من الأول يعني لا تخرجوهن ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بأن عرضها للعقاب ﴿لَا تَدْرِى﴾ أيها الخاطب وجملة ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، في تأويل المفرد مفعول للاتدري أي لا تدري حدوث أمر بعد ذلك تعليل لقوله أحصوا العدة ولا تخرجوهن والمعنى لعل الله يحدث بعد بغضها وإرادة فراقها والرغبة عنها في قلب زوجها محبتها والرغبة فيها فتندمون على الطلاق وتريدون الرجعة ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الضمير راجع إلى الرجعيات من المطلقات وذكر حكم خاص ببعض ما تناوله الصدر لا يبطل عموم الصدر كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٢] المعنى قربن من إنقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فتبين منكم من غير ضرار بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة ﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾ على الرجعة أو الفرقة ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ تبرئاً عن الريبة وقطعاً للتنازع والأمر بالأشهاد أمر إستحباب ولا يشترط الشهود للرجعة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية وعند الشافعي في أصح قوليه وفي قول للشافعي، ورواية أحمد يشترط الشهود للرجعة والأمر أمر إيجاب، قلنا أيضاً الإشهاد على الطلاق ليس بواجب إجماعاً فالأمر للاستحباب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[٣] ولا يمكن أن يكون الأمر للوجوب في حق وللإستحباب في حق الفرقة وإلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهود إذا دعيتم

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة المتوفى عنها زوجها من يوم يأتيها الخبر (٣٥٢٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في المتوفى عنها تنتقل (٢٢٩٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في اللعان (١٢٠٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

إليها ﴿لِلَّهِ﴾ أي خالصاً لوجهه لا لغرض دنيوي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكر ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإنه هو المنتفع به والمقصود تذكيره، أخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال جاء عوف ابن مالك الأشجعي فقال يا رسول الله إن إبني أسره العدو وجزعت أمه فما تأمرني. قال آمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فقالت المرأة نعم ما أمرك فجعلا يكثران فغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه، قال البغوي وهي أربعة آلاف شاه فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ قال البغوي أتى عوف بن مالك النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله أسر العدو ابني وشكى إليه أيضاً الفاقة فقال النبي ﷺ: «**اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله**» ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذا أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب إبلاً فجاء بها إلى أبيه، وأخرج ابن جرير مثله عن سالم بن أبي الجعد والسدي وأخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وأخرج أيضاً عن جابر قال نزلت في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال فذكر مثله، وأخرج الخطيب في تاريخه من طريق جرير عن الضحاك عن ابن عباس وأخرجه الثعلبي من وجه آخر ضعيف وابن أبي حاتم من وجه آخر مرسل فقد صح الحديث بكثرة الشواهد فلا بأس بما قال الذهبي في حديث جابر أنه حديث منكر ومعنى الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ ومن يتقي الله في المصيبة والبلاء فيصبر ويترك الجزع وارتكاب المحرم ﴿يَجْعَل﴾ الله ﴿لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من ذلك البلاء والمصيبة ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ بعد فقره رزقاً حلالا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ كما رزق الأشجعي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**من أنزل فاقة فأنزلها لم يسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله برزق عاجلاً أو آجلاً**»(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه هو والحاكم إلا أنه قال أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**من جاء أو إحتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان حقاً على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال**»(٢).

فائدة:

قال البغوي قال مقاتل أصاب إبنه يعني عوف بن مالك الأشجعي غنماً ومتاعاً ثم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاءفي الهم في الدنيا وحبها (٢٣٢٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في الاستعفاف (١٦٤٤).

(٢) رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه إسماعيل بن رجاء الحصني ضعفه الدارقطني. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن صبر على العيش الشديد ولم يشك إلى الناس (١٧٨٧٠).

رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبيّ ﷺ أخبره الخبر وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به إبنه فقال النبيّ ﷺ نعم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فائدة:

إختار المجدد لجلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية إكثار لا حول ولا قوة إلا بالله وعين في مقدار الإكثار أن يقرأها في كل يوم خمسمائة مرة ويصلّى على النبيّ ﷺ قبله مائة مرة وبعده مئة مرة وقد قال رسول الله ﷺ: «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله» رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وفي الصحيحين عن أبي مولى مرفوعاً «إنها كنز من كنوز الجنة»[١] وفي رواية للنسائي «من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم»[٢].

مسألة إذا دخل المسلم دار الحرب أسيراً أو سارقاً مختفياً بلا أمان وأستولي على مال حربي بسرقة أو غصب أو غير ذلك وأحرزه بدار الإسلام ملكه ملكاً حلالاً وليس عليه إخراج الخمس وإن وضع عنده حربي ماله أمانة أو دخل دار الحرب بأمان تاجراً أو سياحا واستولى على مالهم وأحرزه بدار الإسلام ملكه بملك حرام لأجل الغدر ونقض العهد ولا خمس عليه وإن أخذ مالهم عنوة فحكمه حكم الغنيمة يجب فيه الخمس والله تعالى أعلم قال البغوي قال عكرمة والشعبي والضحاك ومعنى الآية ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وقال ابن مسعود من يتق الله يجعل له مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس، وقال أبو العالية مخرجاً من شدة، وقال الحسن مخرجاً عما نهاه عنه، قلت نظم الآية يطابق قصة الأشجعي ويفيد الحكم العام بحيث يناسب سياق السورة والجملة إعتراضية مؤكدة لما سبق يعني من يتق الله من الرجال ولم يظلم على زوجة بالنشوز والعدوان إذا أراد الفراق لنشوزها أو لغرض صحيح آخر ولم يطلق في الحيض ولا قصد إضرارها بتطويل العدة وغير ذلك ولا أخرجها من المسكن ولم يتعد حدود الله يجعل له مخرجاً من المعصية ومن سوء معاشرتها ويرزقه بدلاً منها زوجة صالحة لم يخطر باله وكذا في المرأة إذا اتقت الله فلم تظلم زوجها بالنشوز وطلب الطلاق بلا إضرار منه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وفيه بشر بن رافع الحارثي وقد وثق وبقية رجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله (١٦٩٠١).

أو صبرت على إيذائه يجعل لها مخرجاً منه ويرزقها من الطعام ومن الرجال بعلاً صالحاً من وجه لا يخطر ببالها وتفيد حكماً عاماً لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما ومن ثم قال قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم**» ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي من حديث أبي ذر وكذا روى ابن حبان في صحيحه والحاكم وزاد فما زال عليه السلام يقرأها ويعيدها ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي كافيه فيما يهمه عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»(٣) متفق عليه وزاد في رواية ولا يكتوون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ يبلغه على ما يريده ولا يفوته مراده لا يرد قضاءه قرأ حفص بالغ بالإضافة بغير تنوين وأمره بالجر والباقون بالتنوين ونصب أمره، قال مسروق إن الله بالغ أمره توكل عليه أو، لم يتوكل غير أن المتوكل عليه يكر عنه سيآته ويعظم له أجراً ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي تقديراً ومقداراً وفيه تقرير لما تقدم من توقيت الطلاق بزمان والعدة والأمر بإحصائها وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها أو المعنى جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه لا يتأتى تغييره ولا يفيد الجزع فيه فهو بيان لوجوب التوكل ويناسب هذا التأويل قول مسروق.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٤٢٠)، قال في الزوائد: رجاله ثقات غير أنه منقطع.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٧٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٨).

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

وأخرج ابن جرير وإسحاق بن راهويه والحاكم وغيرهم بسند صحيح عن أبي بن كعب قال لما نزلت الآية في سورة البقرة في عدة النساء قالوا قد بقي عدد من النساء لم يذكرن الصغار والكبار وأولات الأحمال فأنزلت ﴿وَاللَّائِي﴾ مر اختلاف القراء في سورة المجادلة ﴿يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الحيض ﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾ ويعني اللآتي لا يرجون الحيض لكرهن وقدرها بعض العلماء بخمس وخمسين سنة وبعضهم بستين سنة ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في عدتهن كأن في هذا الشرط إشارة إلى أن عدة اللائي يأسن واللائي لم يحضن يمكن استنباطها من قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1] فإن ثلاثة قروء غالباً يوجد في ثلاثة أشهر فإذا لا يوجد القروء يجب رعاية زمان يوجد فيه غالباً القروء الثلاثة كما أن العلماء حكموا بالبلوغ بمضي خمسة عشر سنة أو سبعة عشر سنة أو نحو ذلك لعدم خلو هذا السن من البلوغ غالباً وكما أن الشرع أقام حولان الحول على المال في وجوب الزكاة مقام النماء لوجود النماء غالباً في الحول وله نظائر كثيرة مثل تقدير الإياس بالسنين ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أخرج مقاتل في تفسيره أن خلاد بن عمر بن الجموح سأل النبيّ ﷺ عن عدة التي لا تحيض فنزلت هذه الآية ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ سواء كانت صغيرة أو مراهقة أو بالغة بالسن مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما سبق يعني كذلك عدتهن ثلاثة أشهر قوله واللائي يئسن مع ما عطف عليه معطوف على مفهوم قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ فإن الإضافة في لعدتهن ولام التعريف في العدة للعهد أي عدتهن المعهودة المعلومة من قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فدلت الإضافة واللام على أن عدة اللائي يحضن من المطلقات ثلاثة حيض فعطف عليه هذه الآية مختصة بالمطلقات الحرائر إجماعاً سواءكن رجعيات أو بائنات أو مختلعات مسلمات أو كتابيات تحت مسلم، وأما الإماء قنات أو مكاتبات أو مدبرات فعدتهن إذا لم تكن من ذوات الإقراء فنصف عدة الحرائر أعني شهر أو نصف شهر بالإجماع وقد ذكرنا في سورة البقرة طلاق الأمة طلقتان وعدتها حيضتان ولما كان الحيض والطلاق غير متجزىء كملتا والشهر متجزىء فصار شهراً ونصف شهر، روى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

الشافعي ثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن عبد الرحمٰن مولى أبي طلحة عن سلمان بن يسارعن عبد الله بن عتبة عن عمر قال ينكح العبد إمرأتين ويطلق تطليقتين وتعتد الأمة بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهراً ونصفاً.

مسألة: الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الإياس ذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد ثلاثة أقراء أو تبلغ سن الإيأس فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن مسعود وبه قال عطاء وإليه ذهب أبو حنيفة والشافعي ووجه هذا القول ظاهر فإنها غير داخلة في اللآئي يئسن واللآئي لم يحضن، وحكي عن عمر أنها يتربصن تسعة أشهر فإن لم تحضن في تلك المدة تعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك، وقال الحسن تتربصن ستة فإن لم تحضن تعتد بثلاثة أشهر مسألة إن حاضت المطلقة حيضتين ثم بلغ سن الإياس وانقطع دمها تستأنف العدة باشهور وإن اعتدت الأيسة بالأشهر ثم رأت الدم بعد إنقضائها أو في خلالها انتقض وأمضى من عدتها وظهر فساد نكاحها الكائن بعد تلك العدة هذا إذا رأت الدم على العادة بأن يكون الدم أسود أو أحمر ولو رأت أصفر أو أخضراً وتربية لا يكون حيضاً إلا إذا كانت عادتها قبل الإياس أصفر فرأته كذلك أو علقاً فرأته كذلك إن وقع الطلاق في أول شهر اعتدت بالأشهر الهلالية إتفاقاً وإن وقع في أثناء الشهر اعتبر كلها بالأيام فلا ينقضي عدتها إلا بتسعين يوماً عند أبي حنيفة وعند صاحبيه يكمل الأول ثلاثين يوماً والأخيران المتوسطان بالأهلة.

مسألة:

ليس حكم هذه الآية في المتوفى عنها زوجها فإن عدتها إذا لم تكن حاملاً أربعة أشهر وعشر سواء كانت صغيرة أو آيسة أو شابة والداعي إلى تخصيص حكم هذه الآية بالمطلقات دون المتوفىٰ عنهن أزواجهن مع كون اللفظ عاماً الإجماع وسند الإجماع ما ذكرنا في سبب النزول من حديث أبي بن كعب قالوا قد بقي عدد من النساء لم يذكرن الصغائر والكبائر وأولات الأحمال فأنزلت هذه الآية وقوله تعالى إن ارتبتم، ولا شك أن عدة النساء لم يبق إلا من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1] بخلاف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾[2] فإنه عام شامل لجميع أقسام المتوفىٰ عنهن أزواجهن لم يشذ منها شيء وأيضاً لا يحتمل تلك الآية الارتياب فإن الارتياب إنما يتصور في ما ثبت بدليل ظني وتلك الآية لعمومه يشتمل جميع أقسام المتوفى عنها زوجها قطعاً يقيناً فإن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

قيل هذا الدليل كما يقتضي اختصاص ههذ الآية بالمطلقات يقتضي أيضاً أن يختص به أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ مع أنه لم يقل به أحد فكيف ترك دليل الإختصاص هناك مع كون الجمل الثلاث في نسق واحد؟ قلنا: كان دليل التخصيص هاهنا الإجماع وإلا فحديث الآحاد ما لم يعتقد بالإجماع لا يصلح مخصصاً للقطع عندنا والإجماع هناك على خلاف ذلك يعني على شمول الأحمال أولات الأحمال المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن لابن علية وابن عباس قالا لا بد للمتوفي عنها زوجها إذا كانت حاملة من الوضع والأربعة الأشهر وعشراً جمعا بين الآيتين احتياطاً والجمهور على أنه تنقضي عدتها بالوضع كذا روى مالك في الموطأ عن ابن عمر وعن عمر بن الخطاب ولم يقل أحد أن الوضع في حقها غير معتبر أصلاً، وفي موطأ مالك عن سليمان بن يسار أن عبد الله بن عباس وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف اختلفوا في المرأة تنفس بعد زوجها بليال فقال أبو سلمة إذا وضعت ما في بطنها فقد حلت، وقال ابن عباس آخر الأجلين فقال أبو هريرة أنا مع ابن أخي يعني أبا سلمة فأرسلوا كريباً مولى ابن عباس إلى أم سلمة زوج النبيّ ﷺ يسألها عن ذلك فأخبرهم أنها قالت ولدت سبيعة الأسلمية بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال قد حللت فانكحي من شئت. وفي الصحيحين حديث عمر بن عبد الله بن أرقم أنه دخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فسألها عن حديثها فأخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وهو كان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال مالي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح والله ما أنت بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني أني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي[(١)]. وإذا ثبت أن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ شاملة للمتوفىٰ عنها زوجها أيضاً كما يدل عليه حديث أبي بن كعب قلت للنبيّ ﷺ وأولات أحمال أجلهن أن يضعن حملهن للمطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها زوجها فقال هي للمطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها زوجها ولكن فيه المثنى بن صباح متروك، قال الشافعي رحمه الله تعالى بأن هذه الآية مخصصة الآية التربص أربعة أشهر وعشر أبناء على أنه يجوز التخصيص بالمتراخي عنده،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: فضل من شهد بدراً (٣٩٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل (١٤٨٤).

قال البيضاوي المحافظة على عموم هذه الآية أولي من المحافظة على عموم قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجاً بالعرض والحكم معلل هاهنا بخلاف ثمه والحديث سبيعة وقال أبو حنيفة هذه الآية ناسخة لحكم آية البقرة مقدار ما يتناول عليه وهو المروي عن ابن مسعود، وأخرج البخاري عن ابن مسعود قال أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة نزلت سورة النساء القصرىٰ بعد الطولىٰ يريد بالقصرى ههذ السورة بالطولى البقرة[١]، وفي رواية عنه أنه قال من شاء بأهلته أن سورة النساء القصرىٰ نزلت بعد سورة النساء الطولىٰ، وأخرج أبو داوود والنسائي وابن ماجه بلفظ من شاء لاعنته لأنزلت سورة النساء القصرى بعد الأربعة أشهر وعشرا[٢]، وأخرج البزار بلفظ من شاء حالفته مسألة لا فرق بين عدة الحامل بين الحرة والأمة لأن الوضع لا يحتمل التجزي.

مسألة:

أم التوأمين تنقضي عدتها بوضع آخرها لأن قوله تعالى حملهن يقضتي وضع تمام حملها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يعني يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة يوفقه للخير ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أحكام المذكورة مبتدأ خبره ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ حال من أمر الله والعامل فيه معنى أشيء ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعى حقوقها ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيآت ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ متصل بقوله تعالى لا تخرجوهن مستأنفة كأنه في جواب من قال أين تسكنهن والضمير راجع إلى النساء المطلقات المذكورات في أول السورة فهي تعم الرجعيات والبائنات الحرائر والإماء صغيرات كن أو حائضات أو أيسات ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ من زائدة والمعنى حيث سكنتم أو للتبعيض والموصوف محذوف يعني مكانا كائناً بعض المكان الذي سكنتم فيه، وقيل من يمضي في كما في قوله تعالى من قبل أن تنزل التوراة ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي من وسعكم أي الذي تطيقونه ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المساكن ببعض الأسباب من إنزال لا يوافقها أو شغل مكانها وغير ذلك فتلجوهن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إعلم أن المطلقة الرجعية يستحق على زوجها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٤٩١٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها (٣٥١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في عدة الحامل (٢٣٠٥).

النفقة والسكنى إجماعاً ما دامت في العدة فإن كان الدار ملكاً للزوج يجب على الزوج أن يخرج عنها ويترك الدار مدة عدتها إن كان لا يريد الرجعة وإن كان بإجارة فعلى الزوج الأجرة وأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلقات الثلاث أو باللعان أو بالكنايات على مذهب أبي حنيفة فلها السكنى حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم لعموم قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ من غير فصل، وروى عن ابن عباس والحسن والشعبي أنه لا سكنى لها واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً روي ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن والشعبي وعطاء وبه قال الشافعي وأحمد، والحجة لهؤلاء مفهوم الشرط لهذه الآية وحديث فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب بالشام فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال والله مالك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال لها «ليس لك عليه نفقة» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال تلك امرأة يغشها أصحابي فأعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا حللت فأذنيني قلت فلما حللت ذكرت له أن معاوية ابن سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله ﷺ أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له إنكحي أسامة بن زيد، فكرهته ثم قال إنكحي أسامة فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به[1] رواه مسلم، وروى مسلم أيضاً وقال فيه «لا نفقة لك ولا سكنى» ورواه أيضاً وقال فيه ابن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالب فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقه كانت بقية من تطليقها وعلى هذا يحمل رواية الثلاث على أنه أوقع واحدة في تمام الثلاث وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن ربيعة بنفقة فسخطتها فقالا والله ليس لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأتت النبيّ ﷺ فذكرت له قولهما فقال لا نفقة لك، وفي رواية لمسلم أن أبا حفص بن المغيرة طلقها ثلاثاً ثم انطلق إلى اليمن وقال لها أهله ليس لك علينا نفقة فانطلق خالد بن الوليد في نفر فأتوا رسول الله ﷺ في بيت ميمونة الحديث، وقال أبو حنيفة لها نفقة حاملة كانت أولا بهذه الآية فإن قوله تعالى من وجدكم متعلق بمحذوف والتقدير أسكتوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم لأن قدر السكنى اتضح بقوله من حيث سكنتم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ولولا تقدير أنفقوا عليهن فلا فائدة لقوله من وجدكم إنما هو لبيان مقدار النفقة وبه جاءت قراءة ابن مسعود وهو حجة عند أبي حنيفة والمفهوم ليس بحجة عنده وفائدة التفييد بقوله وإن كن أولات حمل التأكيد

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠).

ودفع توهم عدم النفقة على المعتدة الحامل في تمام الحمل لطولها وعدم الإقتصار على قدر ثلاث حيض أو ثلاثة أشهر، والجواب عن حديث فاطمة أنه وإن كانت مرويا بسند صحيح لكنه شاذ مردود غير مقبول رده السلف ومعارض ومضطرب أما الاضطراب فقد سمعت في بعض الروايات أنه طلقها وهو غائب وفي بعضها طلقها ثم سافر وفي بعضها أنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ وسألته وفي بعضها أبا حفص بن المغيرة، أما الرد من السلف فقد طعن في الحديث أكابر الصحابة ممن سنذكر مع إنه ليس من عادتهم الطعن بسبب كون الراوي امرأة أو أعرابياً فقد قبلوا حديث فريعة بنت مالك أخت أبا سعيد في اعتداد المتوفي عنها زوجها في بيت زوجها مع أنها لا لا تعرف إلا بهذا الحديث بخلاف فاطمة بنت قيس، وقبل عمر خبر الضحاك بن سفيان الكلابي وحده وهو أعرابي وأسوة من رد هذا الحديث عمر بن الخطاب(رض) روى مسلم في صحيحه عن أبي إسحاق قال كنت مع أسود ابن زيد جالساً في المسجد الأعظم ومعنا الشعبي فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة فأخذ الأسود من حصني فحصن به فقال ويلك تحدث بمثل هذا قال عمر لا نترك كتاب ربنا ولا سنة نبينا بقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت لها السكنى والنفقة، قال الله تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فعمر رد حديث فاطمة بين أن سنة رسول الله ﷺ أن لها النفقة والسكنى وقول الصحابي من السنة كذا وقع فكيف إذا كان قائله عمر وهو أعلم بالسنن والشرائع وفيما روى الطحاوي والدارقطني زيادة قوله سمعت رسول الله ﷺ يقول مبتدأ **«للمطلقة ثلاثاً النفقة والسكنى» وهذا صريح في الرفع والمعارضة،** قال سعيد بن منصور ثنا المعاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم قال كان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة قال ما كنا نغير في ديننا بشهادة إمرأة وهذا شاهد على أن المعروف المشهور عندهم كان وجوب النفقة والسكنى ولمن رد حديثها عائشة وكانت أعلم الناس بأحوال النساء فقد كن يأتين إلى منزلها ويستفتين من النبي ﷺ، روى الشيخان في الصحيحين عن عروة أنه قال لعائشة ألم تري إلى فلانة بنت الحكم طلقها زوجها البتة فخرجت فقالت بئس ما صنعت فقلت ألم تسمعي إلى قول فاطمة فقالت أما أنه لا خير لها في ذكر ذلك»[1] وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت لفاطمة ألا تتقي الله تعالى في قولها لا سكنى لها ولا نفقة وممن رد حديثها أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ روى عبد الله بن صالح قال حدثني

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: قصة فاطمة بنت قيس (٥٣٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠).

الليث بن سعد حدثني جعفر عن أبي هريرة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال كان محمد بن أسامة يقول كان أسامة إذا ذكرت فاطمة شيئاً من ذلك يعني من انتقالها في عدتها رماها بما في يده انتهى، هذا مع أنه هو الذي تزوجها بأمر رسول الله ﷺ وكان أعرف بالحال وهذا لم يكن إلا لعلمه بأن ذلك غلط أو لعلم بخصوص سبب جواز إنتقالها من اللسن أو خيفة المكان قال ابن همام، وقال الليث حدثني عقيل عن ابن أشباب أنا أبو سلمة بن عبد الرحمان فذكرت حديث فاطمة فأنكر الناس عليها كانت تحدث من خروجها قبل أن تحل، وممن رد حديثها مروان روى مسلم في صحيحه أن مرت وأبعث إليها قبيصة بن أبي ذويب فسألها عن الحديث فحدثته به فقال مروان لم تسمع الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، قال ابن همام والناس إذ ذاك الصحابة فهذا في المعنى حكاية عن إجماع الصحابة وصفه بالعصمة قال ابن همام من رد حديثها زيد بن ثابت ومن التابعين ابن المسيب وشريح والشعبي والحسن والأسود بن يزيد وممن بعدهم الثوري وأحمد بن حنبل وخلق كثير ممن تبعهم فالحديث شاذ، وأما المعارضة فما ذكرنا من رفع عمرو في معجم الطبراني بسنده عن إبراهيم أن ابن مسعود وعمر قالا المطلقة ثلاثاً لها السكنى والنفقة، وأخرج الدارقطني عن حزب بن العالية عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ ﷺ قال المطلقة ثلاثاً لها السكنى والنفقة لكن ضعف رفعه ابن معين وقال الأشبه وقفه على جابر **فائدة** وقيل في توجيه حديث فاطمة بنت قيس على تقدير صحته أنها كانت تطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة ولذا أخرجها رسول الله ﷺ من بيتها روى القاضي إسماعيل بسنده عن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس إنما أخرجك هذا اللسان، وقال سعيد بن المسيب تلك إمرأة يعني فاطمة بنت قيس فتنت الناس كانت لسنة فوضت على يدابن أم مكتوم رواه أبو داود، وقال سليمان بن يسار خروج فاطمة إنما كان عن سوء الخلق»[(١)] رواه أبو داود عنه وكان هذا سبباً لخروجها من بيتها وأما سبب عدم نفقتها فلأن زوجها كان غائباً ولم يترك مالاً عند أحد سوى الشعير الذي بعث به إليها فطالبت هي من أهله على ما في مسلم من طريق أن طلقها ثلاثاً ثم انطلق إلى اليمن فقال لها أهله ليس لك علينا نفقة الحديث فكأنه لذلك قال لها عليه الصلاة والسلام لا نفقة لك ولا سكنى لأنه لم يترك مالاً عند أحد وليس يجب لك على أهله شيء فلا نفقه لك فلم تفهم فاطمة الغرض من كلام رسول الله ﷺ وجعلت تروي عدم النفقة مطلقاً فوقع إنكار الناس عليها.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أنكر ذلك على فاطمة بنت قيس (٢٢٩٢).

مسألة: المعتدة عن وفاة الزوج لا نفقة لها إجماعاً حاملاً كانت أو حائلاً واختلفوا في سكناها للشافعي فيه قولان أحدهما أنه لا سكنى لها تعتد حيث تشاء وهو قول عائشة وابن عباس وعلي وبه قال الحسن، والجمهور على أن لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وبه قال مالك وسفيان والثوري وأحمد وإسحاق، قلت: وكذا قال أبو حنيفة لكنه يقول إن كان نصيبها من دار الميت لا يكفيها وأخرجها الورثة من نصيبهم انتقلت لأن هذا انتقال بعذر والعبادات توثر فيها الأعذار فصارت كما إذا خافت سقوط المنزل أو كانت فيها بأجر ولا تجد ما تؤويه ولا تخرج عما انتقلت إليه والحجة للجمهور حديث فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري وقد ذكرناه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾[1] ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي المطلقات بعد وضع الحمل وتمام العدة أولادكم ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على رضاعهن ذكرنا في سورة البقرة أن إرضاع الولد واجب على الأمر لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[2] فإن استأجر الرجل زوجة أو معتدة لإرضاع ولدها لا يجوز لأنه أخذ الأجرة على فعل واجب عليها فلا يجوز وهذا كان يقتضي عدم جواز استئجار المطلقة بعد انقضاء العدة أيضاً لكنا جوزنا ذلك بهذه الآية فظهر بهذه الآية أن وجوب الإرضاع على الأم مقيد بوجوب رزقها على الأب بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾[3] ففي حالة الزوجة والعدة بعد الطلاق أبوه قائم برزقها وفيما بعد العدة ليس عليه رزق فيقوم الأجرة ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ خطاب للزوجين أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره الآخر بشيء معروف وما هو الأحسن ولا يقصد أحدهم إضرار الآخر، قال الشافعي يعني شاوروا، وقال مقاتل بتراض الأم والأب على أجر مسمى، وقال البيضاوي وليأمر بعضكم بعضا بجميل في الإرضاع والأجر ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أيها الأبوين أي لأن عسر الإرضاع على الأم فأبت أن ترضع ولدها فليس للأب إجبارها عليه وعذرت قضاء لظن عجزها حين امتنعت عن الإرضاع مع وفور شفقتها فإن كان الإرضاع غير متعسر عليها في الواقع أتمت عند الله وإن عسر على الأب إعطاء أجرتها وكانت ثمة من ترضعه بغير أجر أو بأجر أقل من أجر المثل لا يجبر على الأب في إعطاء أجر المثل للأم ويسترضع الأب من غيرها عند أبي حنيفة وهي رواية عن مالك وقول للشافعي، وقال أحمد يجبر على الأب في إعطاء أجر المثل ولا يجوز للأب الإرضاع من غيرها وإن وجد من ترضع بغير أجر وهي رواية عن مالك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وقول للشافعي وهذه الآية حجة لأبي حنيفة حيث قال الله تعالى ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾ أي للأب امرأة ﴿أُخْرَىٰ﴾ وفيه معاتبة للأم على المعاشرة.

مسألة: يشترط في الإرضاع من غيرها أن يكون الإرضاع عند الأم ما لم تنكح زوجاً آخر غير محرم من الولد لأن الحضانة لها لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله ﷺ: «**إن إبني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني فقال عليه الصلاة والسلام: «أنت أحق به ما لم تنكحي**»[1] رواه أبو داود والحاكم وصححه، وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال كانت عند عمر امرأة من الأنصار فولدت له عاصم بن عمر ثم فارقها عمر فركب يوماً إلى قباء فوجد ابنه يلعب بفناء المسجد فأخذه بعضده ووضعه بين يديه على الدابة فأدركته جدة الغلام فنازعته إياه فأقبلا حتى أتيا أبا بكر فقال خل بينه وبينها فما راجعه عمر كذا روى عبد الرزاق وروى البيهقي وزاد، ثم قال أبو بكر سمعت رسول الله ﷺ قال لأبوي والدة عن ولدها، وروى ابن أبي شيبة قال أبو بكر مسحها وحجرها وريحها خير لها منك حتى يشب الصبي فيختار لنفسه.

مسألة:

إن طلبت الأم أجر مثل ما تطلب غيرها فليس للأب أن يسترضع عن غيرها إجماعاً ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي على قدر غناه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ على قدر طاقة.

مسألة: اختلفوا في أن نفقة الزوجات والمطلقات هل هي مقدرة بالشرع أو معتبرة بحال الزوجين أو بحال الزوج فقط فقال مالك وأحمد وهي رواية عن أبي حنيفة وأختارها صاحب الهداية أنها غير مقدرة بالشرع بل مفوض إلى الإجتهاد ويعتبر بحال الزوجين فيجب على الموسر للموسرة نفقة الموسرين وعلى المعسر للمعسرة أقل الكفايات حالاً والباقي في ذمته إذ قضىٰ القاضي بنفقة المتوسط أو رضيا بقدر، وهذا القول يؤخذ من هذه الآية لا يقتضي اعتبار حال الزوجة وتقتضي أن يكون على الموسر للغفيرة نفقة اليسار بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ويقتضي أن يكون على الفقير بقدر طاقته ولا يكون شيء في ذمته وإن كانت زوجة موسرة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فإنه تعليل لعدم وجوب الزيادة وهذا هو ظاهر الرواية من مذهب، أبي حنيفة قال ابن همام على ظاهر

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أحق بالولد (٢٢٧٤).

الرواية يجب في صورة إعسار الزوج ويسار الزوجة نفقة الإعسار لأنها وإن كانت موسرة لكنها لما تزوجت معسراً فقد رضيت بنفقة المعسرين وفي صورة يسار الزوج وإعسار الزوجة نفقة الموسر زوجه ومن قال إنه يجب على المعسر للموسرة نفقة متوسطة إعتبار حال الزوج ثبت بالقرآن وأعتبار حال الزوجة بحديث عائشة أن هند بنت عتبة قالت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1] متفق عليه، ويورد عليه أنه حديث آحاد لا يجوز به تغيير حكم ثبت بالقاطع وأفاد صاحب الهداية دفع هذا الإيراد بقوله نحن نقول بموجبه أي موجب القرآن أنه مخاطب بقدر وسعه والباقي في ذمته فإن المفاد بالنص باعتبار حاله في الإنفاق ونحن نقول أن المعسر لا ينفق فوق وسعه وهو لا ينفي إعتبار حالها في قدر ما يجب لها عليه في ذمته والحديث أفاده فلا زيادة على النص لأن موجبه تكليف بإخراج بقدر حاله والحديث أفاد إعتبار حالها في قدر الواجب إلا المخرج فيجتمعان بأن يكون الواجب عليه أكثر فيما إذا كانت موسرة وهو معسر ويخرج قدر حاله فبالضرورة يبقى الباقي في ذمته وأورد عليه أنه ﷺ كان عالماً بحال أبي سفيان لعله أنه كان موسرا فلم ينص على حاله وأطلق لها بأن أخذ كفايتها وأيضاً ليس في الحديث إعتبار حالها فإن الكفاية تختلف أيضاً وقوله عليه الصلاة والسلام «بالمعروف» إشارة إلى رعاية حاله وأخذها من مال أبي سفيان ما يكفيها وولدها لا يمكن إلا إذا كان أبو سفيان مالكاً لما يكفيها وولدها ففيه دليل واضح على أنه كان وسراً مانعاً لأجل الشح والله أعلم، وقال الشافعي هي مقدرة بالشرع لأدخل للإجتهاد فيها معتبرة بحال الزوج كما ينطق به الآية فعلى الموسر مدان وعلى المتوسط مد ونصف وعلى المعسر مد واحد ولا دليل في الآية على التقدير.

مسألة: اتفقوا على أن الزوجة إذا احتاجت إلى خادم وجب أخذ أمها بشرط يسار الزوج، وقال محمد يجب على المعسر أيضاً نفقة خادم، ثم اختلفوا فيما إذا احتاجت إلى أكثر من خادم فقال أبو حنيفة ومحمد والشافعي وأحمد لا يلزم إلا خادم واحد وقال مالك في المشهور عنه إذا احتاجت خادمين أو ثلاثة لزمه ذلك، وقال أبو يوسف عليه نفقة خادمين فقط أحدهما لمصالح الداخل والآخر لمصالح الخارج والله تعالى أعلم ثم ذكر الله تعالى لتطيب قلوب المعسرين وعد اليسر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف (٥٣٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: قضية هند (١٧١٤).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم الخبرية مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ أي عتى أهلها حذف المضاف وأسند الفعل إلى المضاف إليه وكذا في حاسبناها وعذبناها خبر كائن أو صفة له والخبر أعد الله لهم يعني كثير من أهل القرية طعنت وأعرضت إعراض العاتي المعاند ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ حاسبناها مع ما عطف عليه عطف على عتت يعني حساباً بالاستقصاء والمناقشة وعدم العفو والتجاوز يعني حاسبناها بعملها في الدنيا وجزيناها في الدنيا، أو المراد استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحف الحفظة ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ قرأ نافع وأبو بكر بضم الكاف والباقون بالسكون يعني منكراً فظيعاً بالجوع والقحط والسيف والأسر والإهلاك ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عقوبة كفرها ومعاصيها في الدنيا ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ في القبر والآخرة ﴿خُسْرًا﴾ لاربح فيه أصلاً حيث يعوض لهم بالجنة النار ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كذا قال مقاتل في تأويل الآية، وقيل في الآية تقديم وتأخير ومجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط وسائر البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً وكان عاقبة أمرها خسراً، وقال أكثر المفسرين المراد في الكل حساب الآخرة وعذابها والتعبير بلفظ الماضي للتحقيق وعلى هذين التأويلين لا يجوز إلا أن يكون عتت خبراً من كأين ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ يعني لا تطفوا ولا تعرضوا عن أمر بكم ورسله كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم والفاء للسببية فإن الوعيد على الجفاء بسبب الإتقاء ﴿يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين آمنوا بدل أو نعت كاشفة فإن مقتضى اللب الإيمان والجملة الندائية معترضة للتنبيه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حال من فاعل فاتقوا أو تعليل ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني القرآن ﴿رَّسُولًا﴾ منصوب بفعل مقدر يعني وأرسل رسولاً أو هو منصوب بالمصدر على المفعولية والمعنى أنزل إليكم ذكر رسول أو على البدلية بدل الكل من ذكر على أنه بمعنى الرسالة أو على حذف المضاف يعني كتاب رسول أو بدل اشتمال من الذكر بمعنى اقرآن يعني أنزل ذكراً

رسولاً معه، وقيل المراد بالذكر جبرئيل عليه السلام لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر وهو القرآن أو لأنه مذكور في السماوات أو ذا ذكر أي شرف أو محمد ﷺ لمواظبته على الذكر وتلاوة القرآن أو تبليغه الذكر وعبر من إرساله بالإنزال ترشيحه أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه وعلى هذين التأويلين رسولاً بدل من ذكراً ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ صفة للرسول على الحقيقة أو للقرآن مجاز أو جاز أن يكون حالاً من اسم الله ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي الكفر والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الإيمان والفقه والأعمال الصالحة الموجبة للنور في الآخرة، والمراد بالموصول المؤمن بعد نزول القرآن الذين علم الله وقدر إيمانهم بعد الكفر وعلمهم بعد الجهل أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والأعمال الصالحة والعلوم الحقة وقوله ليخرج متعلق بأنزل ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون على المتكلم والباقون بالياء على الغيبة وحد ضمير ندخله وجمع خالدين حملاً على لفظ من ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها فيه تعظيم لما رزقوا ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني سبعاً.

عن أبي هريرة قال: «بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذا أتى عليهم سحاب فقال النبي ﷺ هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا العنان هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرون ولا يدعونه، ثم قال هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف، ثم قال هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال سماءان بعدما بينهما خمسمائة سنة، ثم قال كذلك حتى عد سبع سماوات ما بين السماء والأرض، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعدما بين السماءين، ثم قال هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إنها الأرض، ثم قال هل تدرون ما تحت ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إن تحتها أرض أخرى ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين خمسمائة سنة، ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو كل شيء عليم»[1] رواه أحمد والترمذي وقد ذكرنا هذا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٣٢٩٨).

الحديث وتحقيقه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾[1] قال قتادة في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه من خلقه وأمر من أمر وقضاء من قضاء وقد ورد في بعض الأحاديث «أن في كل أرض آدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وموسى كموسى وبني كنبيتكم يعني محمد ﷺ» والله تعالى أعلم ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاءه بينهن وينفذ حكمه فيهن كلهن ولو صح حديث في كل أرض آدم كآدمكم فجاز أن يكون المعنى يتنزل بالوحي بينهن من السماء السابعة إلى الأرض السابعة السفلى.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ فلا يخفى عليه شيء وقوله لتعلموا علة لخلق أو ليتنزل الأمر أو لمقدريها أي عمكم الخلق والتنزل لتعلموا الآية فإن كلاً منها يدل على كمال قدرته وعلمه وعلماً منصوب على التميز من نسبة أحاذ إلى فاعله أو مصدر من غير لفظه فمعنى أحاط بكل شيء علماً علم كل شيء علماً وجملة الله الذي خلق سبع سماوات الآية تعليل لما سبق من قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

سورة التحريم

آياتها اثنتا عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

في الصحيحين عن عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة تقول إن النبيّ ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش يشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل علينا النبيّ ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال لا بأس شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾[1] يعني العسل والاستفهام للإنكار يعني لا ينبغي أن تحرم الحلال، وفي رواية للبخاري عن عطاء بإسناده، قال لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً يعني بذلك مرضاة أزواجه وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة بسند صحيح عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل فيدخل على عائشة قالت إني أجد منك ريح مغافير ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك فقال أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فنزلت الآية، قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (٥٢٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (١٤٧٤).

الحافظ ابن الحجر في شرح البخاري الراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير، ويرجحه أيضاً ما روى البخاري عن عائشة إن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء النبيّ ﷺ فهذا يرجح أن زينب هي صاحبة العسل ولهذا عارت عائشة منها لكونها من غير حزبها.

فائدة: وقد ورد في صحيح البخاري من حديث عروة عن عائشة أن صاحبة العسل حفصة وذلك أنها قالت كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا صلىٰ العصر دخل على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله ﷺ منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت إذا دخل عليك فإنه سيد قومك فقولي يا رسول الله أكلت مغافير فيقول لا فقولي يا هذه الريح؟ وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول سقتني حفصة شيء عسل قولي يا رسول الله جرست نحله العرفظ وسأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية، فلما دخل على سودة قالت والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أناديه بالذي قلت لي وأنه على الباب فرقاً منك فلما دنى عنها رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال لا، قالت فما بال هذا الريح؟ قال سقتني حفصة شربة عسل، قالت جرست نحله العرفظ، فدخل عليّ فقلت له مثل ذلك فدخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت يا رسول الله ألا أسقيك منه، قال لا حاجة لي به قالت يعني عائشة تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قالت يعني عائشة قلت لها اسكتي.
قال الحافظ ابن حجر وطريق الجمع بين هذا الحديث الدال على أن صاحبة العسل حفصة وبين ما سبق أنها زينب الحمل على تعدد الوقعة فلا يمتنع تعدد السبب لأمر واحد فإن صح إلى الترجيح فرواية عبيد بن عمير أثبت لموافقة ابن عباس لها على أن المتظاهرتين حفصة وعائشة فلو كانت حفصة صاحبة العسل لم تقرره في المظاهر بعائشة لكن يمكن تعدد القصة في شرب العسل وتحريمه وإختصاص النزول بالقصة التي فيها أن عائشة وحفصة هما متظاهرتان ويمكن القصة التي وقع فيها شرب العسل عند حفصة كانت سابقة، ويؤيد هذا الحمل أنه لم يقع في طريق هشام بن عروة التي فيها شرب العسل كان عند حفصة تعرض الآية ولا لذكر سبب النزول، قال القرطبي الرواية التي فيها أن المتظاهرتان عائشة وصفية وسودة ليست بصحيحة لأنها مخالفة التلاوة بجيئها بخطاب الإثنين دون خطاب جمع المؤنث فالتوفيق ما ذكرنا أن قصة شرب العسل عند حفصة كانت سابقة فلما قيل له ما قيل

ترك الشرب من غير تصريح بتحريح ولن ينزل في ذلك شيء لم لما شرب في بيت زينب تظاهرت عائشة وحفصة على ذلك القول، حرم العسل فنزلت الآية، وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال سألت أم سلمة عن هذه الآية قالت كان عندي عكة من العسل أبيض فكان النبيّ ﷺ يلعق منها وكان يحبه وقالت عائشة نحلها تجرس عرفطاً فحرمها رسول الله ﷺ فنزلت الآية كذا أخرج الطبري ورفع في تفسير السدي، قال الحافظ ابن حجر هذا مرجوح لإرساله وشذوذه، وقال أكثر المفسرين إن الآية نزلت في تحريم مارية ذكر البغوي أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فلما كانت يوم حفصة إستأذنت زيارة أبيها فأذن فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال ما يبكيك؟ فقالت إنما أذنت لي من أجل هذا فدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، فقال رسول الله ﷺ أليس هي جاريتي أحلها الله لي أسكتي فهي حرام عليَّ ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن، فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار التي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك إن رسول الله ﷺ قد حرّم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبيّ ﷺ فغضبت عائشة فلم يزل بني الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وأخرج البزار بسند صحيح عن ابن عباس قال نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآية في سرية.

روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن ابن عباس قال كانت حفصة وعائشة متحابتين فذهبت حفصة إلى أبيها تحدث عنده فأرسل النبيّ ﷺ إلى جارية فظلت معه في بيت فرجعت حفصة فوجدتها في بيتها فخرجت الجارية ودخلت حفصة وقالت قد رأيت من كان عندك والله لقد سويتني فقال النبيّ ﷺ لأرضيك وإني أسر إليك سراً فاحفظه، قالت ما هو؟ قال أشهدك أن سريتي هذه عليَّ حرام رضي لك فأنزل الله هذه الآية، وأخرج الحاكم والنسائي بسند صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطأ فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله هذه الآية وأخرج في المختار من حديث ابن عمر عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **لحفصة «لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم علي حرام» فلم يقربها حتى أخبرت عائشة فأنزل الله قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم»** وأخرج الطبراني بسند ضعيف من حديث أبي هريرة قال دخل رسول الله ﷺ بمارية سرية بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه فقالت يا رسول الله ﷺ في بيتي دون بيوت نسائك فقال فإنها

عليّ حرام أن أمسها يا حفصة واكتمي هذا عليّ فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها فأنزل الله يأ أيها النبيّ لم تحرم الآيات، فهذه الأحاديث تدل على أن الآيات في تحريمه عليه الصلاة والسلام على نفسه مارية القبطية على خلاف ما سبق من الأحاديث، قال الحافظ ابن حجر يحتمل أن الآية نزلت في السببين معا ويدل على هذا التوفيق ما وقع في رواية يزيد ابن رومان عن عائشة عند ابن مردويه، وفيه أن حفصة أهديت لها عكة فيها عسل وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها حبسته حتى يلعقه أو يستقيه منها فقالت عائشة بجارية لها حبشية يقال لها خضراء إذا دخل على حفصة فانظري ما يصنع فأخبرتها الجارية بشأن العسل فأرسلت إلى صواحبها فقالت إذا دخل عليكن فقلن أنا نجد منك ريح مغافير فقال هو عسل والله لا أطعمه أبداً فلما كان يوم حفصة استأذنته أن تأتي أباها فأذن لها فذهبت فأرسل إلى جارية فأدخل بيت حفصة قالت فرجعت حفصة فوجدت الباب مغلقاً فخرج ووجهه يقطر وحفصة تبكي وعاينته فقال أشهد أنها عليّ حرام أنظري لا تخبري بهذا امرأة وهي عندك أمانة فلما خرج قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم أمته، قلت: هذا الحديث يوجب الجمع بين قصة مارية وقصة شرب العسل عند حفصة، قبل ذلك ولعل الراوي جمع في الرواية قصة شرب العسل عند حفصة وقصة تحريم مارية وترك ما بين ذلك من قصة شرب العسل عند زينب وتحريم العسل، قال الحافظ ابن حجر والراجح من الأقوال كلها في سبب نزول الآية قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها بخلاف العسل فإنه إجتمع فيه جماعة منهن يعني سودة وصفية مع عائشة كما مروا الله تعالى أعلم ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ تفسير للتحريم أو حال من فاعله أو إستيناف ببيان الداعي إليه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا ينبغي تحريم ما أحل الله بالحلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ رحمك فجعل لك مخرجاً من التحريم ولم يؤاخذك به وعاتبك محاماة لك عمالا ينبغي ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي شرع ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ أي تحليل ما حرم باليمين أو حل عقدة اليمين أو المعنى أوجب عليكم أن تكفروا الأيمان إذا حنثتم والكفارة هي ما تحل به اليمين أي يرفع إثم نقضه فإن قيل صلة الوجوب تكون كلمة على دون اللام، قلنا لما كان وجو الكفارة جالبا المنفعة الحل ورفع الإثم أورد كلمة اللام موضع على والكفارة ما ذكرت في سورة المائدة ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أي وليكم وناصركم الجملة حال من فاعل فرض أو مستأنفة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه إختلفوا في أنه ﷺ هل كفّر أم لا فقال مقاتل أعتق رقبة في تحريم مارية وقال الحسن لم يكفر لأنه مغفور له والصحيح عندي قول مقاتل فأن قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ بعد قوله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ دليل واضح على افتراض الكفارة على النبيّ ﷺ بالتحريم المذكورة وكونه مغفورا له لا ينافي وجوب الكفارة كما لا ينافي وجوب سجود السهو وغيرها وأيضاً قول مقاتل شهادة على الإثبات فتقبل بخلاف قول الحسن ويؤيد قول المقاتل قول ابن عباس «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»(١) وأخرج الحارث ابن أبي أسامه في مسنده عن عائشة «قالت لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح أنزل الله تعالى ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ متفق عليه وهذا غريب جداً في سبب نزولها.

مسألة:

من قال حرمت على نفسي أمتي هذه أو طعامي هذا أو طعاماً كذا يكون يميناً عند أبي حنيفة وأحمد والأوزاعي وهو المروي عن أبي بكر وعائشة والحجة لهذا القول هذه الآية حيث قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ حيث جعل تحريم الحلال يميناً وقال البغوي أخبرنا عن سعيد بن عباس قال في الحرام يكفر ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ وقال الشافعي تحريم الحلال ليس يمين لكن في صورة الأمة عليه كفارة اليمين بنفس اللفظ لا بالحنث في صورة تحريم الطعام لا شيء عليه وإن، قال لزوجته أنت عليَّ حرام أو حرمتك فإن نوى طلاقاً فهو طلاق وإن نوى به ظهار فهو ظهار وإن نوى التحريم وأتتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين عند الشافعي وعند أبي حنيفة هو إيلاء يكفر بعد الفيء قال البيضاوي: الاحتجاج بهذه الآية على كون التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يمينا مع إحتمال أنه ﷺ أتى بلفظ اليمين، وقول البيضاوي هذا لا يخفىٰ ضعفه فإن الله سبحانه ذكر من النبيّ ﷺ التحريم مطلقاً ومن غير ذكر الحلف ومن غير تخصيص التحريم بالمرأة ثم سماه يميناً حيث قال قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فهو دليل واضح على كون التحريم نفسه يميناً والله تعالى أعلم. ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ كما في حديث عمر متعلق بأذكر ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ يعني حفصة ﴿حَدِيثٗا﴾ هو تحريم العسل كما ورد في الصحيحين في حديث عبيد بن عمير عن عائشة في آخر الحديث المذكور أولاً وإذا أسر النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً لقوله بل شربت عسلاً أو تحريم أمته مارية وهو الأرجح عند أهل التفسير والله أعلم بالحكمة في الإسرار يظهر الحكمة في الإسرار فيما

---

(١) قول ابن عباس أنه في الحرام يكفر ثم قرأ الآية.
أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (٤٩١١).

رواه ابن سعد من طريق شعبة مولي ابن عباس عنه قال خرجت حفصة من بيتها يوم عائشة فدخل رسول الله ﷺ بجارية القبطية بيت حفصة فجاءت فرقبته حتى خرجت الجارية فقالت له أما أني قد رأيت ما صنعت، قال فاكتى علي وهي حرام فانطلقت حفصة إلى عائشة فقالت أما يومي فتعرس فيه بالقبطية وتسلم لنسائك سائر ايامهن فنزلت الآية فإنه يعلم من هذا الحديث أن الإسرار كان لئلا تغضب عائشة بتعريسه ﷺ بالقبطية في يومها و قال سعيد بن جبير عن ابن عباس إسراراً الخلافة بعده فحدثت به حفصة قال الكلبي أسر إلها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي، أخرج الواحدي عن ابن عباس قال والله إن أمارة أبي بكر وعمر لفي كتاب الله تعالى قال الله تعالى وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً قال لحفصة أبوك وأبو عائشة أولياء الناس بعد فإياك أن تخبري به أحداً وله طرق وكذا روى عن علي وميمون بن مهران وحبيب بن ثابت وعن الضحاك ومجاهد وقال ميمون بن مهران أسر أن أبا بكر خليفتي من بعدي ﴿فلما نبأت به﴾ الضمير راجع إلى بعض أزواجه يعني أخبرت بذلك أسر عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله نبيَّه على إفشائها سره فيه دليل على أن عائشة لما غضبت بتعريسه ﷺ بالقبطية لم يقل أن حفصة اطلقتني الفعل الذي فعلت من إفشاء السر من قول القائل لمن أساء إليه لأعرفن لك ما فعلت أي جازينك عليه وجاز إهابه عليه بأن طلقها فلما بلغ ذلك عمر قال لو كان في الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ فجاء جبرئيل وأبوه لمراجعتها واعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهر أو قعد في مشربة أم إبراهيم مارية حتى نزلت آية التخيير كذا قال البغوي وقال مقاتل بن حبان لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فأتاه جبرئيل فقال لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة فلم يطلقها وقرأ الجمهور عرف بالتشديد أي أخبر حفصة ببعض ما قالت بعائشة من سره ﷺ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ يعني لم يخبرها به، قال الحسن ما استقصى كريم قط قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض وذلك أن النبيّ ﷺ لما رأى الكراهة في وجه حفصة لأجل تعريسه ﷺ بالقبطية في بيتها على فراشها أراد أن يرضيها فأسر إليها الشيئين تحريم الأمة على نفسه وبشرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر فأخبرت به حفصة عائشة وأطلع الله عليه نبيه ﷺ عرف حفصة ببعض ما أضمرت به عائشة وهي تحريم الأمة وأعرض عن بعض يعني ذكر الخلافة كره رسول الله ﷺ أن ينتشر ذلك في الناس، وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال لما دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية فقال لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة أن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إذا أقامت فذهبت

إلى عائشة فأخبرتها فقالت له عائشة ذلك والتمست منه أن يحرم مارية فحرمها ثم جاء إلى حفصة فقال أمرتك أن لا تخبري عائشة فأخبرتها فعاتبها ولم يعاتبها على أمر الخلافة فلذا قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض، وأخرج الطبراني في الأوسط وفي عشرة النساء عن أبي هريرة نحوه بتمامها وفي كل منها ضعف ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾ يعني أخبر النبيّ ﷺ حفصة ﴿بِهِۦ﴾ أي بما أظهره الله عليه من إفشائها سره هذه الآية يناسب قراءة الجمهور عرف بالتشديد فإنه بمعنى الإنباء لكنها لا ينفي قراءة الكسائي بالتخفيف لتحقيق الأخبار والمحاذاة جمعاً ولا منافاة بينهما ﴿قَالَتْ﴾ حفصة من ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ أي إفشائي سرك ﴿قَالَ﴾ رسول الله ﷺ ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ يعني عائشة وحفصة فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المعاتبة وروى في الصحيحين في حديث عبيد بن عمير عن عائشة في آخر الحديث المذكور في أول السورة قوله إن تتوبا إلى الله لعائشة وحفصة يعني تتوبا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ من التعاون على النبيّ ﷺ وإفشاء سره وجزاء الشرط محذوف أي أتيتما بالواجب أقيم علة مقامه حيث قال ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ أي زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَاۖ﴾ عن الإستقامة على طريق الحق حيث رضيتما بما كره رسول الله ﷺ من تحريم أمة وإفشاء سره والواجب على كل واحد ان يحب ما يحبه رسول الله ﷺ ويكره ما يكرهه أطلق القلوب على لقلبين ولم يقل قلباكما استثقالا للجمع بين التثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة والفاء لتعليل الجزاء فإن زيغ القلوب سبب للمعصية والمعصية سبب لوجوب التوبة، روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال لم أزل حريصاً على أن أسال عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبيّ ﷺ التي قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ حتى حج وحججت معه وعدل وعدلت معه باداوة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فقلت له يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبيّ ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ قال واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه قال كنت أنا ورجال من الأنصار من بني أمية بن زيد وهم من عد إلى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبيّ ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت حدثته مما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الإنصار إذا قوم تغلبهم نسائهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني قالت ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني ذلك وقلت قد خلبت من فعلت ذلك فيهن ثم جمعت على ثيابي فنزلت، فدخلت عليّ حفصة

فقلت لها أي حفصة أتغاضب إحداكن النبيّ ﷺ اليوم حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله فتهلكي لا تستكثري على النبيّ ﷺ ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك ولا يغيرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبيّ ﷺ يريد عائشة، قال عمر وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل صاحبه الأنصار يوم نوبته فرجع إلينا عشاء فضرب بأبي ضرباً شديداً فقال أثمه هو ففزعت فخرجت إليه فقال قد حدث اليوم أمر عظيم قلت ما هو أجاء غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق النبيّ ﷺ نسائه فقلت خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون فجمعت على ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبيّ ﷺ فدخل النبيّ ﷺ مشربة له فاعتزل فيها ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت ما يبكيك ألم أكن حذرتك هذا طلقكن رسول الله ﷺ قالت لا أدري ها هوذا معتزل في المشربة فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبيّ ﷺ فقلت لغلام له إستأذن لعمر، فدخل الغلام فكلم النبيّ ﷺ، ثم رجع فقال كلمت النبيّ ﷺ فذكرتك له فصمت فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذي عند المنبر ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم رجع إلي فقال ذكرت له فصمت، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني فقال قد أذن لك النبيّ ﷺ فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال في جنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله أطلقت نساءك فرفع إليّ بصره فقال لا الله أكبر قلتُ أنا قائم أستأنس برسول الله ﷺ لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساءهم فتبسم رسول الله ﷺ ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغيرنك أن جارتك أوضاع منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة فتبسم النبيّ ﷺ تبسمة أخرى فجلست حين رأيته يتبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله أدع الله فليتوسع أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبيّ ﷺ وكان متكئاً فقال أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبيّ ﷺ لنسائه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدة موجدة عليهن حين عاتبه الله فما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة يا رسول الله إنك كنت

أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عداً فقال: «**الشهر تسع وعشرون**» وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة قالت ثم انزل الله آية التخيير فبدأ بي أول مرة من نسائه فاخترته ثم خير نسائه كلهن فقلن ما قالت عائشة(١)، وروى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها إني فاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين فقلت أوفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. هذا الحديث يدل على أن سبب اعتزال النبيّ ﷺ نسائه الشهر كان إفشاء حفصة سرها إلى عائشة وما أخرجه مسلم عن جابر أنه دخل أبو بكر(رض) يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا بباب النبيّ ﷺ لم يؤذن لأحد منهم فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبيّ ﷺ جالساً وحوله نساءه واجماً ساكتاً قال فقال عمر لأقولن شيئاً أضحك النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله لو رأيت بيت خارجة سألتني النفقة إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «**هن حولي كما ترى تسألني النفقة**» فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقولان لا تسألين رسول الله ﷺ أبداً ما ليس عنده ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ليلة ثم نزلت آية التخيير فبدأ بعائشة الحديث(٢). قال الحافظ ابن حجر ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء يعني قصة عسل وقصة مارية وإفشاء حفصة السر وقصة سؤال النفقة وقصة رد زينب الهدية ثلاثاً وزيادة النبيُّ ﷺ في هديتها كل مرة كما رواه ابن سعد من طريق عمرة ومن طريق عروة عن عائشة كان سبباً لأعتزالهن وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة صدره وكثرة صفحه أن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن ورضى عنهن ﷺ والله أعلم ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ قرأ الكوفيون بتخفيف الظاء فحذف أحد التائين والباقون بالتشديد وإدغام أحد التائين في الظاء وأصله تظاهرا أي تتعاونا على النبيّ ﷺ بما يسويه من الإفراط في الخيرة وإفشاء سره ولم تتوبا وهذا شرط حذف جزائه أعني لا تظفرا عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعني لأن الله علة لعدم الظفر هُوَ ضمير فصل ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ وناصره ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾ رئيس الكروبين قرينه وناصره ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صالح صيغة المفرد أريد بها لجنس ولذلك عم بالإضافة أو صيغة جمع أسقط عنه الواو لالتقاء الساكنين وخطأ أيضاً بإتباع اللفظ يعني من صلح من المؤمنين أجمعين إتباعه وأعوانه وحواليه قال الكلبي هم الذين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

هم مخلصون ليسوا بمنافقين، وروي عن ابن مسعود وأبي بن كعب أن صالحوا المؤمنين أبو بكر وعمر وكذا روى ابن مسعود وأبو أمامة عن النبيّ ﷺ وعن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن جبير أنها نزلت في أبي بكر وعمر قوله جبرئيل وصالح المؤمنين إما معطوف على الله مرفوع حملاً على محله وإما مبتدأه خبره مع ما عطف عليه ظهير وهذا أولي لأن الله وحده كفى به ناصراً وإنما ذكر جبرئيل وصالح المؤمنين والملائكة من جملة ما ينصره إليه به تعظيماً لهؤلاء وخص جبئيل من الملائكة لتعظيمه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع كثرتهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نصرة الله وجبرئيل وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي متظاهرون، قال البغوي هذا من الواحد الذي يؤدي من الجمع كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[(١)] وهذه الآية تدل على أن جبرئيل الذي هو من خواص الملائكة أفضل من عوام البشر وهم صالح المؤمنين أفضل من عوام الملائكة.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب قال لما اعتزل النبيّ ﷺ نسائه وذكر الحديث وقال دخلت عليه وقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك والملائكة وجبئيل وميكائيل وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى الذي أقول فنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾[(٢)] خيراً منكن الجملة جواب الشرط قرأ نافع وأبو عمر ويبدله بالتشديد والباقون بالتخفيف ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب فإن الخطاب مع حفصة وعائشة أو على تعميم الخطاب وليس في الآية ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وإن في النساء خيراً منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، قال البغوي هذا إخبار عن القدرة لا عن الكون ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ خاضعات لله تعالى ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات للرسل ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مواظبات على الطاعة أو مصليات أو داعيات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوب أو راجعات إلى الله تعالى وإلى أمر رسول الله ﷺ ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات لله تعالى أو متذللات لأمر رسول الله ﷺ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات سمى الصائم سائحاً لأن السائح لاذ دمعه فلا يزال متمسكاً حتى يجد من يطعمه فشبه به الصائم في إمساكه إلى وقت إفطاره، وقال بعضهم الصوم ضربان حقيقي وهو ترك المطعم والمنكح وحكى وهو حفظ الجوارح من المسع والبصر واللسان والأيدي والأرجل وغيرها عن المعاصي فالسائح الصائم الذي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (٤٤٨٣).

يصوم هذا الصوم أو مهاجرات في سبيل الله وقيل اللاتي يسحن مع النبيّ ﷺ حيث ساح، وقيل السائحون الذين يسيرون على ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(١) ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسط العاطف بينهما لتنافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذا المعنى مشتملات على الثيابة في بعضهن والبكارة في بعض آخر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بأداء الواجبات وترك المعاصي ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالتعليم والتأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ صفة للنار يعني تتقد بهما كما تتقد غيرها بالحطب ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ صفة ثانية لناراً يعني خزنتها ﴿غِلَاظٌ﴾ فظاظ على أهل النار ﴿شداد﴾ أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار وهم الزبانية، أخرج الضياء المقاسة في صفته النار عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن يخلق جهنم بألف عام فهم في كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يفيضوا على ما فيضوا عليه بالنواصي والأقدام**» وأخرج القعبني في عيون الأخبار عن طاووس أن الله تبارك وتعالى خلق مالكا وخلق له أصابع على عدد أهل النار لا يعذب إلا ومالك يعذب به بأصبع من أصابع فوالله لو وضع أصبعاً من أصابعه على السماء لأذابها ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ بدل إشتمال من الله والتقدير فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من قبول الأوامر والتزامها ويوادون ما يؤمرون به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾ علة للنهي من الاعتذار يقال لهم ذلك عند دخولهم النار والنهي عن الإعتذار لهم حقيقة وما

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

يعتذرون به من قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[١] وقولهم ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[٢] لا ينفعهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من المعاصي ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بفتح النون على قراءة العامة أي بالغة في النصح والنصح تحري قول أو فعل فيه صلاح صاحبه فهو صفة للتائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة وصف به التوبة مجازاً مبالغة أو بالغة في النصاحة بمعنى الخياطة فإن التوبة تنصح ما افترق من الدين والتقوى بالذنب أو النصح بمعنى الإخلاص يقال عسل ناصح إذا خلق والمعنى توبة خالصة من الرياء والسمعة، وقرأ أبو بكر بضم النون فهو مصدر بمعنى انصح كالشكر والشكور أو النصاحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً أو توبوا نصوحاً لأنفسكم، قال البغوي قال عمر وأبي ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع وقال الحسن هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود وقال الكلبي هي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن، وقال القرظي يجمع أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيء الإخوان، وقال البيضاوي سئل علي(رض) عن التوبة فقال يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندم وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن تعود وأن تزكي نفسك على طاعة الله كما رأيتها في المعصية ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذكر بصيغة الإطماع إشعاراً بأنه تفضل والتوبة غير موجبة إذ لا يجب على الله شيء وأن العبد لا بد من أن يكون بين خوف ورجاء، أخرج أبو نعيم عن علي(رض) قال قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبد الحساب يوم القيامة لا أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»، وأخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى يقول الله لأصغر نعمة في ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب له الصالح فيقول وعزتك ما استوعبت وتبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله فإذا أراد الله أن يرحم عبدا قال يا عبدي قد ضاعفت

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.

لك حسناتك وتجاوزت عن سيآتك وذهبت لك نعمتي» وفي الصحيحين عن أبي هريرة(رض) قال قال رسول الله ﷺ: «**لن ينجي أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١) وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ظرف ليدخلكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ عطف على النبي إحماداً لهم وتعريضاً لمن نأواهم وعلى هذا جملة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ علة لعدم إخزائهم، وقيل الموصول مبتدأه خبره نورهم يسعى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ويكون ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ على الصراط ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنف أو خبر بعد خبر للموصول يقولون ذلك إذا الطفى نور المنافقين ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل للإتمام لتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً وقد ذكرنا تفاوت الأنوار والأعمال الموجبة للنور في سورة الحديد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف والحجة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالرد والتفضيح إذا ظهر نفاقهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي إستعمل الخشونة فيما تجاهدهم ولا ترحمهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ حال مقدرة من الكفار والمنافقين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم أو ما ولهم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ اسمها واعلة ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ اسمها واهلة امرأة نوح وامرأة لوط يدلان من مثلاً بحذف المضاف أي مثل امرأة نوح وامرأة لوط وكذا قوله امرأة فرعون في الجملة التالية مثل الله تعالى حال الكفار في أنهم يعذبون بكفرهم ولا ينفعهم ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابات والواصلات كما لم ينفع المرأتين وصلتهما بالنبيين حيث ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ جملة مستأنفة ﴿مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط مدحهما بالصلاح فإن كمال الصلاح بالعصمة التي هي من النبوة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالكفر والنفاق، قال ابن عباس ما بغت امرأة بني قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانت على غير دينهما فكانت امرأة نوح تقول للناس انه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرت الجبائرة وأما امرأة لوط كانت تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أو قدت ناراً وإذا أنزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف، وقال الكلبي أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي لم يدفعا ﴿عَنْهُمَا﴾ مع نبوتيهما ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ أولم يغنيا بحق الأزواج شيئاً من الأغنياء ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ادْخُلَا النَّارَ﴾ مع سائر الداخلين﴾ من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو أحد من المؤمنين قطع الله تعالى بهذه الآية طمع من يكفر أن ينفعه إيمان غيره أخبر أن كفر غيره لا يضره إذا كان مؤمناً بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم فإنها كانت تحت اعداء الله ولم يضرها كفره، قال المفسرون لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربع أوتاد وألقاها في الشمس قال سليمان امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ الظرف متعلق بكائن وهو صفة لمثل امرأة فرعون أي مثل مثل امرأة فرعون كائن وقت قولها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ عندية لا كيف لها فإنه منزه من المكان ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها من بيتها في الجنة حتى رأته ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ يعني تعذيبه وقال مقاتل أرادت بعمله الشرك وقال أبو صالح عن ابن عباس أرادت به جماعة ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والمعاصي على عباد الله التعذيب من القبط التابعين له في القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوه بالصخرة ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فأبصرت بيتها في الجنة من درة وانتزع روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً، وقال الحسن ابن كيسان رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي نفخ جبرئيل عليه السلام بأمرنا في جيب درعها نفخاً وأصلاً إلى فرجها فحملت بعيسى عليه السلام، والضمير عائد إلى الفرج ولما كان النفخ بأمر الله تعالى وأفعال العباد كلها بخلق الله أسند الله تعالى النفخ إلى نفسه ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي روحا خلقناه بلا توسط أصل ومن زائدة في الإثبات على قول الأخفش وهو الظاهر،

وقال سيبويه للتبعيض يعني بعض هذا النوع كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[(١)] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بصحفه المنزلة أو بما أوحي إلى أنبيائه والمراد شرائع الله تعالى لعباده ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ أبو عمر وحفص على الجمع والباقون بالإفراد والمراد به ما كتب في اللوح أو جنس الكتب المنزلة وقرأ بكلمة الله وكتابه يعني بعيسى وإنجيل ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من جملة مواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والإشعار أن رتبتها لم تعتصر عن رتبة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم، عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[(٢)] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه، ورواه الثعلبي وأبو نعيم في الحلية بلفظ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» قلت: لعل المراد بالكمال البلوغ إلى كمالات النبوة وما فوقعها ورواية الصحيحين كأنها أخبار عن الأمم الماضية حيث كثر الأنبياء فيهم ولم يبلغ درجة كمالات النبوة من النساء إلا آسيا ومريم وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال: **«حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية امرأة فرعون»** وعن علي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[(٣)] متفق عليه وفي رواية قال كريب وأشار إلى السماء والأرض وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة عام الفتح فناجاها فبكت ثم حدثها فضحكت فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها قالت أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت رواه الترمذي وقد

---

(١) سورة نوح، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣١)، وأخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة، باب: ما جاء في فضل الثريد (١٨٣٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: فضل الثريد على الطعام (٣٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٠).

ذكرنا مبحث تفاضل مريم وآسيا وخديجة وفاطمة وعائشة(رض) في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] فائدة: في هاتين التمثيلتين تعريض لحفصة وعائشة(رض) فيما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتوبيخ لهما على أغلظ الوجوه وإشارة إلى أن حقهما أن تكونا في الإيمان كهاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴿١﴾ الذي خلق الموت والحيوة ليبلوكم أيكم
أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴿٢﴾ الذي خلق سبع سموت طباقا ما ترى في خلق الرحمن من
تفوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴿٣﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا
وهو حسير ﴿٤﴾ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنها رجوما للشيطين وأعتدنا لهم عذاب
السعير ﴿٥﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿٦﴾ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا
وهي تفور ﴿٧﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿٨﴾
قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلل كبير ﴿٩﴾ وقالوا
لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحب السعير ﴿١٠﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحب السعير
﴿١١﴾﴾

﴿تبارك﴾ مشتق من البركة بمعنى الزيادة المقتضي للكمال وعدم النقصان والمأخوذ من أسماء الله تعالى وصفاته من معاني الألفاظ هو الغايات دون المبادي فهو من صيغ التكبير ويستلزم التنزه عن صفات المخلوقين فإنها لا تخلو عن النقصان ﴿الذي بيده الملك﴾ اليد من المتشابهات لتنزهه سبحانه عن الجارحة أوله المتأخرون بالقدرة والملك وهو السلطان على كل شيء والتصرف في الأمور كلها ﴿وهو على كل شيء﴾ أي على كل ما يشاء ﴿قدير﴾ لا يمكن لأحد دفع ما أراده فلا يجوز الخوف والرجاء إلا منه تعالى، ولما كانت هذه الآية بمنزلة الدعوى على وجوده تعالى وكمال صفاته وتنزيهه مستدعياً للبرهان عقبها بما يدل على ذلك من الآيات في نفس المكلفين من خلق الموت والحياة وفي خلق السموات بلا تفاوت وفطور وخلق الأرض وجعلها ذلولاً وخلق ما فيها من الأرزاق والطير صافات وذرك فيما بين ذلك استطراداً عذاب الكفار الذي لم يسمعوا أو لم يعقلوا البراهين والآيات وثواب الذين يخشون ربهم المنتفعين بالحجج البينات فقال ﴿الذي خلق

﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ الموصول مرفوع إما أنه بدل من الموصول السابق وإما خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مصوب على المدح، والحياة من الصفات الله تعالى وهي صفة يستتبع العلم والقدرة والإرادة وغيرها من صفات الكمال وقد استودعها الله تعالى في الممكنات وخلقها فيها على حسب إرادته واستعداداتها، فظهرت في الممكنات على مراتب شتى ظهرت في بعضها بحيث تستتبع المعرفة التي لا كيف لها بذات الله تعالى وصفاته وهي الأمانة التي حملها الإنسان وأشفقن منها السموات والأرض والجبال وذلك بإلقاء نور من الله تعالى وهذا القسم من الحياة وما يقابلها من الموت المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله»(٢) رواه أحمد والترمذي وفي بعضها بحيث يستتبع الالحس والحركة الحيوانية المعبر عنها وعما يقابلها بقوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾(٣) وفي بعضها لتستتبع النمو فقط المعبر عنها وعما يقابلها بقوله تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾(٤) أي يحيي نبات الأرض بعد يبسها وذلك القسمين من الحياة ينضح الروح الإنساني والحيوانيوالنباتي في الأجسام وليس شيء من الأقسام الثلاثة المذكورة للحياة في الجمادات ولذا قال الله تعالى في حق الأصنام ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾(٥) ولكن الجمادات أيضاً لا تخلو عن نوع من الحياة كما يل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾(٦) وقد مر تفسيره في سورة البقرة وهذا النوع من الحياة لازم للوجود وقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾(٧) والموت في كل مرتبة من المراتب المذكورة عبارة عن عدم الحياة أو مطلقاً أو عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً فالتقابل بينهما إما تقابل العدم والملكة أو الإيجاب والسلب فهي صفته عدمية مقتضاه الحقيقة الممكن مقدمة على الحياة المستودعة من الله سبحانه كما يدل عليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿أَوَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٧١٢)، وقال: حديث حسن.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٥) سورة النحل، الآية: ٢١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم﴾ و﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ولأجل تقدم الموت على الحياة في كل مرتبة طبعاً قدمت ههنا على الحياة ذكراً أو لأن أفرغ فتقديمها في الذكر مع الابتداء الأليق، وقال بعض العلماء الموت صفة وجودية والتقابل بالتضاد فهي كيفية في الإجسام مانعة من العلم والقدرة والحس والحركة ونحوها مستدلين بهذه الآية فإن خلق الموت يقتضي وجوده والإدام الأصلية غير مخلوقة، قلنا بديهة العقل شاهدة أنا لا نجد في الأموات أمراً منضماً إلى ذواتها بل أمراً انتزاعياً ينتزع منها كما ينتزع العمى من الأعمى وبصيرة الكسف حاكمة بأن الصات الله تعالى نقايض متمايزة في مزنبة العلم فنقيض الحياة الموت ونقيض العلم الجهل ونقيض القدرة العجز ونقيض البصر العمى وهكذا هي أعدام أصلية تقررت في مرتبة العلم بالإضافة إلى نقائضها، وبصبغ الله سبحانه وكمال قدرته انصبغت تلك الأعدام في تلك المرتبة بصبغ نقائضها التي هي صفات الكمال وتلك مخلوطة في مرتبة العلم سميت أعياناً ثابتة وانصباغها في تلك المرتبة بصبغ الوجود هو الكون الأول أو السبب للكون في الخارج كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] في سورة البقرة فالأعيان الثابتة ظلال للصفات والممكنات في الخارج الظلي ظلال لها ومعنى كون الممكنات ظلال لها أن إفاضة الوجود وتوابعه من المبدأ الفياض على الممكنات الموجودة في الخارج ليست إلا بتوسط تلك الأعيان الثابتة كما أن نور المصباح الذي في الزجاجة ينبسط على الأشياء بتوسط الزجاجة وأشير إلى ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾[2] ثم اعلم أن توسط الأعيان الثابتة بين الصفات والممكنات إنما هو في دار الدنيا وأما في الآخرة فسيكون إفاضة الوجود وتوابعه من الصفات بلا توسط الأعيان وهذا هو الوجه لطويان الفناء على الممكنات في الدنيا في الآخرة آيات القرآن أعني قوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[4] وأمثالها ناطقة بأن الموت صفة للممكن مقدمة على الإيجاد فتأويل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي أظهره بإيجاد الحياة أو أظهره بإزالة الحياة أو خلق الأموات بحيث ينتزع منها عداء الحياة والخلق بمعنى التقدير أي قدر الموت والحياة، قال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

البغوي قال عطاء عن ابن عباس يريد خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، قلت لعله أراد أنه تعالى عبر الحياة الدنيوية بالموت والحياة الأخروية بالحياة، قلت وذلك لما قلنا من كون الأعيان الثابتة مربيات لها في الدنيا وكون الأعدام داخلة في ماهياتها فكان الحياة الدنيا لا يخلو من شائبة الموت ويصدق أن يقع ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[(١)] أي في الحال وكذا ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾[(٢)] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾[(٣)] فإن الحقيقة في المشتق هو المعنى الحال وما كان أو ما يؤل فهو مجازي والله تعالى أعلم وذهب جماعة إلى أن الموت جسم ليس بعرض وأنه مخلوق في صورة كبش أملح والحياة في صورة فرس أنثى واختاره السيوطي في بدور السافرة ومبنى هذا القول ما ذكر البغوي أثر ابن عباس في تفسير هذه الآية قال خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء أنثى وهي التي كان جبرائيل والأنبياء يركبونها لا يمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي هي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فحيي، قلت: وهذا الأثر لا يدل على أن الموت جسم وليس بعرض وكذا الحياة بل يدل على أن من المخلوقات جسم على صورة كبش أملح يقال لها الموت وجسم على صورة فرس يقال لها الحياة لا يمران بشيء ولا يجد ريحها إلا مات بالأولى وحيي بالثانية فالموت والحياة في الحيوان ليس نفس ذلك الجسم بل أثر يترتب على مرورها ووجدان ريحها كما يترتب على اقتراب السموم، ونحو ذلك وما ورد في الصحيحين عن ابن عمر قال قال النبي ﷺ: إذا صار أهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار ولا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[(٤)] وفيهما عن ابن سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار» الحديث إلى قوله: «فيؤمر به فيذبح» الخ وأخرج الحاكم وصححه وابن حبان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بالموت في صورة كبش أملح» الخ نحوه فمذهب السلف الوقوف عن الخوض في معناه والإيمان به وتفويض علمه إلى الله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦١٨٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

تعالى كما في سائر المتشابهات كذا نقل السيوطي عن الحكيم الترمذي والصوفية العلية لما ظهر لهم من العوالم عالم المثال وفيه مثال لكل جوهر وعرض بل للمجردات أيضاً بل لله سبحانه أيشاً مع كونه متعال عن الشبه والمثال ذلك هو المحل لحديث «رأيت أبي على صورة أمر شاب قطط في رجله نعلا الذهب»(١).

وقد ينتقل الصورة المثالية من عالم المثال إلى عالم الشهادة بكمال قدرته تعالى وقد اشتهر ذلك كرامة عن كثير من الأولياء ولعل الله تعالى يحضر الصورة المثالية للموت من عالم المثال في الآخرة إلى عالم الشهادة فيؤمر بذبحه حتى يظهر أهل الجنة والنار أنه خلود ولا موت، وهكذا التأويل في حشر الإسلام والإيمان والقرآن والأعمال والأمانة والرحم وأيام الدنيا كما نطق به الأحاديث الصحيحة التي لا يسع ذكرها المقام، قال السيوطي في البدور السافرة: الأعمال والمعاني كلها مخلوقة ولها صورة عند الله تعالى وإن كنا لا نشاهدها وقد نص أرباب الحقيقة على أن من أنواع الكشف الوقوف على حقائق المعاني وإدراك صورها بصور الأجسام والأحاديث شاهدة لذلك وهي كثيرة انتهى وهذا القول من السيوطي حكاية عن عالم المثال والله تعالى أعلم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة مختبر بالتكليف أيها المكلفون ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الجملة مفعول ثان ليبلوكم يتضمن معنى يعلم وليس هذا من التعليق لتقدم المفعول الأولى على الاستفهام ولو كان تعليقاً لتقدم الاستهفام عليه، وقال الفراء لم يوقع البلوى على أي ويليها إضمار كما يقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، قال البغوي روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأودع من محارم الله وأسرع في طاعة الله وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بخلق الموت والحياة يعني الحكمة في خلق الموت والحياة ظهور المطيع من العاصي فإن الحياة مدار التلكيف به تحصيل القدرة الممكنة والموت واعظ به يتعظ الزكي ومغتنم الفرصة لكسب الزاد للمعاد وانقلاب الأحوال من الحياة والممات دليل على وجود الصانع الحكيم المختار، وعن عمار بن ياسر مرفوعاً «كفى بالموت واعظاً وكفى باليقين غنى» رواه الطبراني ورواه الشافعي وأحمد عن الربيع بنأنس مرسلاً» كفى بالموت وهذا في الدنيا مرغباً في الآخرة ون أبي هريرة بادروا بالأعمال سبعاً تنظرون إلا نقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفتداً أو موتاً مجهزاً والدجال فإنه شر منتظر والساعة أدهى وأمر»(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححه، وروى أحمد ومسلم عنه مرفوعاً «بادروا

(١) قال القاري موضوع لا أصل له، وقال السبكي: موضوع مفتري انظر كشف الخفاء (١٤٠٩).

قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان ودابة الأرض والدجال وخويصة أحدكم وأمر العامة»[1] والمراد بخويصة أحدكم الموت وبأمر العامة القيامة وعن أبي أمامة عند البيهقي نحوه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصا ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن شاء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ خبر أخو لهو أو صفة من الغفور أو بدل من الموصول السابق ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي ذات طباق جمع طبق كحبل وحبال أو طبقة كرحبة ورحاب أو مصدر فعل محذوف أي طوبقت طباقاً من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق وصف للسبع أو حال وقد ذكرنا في سورة البقرة وما ورد في السموات السبع وبعدما بينهن ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ يا محمد ﷺ أو أي مخاطب كان وما نافية أو استفهامية لزنكار مفعول ترى ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الإضافة للعهد والمراد به ما ذكر من السموات السبع والإضافة إلى الرحمن للتعظيم ولا يجوز أن يكون الإضافة لتعريف الجنس فإن في جنس الخلق تفاوتاً فاحشاً كما لا يخفي إلا أن يقال المراد بالتفاوت فوت شيء مما ينبغي فيه وعدم التناسب فمقتضى العبارة أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان يعني باعتبار النظام الجملي ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ من زائدة أو تبعيضية على تقدير كون ما نافية وبيانية على تقدير كونها استفهامية والجملة صفة للسبع أو حال من فاعل خلق أو مفعوله، وضع المظهر يعني لفظ الرحمن أو لفظ خلق الرحمن موضع الضمير الرابط للتصريح على سبب عدم نقصانه فإنه مستند إلى من هو متنزه عن النقص متصف بالرحمة أو مستأنفة في جواب كيف خلقت، قرأ حمزة والكسائي تفوت من التفعيل والباقون من التفاعل ومعناهما واحد كالتعهد والمتعاهد من الفتوت فإن كلاً من المتفاوتين يفوت عند بعض ما في الآخر يعني ليس اعوجاج ونقصان كما ترى في أبنية البشر ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ جواب شرط محذوف أي إن زعمت أن يظهر التفاوت بتكرار البصر فارجع البصر ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي شقوق من فطرة إذا شتمه ومن زائدة أو تبعيضية والاستفهام للتقرير ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ عطف على فارجع والتثنية المتكثير أي كرة بعد كرة كما في لبيك ﴿يَنقَلِبْ﴾ مجزوم على جواب الأمر ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾أي بعيداً طريداً عن إصابة المطلوب مع الذل والصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة حال بعد حال من فاعل ينقلب، قال البغوي روي عن كعب السماء الدنيا موج مكفوف والثانية من درة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفراء نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء ومن السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارى من نور ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي السفلى وهي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل (٢٣٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٧).

القريبة من الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي الكواكب فإنها مصابيح الظلم يهتدي بها الطرق وظاهر الآية تدل على أن الكواكب كلها مرتكزة في السماء الدنيا وما زعمت الفلاسفة خذلهم الله أمر لا دليل عليه واستدلالهم بتعدد حركاتها على تعدد أفلاكها لا يتم إلا بعد ثبوت امتناع الخرق والالتئام على السموات وذلك جائز عقلاً واجب شرعاً ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي المصابيح ﴿رُجُومًا﴾ لا يزولها من مكانها بل بانتقاض الشهب فيها ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الموقدة ولما تضمن ما سبق من الكلام ذكر الشياطين عقبهم ذكر عذاب الكفار لكون الشياطين من زمرة الكفار وكونهم إخوان الشياطين فقال ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي الذي كفروا في جهنم ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوت الحمار خارجاً من النار نفسها أو من الذين دخلوا فيها قبلهم أو من أنفسهم لها حال من شهيقاً قدم عليه لكونه نكرة ﴿وَهِىَ﴾ أي جهنم ﴿تَفُورُ﴾ تغلي كغليان المرجل أخرج هناد عن مجاهد تفور بهم كما تفور الجب القليل الماء كثيراً وهذا على سبيل الاستعارة ﴿تَكَادُ﴾ جهنم ﴿تَمَيَّزُ﴾ أي تنشق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ متعلق بتميز والجملة حال من فاعل تفور وجملة وهي تفور حال من ضمير لها، والمراد بالغيظ إما غيظ الله سبحانه أو غيظ ملائكة العذاب أو غيظ النار نفسها على أعداء الله تعالى ونسبة الغيظ إلى النار إما بالمجاز على سبيل الاستعادة أو بالحقيقة بعد إثبات الشعور لها كما أثبتناه في الجمادات ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً وتبكيتاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوفكم من عذاب الله جملة مستأنفة في جواب ما يقال لهم حين يلقون وكلها ظرف متعلق بسألهم والاستفهام للتقرير ﴿قَالُوا۟﴾ حكاية عن الحال للمستقبل وهي مستأنفة أيضاً كأنه في جواب ما يقولون حين يسألون كذلك ﴿بَلَىٰ﴾ مفعول قالوا ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ فعيل صفة بمعنى الجمع أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذارأو منعوت به للمبالغة أو صفة بمعنى الواحد والمعنى قالوا قد جاء إلى كل منا نذير والجملة مقررة أعني بلى ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير وفرطنا في التكذيب حتى ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فيه نفي للإنزال والإرسال ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ الظاهر أنه من كلام الكفار مبالغة في تكذيبهم بالنسبة إلى الضلال الكبير ويحتمل أن يكون من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول والنذير إن كان بمعنى الواحد فالخطاب له ولأمثاله على التغليب أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام النذير سماع قبول من غير عناد فنؤمن بما ثبت بالأدلة السمعية ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ ويتفكر في الآيات والدلائل العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى والرسول وما جاء به وتقديم السمع على العقل لكون

الأدلة السمعية أولى بالاتباع وأحرى بإصابة الحق من الأدلة العقلية العقل غير كاف بالاستقلال، والآية تدل على أن العقل السليم مطابق للوحي المنزل ويحتمل أن يكون كلمة أو بمعنى الواو يعني لو كنا نسمع كلام النذير ونعقل معناه فيتفكر فيه تفكر المستبصرين ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في عددهم من جملتهم ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ معطوف على قالوا عطف تفسير ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ حين لا ينفعهم الاعتراف وهو إقرار عن معرفة والمراد بالذنب الكفر ولم يجمع لأنه في الأصل مصدر ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ منصوب على المصدر أي فأسحقهم الله سحقاً أي أبعدهم من رحمته والتغير للإيجاز، والمبالغة قرأ الكسائي بضم الحاء والباقون بالسكون وهما لغتان مثل الرعب والرعب والجملة الدعائية معترضة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاقبوه بعد أو غائبين عنه أو عن أعين الناس لا كالمنافقين أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ يصغر بالنسبة إليه كل ما يخطر بالبال من اللذة والجملة معترضة ذكر الله سبحانه وعد المؤمنين في مقابلة وعيد الكفار وجعل عنوانهم خشية الله إشعاراً بأن الخشية هي المقصود من الإيمان قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافته»(١) رواه الحكيم الترمذي عن ابن مسعود، قال ابن عباس كان المشركون ينالون من رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل والعسكري في الأمثال والديلمي ورواه القضاعي في مسنده، انظر: كشف الخفاء (١٣٥٠).

فيما بينهم فيخبره جبرائيل عليه السلام لو أسروا قلولكم كيلا يسمع الله أمر محمد فنزلت ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ أمر بمعنى الخبر يعني هما سواء في علم الله خطاب إلى الكفار على الالتفات من الغيبة وفيه تهديد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بالضمار قبل أن يتكلم لها سراً أو جهراً فهو تعليل للتسوية ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ ما في الصدور ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ الصدور وما فيها وكل شيء أو المعنى ألا يعلم الله من خلقه الاستفهام للإنكار وإنكا النفي إثبات للعلم فهو تأكيد بما سبق ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر ما بطن حال من فاعل خلق ثم نبه الله تعالى على جهلهم ببيان بدائع صنعته الدالة على اتساع علمه وقدرته وعلى قبح صنعهم حيث كفروا في مقابلة الإنعام للشكر ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ سهلاً لا يمنع المشي فيها كالناقة الذلول المنقادة ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها ومنه منكب الرجل وقيل المراد بالمناكب الجبال وهذا مثل لفرط التذلل فإن منكب البعير لا يطأ الراكب ولا يتذلل له فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمكن المشي في مناكبها لم يبق شيء لم يتذلل ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والتمسوا من نعمة عطف على فامشوا ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ المرجع فيسألكم عن شكر ما أنعم الله عليكم ﴿ءَأَمِنتُم﴾ قرأ قنبل النشور وآمنتم بقلب النشور وآمنتم بقلب همزة الاستفهام واواً في الوصل ويمد بعد الواو مدة في تقدير ألف ولو وقف على النشور حقق الهمزة، والكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين والباقون بتليين الثانية وهم على أصولهم في إدخال الألف وعدمه ﴿مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس أي عذابه من في السماء إن عصوا والمراد بمن في السماء هو الله سبحانه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفر فأغفر له»(١) متفق عليه وفي رواية لمسلم ثم يبسط يديه ويقول من يعرض غير عدوم ولا ظلوم حتى يتفجر فالآية من المتشابهات لكونه تعالى منزهاً عن التمكين في السماء فمذهب السلف السكوتُ قول الصوفية كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾(٢) وللمتأخرين تأويلات بأن في السماء أمره وقضاء أو هو فيها على زعم العرب أو المراد بالسماء الرفعة والعلو من حيث التربة دون المكان والاستفهام للإنكار وقيل المراد بمن في السماء الموكلين على تدبير الأمور الذين هم بمنزلة الآلة الكاسبة لخسف الأرض وإرسال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل (٧٥٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

الحاصب ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيغيبكم فيها كم افعل بقارون وهو بدل من بدل اشتمال ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ أي الأرض ﴿تَمُورُ﴾ تتحرك الجملة معطوفة على يخسف وإذا للمفاجآت مضافة إلى الجملة أي ففاجأه وقت كونها تضطرب وتتحرك ﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ أم منقطع بمعنى هل وهمزة الاستفهام للإنكار ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أي ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ معطوف على مضمون ما سبق أي أنذركم فستعلمون ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري إذا شاهدتموه ولا ينفعكم العلم به، قرأ ورش نذيري وكذا نكيري بإثبات الياء فيهما وصلاً وحذفها فيهما وقفا والباقون بالحذف الحالين ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ جواب قسم محذوف ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب فيهم تسلية للرسول وتهديد للكفار والاستفهام للتعجب والتقرير والجملة الاستفهامية بتأويل الخبرية معطوفة على كذب يعني كذبوا فعظم إنكاري عليهم وفي هذه الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ما خلقنا من السماء والأرض وغيرهما ولم يرو ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ الظرف متعلق بصافات وهي حال من الطير والمراد بالرؤية رؤية البصر بقرينة تعدية بإلى يعني باسطات أجنحة من في الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطن ضعفن قوادمها ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أجنحتها إلى جنوبهن عطف على صافات وإنما عدل من الاسم إلى الفعل ليدل على الحدوث والتجدد فإن الأصل في الطيران إنما هو بسط الأجنحة والقبض يحدث في وقت بعد وقت الاستظهار به على التحرك ويحتمل العطف على محذوف أي يبسطن تارة ويقبضن أخرى ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ والجملة حال من فاعل صافات ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ أم متصلة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ على معنى ألم ينظروا في أمثال هذه الصنائع فلم يعلموا قدرنا على تعذيبهم بنحو الخسف وإرسال الحاصب أم لكم جند ينصركم من دون الرحمن ويدفع عنكم العذاب إن أرسل إليكم عذابه، وقيل أم ابتدائية ليست بمتصلة ولا منقطعة بمعنى الهمزة وهل لئلا يلزم تكرار الاستفهام ومن استفهامية مبتدأ وهذا خبره والموصول مع الصلة صفة أو بدل منه وينصركم وصف لجند محمول على لفظه وإنما ذكر اسم الإشارة والموصول مع أنه يستفاد ذلك المعنى مع تركها من قوله أمن هو جند لكم الخ لأن في ذكر المفصل بعد المبهم وقع عظيم في القلب ويحتمل أن يكون هذا مبتدأه والموصول مع الصلة خبره والجملة مفعول يقال محذوف تقديره أمن يقال هذا الذي هو جند لكم، والمراد بالجند المشار إليه بهذا

في الآية وفيما بعدها الأصنام التي عموها آلهة يعن تلك الأصنام لا يتصور منهم أن ينصروا ويرزقوا أو المراد أعوانهم بعضهم لبعض ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشيطان فإنه يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم من غير ما يعتمد عليه فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر ومنع الأسباب المحصلة والموصولة إليكم أو إبطال تأثيراتها والكلام فيه كالكلام في أمن هذا الذي فيما سبق ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ يعني الكفار ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إضلال ﴿وَنُفُورٍ﴾ تباعد عن الحق بفرط جهلهم وتنفر طباعهم عنه ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ الهمزة للاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بالحق والفاء زائدة ومن موصولة مبتدأ وأهدى خبره ومكبات حال من فاعل يمشي، والإكباب من الكب يقال كببته فاكب وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع أو المعنى مكباً نفسه على وجهه، قال في القاموس كبه قلبه وصرعه كأكبه وكببته فأكب وهو لازم ومتعدي وقيل مضاه صار ذا كب أي يمشي ويعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعور طريقه واختلاف أعوانه ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قائماً مائلاً من العناد ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوى الأجزاء أو خبر من ههنا محذوف اكتفاء على ما سبق في المعطوف عليه فالواجب ههنا الإقرار بأن الماضي سوياً على صراط مستقيم أهدى فكذلك المؤمن الذي يمشي علي بصيرة على مسلك العقل والنقل أهدى من الكافر الذي لا يسمع ولا يعقل وكلمة أهدى لا يقتضي وجود أصل الهداية في المفضل عليه تحقيقاً بل يكفي وجوده فرضاً وتقديراً، قال قتادة من أكب على معاصي في الدنيا يمشي مكباً على وجهه يوم القيامة والمؤمن من يمشي يوم القيامة سوياً، أخرج الشيخان عن أنس أن رسول الله ﷺ سأل كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[1] وروى أبو داود عن أبي هريرة نحوه، وفي هذه الجملة تشنيع آخر على الكفار ولما كان قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ لإنكار النصر والرزق من جندهم اقتضى السؤال بأن يقال فمن ينصرنا ويرزقنا أجيب بقوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦١٥٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).

ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ
ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿قُلْ﴾ إنما ينصركم ويرزقكم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ لتعرفوا ربك وتبعدوه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾تسمعوا المواعظ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا صنائعه ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا وتعتبروا ولما كان السمع في الأصل مصدراً والمصدر لا يجمع ذكره بصيغة الإفراد بخلاف البصر والفؤاد وأيضاً العلم الحاصل بالسمع نوع واحد وهو الصوت والحاصل بالبصر والفؤاد أنواع مختلفة ﴿قَلِيلًا﴾ أي شكراً قليلاً وزماناً قليلاً ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ والمراد بالقلة النفي رأساً مجازاً ﴿قُلْ﴾ كلمة قل زائدة أعيدت للتأكيد ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من هو الذي أنشأكم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء حال مقدرة من فاعل ذرأكم فهذين الجملتين على طريقة جاء زيد وهو راكب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني الكفار إتنكار الوعد واستبطائه ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي وعد الحشر ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها النبي والمؤمنون ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم بالحشر فبينوا وقته ﴿قُلْ﴾ مستأنفة في جواب ما أقول لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي العلم بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلم غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذار يكفي له العلم بوقوع المحذر منه ولا يتوقف على العلم بوقته والجملتين بالعطف مقولة قل ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعد بمعنى الموعود، قال أكثر المفسرين المراد به العذاب في الآخرة، وقال مجاهد العذاب ببدر ﴿زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفة وقرب منهم حال من ضمير المفعول ولما ظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي اسودت قبحت ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ برؤية العذاب ﴿وَقِيلَ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبون وتستعجلون من الدعاء أو من الدعوى أي تدعون أن لا بعث ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ لمشركي مكة الذين يتمنون هلاككم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا الاستفهام في أرأيتم للتقرير والرؤية بمعنى العلم معناه أخبروني والجملة الشرطية بعد.أفعال القلوب كالنفي والاستفهام يوجب التعليق ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الاستفهام للإنكار والجملة جزاء للشرط يعني لا أحد يجيرهم، والحاصل أنه لا فائدة لكم في هلاكنا حتى تطلبونه إنما يفيدكم أن تتبعوا من يجيركم من عذاب الله ولا يتصور ذلك من الأصنام،

وقيل معناه إن أهلكني ومن معي يعني المؤمنين يعذبهم الله بذنوبهم أو رحمنا ويغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون عذاب الله لأجل ذنوبنا فإن حكمه نافذ فينا فمن يجيركم من عذابه وأنتم كفار ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني الذي ذكر فيما سبق دلائل وجوده وقدرته وسلطانه هو الرحمان الذي أعبده وأدعوكم إليه وهو مولى النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلم بذلك فيه تقرير بمضمون جملة هو الرحمان ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لوثوق عليه المبني على الإيمان به وتقديم الظرف تفيد الحصر المستفاد من هو الرحمن فهذه الجملة يقرر مضمون الجملتين السابقتين وهذه الآية بمنزلة النتيجة للبراهين السابقة ويترتب عليه الحكم بحال الفريقين المؤمنين والكافرين ولذا جاء بفاء السببية في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يوم الجزاء قرأ الكسائي بالياء والباقون بالتاء وتعلمون معلق بالجملة الاستفهامية الواقعة بعده أعني ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نحن وأنتم وفيه تهديد وترهيب وكذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ وزانه وزان قل أرأيتم إن أهلكني الله الآية ﴿غَوْرًا﴾ غايراً في الأرض بحيث لا يناله الدلاء مصدر وصف به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ مشتق من العين الجارية أي ماء جار أو من العين الباصرة أي مرئي ظاهر سهلاً لمأخذ فإن بديهة العقل شاهد على أن هذه الأصنام لا تقدر على إتيانه بل لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، ويستحب للقارىء أن يقول حين ختم هذه السورة الله رب العالمين قال الشيخ جلال الدين المحلي رحمه الله كذا ورد في الحديث.

فصل:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك»[1] رواه أحمد وأبو داود واترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه ورواه البغوي بلفظ «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهي سورة تبارك» وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب الله رواه الترمذي وعن جابر أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ لم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن خالد بن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٩٦٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في عدد الآي (٣١٩٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: ثواب القرآن (٣٧٨٦).

معدان قال بلغني في الم تنزيل ومثله في تبارك الذي أن رجلاً كان يقرأهما ما يقرأ شيئاً غيرهما وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه قالت رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي فشفعها الرب تعالى فيه وقال له اكتبوا له بكل خطيئته حسنة وارفعوا له درجة، وقال أيضاً إنها تجادل عن صاحبها في القبر تقول اللهم إن كنت من كتابك فشفعني فهي وإن لم أكن في كتابك فامحني عنه وإنها تكون كالطير يجعل جناحها عليه فيشفع له فيمنعه من عذاب القبر وقال طاووس فضلتا على كل سورة في القرآن بستين حسنة رواه الدارمي.

سورة القلم

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

﴿نٓ﴾ من الحروف المقطعة وقد مر البحث عنها في أوائل سورة البقرة، وقيل اسم للحوت والمراد به الجنس أو البهموت وهو الذي عليه الأرض أو الدواة فإن بعض الحيتان يستخرج منه أشد سواداً من النفس يكتب به لكن كتابته بصورة الحروف قراءته بالسكون وصلاً وقفاً يؤيد القول الأول ويأبى عن غيره من الأقوال، قرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بإخفاء النون إجاء للواو المنفصل كالمتصل والباقون بالإظهار ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الواو للقسم والقلم ه والذي خط اللوح، عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال ما أكتب؟ قال اكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[١] رواه الترمذي، وقال هذا حديث غريب، وعن عبد الله بن عمر وقال قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»[٢] رواه مسلم، قال البغوي هو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ويحتمل أن يراد جنس القلم أقسم به لكثرة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

فرائده ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ والضمير للقلم بالمعنى الأول على التعظيم أو بالمعنى الثاني بإرادة الجنس وأسند الفعل إلى الآلة وأجريت مجرى أولى العلم بإقامتها مقامهم أو لأصحابه على المعنى الثاني أو بغير المذكور أي الحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم أو العلماء الذين يكتبون علوم الدين ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي ملتبساً بنعمة ربك من البنوة والمروة وكمال العقل والفهم وجلال الفضل وأنواع المكارم والعلوم والعامل في الحال معنى النفي وقيل مجنون والباء لا يمنع كونه عاملاً فيما قبله لكونه زائدة لكنه ضعيف من حيث المعنى ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ قال البغوي هذا جواب لقول الكفار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1] وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وإنما قالوا ذلك استبعاداً منهم ما ادعاه النبي ﷺ من الرسالة من الله وما ارتكبه النبي ﷺ من مخالفة جميع الناس في أيام العسرة واستيلاء ظلمة الكفر ولما كان هذا الاستبعاد منهم مستقراً قوياً في زعمهم أكدوا قولهم إنك لمجنون بأن ولام القسم وبناء على شدة إنكارهم أكد الله سبحانه الجواب بالقسم وزيادة الباء في خبر بالتأكيد النفي، وفيه نفي المجنون عنه ﷺ بحال تلبسه بنعمة الله ليكون هذا القيد بمنزلة البينة والبرهان على النفي فإنه من كان بهذه المثابة من العلم والعقل والفهم والكمال فالقول فيه بأنه مجنون سفسطة لا يقول به إلا من هو أبلد من الحمار وأحمق من ابن حنيفة ألم تسمع أن الأتان سجدت إلى الكعبة ثلاثاً حين ركبت حليمة مع النبي ﷺ عليها وقالت الأتان على ظهره خير النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين ﷺ كذا ذكر في المواهب اللدنية في حديث طويل فالكفار أبلد من الحمار ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على احتمال الأذى وتبليغ الرسالة والتنكير للتعظيم ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإن الله يعطيك وعلى الناس منة منك والجملة معطوفة على جواب القسم أو حال من أنت وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فإنك تحتمل عن قولك ما لا يحتمل أمثالك قال رسول الله ﷺ: «وما أوذي أحد أوذيت في الله» رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس وابن عساكر عن جابر نحوه، وعن أبي هريرة قال يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[2] رواه مسلم، والكفار لما رموه ﷺ بالجنون والمجنون لا يستحق أجراً ولا يكون له حق حسن فإيراد هذين الجملتين على العطف والحال تأكيد لما سبق من نفي الجنون

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

ورد لقول الكفار على أبلغ الوجوه، قال ابن عباس ومجاهد خلق عظيم دين عظيم ولا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام، قال الحسن هو آداب القرآن سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن قد أفلح المؤمنون الخ(١) رواه مسلم وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، وقال قتادة هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من ما نهى الله عنه يعني إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، وقال جند الخق العظيم أن لا يكون همته غيره تعالى.

فصل: في أخلاقه ﷺ عن البراء قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً أحسنه خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير(٢)، عن أنس قال خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أن قط وما قال لشيء صنعته لم صنعت ولا لشيء تركته لم تركت وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ(٣) متفق عليه، وعن أنس أن امرأة كانت في عقلها شيئاً قالت يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال يا أم فلان أجلسني في أي سلك المدينة شئت أجلس إليك فقعد إليها رسول الله ﷺ حتى قضت حاجتها رواه مسلم، وعنه قال كانت الأمة من إماء المدينة ليأخذ بيد رسول الله ﷺ فينطلق به حيث شاءت رواه البخاري، وعنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي نزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدماً ركبتين بين يدي جليس(٤) رواه الترمذي وعن عائشة قالت ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة ولا ينسل شيئاً منه قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينهتك لشيء من محارم الله فينتقم لله(٥) رواه مسلم، وعن أنس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في صفة النبي ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجهاً (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه (٢٣٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٣٩).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٨).

قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ببرد نجراني غليظ الحاشية فأدركه إعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبه ثم قال يا محمد ﷺ مر لي من ال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء[١] متفق عليه، وعنه قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس الحديث متفق عليه وعن جابر قال ما سأل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا متفق عليه، وعن جبير بن مطعم بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مقفلة من حنين فعلقت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت ردائه فوقف رسول الله ﷺ فقال أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذا العصاة نعم لقسمته بينكم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً[٢] رواه البخاري، وعن عائشة قالت لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجيز بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح[٣]، وفي الباب أحاديث لا تكاد تحصى في فضل حسن الخلق عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «بعثت لأتمم حسن الخلق» رواه أحمد وفي الموطأ بلاغاً، وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في الميزان للمؤمن يوم القيامة خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذي»[٤] رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لأصحابه أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[٥] وعن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»[٦] رواه أبو داود وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً» رواه البخاري وفي الصحيحين بلفظ «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»[٧]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٥٧٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء من يسأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الشجاعة في الحرب والجبن (٢٦٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في خلق النبي ﷺ (٢٠٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠١٠).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠١٢).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٧٩٠).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١).

وعن رجل من مزنة وعند البيهقي في شعب الإيمان، وعن أسامة بن شريك في شرح السنة قالوا يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان قال الخلق الحسن، وعن معاذ قال كان آخر ما وصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الفرزان قال: «يا معاذ أحسن خلقك للناس» رواه مالك.

﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمد والسين للتحقيق ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي الكفار يوم القيامة ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أيكم مبتدأ والباء زائدة والمفتون بمعنى المجنون خبره أو المفتون مصدر بمعنى الجنون كالمعقول والمجلود مبتدأ والخبر مقدم أو المعنى بأي الفريقين منكم الجنون بفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين في أيهما من يستحق هذا الاسم والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول للفعلين السابقين على سبيل التنازع، والحاصل أن الجنون ليس بالكفار فإنه لا شك أن مقتضى العقل أنه من خبر بين الخبرين اختار أخيرهما ومن ابتلى ببليتين اختار أهونهما والمؤمنون اختاروا الاشتغال بالله سبحانه الجميل المتصف بجميع الكمالات المنزه عن جميع النقائص أنصار النافع وبذلوا همتهم في ابتغاء مرضاته واجتنبوا موجبات سخطه واختراوا نعم الأخروية القوية الأبدية على النعم الدنيوية الدنية الزائلة الكائنة كأن لم تكن والكفار اختاروا الممكنات التي لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله بل اختروا للعبادة الحجارة وتركوا الله الواحد القهار القيام واختاروا الخطوط العاجلة لا تدرك منها إلا ما شاء الله على النعم الأبدية واختاروا النار على الجنة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ متعلق بأعلم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فهم المجانين على الحقيقة فإن مقتضى الجنون الضلال عن سبيل الحق ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الفائرين بكمال العقل الواصلين إلى الجميل المطلق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ الفاء للسببية يعني إذا ظهر أنك على الهدى والمكذبين على الضلال فلا تطعهم ﴿وَدُّوا۟﴾ حال بتقدير قد من المكذبين ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو للتمني بيا للوداد والإدهان اللين المشتق من الدهن ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ الفاء للعطف والتعقيب هي ودوا المداهنة من الجانبين لكن يحبون أن يكون إدهانهم بعد إدهانك، أو للسببية أي ودوا لو تدهن فهم يدهنون ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه يعنىء لو تلني لهم بترك نهيهم عن الشرك أو توافقهم في بعض الأمور أحياناً فينالونك بترك الطعن والموافقة في بعض الأمور.

مسألة: وهذه الآية تدل على أن المداهنة في أمر الدين حرام ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ تخصيص بعد تعميم، قال قتادة نزلت في الوليد بن المغيرة، وأخرج المنذر عن الكلبي وابن أبي حاتم عن السدي نزلت في الأخنس بن شريف وكذا اذكر البغوي قول عطاء وقال ابن أبي

حاتم عن مجاهد نزلت في الأسود بن عبد يغوث ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ لفظه كل ورد لتأكيد شمول النهي كل فرد بقرينة المقام فلا يدل على جواز طاعة البعض والمراد بالحلاف كثير الحلف بالباطل وقد مر في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[1].

مسألة:

إن الإكثار بالحلف مكروه ﴿مَهِينٍ﴾ حقير فعيل من المهانة بمعنى الحقارة وهي قلة الرأي والتميز ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب مغتاب وقيل من يشير بعينه حاجبه إلى عيوب الناس ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فعال للحديث على وجه السعاية ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحدفي الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿عُتُلٍّ﴾ قال في القاموس الأكول المنيع الجافي الغليظ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الظرف متعلق بزنيم وكلمة بعد بمعنى مع أو المعنى بعد ما عدت من رزائله ﴿زَنِيمٍ﴾ قال في القاموس الزنيم المستلحق في قوم ليس منهم والدعي وفيه أيضاً الدعي كغني من تبنيته والمتهم في النسبة، قال البيضاوي الزنيم مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنها وحلفها وكان الوليد بن مغيرة ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة مولده والأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة، قال البغوي في الدنيا معصماً فكان الناس ظلوماً قال فذلك العقل الزنيم مرسل له شواهد، روي عن عكرمة عن ابن عباس قال في هذه الآية لعنت الله فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكان له زنمة في عنقه يعرف بها، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال نزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ فلم نعرفه حتى نزل عليه بعد ذلك زنيم فعرفناه كان له زنمة كزنمة الشاة، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يعرف بالشر كما يعرف الشاة بزنمتها، قلت ولعله لما كأن هذه الصفة أعني كونه زنيماً أدنى في القبح من الرزائل المقدمة ذكره بقوله: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ والله تعالى أعلم، عن الحارث بن وهب الخزاعي قال قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف لو يقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر»[2] رواه البغوي وروى أبو داود والطبراني عن الدرداء نحوه ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب أن كان بهمزتين أحدهما للاستفهام ثم حمزة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الكبر (٥٧٢٣).

وأبو بكر يخففان الهمزتين بلا مد وبمد الهمزتين الأولى أبو جعفر وابن عامر ويعقوب ويلينون الثانية وقرأ الآخرون بهمزة واحدة بلا استفهام وتقديره لأن كان متعلق بالنهي في لا تطع فالمعنى على تقدير عدم الاستفهام لا يكن منك إطاعة من كان هذا شأنه لكونه ذا مال وبنين كما أن عادة الناس إطاعة أصحاب المال والثروة وعلى تقدير الاستفهام أتطيعه لكونه ذا مال وبنين فالاستفهام للإنكار أو متعلق بمدلول جملة بعده أي كفر وكذب القرآن لأجل الغنى تكبراً وبطراً والمعنى كان الغنى موجباً للشكر فكفر على عكس ما ينبغي ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي شيء كتبوه كذباً من قصص الأولين في القاموس الأساطير الأحاديث لا نظام لها إذا متعلق بقال أي قال ذلك ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ على الألف كأنه شبهه بالفيل والخنزير وأنفه بالخرطوم جملة مستأنفة بالوعيد والتهديد، قال الفراء المراد به الوجه فإن بعض الشيء يعبر به عن الكل، وقال أبو العالية ومجاهد يسود وجهه فيجعل له علماً في الآخرة يعرف به وهو سواد الوجه، قوال ابن عباس سنحطمه بالسيف وفعل ذلك يوم البدر.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعني أهل مكة بالقحط والجوع لما دعي رسول الله ﷺ عليهم وقال: «اللهم اجعل عليهم سينين كسني يوسف» حتى أكلوا العظام والجيف(١). جملة مستأنفة في جواب سؤال مقدر أي ما فعل لهم حين كذبوا النبي ﷺ وقالوا مجنون ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة مصدر محذوف والإضافة واللام للعتهد. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جرير أن أبا جهل قال يوم بدر خذوهم أخذاً فاربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزلت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٤٥٤٤).

إنا بلوناهم في قدرتهم عليهم كما بلونا أصحاب الجنة في اقتدارهم عليهم، روى محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن ابن عباس قال كان بستان اليمن يقال، له الصروان دون صنعاء بفر سخين غرسه رجل صالح وكان يترك للمساكين إذا صرموا تخلهم كل شيء تعداه المنجل فإذا طرح من فوق النخل إلى البساط فكل شيء يسقط عن البساط يترك ذلك أيضاً للمساكين وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثره أيضاً فلما مات الرجل ورثه ثلاثة بنيه فقالوا والله إن المال لقليل وإن العيال كثير وإنما كان هذا الأمر يفعل إذا كان المال كثيراً والعيال قليلاً فإذا قل المال وكثل العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل هذا فتحالفوا بينهم ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي حلفوا متعلق ببلونا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ جواب قسم أي ليقطعن ثمرها أي الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح قبل أن يعلم المساكين حال من فاعل ليصرمنها ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ حال من فاعل أقسموا أي أقسموا غبر مستثنين أي قائلين إن شاء الله وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عينه أو لأن أفعل إن شاء الله ولا أفعل إلا أن شاء الله واحد ويحتمل أن يكون جملة لا يستثنون معطوفة على ليصرمنها داخلة في جواب القسم، والمعنى ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم أو يكون جملة مستأنفة أي كان شأنهم ذلك ﴿فَطَافَ﴾ معطوف على أقسموا ﴿عَلَيْهَا﴾ على جنتهم ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاء نازل بالليل وهو نار نزلت من السماء فأحرقتها ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من ابتدائية ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ قال ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنة ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالبستان الذي صرم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء فعيل بمعنى المفعول أو كالليل باحتراقها واسودادها أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس سمي بالصريم لأن كلاً منهما ينصرم عن صاحبه أي ينقطع، وقال الحسن أي صرم منها الخير فليس فيها شيء، وقال ابن عباس كالرماد الأسود بلغة خزيمة، والجملة معطوفة على فطاف ﴿فَتَنَادَوْا﴾ أصحاب الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ الجمية معطوفة على على أصبحت ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أن مفسرة الفعل معناه القول أعني تنادوا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ متعلق باغدوا أي اخرجوا إلى حرثكم وتعديته بعلى إما لتضمنه بمعنى الإقبال أو لتشبيه الغدو للصرام الغدو الغدو المتضمن بمعنى الاستيلاء ويحتمل أن اغدو إنا قصة وعلى حرثكم خبره ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاطعين شرط استغنى عن الجزاء بما مضى ﴿فَانطَلَقُوا﴾ أي أصحاب الجنة ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يقولون بينهم سراً وخفي وخفت وخفه بمعنى كتم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي الجنة وأن مفسرة لقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ فإنه في معنى القول ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ نهي للمسكين عن الدخول مؤكد أو المراد به المبالغة في النهي عن تمكينه عن الدخول كقوله لا أثنيك ههنا

﴿وَغَدَوْا﴾ عطف على انطلقوا ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ على حرد متعلق بقادرين وهو خبر لغدوا أو الجملة معطوفة على انطلقوا أو الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب، فقال الحسن والقتادة وأبو العالية على جد وجهد، وقال القرطبي ومجاهد وعكرمة على أمر مجمع قد أسسوه بينهم وكل ذلك راجع إلى المقصد، وقال أبو عبيدة على منع المساكين وقول الشعبي وسفيان على غضب في المساكين، وقال ابن عباس على قدرة عند على جنتهم وثمارها ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي الجنة محترقة ﴿قَالُوٓا۟﴾ لما ظرف متعلق بقالوا ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ الطريق فليس هذا جنتنا وإنا لمخطئون حيث منعنا المساكين وتركنا الاستثناء ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قد حرمنا خير الجنة ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ سناً أو أعد لهم وأعقلهم والجملة مستأنفة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ استفهام تقرير ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي تستثنون سمي الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله تعالى وإقرار بأنه لا يقدر أحدكم على شيء إلا بمشيئته، وقال أبو صالح كان استثناؤهم سبحان الله تعالى أو هلا تسبحون الله وتشكروه على ما أعطاكم ولا تمنعوا المساكين فإن الشكر صرف النعمة في رضاء وقيل هلا تستغفرون من فعلكم ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ جملة مستأنفة نزهوا الله سبحانه من أن يكون ظالماً في ما فعل وإقرار على أنفسهم بالظلم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمنع المساكين عن حقهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ عطف على قالوا ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ حال من فاعل أقبل ومفعوله على طريقة لقيه راكبين أي يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ جملة مستأنفة أي أعطينا نعم الله فلم نشكرها كما شكر أبونا ولما ندموا على ما فعلوا وتابوا عنه وعزموا على الشكر والإنفاق رجعوا على أنفسهم وقالوا رجاءً ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ جنة ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من ذلك الجنة التي أحرقت ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ إلى الانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع والجملة في مقام التعليل للرجاء فإن الرغبة إلى الله تعالى يوجب الإنعام، قال البغوي قال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم جنة يقال لها الجبوان فيها عنب يخمل البغل منها عنقوداً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر ما بعده مبتدأ أي كما فعلنا بأهل مكة وأصحاب الجنة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا على ترك الشكر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ على الكفر والمعاصي وترك الشكر ومنع الزكاة ﴿أَكْبَرُ﴾ أشد وأبقى من عذا الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى أي لو كانوا يعلمون العذاب ما فعلوا فعلهم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ
كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ
ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ
أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن
يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار القدس ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي ليس فيها إلا التنعيم الخالص، جملة مستأنفة سبقت الوعد للمتقين بعد وعيد المجرمين ولما قال المشركون من أهل مكة إنا نعطي في الآخرة على تقدير ثبوتها أفضل مما تعطون أو مثله كما أعطينا في الدنيا قال الله تعالى تكذيباً لهم ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الاستفهام لإنكار مساواة المجرمين بالمسلمين ويوجب إنكار تفضيل المجرمين بالطريق الأولى والجملة معطوفة محذوف ألا نفضل المسلمين المطيعين على المجرمين فنجعل المسلمين كالمجرمين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ كيف حال من فاعل تحكمون قدم عليه لاقتضائه صدر الكلام وتحكمون حال من معنى ما لكم تقديره ما تصنعون حال كونكم حاكمين كائنين على كيفية عجيبة مستبعدة جداً على خلاف العقل فإن العقل يحكم أن المطيع يكون أحسن حالاً من العاصي وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نزل عند اللئام أم منقطعة بمعنى بل للإضراب من الحكم على وفق العقل والهمزة للإنكار عن الدليل السمعي المنزل من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي الكاب ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه حذف أحد التائين من تخيرون والجملة مفعول لتدرسون إما بتأويل القول أي تدرسون هذا القول أو لأنه كان في الأصل أن مفتوحة فلما جيئت باللام على ما تخيرون كسرت وتحتمل أن يكون استئنافاً على سبيل الإنكار ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ فاعل لكم ﴿عَلَيْنَا﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بمقدر في لكم أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا يخرج عن عهدتها حتى تحكم بحكمكم في ذلك اليوم أو متعلق ببالغة أي أيمان تبلغ ذلك اليوم ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا

تحكمون﴾ جواب للقسم المفهوم من ذكر الأيمان يعني أم أقسمنا لكم أن لكم ما تحكمون ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ قائم يدعيه ويصححه فليقدرونه فقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نفيكل ما يمكن أن يثبت به من عقل أو نقل يدل عليه لاستحقاق أو وعد أو تقليل لمن يقدر على إثبات ما يدعيه، ثم لما نفى تسوية الكفار بالمؤمنين من الله تعالى نفى أن يكون هذا من الشركاء الذين يشركونها مع الله تعالى بنفع الشركاء فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ تجعلهم مثل المؤمنين في الآخرة ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ ويثبتوا كونهم شركاء الله تعالى مماثلاً له في العلم والقدرة والإرادة والتكوين الفاء للسببية والأمر للتعجيز ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعوتهم شرط مستغني عن الجزاء بما معنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الظرف متعلق باذكر وكشف الساق عبارة عن نوع من تجلياته سبحانه وتعالى في الموقف. روى الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحابُ هل تضارون رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب قالوا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد يعبد بغير الله من الأصنام، والأنصاب أن يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر» وفي رواية «غير أهل الكتاب فيدعي اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزير ابن فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال ماذا تبغون؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا ترون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم لبعضها بعضاً فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم فذكر كما ذكر في اليهود وفي رواية مسعود عند الحاكم وصححه الدارقطني وغيرهما أنه يمثل لكل من يعبد غير الله ما كانوا يعبدون من الشمس والقمر والأوثان ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير وإن كان يعبد المسيح شيطان المشيح فينطلقون معه إلى جهنم، وفي رواية عن أبي هريرة عند الطبراني وأبي يعلى والبيهقي وغيرهم أن يجعل ملكاً من الملائكة على صورة عزير وملكاً من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ويتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ثم تقودهم آلهتهم إلى النار وهم الذين يقولون لو كان هؤلاء آلة ما وردوها وكل فيها خالدون» رجعنا إلى رواية الصحيحين «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين قال فماذا تنظرون يتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا

أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقول نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى أن بعضهم يكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية لتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يضرب الجسر على جهنم وفي رواية قيل يا رسول الله ما الجسر قال وحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحكمة تكون بنجد فيها شويكة يقال له السعدان وتحل الشفاعة ويقول الإنبياء اللهم سلم سلم فيمر المصوفون كطرف العين وكالريح وكالطير وكجلود الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم حتى إذا أخلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين لله لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فيحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ليخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم ندر فيها خيراً فيقول شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر من أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما يخرج الحبة في حميل السيل فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم خواتم فيقول أهل الجنة عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه»[(1)] وقد وقع كشف الساق في حديث ابن مسعود عند الحاكم وغيره وفي رواية عن أبي هيرة في الصحيحين» فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها، وقال اللالكائي في السنة والآجري في كتاب الروية عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في دار الدنيا فيذهب كل قوم إلى كل ما يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقذال لهم وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا لم نره قال وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال لهم كيف تعرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبه له فيكشف لهم عن الحجاب فينظرون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٤٣٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

إلى الله تعالى فيخرجون له سجداً ويبقى أقوام في ظهورهم مثل صياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون فيقول الله تبارك وتعالى ارفعوا رؤسكم قد جعلت بدل كل رجل منكم بدلاً من اليهود والنصارى»[١]. وهذه الأحاديث تدل على أن لله سبحانه تجليات على أنواع شتى منها تجليات صورته وذلك في عالم المثال وليس هي رؤية في الحقيقة كما رأى النبي ﷺ ربه في المنام على صورة أمرد شاب شطط في رجليه نعلاً الذهب وعند ذلك التجلي يقول القائلون في الموقف نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً ومنها ما يكون على غير شبه ومثال في الموقف وفيه شائبة من الظلية ولعل من هذا النوع ما أراد الله تعالى بقوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الخ رآه المؤمنون الأبرار والفجار بلا حجاب كما ترون الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب والقمر ليلة البدر كما روينا من قبل ولا نصيب للكفار من هذا التجلي لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢] وقوله عليه السلام: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين» الحديث إلى قوله: «فيكشف عن ساق» والساق من المتشابهات كاليد والوجهه لا يعلم تأويلهإلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ومنها ما يكون في الجنة بلا شائبة الظلية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣] ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي المؤمنون الأبرار والفجار إلى السجود وهذه الدعوة ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ ليس من باب التكليف إذ ليس الآخرة أو تكليف بل هي دعوة طبيعية تقتضيه افتقار الحقيقة الإمكانية عند كشف سرادقات العظمة والجلال ما لم ينع مانع ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي العصاة منهم لصيرورة ظهرهم طبقة واحدة لما يحملون أوزارهم فالضمير راجع إلى بعض المدعوين إلى السجود دون الكل كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾[٤] ويدل على هذا الأحاديث المذكورة فالذين لا يستطيعون السجود هم المؤمنون الذين لم يكونوا مصلين أصلاً أو لم يكونوا مصلين بجماعة إلا اتقاءاً كأهل الهواء من الروافض وغيرهم أو كانوا يسجدون رياءاً للناس من غير إخلاص في العمل. فإن قيل قد ورد في بعض طرق حديث أبي هريرة وغيره فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون جاءهم الله الحديث إلى قوله فيكشف لهم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

(٢) سورة المصطففين، الآية: ١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم فيخرون ساجدين على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ويجعل الله أصلاً بهم كصياصي البقر؟ قلنا: الظن بالمنافق ههنا المنافق في الأعمال وفروع العقائد دون المنافق في أصول الاعتقادات إذ المنافق في أصول الاعتقادات أولئك هم الكافرون حقاً بل أشد كفراً وهم في الدرك الأسفل من النار وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فكيف يكون لهم ذلك الكرامة من رؤية الله تعالى وقد ورد في الأحاديث لفظ المنافق في حق العصاة حيث قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[1] متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «آية المنافق ثلاث» رواه مسلم «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ثم اتفقا إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان» ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الخشوع صفة للذوات أسند إلى الأبصار تجوزاً لظهوره فيها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يلحقهم ذلة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا فلم يسجدوا كما أمرهم الله بالإخلاص ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ عن كون ظهورهم طبقة واحدة حال من فاعل يدعون الثاني وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ كلها أحوال من فاعل يدعون الأول وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ تعليل لعدم استطاعتهم على السجود في الآخرة ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾ معطوف على الضمير المنصوب في ذرني أو مفعول ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن جملة فذرني معترضة لوعيد الكفارو تسلية النبي ﷺ أي لا تغتم وكله إلي فإني أكفيك ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ الضمير المنصوب راجع إلى من اعتبار بمعناه الدرج طي الكتاب والثوب يقال للمطوي درجي استعير الدرج للموت كما استعير الطي له كذا قال الجوهري وقال قوله تعالى: سنستدرجهم قيل معناه سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إغفالهم وقيل معناه نأخذهم درجة فدرجة وذلك إدنائهم من أمسى شيئاً فشيئاً كالمرائي والمنان والحاصل سنأخذهم بالعذاب بتدريج وإمهال ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كيف يجبى العذاب بهم ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قوي لا يطاق دفعه جملة مستأنفة والكيل المكر والحيلة وإظهار خلاف ما أضمر من السوء فالكيد من الله الانتقام بصورة الإنعام، قال الجوهري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قال بعضهم أراد بالكيد العذاب والصحيح هو الإملاء والإمهال يعني ليس ما نعطيهم في الدنيا من النعم تفضلاً لهم على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٨).

المؤمنين كما زعموا بل كيدو استدراج لهم.

فائدة: من ارتكب المعصية فعوقب عليها بمصيبة في الدنيا يُرجى مغفرة ذنبه ومن ارتكب المعصية ثم يرى عليه ازدياد النعمة يخشى عليه المكر والاستدراج نعوذ بالله منه ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ وما بينهما معترضات ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فيعرضون عنك بلا حجة دفعاً للغرامة، الجملة الاسمية معطوفة بالفاء السببية على العقيلة أي تستلهم ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكون جملة أم عندهم معطوفة على تسألهم ذكر الله سبحانه فيما سبق نفي الدليل التحقيقي العقلي والسمعي والتقليد الذي يستدلون به العوام وذكر ههنا نفي الكشف عن المغيبات والإلهام الذي هو سبب لحصول العلم للخواص من الأنبياء والملائكة وبعض الأولياء فإن الله تعالى يكشف عليهم اللوح المحفوظ والمغيبات إذا شاء يعني ليس شيء مما ذكرنا عندهم فما يحكمون به ليس إلا باطلاً لغواً ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﷺ على أذاهم فإنهم لا يقولون ما يقولون إلا بلا حجة ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ لقضائه بأخذ الكفار بالإمهال والاستدراج ولا تفجر ولا تعجل ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ في الضجر والاستعجال معطوف على فاصبر، قال وهبإن يونس بن متى عليه السلام كان عبداً صالحاً وكان في خلق ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تضح تحتها تفسح الربع تح الحمل الثقيل يقذفها بين يديه ويخرج هارباً منها فلذلك أخرجه الله من أولي العزم وقال للنبي عليه السلام فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تكن كصاحب الحوت، وقصته على ما ذكره ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب أن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل وهم مائة ألف أو يزيدون فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فقالوا لم يحزب عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب معبحكم فخرج يونس عليه السلام في جوف تلك الليل من بينهم فلما أصبحوا لفشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم على قدر ميل وغامت السماء غيماً أسودها بل يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك تيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه فقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى اصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والإنعام فحسن بعضهم إلى بعض وعلت أصواتها وتضرعوا إلى الله عز وجل وقالوا أمنا بما جاء به

يونس فرحمهم ربهم واستجاب دعائهم فكشف عنهم العذاب بعدما أظلم وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئاً وكان من كذب ولم يكن له بينة قبل فقال يونس ﷺ كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتم فانطلق فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر فوقعت السفينة لا ترجعُ لا يتقدم فقالوا إن لسفينتنا لشأناً قال يونس ﷺ قد عرفت شأنها ركبها رجلٍ ذو خطيئة قالوا ومن هو قال أنا أقذفوني في البحر قالوا ما كنا نطرحك من ههنا حتى نفداك في شأنها فاستهموا فاعترفوا ثلاث مرات فأدحض سهمه والحوت عند رجل السفينة فأغرقاه منتظراً أمر ربه فيه فقال يونس ﷺ إنكم والله لتهلكن جميعاً أو لتطرحوني فيها فقذفون فيه فانطلقوا وأخذته الحوت، وفي رواية ابن عباس أنه قال الملاحون حين احتبست السفينة ههنا رجل عاص أو عبد آبق هذا رسم السفينة ومن رسمنا أن نقرع فاقترعوا ثلاثاً ووقعت القرعة على يونس فألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت وابتلع هذا الحوت حوت آخر أكبر منه أوحى الله تعالى إلى الحوت إنا لم نجعل يونس لك قوتاً إنما جعلنا بطنك حرزاً ومسجداً وفي رواية سجناً وروي أنه أقام قبل القرعة وقال أنا العبد العاصي الآبق فقالوا لا نلقينك يا رسول الله حتى نستاهم فوجب القرعة عليه فألقى نفسه في الماء، وروي في القصة أنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب فقدم امرأته لتركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب وأخذ الابن الأصغر فريداً فجاء مركب آخر فركبه فاحتسبت السفينة الخ، قال ابن مسعود وابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابقة وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حملوا غيظاً وغماً لإجل الوقوع في المعضية والتعب والظرف متعلق بمحذوف أي اذكر لا بالنهي لأن ندائه سبحانه أمر حسن لا يمكن أن يكون منهياً عنه وتقدير الكلام لا تكن كصاحب الحوت مستعجلاً في عقوبة الكفار واذكر إذ نادى بالتوبة وهو مكظوم حيث لم يكظم الغيظ إلا لاستعجاله وعدم صبره ﴿لَّوْلَا﴾ امتناعية ﴿أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ فعل ماض بمعنى أدركه وحسن تذكير القول للفصل أو مضارع منصوب بحذف تاء التفاعل حكاية عن الحال الماضي مبتدأ بتأويل المصدر ﴿نِعْمَةٌ﴾ فاعل للفعل ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة له أي رحمته وتوفيق التوبة وقبولها وخبر المبتدأ محذوف تقديره لولا تدارك ونعمة ربه إياه موجود ﴿لَنُبِذَ﴾ جواب لولا ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي الأرض الخالية عن

الشجر والبناء ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ حال من فاعل نبذ يعتمد عليه الجواب ويتوجه النفي إلى ذلك أي لولا الرحمة لنبذ مذموماً على عدم التثبت والخروج من أظهر القوم بغير إذن من الله وترك الأولى يعد ذنباً بالنسبة إلى الأنبياء لعظمة شأنهم وإن لم يكن ذنباً في الحقيقة منافياً للعصمة لكن تداركه الرحمة لما نادى الله تعالى وتاب فنبذ بالعراء وهو سقيم كما في سورة الصافات محموداً مرحوماً، وقع في رواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال كان يونس وقومه يسكنون فسلطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة ونصفاً من الأسباط وبقي سبطان ونصف فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبي أن أسر إلى إلى حزقيا الملك وقل له حتى يوجهه متيناً قوياً فإني ألى في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل وكان في مملكته خمسة من الأنبياء فدعى الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس أهل أمرك الله بإخراجي قال لا قال فهل سماني قال لا قال فههنا غيري أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً فأتى بحر الروم فركبها إلى آخر القصة ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ورد الوحي إليه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على اجتباه أي جعله من الكاملين في الصلاح بالعصمة من أن يقول ما تركه أولى لا بد للصوفي العبر على إيذاء الخلق ولا يجوز له أن يدعو على من أنكره فإن الله سبحانه وتعالى لم يأذن بالدعاء على الكفار وأمر بالصبر فكيف على منكر الولي من المؤمنين والله أعلم، قال البغوي أراد الكفار أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين فنظر إليه قوم من قريش قالوا ما رأينا مثله ومثل حججه وقيل كانت العين من بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول يا جارية خذ المكتل والدرهم نايتنا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر، وقال الكلبي كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرجع خبائه فتمر به الإبل والغنم فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فما يذهب قليلاً إلا يسقط منها طائفة وعدة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل مثل ذلك فعصم الله نبيه وأنزل ﴿وَإِن﴾ مخففة من المثقلة يدل عليه اللام في الخبر ﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ خبر يكاد قرأ نافع بفتح الياء من المجرد والباقون بالضم من الإفعال وهما لغتان يقال زلق يزلقه إزلاقاً ومعناه ينفذ ذلك يقال ينفذ ذلك يقال زلق ألسنتهم إذا نفذ، قال السدي يصيبونك بعيونهم وقيل يزلقونك وقال الكلبي يصرعونك ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ متعلق بيزلقون وكذا قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ عن جابر عن النبي ﷺ: «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عدي عن أبي ذر نحوه رواه ابن عدي وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة

«العين حق» وعند أحمد ومسلم عن ابن عباس «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» وفي رواية عن أبي هريرة: «العين حق يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم» وعن عبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عريس قالت يا رسول الله إن بني جعفر يصيبهم العين فاسترق لهم قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القضاء يسبقه العين» رواه البغوي والله تعالى أعلم، وقال ابن قتيبة ليس الله يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما نصيب العائن بعينه أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يقسطك يقال نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ونظيراً يكاد يأكلني كناية عن العداوة ويدل على صحة هذا المعنى تقييده بسماع القرآن فإنهم كانوا عند ذلك كارهين أشد الكراهة ويجدون إليه النظر بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذ يسمعونه يقرأ القرآن ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ جملة يقولون معطوفة على معنى إن يكاد الذين كفروا ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني ما هو بمجنون والقرآن ليس مما يتكلم به المجانين بل القرآن ذكر عام لا يدركه ولا يناطاه إلا من كان من أكمل الناس وأمتنهم رأياً قال شيخي وإمامي مولانا يعقوب الكرخي يحتمل أن يكون الضمير هو راجعاً إلى النبي ﷺ أي ما هو أي النبي إلا ذكراً أي مذكر للعالمين على طريق زيد عدل، عن حنظلة قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول؟ قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، قال أبو بكر إنا لنلقي مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت نافق حنظلة يا رسول الله قال رسول الله ﷺ وما ذاك؟ قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأن رأي عين فإذا أخرجنا من عندك عافسناء الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث[1] مرات رواه مسلم.

فائدة: وهذه علامة أولياء الله تعاى أن الله يذكر برؤيتهم وذكرهم وقد ورد في بعض

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: العين حق (٥٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى (٢١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٢٧٥٠).

الأخبار المرفوعة أن النبي ﷺ سئل من أولياء الله تعالى قال الذين إذا رأوا ذكر الله، ويروى عن النبي ﷺ قال الله تعالى: إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم»[١] والله تعالى أعلم.

فائدة: قال الحسن دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ الآية والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) رواه أحمد والطبراني وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: الحب لله والبغض لله (٣٠٣).

المحتويات

سورة الحجرات ٥
سورة ق ٢٨
سورة الذاريات ٤٩
سورة الطور ٦٥
سورة النجم ٧٦
سورة القمر ١١١
سورة الرحمن ١٢٢
سورة الواقعة ١٤٤
سورة الحديد ١٦٨
سورة المجادلة ١٩١
سورة الحشر ٢١٦
سورة الممتحنة ٢٤٨
سورة الصف ٢٦٢
سورة الجمعة ٢٦٨
سورة المنافقون ٣٠٠
سورة التغابن ٣١٠
سورة الطلاق ٣١٨
سورة التحريم ٣٣٨
سورة الملك ٣٥٤
سورة القلم ٣٦٨

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي